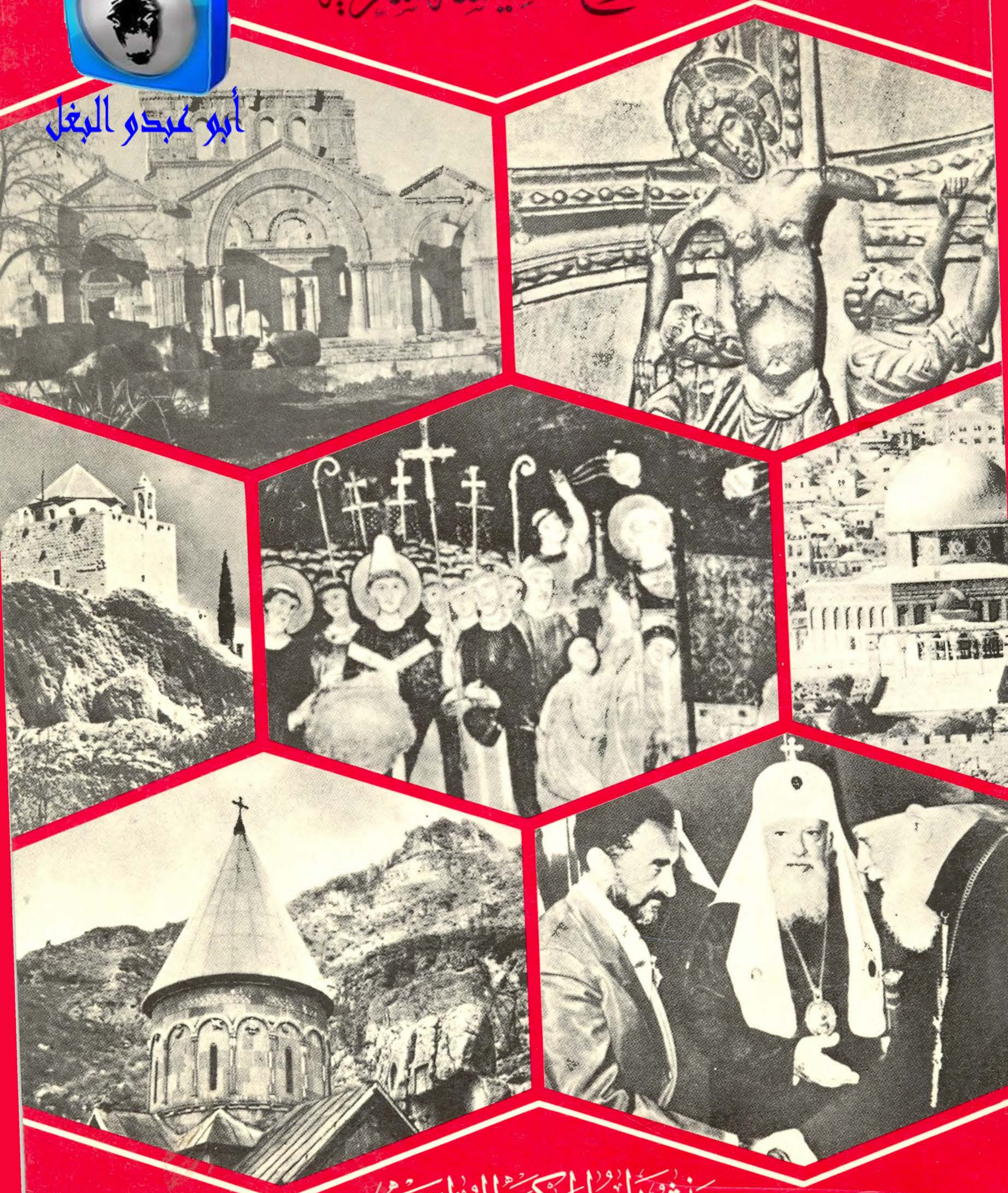
معهد القديس بولس للفلسفة واللاهوت - حريصا

المطران ميشيل يتيم
الأرشمندريت اغناطيوس ديك

تاريخ الكنيسة الشرقية



منشورات المكتبة البولسية

تاريخ الكنيسة الشرقية

وأهم أحداث الكنيسة الغربية

طبعة رابعة

١٩٩٩

•

منشورات المكتبة البولسية
شارع لبنان - بيروت - ص.ب ١١٤٥٩٠-١١ لبنان
هاتف ١ ٤٤٤٩٧٣ - ٤٤٨٨٠٦ - ٤٤٩٨٠١
شارع القديس بولس - جونيه - ص.ب ١٢٥٠ لبنان
هاتف: ٩١١٥٦١ - ٩٣٣٠٥٢

تاريخ الكنيسة الشرقية
وأهم أحداث الكنيسة الغربية

بقلم

المطران ميشيل يتيم

الأرشمندريت اغناطيوس ديك

منشورات المكتبة البولسية

مقدّمة الطبْعة الثّانية

أمّا بعد فهذه طبعة ثانية لكتاب «**تاريخ الكنيسة الشرقيّة**» * ، وقد أعدنا النظر في نصوصه وفصوله وأفكاره وتقاسيمه ، وذكرنا أهم أحداث الكنيسة في الغرب ، وأثبتنا بعض الفصول عن الكنائس الأرثوذكسيّة الشقيقة لكي يتمّ التعارف بين الإخوة وتتمهّد السبُل للوحدة المسيحيّة المنشودة ، كما وضعنا في مطلع كلّ فصل مقدّمة عامة تشمل الأحداث التاريخيّة بنظرة إجماليّة وتربط بعضها ببعض وتستخلص منها النتائج والأحكام الهامّة. فجاءت هذه الطبعة وكأنها كتاب جديد في الموضوع.

ولنا الأمل أن يطّلع شبابنا على تاريخ كنيستنا ومجدها وجهادها ليسيروا على غرار أسلافهم ، ويكتبوا هم أيضاً صفحات رائعة في سجلّ تاريخ الكنيسة الشرقيّة.

المؤلّفان

(*) ظهرت الطبعة الأولى في حلب عام ١٩٥٧ عن المطبعة المارونية بقلم الأب ميشيل يتيم بعنوان **تاريخ الكنيسة الشرقيّة** ، ٢٣٥ صفحة. وظهرت الطبعة الثانية في حلب أيضاً عام ١٩٦٣ عن مطبعة الإحسان بقلم الأبوين ميشيل يتيم وأغناطيوس ديك بعنوان **تاريخ الكنيسة الشرقيّة وأهمّ أحداث الكنيسة الغربيّة** ، ٣٢٦ صفحة.

مقدمة الطبعة الثالثة

أمّا بعد فهذه طبعة ثالثة لكتاب «**تاريخ الكنيسة الشرقيّة وأهمّ أحداث الكنيسة الغربية**». وقد أجرينا على الطبعة الثانية عدّة إصلاحات وإضافات آخذين بعين الاعتبار المنحى القوميّ والمسكونيّ، وتابعنا سير الأحداث إلى يومنا هذا (١٩٩١) إذ مضى على الطبعة الأخيرة زُهاء ربع قرن. فأوردنا سيرة رؤساء الكنائس الذين تعاقبوا في هذه الحقبة وأضفنا فصلَين جديدين: المجمع الفاتيكاني الثاني والحركة المسكونيّة المعاصرة. وجاء إخراج هذه الطبعة الثالثة بمزيد من الإتقان فإذا نحن أمام كتاب جديد.

والأمل وطيد أن يطّلع أبناء كنيستنا والكنائس المسيحيّة الأخرى على تاريخهم، فيسيروا معاً على طريق أسلافهم نحو السيّد المسيح الذي قال: «أنا الطريق والحقّ والحياة» ودعا الجميع إلى أن يكونوا «واحداً كما هو والآب واحد».

حلب، في ١٩٩١/١٠/١٨

عيد القديس لوقا أوّل مؤرّخ للكنيسة

المؤلّفان

تـمهيـد

السَّيّدُ المسيح مُؤسّسُ الكنيسَة

وُلد السيّد المسيح في بيتَ لحم إحدى مدن فلسطين، في عهد الإمبراطور الروماني أغسطوس قيصر. وابتدأ يبشّر الناس بتعليمه في عهد الإمبراطور طيباريوس، وقد بلغ من العمر حوالي الثلاثين عاماً. ولم يتخطَّ في حياته حدود الديار المقدَّسة إلاّ نادراً وفي فترات وجيزة، فقد مرَّ بجنوب لبنان (في تخوم صور وصيدا) وجنوب سورية (في بانياس).

وقد جاء السيّد المسيح إلى العالم ليُكمل الوحي القديم الناقص الذي أنزله الباري تعالى على الآباء الأقدمين ثمَّ على موسى والأنبياء القديسين، ويُبرم بين الله والبشر عهداً جديداً لا يقتصر على الشعب الإسرائيلي وحده، بل يشمل البشريَّة جمعاء دون حدود ولا تمييز.

ومن أَبرز ما ورد في تعليم السيّد المسيح عقيدة سرّ الثالوث الأقدس. وهي عقيدة تُطلعنا على حياة الله الداخلية، وتصف لنا محبَّته غير المحدودة للبشر أجمعين. فإنَّ هذه المحبة قد حملت الله الآب على أن يرسل إلى العالم ابنه الوحيد. فلبس جسداً مثلنا ليُكفّر عن خطايانا، ويردَّ إلينا الحريّة المفقودة، ويمنحنا النعمة الإلهيّة، ويجعلنا أبناء الله، ويفتح لنا باب السماء.

وقد أَوضح السيّد المسيح في تعليمه مصير النفس الخالدة بعد الموت. فمصيرها النعيم الأبدي في السماء مع الله والملائكة والقدّيسين، أو العذاب الدائم في جهنم مع إبليس وملائكته. وكانت هذه الحقيقة الهامَّة غامضة عند اليهود.

ثم إنَّه حرَّر الديانة الجديدة من القيود والتقاليد الخارجيّة، وجعلها ديانة روحية تهتمُّ قبل كلِّ شيء بإيمان القلب واستقامة الضمير والثقة التامَّة بالله تعالى.

أمّا من الناحية الأخلاقية، فقد أوْصى بطهارة القلب وعفاف الجسد، وردّ إلى الزواج ما نزعت عنه العصور القديمة من قدسيَّة واحترام، وفرض على الناس المحبة الأخوية المتبادَلة وجعلها وصيَّته الخاصة التي تشمل الإنسانيَّة كلَّها.

وكان هو في حياته مثالاً للطهارة والتواضع والوداعة والمحبة وبذل النفس في سبيل الجميع ولا سيَّما في سبيل الفقراء وصغار هذا الدهر. فشهد له الناس كلهم بأَنَّه «**أحسَنَ في كل ما صنع**».

ولم يؤسِّس السيِّد المسيح دولة أرضية ولا ديناً قومياً يتّصف بطابع محدود بل أَسَّس كنيسة جامعة وهي جمعيَّة دينيَّة خالصة، لها طابع شامل روحي وميَّزها عن الدولة الزمنيَّة تمييزاً واضحاً: «**أَوفوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله**». وقد فهم أَتباعه المسيحيّون هذه الفكرة الأساسية فدانوا بالولاء للأمَّة التي نشأوا فيها وللقوميَّة التي رضعوا من لبنها، وساهموا بكل إخلاص في بناء وطنهم من جميع نواحيه المدنية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية والإنسانية.

ومع هذا فالمسيحيون لم يتناسَوا في تاريخهم الرابطة الدينية التي تربط بعضهم ببعض، فهم يؤلِّفون أُسرةً روحيّة واحدة، وجمعيّة دينية منظَّمة هي الكنيسة. وللكنيسة سلطتها وأنظمتها وقوانينها وهدفها الأسمى وتاريخها الخاص. وهذا التاريخ يختلف عن تاريخ الشعوب المسيحية ويتميز عنه تمييزاً واضحاً.

وقد ثبَّت السيِّد المسيح أُسُس الكنيسة لمّا منحها دستورها في «**عظته على الجبل**» وانتخب رسله الاثني عشر ونصَّب عليهم بطرس الرسول رئيساً، ورسم الأسرار الكنسيّة السبعة ولا سيَّما سرَّي المعمودية والقربان الأقدس.

وشعر رؤساء اليهود بأَنَّ تعليم المسيح يَنقض امتيازاتِهم الدينية ويُزعزع أُسُس سلطتهم الروحيّة، فقبضوا عليه وأسلموه إلى الموت وصلبوه، وظنُّوا أَنَّهم بموته قد قضَوا عليه وعلى تعليمه قضاءً تامًّا. إلاّ أَنَّه قد قام من بين الأموات في اليوم الثالث، وتراءى لرسله وتلاميذه، وأرسلهم ليبشِّروا باسمه ووعدهم بمؤازرة الروح القدس. فانطلقوا في الأرض كلها ينادون باسم يسوع وينشرون الكنيسة في أَرجاء المعمورة.

مَا هُوَ تاريخ الكنيسة ؟

شبَّه السيّد المسيح كنيسته بخميرة خبأتها امرأة في ثلاثة أكيال دقيق ، فاختمر العجين كله . وشبَّهها أيضاً بحبَّة خردل صغيرة زُرعت في الأرض فنَمت وأصبحت شجرة عظيمة فأَوَت الطيور إلى أغصانها.

ابتدأت الكنيسة صغيرة ، فقد كانت العِلِّيَّة الصهيونيّة تَسَع جميع أعضائها ، ثم نَمَت وامتدَّت واتَّسعت وأَصبحت اليوم أكبر ديانة على وجه الأرض.

وتاريخ الكنيسة هو تاريخ تغلغلها في العالم ونموِّها بين الشعوب ، ويدوم هذا التاريخ إلى أَنْ ينتشر الإنجيل في المسكونة كلها ويسمع جميع الناس نداء الخلاص باسم يسوع. ولتاريخ الكنيسة وجهان ، وجه خارجي ووجه داخلي.

فالتاريخ الخارجي ناجم عن علاقات الكنيسة برؤساء هذا الدهر ، وعن ازدهارها أو تقهقرها في مختلف بِقاع الأرض ؛ والتاريخ الداخلي هو درجة تفهُّم أبنائها لإنجيل السيِّد المسيح وتطوُّر نظامها الباطن وَفْق متطلبات الشعوب والعصور المختلفة.

ويتبلور عادة تاريخ الكنيسة حول الشخصيَّات الدينيَّة الكبرى التي ظهرت في مختلف الأقطار والعصور ، ويتَّخذ طابعه الخاص بما لهم فيه من تأثير وفعاليَّة دينيَّة.

وقد مرَّت الكنيسة بمراحل تُناسب إجمالاً مراحل التاريخ العام. ويمكننا أَنْ نَقسِم تاريخها إلى خمسة عصور متميِّزة ، توافق الأحداث الهامَّة في الشرق :

العصر الأول – الكنيسة في عهد الإمبراطورية الوثنية (٣٠ – ٣١٣)

العصر الثاني – الكنيسة في عهد الإمبراطورية المسيحية (٣١٣ – ٦١٠)

العصر الثالث – الكنيسة منذ ظهور الإسلام حتى الحملات الصليبيّة (٦١٠ – ١١٠٠)

العصر الرابع – الكنيسة منذ الحملات الصليبيّة حتى الفتح العثماني (١١٠٠– ١٥١٦)

العصر الخامس– الكنيسة منذ الفتح العثماني والإصلاح حتى أيّامنا (١٥١٦–١٩٩١)

العصر الأول

الكنيسة في عهد الإمبراطورية الوثنية

(٣٠ - ٣١٣)



المسيح مؤسّس الكنيسة وسيّد العالم

الفصل الأوّل

انتِشَارُ المَسيحيّة في عَهْدِ الرّسُل

مقدّمة

تُعتبر القرونُ الثلاثة الأُولى أهمَّ عصرٍ تاريخي مرَّت به الكنيسة. فهو عهد التأسيس والفتح السِّلمي، وزمن الوحدة الشاملة والمحبة الكنسيَّة الخالصة، وأيَّام البطولة والشهادة الرائعة، وعصر الإيمان الحيِّ الذي نقل إلى الأجيال التابعة تعاليم السيِّد المسيح ورسله القديسين.

ولقد استندت الكنيسة في فتوحاتها الأولى إلى حَفنة من الرجال البسطاء الأُمِّيِّين؛ إلَّا أنَّ هؤلاءِ الرجال كانوا ممتلئين من قوَّة الروح القدس مقتنعين تَمَام الإقتناع بقيامة السيِّد المسيح الذي تراءى لهم وأَرسلهم للوعظ والتبشير وعَهِدَ إليهم أَن يكونوا له دعاة وشهوداً.

وقد ظلَّ المسيحيُّون في القرون الثلاثة الأولى منعزلين مضطهَدين لا تعترف الدولة بكيانهم حتى يسَّر الله لهم فانتصروا على مقاومة العالم الوثنيّ وأَخضعوا لسلطة المسيح صولجان الإمبراطورية الرومانية المتكبِّرة. وقد حدث هذا كلُّه بلا حرب ولا قتال ولا مقارعة بالسلاح.

وقد مهَّدت العناية الإلهيَّة طريق الدعوة إلى المسيحيَّة بانتشار الأُمَّة اليهودية في العالم الوثنيّ وقيام الإمبراطوريّة الرومانيَّة الواسعة الأطراف.

إنتشار الأمّة اليهوديّة

كانت القدس آنذاك قلب الأُمَّة اليهودية، فيها الهيكل العظيم، وفيها رئيس الكهنة وأعضاء المحفل الذين استأثروا بالسلطة الدِينيَّة المطلقة، وإليها يَحجُّ كل سنة مئات الألوف بمناسبة حلول الأعياد والمواسم الدينيّة والقوميّة.

ولم تكن القدس مقرَّ الحاكم الروماني في فلسطين. فقد أقام بمدينة تقع على شاطىء البحر وتُدعى قيصرية فلسطين.

وكانت فلسطين منذ السنة الرابعة عشرة للميلاد مقاطَعَة صغيرة في إقليم سورية، تابعة للإمبراطورية الرومانية. وقد ترك الرومانيُّون لبعض الأمراء من أُسرة الملك هيرودوس الأكبر سلطة شكليَّة على شمالي فلسطين (الجليل) وشرقيِّها (عبر الأردن). وانتشرت بين الأكثرية اليهودية جالية مهمَّة من اليونانيين والرومانيين والآراميين.

وتشتَّت اليهود خارج فلسطين في جميع أنحاء الدولة الرومانية الواسعة، وتغلغلوا في أراضي العراق وفارس حتى لم تكن مدينة كبيرة تَخلُو منهم. وتأثروا تأثُّراً لا شعوريًّا بالحضارة اليونانية مع ما كانوا عليه من انعزال وتمسُّك بالناموس الموسَويِّ والعادات اليهودية.

ونشأت المسيحية في بادىء أمرها في البيئة اليهودية داخل فلسطين وخارجها. فإنَّ إيمان اليهود بالإله الواحد وانتظارَهم الشديد لمجيء المسيح ورغبتَهم القوية في التخلُّص من عبوديَّة الرومانيين، كل ذلك قد أعدَّهم للاستماع إلى تعاليم الديانة الجديدة. وقد رأى فيها الكثيرون تحقيقاً لما وعد الله به شعبَه بواسطة الأنبياء فقبلوها واعتنقوها. إلَّا أنَّ الأغلبية الساحقة رفضت المسيحيَّة وأَبَت الدخول فيها، وما سبَبُ ذلك إلَّا لأَنَّ معظم اليهود كانوا ينتظرون مسيحاً سياسيًّا يَرُدُّ إلى إسرائيل سطوتها المفقودة وقوَّتها الحربية البائدة. فلما اطَّلعوا على أقوال الديانة الجديدة التي تدعو إلى المحبة والوداعة، ولا تأبه لامتيازات اسرائيل، ولا تُعنى بفرائض الناموس الخارجية، تصَدُّوا لها وقاوموها وحاربوها حرباً ضارية.

قيام الإمبراطورية الرومانيَّة الواسعة

عندما ابتدأت الدعوة المسيحية كانت رومة قد وحَّدت تحت سلطتها السياسية جميع الأقطار الواقعة حول البحر المتوسط، ونشرت في جميع مدنها اللغة اليونانية وأمَّنت للمسكونة كلِّها السلام والرفاهية. فالوحدة السياسية، ووحدة اللغة، وكثرة الطُرُق الآمنة، كل هذا قد ساعد على نشر الأفكار الجديدة بسرعة فائقة.

ومن ناحية أخرى كان الكثيرون في العالم القديم متعطِّشين إلى اعتناق دين أسمى من الأديان الوثنية القائمة التي كانت تُناصر فساد الأخلاق وتساند التفاوت العظيم بين مختلف الطبقات الاجتماعية. وهذا ما حَدا بالعديد منهم على اعتناق المسيحية الجديدة.

إلَّا أنَّ سكان العالم الروماني كانوا إجمالاً متمسِّكين بالآلهة الوثنية وكانوا يعتبرون الدين الوثنيَّ تراثاً قومياً لا يمكن التخلي عنه، فاعتبروا المسيحيين قوماً مارقين قد خانوا وطنهم وتخلَّوا عن قوميتهم وتراثهم التليْد. ولم يفهم الوثنيون ما في أسرار المسيحية من رموز روحية وامتعضوا من سيرة المسيحيين الطاهرة وعدُّوها تأنيباً لهم وتوبيخاً، فناصبوهم العداء واضطهدوهم اضطهاداً مُريعاً.

إلَّا أَنَّ غَيرة الرسل وشهامة المسيحيين وثبات الشهداء والصلابة في التبشير، كل هذا قد غلب هذه العداوة وقلَبَ العالم الروماني وطهَّره من أقذاره الروحية.

وممَّا يَجدر ذكره أنَّ القرن الأوَّل قد امتاز عن غيره من القرون بظهور تأثير الروح القدس ومفعوله العجيب في قلوب الكثيرين.

مَولِد الكنيسة في القدس

صعد السيِّد المسيح إلى السماء في اليوم الأربعين بعدَ قيامته من بين الأموات، واجتمع المؤمنون حول الرسل ومريم العذراء في العِليّة الصهيونية، وكانوا نحو مئة وعشرين شخصاً. ولمَّا حان موعد عيد العنصرة (وهو اليوم الخمسون بعد الفصح) حدث بغتةً في الصباح صوتٌ عظيم ونزل الروح القدس بهيئة ألسنة ناريَّة على المجتمعين، فامتلأُوا كلُّهم من قوَّته الإلهية. وتجمهر اليهود حول الرسل، وكان بينهم حجَّاج كثيرون جاؤوا إلى القدس بمناسبة العيد من معظم أَقطار العالم. فبشَّرهم بطرس وسائر الرسل

بالسيِّد المسيح وبقيامته. فآمن بالمسيحية في ذلك اليوم ثلاثة آلاف شخص، وطلبوا المعمودية المقدسة. ثم تكاثر عدد المؤمنين بسبب العجائب الباهرة التي كان الرسل يأْتُونها باسم الربِّ يسوع.

وكان المؤمنون الجدُد مواظبين على سماع تعليم الرسل وعلى إقامة «كسر الخبز» (أي القدَّاس الإلهي). وكانوا يعيشون وكأنَّ لهم قلباً واحداً ونفساً واحدة. فالأَموال مشتركة بين الجميع. والأغنياء منهم يَبيعون بملء رضاهم ممتلكاتهم ويُلقون أثمانها عند أَقدام الرسل لتُوزَّع على الفقراء والمحتاجين.

ولم ينعزلوا عن مواطنيهم اليهود، بل كانوا يتردّدون معهم إلى الهيكل ويقيمون فيه الصلوات الطقسية ثم ينصرفون إلى اجتماعاتهم الخاصة، فنالوا بهذه السيرة الفاضلة تقدير الشعب وإعجابه.

وكان معظم المؤمنين بالمسيح في بادىء الأَمر من اليهود، سكَّانِ فلسطين، الناطقين بالآرامية. ثمَّ لم يلبث أَن انضمَّ إليهم جماعة أخرى من اليهود المغتربين، الذين عادوا من المهجر واستقرُّوا في المدينة المقدَّسة وكانوا يتكلَّمون اليونانية. ونشأ خلافٌ بين اليهود المتنصِّرين الفلسطينيين واليونانيين، وسببُه عدم الإنصاف في توزيع الحسنات على أرامل المغتربين. فعرَض الرسل على الجمهور أَنْ يختاروا سبعة من المسيحيِّين الممتازين بالتَّقوى ليساعدوهم على تدبير شؤون الكنيسة من الناحية المادية. فاختاروا سبعة رجال أَتقياء في مقدَّمتهم استفانوس. فوضع الرسل أيديَهم عليهم ومنحوهم رتبة الشمامسة.

وأَقام الرسلُ بعد ذلك مجلساً للكهنة ليؤازروهم في مهمَّتهم الروحيَّة. وكانت الكلمة الأُولى في تدبير هذه الأمور كلِّها لبطرسَ الرسول. وكان ليعقوب أخي الربِّ نفوذٌ خاصٌّ بين اليهود المتنصِّرين، فقد بقي وحدَه في القدس بعد أن تشتَّت الرسل، وعكف على سياسة أمورها الروحيّة والماديّة، وكان أُسقفَها الأوَّل.

اليهود يَضطهدون المسيحيِّين

عرف رؤساء اليهود الذين قتلوا يسوع أنَّ رسله يُنادون بقيامته من بين الأموات ويعلنونه مسيحاً وربًّا. فاستاؤوا وقبضوا عليهم ومنعوهم من الكلام عنه. فأجاب الرسل:

«لا يمكننا إلَّا أنْ نتحدَّث عمَّا رأينا وسمعنا». فألقوهم في السجن، وضربوهم بالسياط، وهدَّدوهم بالقتل. فقبل الرسل هذه العذابات بفرح في سبيل المسيح وتابعوا رسالتهم التبشيرية بجرأة وشجاعة.

أمَّا استفانوس الشماس، فقد أخذ يُحَاجُّ اليهود اليونانيّين بقوَّة وحكمة. فاستشاطوا غضباً، وقادوه إلى المحفل، ثم رجموه بالحجارة وقتلوه. وكانت كلماته الأخيرة: «يا ربٍّ لا تُقم عليهم هذه الخطيئة». وحَلَّ بكنيسة القدس بعد ذلك اضطهاد شديد كان من جرَّائه أنْ تَشتَّت المؤمنون في أنحاء اليهوديَّة والسامرة.

وجدَّد الملك هيرودوس أغريبَّا اضطهاده للمسيحيين سنة ٤٢ رغبةً منه في إرضاء اليهود، فقتل يعقوب بنَ زبدى بالسيف، وألقى بطرس في السجن، وفي نيَّته أنْ يقتلَه بعد عيد الفصح. وظهر الملاك لبطرس في الليل وأنقذه من السجن، فابتعد عن المدينة.

وبقي اليهود يضايقون الرسل ويطاردونهم، ويُثيرون عليهم الفِتَن. فلم تقوَ هذه الاضطهادات على تبديد قوَّة الروح القدس، ولم تمنع الاشعاعَ الروحيَّ من الانتشار بل كانت للديانة الجديدة فرصة مُؤاتية لتخرج من محيطها الضيِّق في القدس وتَعمَّ أنحاء المعمورة.

إنتشارُ الكنيسةِ في فلسطين وسورية

آمنَ بالمسيح يوم العنصرة جماعة من اليهود المغتربين الذين جاؤوا لزيارة المدينة المقدَّسة بمناسبة الأعياد. فلمَّا عادوا إلى بلادهم تحدَّثوا عن مُعتقدهم الجديد ونبَّهوا الأفكار إلى البشارة العُظمى التي آمنوا بها.

غير أنَّ المسيحية لم تنتشر خارج القدس انتشاراً واسعاً منظَّماً إلَّا بعد الاضطهاد الذي حلَّ باستفانوسَ أوَّل الشهداء، أي بعد أربع أو خمس سنوات من قيامة السيِّد المسيح. فتشتَّت المؤمنون آنذاك – ما عدا الرسل – وأخذوا يبشِّرون بالإنجيل في مختلف الأرجاء.

ويَسرد لنا كتاب «**أعمال الرسل**» قصَّة فيلبُّس الشمَّاس في نواحي السامرة ونابلس، ويُطلِعنا على ما أتى به القديس بطرس من أعمال في مدنِ السامرة واللدّ ويافا، ويُخبرنا

كيف كان يَتفقَّد شؤون الكنائس الناشئة وينظِّمها. فلمَّا حلَّت السنة الأربعون كانت المسيحيَّة قد تسرَّبت إلى جميع أرجاء اليهوديّة والسامرة والجليل وسورية.

وامتدَّت بشارة الإنجيل إلى مدن فينيقية وقبرص، وبلغت مدينة أَنطاكية عاصمة سورية. وأَضحت هذه المدينة الواسعة مقرًّا هامًّا للديانة المسيحية، ففيها حمل المؤمنون لقب «المسيحيِّين»، وفيها ابتدأوا يبشِّرون الوثنيِّين أيضاً بالمسيح. وكما كانت القدس مركز التبشير بالنسبة إلى العالم اليهوديّ كذلك أَصبحت أنطاكية نقطة الانطلاق بالنسبة إلى العالم الوثنيّ.

انتشار الكنيسة في العالم الرومانيّ الوثنيّ

كان كورنيليوس القائد الرومانيُّ أَوَّل وثنيٍّ قَبِل المعمودية؛ وقد قبلها في مدينة يافا من يدَي القديس بطرس نفسه. ولما اطَّلع المسيحيُّون في القدس على هذا الحادث، وكانوا جميعهم يهوداً، اعتبروه حادثاً استثنائياً لا يُقتَدى به فيما بعد.

وكرِهوا دعوة الوثنيِّين إلى الإيمان بالإنجيل رأساً. فقد أَرادوا أن يُخضعوهم من قبلُ إلى فرائض شريعة موسى.

ويرجع الفضل إلى القديس بولس في دعوة الوثنيِّين إلى النصرانية دعوةً مباشرة.

وُلد القديس بولس (واسمه اليهوديّ شاول) في طرسوس، قرب مدينة أَدَنَه في تركية الحالية، وكان مولده في مطلع انتشار المسيحية. وقد تربَّى تربية يهودية حسب سُنَن الفرّيسيِّين وآرائهم المتعصِّبة. ولمَّا شَبَّ أَصبح من ألدِّ أعداء المسيحيين، وأخذ على عاتقه قضيَّة إبادة الدين الجديد، وتسلَّم من المحفل بالقدس صلاحياتٍ واسعة تُخوِّله حقَّ القبض على زعماء اليهود المتنصِّرين في دمشق، والعودة بهم إلى المدينة المقدَّسة وهم مُكبَّلون بالسلاسل. وتراءى له الربُّ يسوع في طريق دمشق، وحوَّل قلبه تحويلاً تاماً فأَضحى بولس واحداً من الرسل واتَّخذ مدينة أنطاكية مقرًّا له وقام برحلات تبشيريَّة ثلاث، الأُولى بصُحبَة بَرنابا، إلى قبرص ثم إلى مدن آسية الصغرى الجنوبية؛ والثانية إلى أورُوبَّة أي إلى مقاطعتَي مَكدونية واليونان حيث أَسَّس كنائس فيلبي وتسالونيكي وكورنتس، ووجَّه إليها بعد ذلك عدَّة رسائل؛ والثالثة إلى مدينة أَفَسُس وفيها أقام مدَّة

طويلة زار خلالها الكنائس التي أسَّسها ؛ وسافر أخيراً إلى رومة عاصمة الإمبراطورية. وكان في رومة جالية مسيحيَّة هامَّة كان القديس بطرس قد نظَّم أُمورها ، فازدادت هذه الجالية قوَّةً وتنظيماً بمواعظ بولس وإرشاداته.

وكان من عادة بولس أن يُوجِّه البشارة الإنجيليَّة إلى اليهود ، فيَنضَمَّ إليهم ويَعظ في مجامعهم ، وعندما يشعر بإعراضهم عنه يتركهم ويتوجَّه إلى الوثنيِّين ويحدِّثهم عن ملكوت الله والسيِّد المسيح ، وقد اكتسب للدِّين الجديد عدداً وافراً منهم. فدُعي «رسول الأمم» أي رسول الوثنيّين.



هَرَبَ بولسُ من هذا الباب لينجو من غضب ملك دمشق

انفصال المسيحيَّة عن اليهوديَّة

كان المسيحيُّون الأَوَّلون من أصل يهوديّ، وقد بقَوا مدَّة من الزمن محافظين على التقاليد والطقوس اليهوديَّة، إلَّا أَنَّ المقاومة العنيفة التي لاقَوها من قِبَل اليهود واعتناق الوثنيِّين للنصرانيّة قد ميَّزا المسيحيِّين عن اليهود. وقد تمَّ التميز على مراحل بطيئة.

أوَّلاً: كان للمسيحيِّين منذ مولد النصرانية اجتماعات خاصة بهم لا يُدعَى إليها اليهود، وكانت تُعقَد عَشيَّة الأَحد، وهدفها «كسر الخبز» وتناول القربان الأقدس: وهذه الاجتماعات قد ميَّزت المسيحيِّين عن اليهود منذ مَطلع النصرانيَّة فلم يشترك فيها إلَّا مَن آمن بالمسيح وقَبِل سرَّ المعمودية.

ثانياً: لمَّا دخل الوثنيُّون بكثرة في الدين الجديد، لم يَشأ القديس بولس أَنْ يُرغمهم على حفظ تقاليد الدين اليهوديّ وشرائعِه. فقام جماعة من المسيحيِّين وكانوا من أصل يهوديّ (والأرجح من أصل فرِّيسي) وأَخذوا يبثُّون الدعاية لليهودية، وهدفهم من وراء ذلك إرغام المسيحيِّين الجدُد على الخضوع لناموس موسى. فقاومهم القديس بولس مقاومةً عنيفة. ولمَّا لم يقتنعوا بأَقواله وبراهينه سافر إلى القدس مع رفيقه برنابا وعرَضَ على الرسل خطَّته وطريقته فعقَدوا مجمعاً في المدينة المقدسة بحثوا فيه وَضْعَ هؤلاء الوثنيِّين المتنصِّرين، فأَقرُّوا أَنَّهم أَحرار تجاه الشرائع اليهودية، ولم يفرضوا عليهم إلَّا بعضَ أمور يَشمئزُّ منها اليهود كأكل دم الحيوان والمخنوق... (عام ٤٩).

ثالثاً: وعلى أَثَر قرار الرسل لم يَعُد المسيحيُّون يتمسَّكون بالفرائض الموسَويَّة سَواءٌ أكانوا من أصل يهودي أم من أصل وثني وأَخذوا يُخالطون الوثنيِّين ويأكلون معهم. ولم يبقَ متمسكاً بالتقاليد الموسويّة إلَّا فئة ضئيلة من اليهود.

رابعاً: وعندما قامت ثورة اليهود على الرومانيِّين من سنة ٦٧ إلى ٧٠ – تلك الثورة التي أدَّت إلى خراب القدس ودمار الهيكل – لم يشترك فيها المسيحيُّون بل تركوا المدينة المقدسة ولجأوا إلى عِبْر الأُردنّ، إلى مدينةِ فحل الواقعة جنوب بحيرة طَبريَّا، فازدادت كراهية اليهود لأَتباع الدين الجديد وبُغضهم لهم.

هذا وقد امتنع معظم المسيحيين عن تأدية ضريبة الهيكل المفروضة على اليهود، فتميَّزوا عنهم حتى في نظر الوثنيِّين.

خامساً: ورجع بعض المسيحيِّين إلى القدس بعد خرابها، وسكنوا في أَنقاضها، وكانوا إجمالاً متمسِّكين بالتقاليد اليهوديَّة، وقد ذهب الغُلاة بينهم إلى أَنَّ حِفْظَ الشرائع ضروريٌّ لخلاص النفس. فحاربت الكنيسة رأيهم واعتبرته بِدعة. وسنَّت قوانين منعَت بها المسيحيِّين من ممارسة العادات اليهودية، وقد اندَثَرَ نفوذ هؤلاء المسيحيِّين المتعصِّبين لليهودية، في عهد الامبراطور أَدريانوس الذي حوَّل القدس من مدينة يهودية إلى مدينة وثنية سنة ١٣٥ بعد ثورة اليهود الثانية.

نهاية الرسل

تبدَّد الرسل في مختلف أنحاء المعمورة بعد الاضطهاد الذي شنَّه الملك أَغريبَّا على المسيحيِّين. إلَّا أَنَّ التاريخ لا يذكر إلَّا تفاصيل ضئيلة عن تبشيرهم وسِيَرَتهم وتاريخ وفاتهم. واليك بعض هذه التفاصيل:

١ - **القدّيس بطرس**: غادر القدس بعد أَنْ نجا بأُعجوبة من يدَي الملك أَغريبَّا ويبدو أَنَّه سافر إذ ذاك إلى أنطاكية، وهو أوَّلُ أَساقفة هذه المدينة، وقد التقى فيها القدِّيس بولس. وبعد مدَّة عاد إلى المدينة المقدَّسة حيث ترأس مجمع القُدس. وتقول التقاليد إنَّ القدّيس بطرس قد بشَّر بالدين المسيحيِّ في أواسط آسية الصغرى، وفي مدينة كورنتس وفي بلاد اليونان. وقد انتهى به المَطاف إلى رومة فاستقرَّ فيها نهائياً، ومات شهيداً بأمر الامبراطور نَيرون سنة ٦٤، وفي أَثناء الاضطهاد نفسه قُتل القديس بولس أيضاً، وتحتفل الكنيسة بعيدهما يوم ٢٩ حزيران.

٢ - **القدّيس يعقوب أَخو الربِّ**: بقي يعقوب في القدس يَسوس الكنيسة بعدما رحل عنها سائر الرسل. وفي سنة ٦٢ قَبض عليه حَنَّان رئيس الكهنة وأمره بأَنْ يُنكر المسيح فأبى فأَلقاه اليهود من فوق سور الهيكل، فهبط إلى قَعْر وادي قِدرون حيث رجموه فمات. وخَلَفه في رئاسة كنيسة القدس سمعان الرسول نسيبُه. ورأَى هذا الرسول خراب المدينة المقدسة ودمار الهيكل وعمَّر زماناً طويلاً ثم مات شهيداً.

٣ - وتقول التقاليد إنَّ **القدّيس أَندراوس** قد بشَّر بالإنجيل سكان شواطىء البحر الأَسود، ومات شهيداً في بتراس (اليونان)، وإنَّ القدّيس تَدَّاوسَ بشَّر أهل العراق والجزيرة ومدينة الرَّها، وإنَّ القديس توما بشّر في بلاد الهند.

٤ – **أمَّا القدّيس يوحنَّا الحبيب فقد عمَّرَ** طويلاً، وتُوفي آخرَ الرسل. وقد عرفه كتَبَةُ القرن الثاني. قضى شَطراً كبيراً من حياته في أَفَسُس، وقبض عليه الإمبراطور دوميتيانوس وعذَّبه في رومة ثم نَفاه إلى جزيرة بَطمس، فكتب فيها كتاب «**رؤيا يوحنا**». ثم أُطلِق سراحُه بعد موت دوميتيانوس، فعاد إلى أَفَسُس وتُوفي فيها في مطلع القرن الثاني.

تراث الرسل

كان للرسل مكانة خاصة في الكنيسة، وقد جاءتهم هذه المكانة عن كونهم قد شاهدوا السيِّد المسيح، وعاينوا موتَه وقيامتَه، ونالوا منه مباشرةً مهمَّة التبشير بالدين المسيحي، وتمتَّعوا بنعمة خاصة من الروح القدس يوم نزل عليهم في العِليَّة الصهيونية.

ولمَّا كانت الكنيسة مدعوةً إلى أَنْ تبقى بعدَهم حتى مُنتهى الدهر، فقد كتب لنا بعضهم ما سمعوه وشاهدوه عن السيِّد المسيح في كتب دينية دُعيت «الأناجيل».

كتب **متَّى** الرسول إنجيله باللغة الآرامية، وتُرجم بعد فترة وجيزة إلى اليونانية. ووضع **مرقس**، تلميذ بطرس، مُذكَّرات معلِّمه باللغة اليونانية، وقد اتَّصف إنجيله بالاقتضاب والحيويَّة، وبحث **لوقا** عن ماجريّات الأحداث منذ نشأتها بحثاً دقيقاً فكتب الإنجيل باليونانيَّة وكتب بعده «أعمال الرسل». وفي أَواخر القرن الأول كتب الرسول **يوحنَّا** الحبيب الإنجيل الرابع فأَظهر بوضوح أُلوهيَّة السيِّد المسيح.

ووجَّه الرسل إلى المسيحيِّين «**رسائل**» أودَعوها الكثير من أَقوالهم وتعاليمهم الدينية.

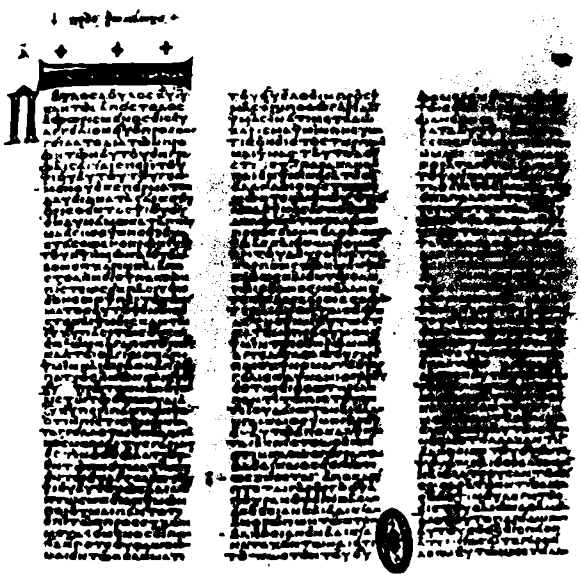
وللقديس بولس أربعَ عشرَة رسالة، وللقديس بطرس، رسالتان، وللقديس يعقوب رسالة واحدة، وللقديس يوحنَّا ثلاث رسائل، وللقديس يهوذا، المُلقَّب بتَدَّاوس، رسالة واحدة. كما كتب يوحنَّا كتاب الإيحاءات النبويَّة الخاصة بنهاية العالم ويُدعى كتاب «رؤيا يوحنا».

وتُسمَّى مجموعة هذه المؤلَّفات «**كتب العهد الجديد**».

وأَقام الرسل في المدن التي بشَّروها أساقفةً مهمَّتهم متابعة التبشير فيها وتدبير شؤون الكنائس ورعايتها، وهم يتمتَّعون بحقوق الرسل كلِّها.

فقد نصَّب بولسُ أسقفاً في أَفَسُس تلميذَه تيموثاوس ، كما أَقام طِيْطُس أُسقفاً في جزيرة كريْت. وقد سلَّم الرسل إلى الأَساقفة وديعة الإيمان وائتمنوهم عليها ، وأَوصَوهم بإقامة أساقفة وكهنة يَخلفونهم في الخدمة الدينيّة لتَدُومَ الكنيسة على الأرض حتى انقضاء الدهر ويَصلَ تعليمُ الإنجيل إلى شعوب العالم كلِّه.

وقد عمَّر بعض الأَساقفة الذين عرَفوا الرسل فبلغوا منتصف القرن الثاني ، وأَشهرهم القديس إكليمنضوس أسقفُ رومة ، والقديس إغناطيوس أُسقف أَنطاكية ، والقديس بوليكربس أُسقف إزمير.



الصفحة الأولى من رسالة بولس الى الرومانيين
في المخطوطة الڤاتيكانية من القرن الرابع

الفصل الثاني

الدّولة الرّومانية وَالكَنيسَة النَاشِئة في القرُون الثّلاثة الأولى

مقدّمة

كان المسيحيُّون في الدولة الرومانيَّة مُواطنين مُخلِصين يحترمون السلطة المدنيَّة ويَرفعون إلى الله الابتهالات والأَدعية لأَجل حكَّامهم الوثنيِّين، ويُقدِّمون للناس المَثَل الأَسمى في نُبل الأَخلاق وحُسن السِّيرة. ولم يكن لديهم أيَّة فكرة في مُناصبة الشعب الروماني العِداء أو في قلب نظام الحكم القائم.

أمَّا الدولة فقد تجاهلت الكنيسةَ فترةً من الزمن ثم عَادَتها عِداءً شديداً، وحاولت خنقها بشتَّى الوسائل فلم تترك نوعاً من العذاب أو أسلوباً من الإغراء إلَّا ولجأَت إليه لتُطفىء في قلوب المسيحيِّين جُذوة الإيمان.

لقد اندحَر العالَم الرومانيُّ، وزالت آثاره واندثَرت معالمُه وأُسُسه، وصمدت الكنيسة أمام المِحنة القاسية، وتابعت سيرها بثبات، فنَمَت وازدهرت، وهي لم تزل قائمةً حتى الآن. ويَعود فضل هذا الصمود الجبَّار إلى مؤازرة الله ومعونته، وإلى بطولة أجدادنا الشهداء الذين حافظوا على وديعة الإيمان رغم ما قاسَوه من عذابِ الاضطهاد فكانوا لنا مَثَلاً يُقتَدى به في أيَّام الشِّدَّة والمحنة.

ودام هذا الاضطهاد الأليم رسميًّا ثلاثة قرون ولم تُطبَّق أَساليبُه دوماً بالعنف نفسه، كما لم يشمل في الوقت عينه جميع أرجاء الإمبراطورية. فقد اتَّبع الأباطرة تجاه المسيحيِّين سياسة دينيَّة اختلفت باختلاف الأزمنة والأقطار والأحداث والمؤثِّرات الداخليَّة.

الدولةُ تضطهد الكنيسة

الاضطهاد في القرن الأَوَّل

لم يَكترث الأَباطرة الأَوَّلون للمسيحيِّين ولم يَعبأُوا بهم. ولا عَجَبَ فقد كانوا أقليَّة ضئيلة لم يميِّزها الوثنيُّون من جماعة اليهود القاطنين في رومة.

وأَوَّل من اضطهد المسيحيِّين هو نَيرون الملك سنة ٦٤، وأَصدر مرسوماً منعَ به اعتناق المسيحيَّة، وبقي هذا المرسوم ساريَ المفعول مدَّة طويلة وإن لم يُلاحق الأَباطرة تطبيقه دوماً.

ويُخبرنا المؤرِّخ الرومانيُّ «تاسيتوسُ» عن السبب الذي حَمَلَ نَيرون الطاغية على البطش بالمسيحيِّين. فقد نَشِبَ في رومة حريقٌ هائلٌ قضى على معظم منازل الأَحياء الفقيرة، فَنَسَبَ الناس هذا الحريق إلى نَيرون نفسِه، فخاف أَنْ يَنقلبَ عليه الشعب، فأَلقى المسؤوليَّة على المسيحيِّين، وعذَّبهم في المسارح والملاعب عذاباتٍ وحشيَّة مُريعة.

وقد اختار نَيرون ضحاياه بين المسيحيِّين للسببين التاليين:

أوّلاً – رغبته في إرضاء اليهود الذين كانوا يَكرهون المسيحيِّين كَراهيَةً عميقة، فقد اتَّصلوا بعشيقة نَيرون بُوبِّيه اليهوديَّة وحرَّضوها عليهم فكان لها اليد الطُولى في حَمْل العاهل على اضطهاد المسيحيِّين.

ثانياً – تخوُّف الوثنيِّين من المسيحيِّين، الذين كانت تُحيط بهم هالة من الأَسرار. وهذا ما حَدا بالوثنيِّين على افتراء الكذب عليهم، فنَسَبوا إليهم أَعمال الكُفر والفِسق والظُلم، وتغلغلت هذه الأَكاذيب في عقول الجماهير فاعتبرهم الناس أَعداءَ الآلهة والبشر، وعِلَّة الشرور كلِّها من زلازلَ وحروبٍ وفيضانات.

ولم ينحصر اضطهاد نَيرون في رومة وحدها بل امتدَّ إلى نواحٍ أُخرى من الإمبراطوريّة الرومانيّة فبلغ ولاية آسية. وقد ذهب ضحيةَ هذا الملك الطاغية القديسان الرسولان بطرس وبولس.

أَمَّا العاهلان الرومانيَّان فِسباسيانوس وتيطُس خليفتا نَيرون، فقد تركا المسيحيِّين

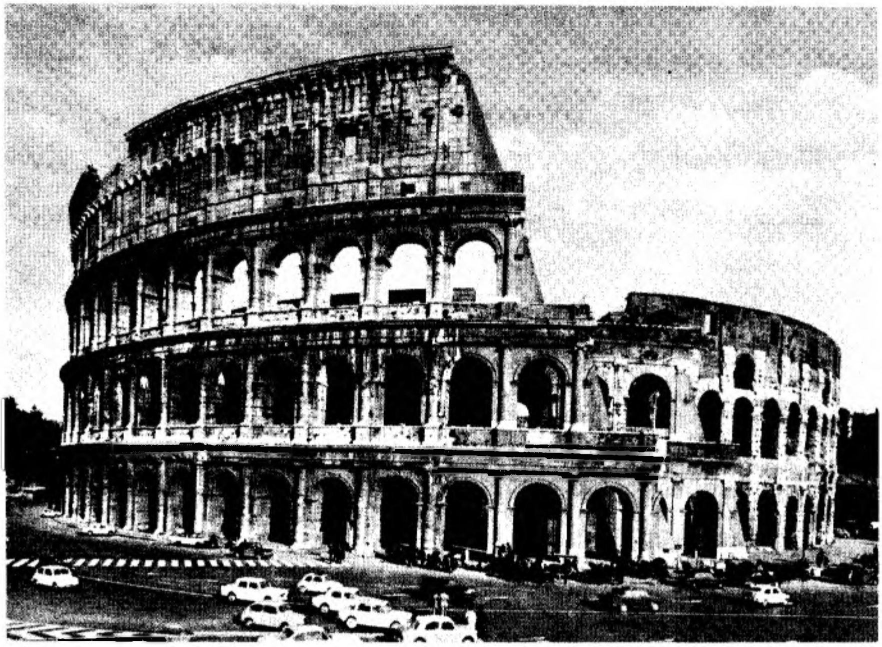
وشأنهم. فقضَوا مدَّة من الزمن عائشين في هدوء وسلام. واتَّبع الخُطَّة نفسَها الإمبراطور دوميتيانوس (٨٤–٩٦) في بادىء الأمر. ولمَّا اكتشف مؤامرة عليه، فتَكَ بالفلاسفة وضيَّق على اليهود وطالبهم بالجزية المترتِّبة عليهم منذ خراب القدس. وأراد أن يَفرض الجزية نفسها على المسيحيِّين فامتنعوا عن تأديتها مؤكِّدين أنَّهم ليسوا يهوداً. فجدَّد مرسومَ نَيرون وازداد غضبُه عليهم لمَّا عرف أنَّ بعض أقربائه الأدنَين قد اعتنقوا المسيحيَّة ففتك بهم فتكاً ذَريعاً.

الاضطهاد في القرن الثاني

كان أَباطرة القرن الثاني من أُسرة الأنطونيِّين، وكانوا يكرهون سفك الدماء فلم يلاحقوا المسيحيِّين، إلَّا أنَّهم كانوا متمسِّكين بالقوانين والأَنظمة السائدة، فاضطرّوا إلى تطبيق مرسوم نَيرون متى قامت على أَحد المسيحيِّين شِكاية قانونيَّة. ويَظهر موقفهم هذا من جواب الامبراطور تَراجان عن سؤال طرَحَه عليه بلِينُوسُ حاكمُ ولاية بيتينيَة. كتب الحاكم إلى الإمبراطور يستفسره عن الطريقة الواجبِ اتِّباعُها تجاه المسيحيِّين الذين كانوا يَزدادون يوماً بعد يوم، ولا ذنبَ عليهم سوى أَنَّهم مسيحيُّون. فأَجاب الإمبراطور: «لا تُلاحقِ المسيحيِّين. ولكن إذا سِيقوا إلى محكمتك فاستجوبهم، فإن اعترفوا بأَنَّهم مسيحيُّون وبقَوا مُصرِّين على ذَنبهم فعاقِبهم، وإنْ أَنكروا فاعفُ عنهم حتى وإنْ كانوا في الماضي مسيحيِّين.» فاعتناق المسيحيَّة هو ذنب خاصٌ من نوعه، لا يُعاقَب عليه من يُقرُّ به ويَتوب مستغفراً.

واتَّبع الأَباطرة الأَنطونيُّون هذا الموقف اجمالاً. واضطُرّ الولاةُ إلى الفتك بالمسيحيِّين أحياناً تحت ضغط هياج الجماهير. وقد مات كثيرون منهم شهداءَ الدين المسيحي.

أَمَّا الإمبراطور كوموديوس (١٨٠ – ١٩٢) فقد تَغاضى عن المسيحيِّين، وأَطلق سَراحَ المساجين منهم، فعاشوا في عهده عيشة هادئة مطمئنة، ويعود سببُ ذلك إلى انشغاله عن الحكم، وإلى تأثير زوجته مارسيَا المؤمنة بالمسيح.



الكوليزيوم: ملعب مدينة روما حيث مات ألوف الشهداء

الاضطهادُ في القرن الثالث

لم تَعد الكنيسةُ في القرن الثالث أقليَّة يُستخفُّ بها، ولم يَعُد بإمكان الأَباطرة أن يتَّخذوا إزاءها موقفَ تراجان المُوارب. فهم أَمام أَحد الأَمرين، إمَّا أَنْ يُهادنوها ويحترموها، أَوْ يَضطهدوها ويقضوا عليها.

وابتدأ الإمبراطور سبتيموس ساويروس (١٩٣ – ٢١١) بمهادنة المسيحيِّين، ثُمَّ سافر إلى الشرق فشعر من ناحية أُولى بنموِّ المسيحيَّة في أقطارها وبالخطر الذي يُهدِّد كيان الحكم الوثني، وتأكَّد من ناحية أُخرى أَنَّه يَستحيل القضاءُ على المسيحيَّة قضاءً تاماً، فأَراد أن يَحُدَّ على الأَقل من نشاطها وازديادها، فأَصدر مرسوماً ينهَى فيه الناس عن الدخول في النَّصرانيَّة، ويأمر بملاحقة المنتسبين الجدُد، و بمطاردة من سَعَوا في جَلبهم إلى الدين المسيحي. وحاول إغلاق معهد الاسكندريَّة الذي كان بإشعاعه الفكريِّ الواسع يجلب الكثيرين إلى المسيحيّة فلم يُفلح. وظهر في أيَّامه نوعٌ جديد من الاضطهاد

المُتَّصف بالعنف والمهاجمة فلم يَعُد مَنُوطاً بثورة الشعب وهياجه بل أَضحى مفروضاً على الولاة أنفسهم. فالقانون يأمرهم بالبحث عن المسيحيِّين وبالقضاء عليهم. وأَضحت الأوضاع الجديدة خطراً هائلاً يُهدّد كيان الكنيسة نفسها، فقد حشر الاضطهاد الألوف في السجون وأَبعد الكثيرين إلى بلاد المنفَى.

ونَشأت عادة قانونيَّة عند الرومانيِّين أَنَّ الاضطهاد لا يَنتقل من عهد ملك إلى عهد ملك آخر إلَّا بمرسوم خاص يُصدره الملك الجديد. فأَهمل بعض أَباطرة القرن الثالث إصدار مثلِ هذا المرسوم، فنَعِمت الكنيسة في أَيَّامهم بأَوقات هادئة.

وقد تمتَّعت الكنيسةُ بهذا الهدوءِ في أيَّام الأَباطرة السوريِّي الأَصل. فكان كاراكلاً (٢١١–٢١٧) وأليوجبل (٢١٧–٢٢٢) والإسكندر ساويروس (٢٢٢–٢٣٥) من أَنصار المسيحيِّين، وقد وضع هذا الإمبراطور الأَخير في مَعبده الخاص صورة السيِّد المسيح مع رسوم الآلهة وأَقرَّ للمسيحيِّين حقَّهم في عبادة الله كما يشاؤون وفي بناء دُورٍ للعبادة خاصة بهم.

وخَلَفه الإسكندر مكسيانوسُ (٢٣٥ – ٢٣٨) وكان تراقيَّ الأَصل فانتهج سياسةً تُخالِف في جميع نواحيها سياسة مَن سَبقوه. فاضطهد المسيحيِّين، ووجَّه اضطهاده بنوع خاص إلى رؤساء الكهنة. ولم يُطبَّق مرسومُه في جميع الأَقطار الرومانيَّة، لأَنَّ بعضها كان متمرِّداً عليه.

وارتَقى العرشَ بعد فترة من الاضطرابات فيلبُّسُ العربيُّ (٢٤٤ – ٢٤٩) وهو من حوران. وكان صديقَ الأساقفة والكتَّاب النصارى، وخصوصاً صديق أُوريجانوس الكاتب المسيحيِّ الشهير، وقد قيل عنه إنَّه كان مسيحيًّا في الخَفاء. ويقول أُوسابيوس المؤرِّخ الكنسي في مطلع القرن الرابع، إنَّ بابيلاسَ أُسقفَ أَنطاكية قد فرض عليه أعمال التوبة لأَنَّه توصَّل إلى سُدَّة الحكم بواسطة انقلاب دمويّ.

وعقبت هذه الفترةَ الهادئة فترةٌ هائلة قاست فيها الكنيسةُ أَعنفَ اضطهاد عرفته منذ نصف قرن، وجرَى هذا الاضطهادُ بأمر الإمبراطور داسيوس (٢٤٩ – ٢٥١) الرومانيِّ الأَصل. فقد قرَّر إعادة التقاليد الرومانيَّة المتداعية إلى سابق قوَّتها وسالف عزِّها، وعَزم على إبادة التأثيرات الشرقيّة الكثيرة التي ما فتئت تتسرَّبُ إلى قلب الديانة الرومانيّة فشنَّ

على المسيحيِّين حربَ إبادة شاملة. وأمر الولاة بأن يقوموا بين حين وآخر بأعمال تفتيشيّة للتأكد من ديانة جميع المواطنين، فيَدْعوا كل من يشكّون في معتقده الوثني إلى عبادة الصنم وتقدمة الذبيحة إليه بحضرة الحاكم نفسه، فمن قدّم العبادة للآلهة حظي «بشهادة» خطيَّة أعفته من الملاحقات الأخرى، ومَن أَبَى تقديمَ الذبيحة واعترف بأنَّ المسيح إله، أُلقِيَ في السجن وعُذِّب فيه حتى يُنكر معتقدَه أو يموت. وهلك الكثيرون في هذا الاضطهاد وتراخت عزيمةُ العديد من المسيحيِّين فهربوا إلى البراري أو حصلوا على شهادات مزوَّرة، ولم يَدُم هذا الاضطهاد طويلاً.



تقضي الديانة الوثنيّة بعبادة الامبراطور الرومانيّ

أمّا فالريانوس (٢٥٣ – ٢٦٠) فقد عامل المسيحيِّين في بادىء الأمر بلطف وتسامح وقرَّبهم إليه، ثمَّ انقلب عليهم سنة ٢٥٧ واضطهدهم، ويرجع سببُ هذا التغيير في المعاملة إلى تحريض الكُهَّان الوثنيِّين الذين أقنعوه بأنَّ المسيحيِّين هم سببُ النَّكبات التي حلَّت بالمملكة، كما انَّ وزيره مَكريانوس أغراه بالاستيلاء على ممتلكات الكنيسة لسدِّ عجز الدولة. وفَهم الملك أنَّه لن يتمكَّن من القضاء على جميع المسيحيِّين فاكتفى بملاحقة الأساقفة ومنعِ الاجتماعات العامَّة، واستولى على أرزاق الكنيسة والمقابر ودُور العبادة. ونفَى كثيرين من الأساقفة، وصادر أموال الأثرياء المسيحيِّين، وقتل منهم خَلقاً كثيراً وحطَّ غيرهم إلى درجة العبيد.

وأَعاد جَالينوسُ السلام إلى الكنيسة وردَّ إلى المسيحيِّين دُور العبادة والمدافن. وخَلَفه أورليانوسُ (٢٧٠ – ٢٧٥) ففكَّر في إنشاءِ ديانة جديدة توحيديَّة يكون الإلهُ الشمسُ معبودَها، وأعدَّ مرسوماً لاضطهاد المسيحيِّين فقُتل قبل أن ينشره ويُطبِّقه.

وظلَّت الكنيسة تعيش في طمأنينة وهدوء حتى مَطلع القرن الرابع فنَشِبت إذ ذاك آخر محاولة من قبل الوثنيّة للقضاء على المسيحيَّة، وكانت أعنف هجوم وأشدَّ اضطهاد ولكن المسيحيَّة انتصرت على الوثنيّة وقهرتها بفضل رايةِ صليبِها ودماءِ شهدائها الأبطال.

* * *

موقفُ المسيحيِّين من الاضطهاد وأنواعُ الاضطهاد

موقف المسيحيِّين من الاضطهاد: ضَعُف بعض المسيحيِّين أَمام الحُكَّام بتأثير الخوف من العذاب فقدَّموا للأصنام العبادات والذبائح. وما إِن خَمد لهيبُ الاضطهاد حتى شعروا بالمعصية الكبرى التي ارتكبوها فندِموا على ما فعلوا، وعادوا إلى أُمِّهم الكنيسة تائبين مُستغفِرين.

وأَمَّا الأغلبيَّة الساحقة من المسيحيِّين فقد تحمَّلوا الاضطهاد بجَلَد وقوَّة أَدهشت مراراً كثيرة الجلاَّدين أنفسَهم فكانت آلامُهم ومَنِيّتهم في سبيل المسيح شهادةً لصحَّة معتقدهم ومثالاً رائعاً في البطولة والشهامة لإخوانهم في الدين، سواءٌ أعاصَروهم أم جاؤوا بعدهم.

أنواع الاضطهادات: لم يتوخَّ الملوك والحكام باضطهاد المسيحيِّين التنكيل بهم بل طَمِعوا في ردِّهم إلى الديانة الوثنيّة. ولذا فقد لجأوا إلى حجز حرِّياتهم في السجون قبل تعذيبهم وقتلهم، وإليك كلمة عن عذابات الشهداء:

١ – **السجن**: لم تكن القوانين الرومانيّة تعتبر السجن عقاباً في حدّ ذاته. فهو اعتقال المُتَّهم ريثما تنتهي دعواه، وإذ ذاك يُطلَق سراحُه أو يُسلَّم إلى عذاب آخر.

أمَّا المسيحيُّون فكثيراً ما أَهملهم الحكَّام في السجون المُظلمة، موثَقين بالسلاسل، تَضغط على أرجلهم الأخشابُ المثقوبة، وتعاني أجسادهم الهزيلة مضضَ الجوع والعطش والبرد.

٢ – **المحاكمة**: كان الحاكم في القرن الأَوَّل يَقضي بالموت، فيُنَفَّذ الحُكْمُ فورَ انتهاء الدعوى. ولكنْ منذ مَطلع القرن الثاني جرت العادة أَنْ يُعذَّب الشهيدُ بعد المحاكمة ليُنكر دينه، وكانت العذابات ضارية، كَأَنْ يُجلَد الشهيدُ بعنف أو تُقطع بعضُ أعضائه أو يُمزَّق جسمُه أو يُحرَق بالنار...

٣ – **العقوبات**: كانت العقوبات على أنواع مختلفة: فهي النفي، والنفي أخفُّ

العقوبات هَوْلاً إذ لا يَجرُّ في حدّ ذاته ضياعَ الحقوق المدنيّة والممتلكات الخاصة، أو النفي وفقدان الحقوق، أو الأشغال الشاقّة، أو القتل وهو على أنواع، منها بَتْرُ العنق أو إلقاء الشهيد إلى الوحوش الضارية أو عذاب النار أو الصلب.

والشهيد هو مَن مات في سبيل مُعتَقَده المسيحي، وأمّا مَن عُذِّب في سبيل المسيح ولم يمت، لسبب من الأسباب، فيُسمَّى «المعترف بالإيمان».

وقد أَكرم المسيحيُّون شهداءهم إكراماً عظيماً منذ بدءِ النصرانيّة وذلك لأَنَّ الشهداء ضحَّوا بحياتهم في سبيل الدين، وبَرهنوا للسيِّد المسيح عن محبَّتهم الفائقة، وتشبَّهوا به أَعظمَ تشبيه فهو أيضاً قد مات على الصليب في سبيل الحق والدين.

مَواقعُ الاضطهادات وعددُ الشهداء: جَرت الاضطهاداتُ في جميع أَرجاء الإمبراطورية الرومانيّة. إلَّا أَنَّها قليلاً ما عَمَّت الشرقَ والغربَ في آنٍ واحد. فبينما الشرق يَئِنُّ تحت نِير العذاب كان الغرب يَنعم بالسلام والهدوء.

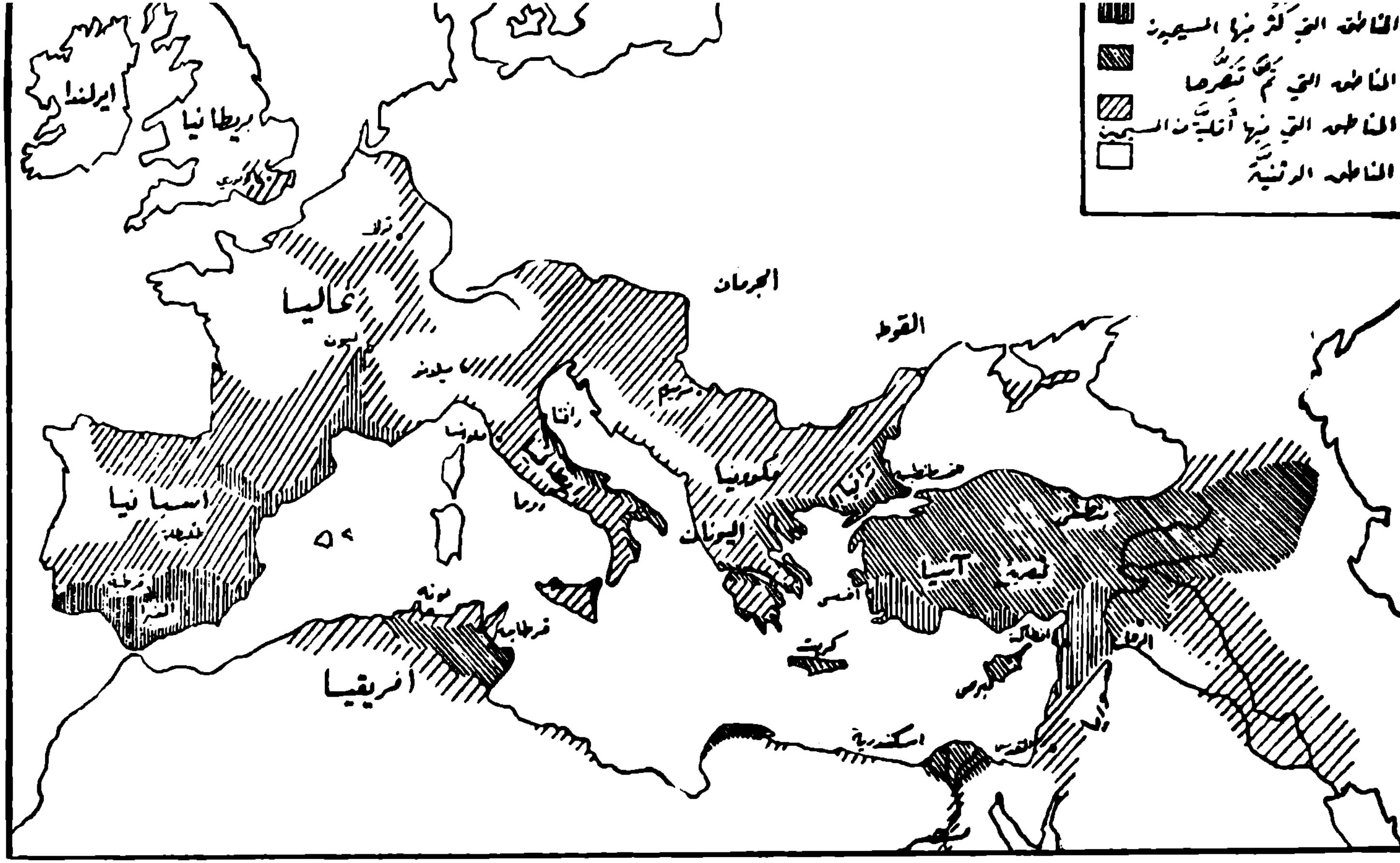
وقد رأَينا أَنَّ الاضطهادات لم تكن متواصلة. فقد كان المسيحيُّون يتمتَّعون بفترات راحة وطُمأنينة، كانت الكنيسة تنمو خلالها وتَتقوَّى وتزدهر.

وتضاربت الآراءُ كثيراً في عدد الشهداء، فمنهم مَن أَكَّد أَنَّهم بلغوا الملايين، ومنهم مَن ادَّعى أَنَّهم أقلِّيَّة ضئيلة. الواقع أَنَّ الوثائق التاريخيَّة لا تُمكِّننا من ضبط عددهم، ولكنها تُؤَكِّد لنا أَنَّهم كانوا جمعاً غفيراً.

وتَسرد علينا بعضُ هذه الوثائق وقائعَ استشهاد كبار الشهداء، وقد كُتبت فور موت الشهيد، وسجَّلها شهودٌ عُيُنٌ، وأُرسِلت نسخاتٌ منها إلى الكنائس المختلفة. وأهمُّ هذه الوثائق هي التي تَسرد وقائع استشهاد القديس بوليكربوس (سنة ١٥٥) وشهداء مدينة لِيُون (سنة ١٧٧) وشهداء سِيليوم في افريقية الشمالية (سنة ١٨٠) والقديستين الشهيرتين برباتوا وفاليستي.

ومِمَّا يَجدر ذكرُه في نهاية هذا الفصل أنَّ الاضطهادات رغم ضراوتها وتعدُّدها لم تتمكَّن من سحق النصرانية وإبادة معالمها وآثارها بل كانت خلاف ذلك بعثاً لها وتنشيطاً ومصدر انتشار وازدهار وحماسة. قال ترتوليانوس، وهو كاتبٌ مسيحيٌّ عاش في القرن الثالث، في أيَّام الاضطهاد: «**دَمُ الشهداء زرعٌ للنصارى**».

* * *



المناطق التي كثر فيها المسيحيون
المناطق التي تم تنصرها
المناطق التي فيها أقلية من المسيحيين
المناطق الوثنية
ايرلندا
بريطانيا
غاليا
اسبانيا
افريقيا
الجرمان
القوط
آسيا
اليونان
مقدونيا
روما
قرطاجة
كريت
الاسكندرية



طريق رومانيّ بين حلب وأنطاكية
سار عليه الرسل ليبشّروا بالمسيحية

الفصل الثالث

انتشار الكنيسة في القرنين الثاني والثالث

مقدّمة

لمّا تُوفِّي القديسُ يوحنّا الحبيب في أواخر القرن الأول، كانت الديانة المسيحيَّة قد تخطَّت حدودَ القدس وبلاد فلسطين واجتاحت الأقاليم الشرقية من الإمبراطورية الرومانية، وهي سورية وآسية الصغرى الغربية، وسواحل مكدونية وبلاد اليونان، وربما مدينتَي الرّها والإسكندرية، ثم دخلت رومة قلبَ المملكة الرومانية وعاصمتَها. ومِمّا يَجدر ملاحظتُه أنَّ المسيحيَّة قد انتشرت في أهمّ المدن الشرقية الداخلية والساحلية، ولم تَطَأْ في الغرب إلّا مدينة رومة وحدَها.

وفي غُضون القرن الثاني اتّسعت رقعة الديانة المسيحيّة، فبلغت مدينة قرطاجة (تونس الحاليّة) ومنطقة وادي نهر الرُّون في فرنسة، وتغلغلت في أواسط آسية الصغرى وبلاد العراق. وازداد عدد المؤمنين في المدن الكبرى. ومع هذا فإنَّ المسيحيِّين لم يَكونوا يُشكّلون إلّا أقليَّة ضئيلة مقابل أكثرية وثنيَّة ساحقة.

ونَمَت الكنيسةُ في القرن الثالث نُموًّا كبيراً، فتضاعف عددُ الأبرشيّات في الأقاليم الشرقيّة، وأصبح المسيحيُّون في بعض المناطق أغلبيَّةَ السكّان أو بلغوا عدداً لا يُستهان به. ودخلت في الكنيسة أقاليمُ أُخرَى من الدولة الرومانيّة، فانتشرت المسيحيَّة في مناطق الغرب الروماني حتى وصلت إلى جنوب إنكلترا ونهر الرِّين، وتوسَّعت في

الشرق توسُّعاً عظيماً جعلها تتخطَّى حدودَ المملكة الرومانيّة وتدخل أرمينية وبلاد فارس وتبلغ شواطىء البحر الأحمر.

ولم يكن هذا الانتشار على سَوِيَّةٍ واحدة في جميع أقطار الدولة. فقد كان للشرق الأسبقيَّة في اعتناق النصرانيّة، كما أنَّ عددَ المسيحيِّين فيه كان أوفرَ من عددهم في الغرب. هذا وقد دخلت المسيحيَّة مدنَ الشرق وقُراه وأريافه بينما بقيت في الغرب محصورةً في المدن الكبرى، وفي أودية الأنهر وطُرق القوافل، ولم تَطَأ الأرياف والقرى إلَّا بعد زمن طويل.

وها نحن نَستعرضُ أوضاعَ الديانة المسيحيّة ومُوجَزَ تاريخها في أهمِّ الأقطار الشرقيَّة والغربيَّة.

بلادُ الشام (سورية وفلسطين)

كانت بلادُ الشام مَهدَ المسيحيَّة، وقد حافظت مدَّةً طويلة على أهميَّة مَقامِها الديني. وقد امتازت عن غيرها بأنَّها كانت مركزَ المبشِّرين والمرسَلين ومَنبِتَ الكتبة والمؤلِّفين ومَنبَعَ الطقوسِ الكنسيّة، وقد اشتهرت في بلاد الشام ثلاثُ مدن امتازت عن غيرها وهي القدس، وأنطاكية والرُّها.

القدس: غادر المسيحيُّون المدينة المقدَّسة قُبَيلَ خرابها ولجأوا إلى مدينة فحل جنوب بحيرة طبريَّا، وبقَوا متمسِّكين فيها بالتقاليد اليهودية. ثم تشتَّتوا في أرجاء شرق الأُردُن وشمال فلسطين. ويُخبرنا القديس إبيفانيوس أنَّ بعضَهم قد هاجروا إلى حلب، وتَعرَّف إليهم هناك في القرن الرابع، ثم اندثروا تماماً وقد اختلطوا بسائر المسيحيِّين.

ولاحظ المؤرِّخون أنَّ تأثيرَ اليهود المتنصِّرين قد بَدَأَ يتضاءَل منذ مَطلع القرن الثاني. ولما جدَّد الإمبراطور أدريانوس (سنة ١٣٥) بناء مدينة القدس، كان سكَّانها المسيحيُّون من أَصل وثنيّ.

وانتشرت المسيحيَّة خصوصاً في المدن الساحليّة التي يتكلَّم أَهلُها اليونانيّة، مثل القيصرية وعكَّا وصور، كما انتشرت في مدينة دمشق، وكان على رأس الجماعة المسيحيَّة في دمشق حنانيا، وهو الذي عمَّد بولس بعد أن ظهر له الربُّ على طريق دمشق.

وكان أُسقفُ القدس في مَطلع القرن الثالث يُدعى الإسكندر، وكان مُحبًّا للعلم والعلماء، وقد أَسَّس في المدينة المقدَّسة مكتبةً واسعةً، ودافع عن العلاَّمة الشهير اوريجانوس، ومنَحَه درجةَ الكهنوت، وضمَّه إلى أفراد إكليروسه. ويتَّضِح من تاريخ اوريجانوس أَنْ قد كان في شرق الأُردن وحَوران أَبرشيَّات مُنظَّمة يَرئِسها مطران بُصرَى. وقد دخل معه اوريجانوس في أبحاث لاهوتيّة عميقة، ثم انتقل إلى القيصرية مقرِّ الوالي الروماني في فلسطين، وفتح فيها مدرسة لاهوتيّة، وأَسَّس مكتبة. واشتهر في القيصرية أُسقفُها أوسَابيوس، لِمَا ترك لنا من المعلومات التاريخيّة. وأَنجبت فلسطين في هذه الحِقبة كاتبًا مسيحيًّا رائدًا هو القدّيس يوستينوس النابُلسي.

أَنطاكية: كانت أَنطاكية المَقرَّ الثاني للنصرانيَّة بعد القدس. فقد اتَّخذها القديس بولس قاعدةَ أَسفاره التبشيريَّة، منها ينطلق وإليها يعود. وفيها لُقِّبَ المؤمنون «بالمسيحيِّين» ودُعوا بهذا الاسم حتى اليوم، وأَقبل إليها القدّيسُ بطرس وأَقام بها مدَّة طويلة ثم غادرها.

ولمّا انقضى عهدُ الرسل كَثُر فيها المسيحيُّون، وانتقلت منها المسيحيَّة إلى نواحي سورية الشمالية والوسطى وبلغت القرى والأرياف. وبلغ عددُ الأبرشيَّات في الشمال الغربي من سورية، في مَطلع القرن الرابع، عشرين أَبرشيَّة، بينها اثنتان في الريف.

واشتهر بين أساقفة أَنطاكية، في نهاية القرن الأول، القدّيس إغناطيوس، وقد مات شهيداً سنة ١٠٧ في رومة تحت أَنياب الأُسود. وترك لنا سبعَ رسائل كان قد بعث بها إلى كنائس آسية وكنيسة رومة. وتُوضِح لنا هذه الرسائلُ الرائعة قوَّة إيمانه وشَهامة نفسه أَمام الموت في سبيل السيِّد المسيح. وخلَفَهُ القدّيسُ تاوفيلوس (+ ١٨١) وترك لنا هو الآخر تآليفَ كثيرةً فيها يَدحَض البِدَع الناشئة ويُدافع عن المسيحيّين. وخلَفه القديسُ بابيلاس. وتقول التقاليدُ إنَّهُ قد فَرَضَ على الإمبراطور فيلبُّس العربي أعمالَ التوبة والتكفير لأنه سفك دماءً كثيرة عندما استولى على الحكم. ومات بابيلاس شهيداً أثناء اضطهاد الإمبراطور داسيوس سنة ٢٥٠.

واستولى الفرسُ سنة ٢٦٠ على أَنطاكية، وسَبَوا أَهلَها، وحملوا أُسقفها ديمتريانوس أَسيراً. فلمَّا أَصبح المنصب الأسقفي شاغراً، عَيَّن له أُذَينة الثاني ملك تدمر رجلاً من

صنيعته يُسمَّى بولس السَمُسَاطي. وعاش الأُسقف بولس في أَنطاكية عيشةَ بَذخٍ وترف، وتَفوَّه بتعاليمَ خاطئة عن الثالوث الأقدس وأُلوهيَّة السيِّد المسيح. فالتأم في أَنطاكية مجمعٌ من الأساقفة، بحثوا في سلوكه وتعليمه وعزلوه سنة ٢٦٨ عن منصبه فاعتصم بالدار الاسقفيّة متذرِّعاً بحماية زَنوبيا ملكة تدمر. ولمّا قامت الحرب بين أورليانوس وزَنوبيا، وانتصر أورليانوس، أَقبل إلى الإمبراطور وفدٌ من المسيحيِّين وأَطْلَعوه على وضع بولس السَمُسَاطي، فطرده من الدار الأسقفيَّة وأَمرَ بتسليمها إلى الأُسقف الذي يُوافق على انتخابه أُسقفُ رومة وإيطالية.

وفي أواخر القرن الثالث اشتهر في أَنطاكية كاهنٌ يُدعى لوقيانوس، وكان لهذا الكاهن مدرسة لاهوتيّة، وطريقة في تفسير الكتاب المقدّس اتَّسمت بسمات خاصة منها اللجوء إلى المعلومات التاريخيّة، والتحليل العقلي، والمقارنة بين أَقوال الكتب المقدَّسة والنظريّات الفلسفيّة.

مدينة الرَّها: كانت الرَّها عاصمةَ مملكة صغيرة مستقلَّة حُصِرت بين دولتَي رومة وفارس العظيمتين. وتقول الأخبار إنَّ الأَبْجَر الأَوَّل، ملكَ الرَّها، قد سمع بذكرِ السيِّد المسيح فأَرسل إليه يَستدعيه فاعتذر السيِّد المسيح ووعده بأَنْ يُرسل إليه أَحدَ تلاميذه، وهو تدَّاوس. وجاء تدَّاوس إلى الرَّها بعد قيامة يسوع وبشَّر أهلها بالدين المسيحي. ويقول المؤرِّخون أَنْ ليس لهذه الأخبار صحَّةٌ تاريخيّة. ولكنَّهم لاحظوا أَنَّ الرَّها والبلادَ المجاورة قد اكتظَّت بالمسيحيِّين منذ أَواسط القرن الثاني، وأَنَّ الملك الأَبْجَر التاسع (١٧٩ - ٢١٤) قد اعتنق المسيحيّة، فأصبحت الديانة الرسميّة في دولته، وانتشرت في المنطقة كلِّها وتخطَّت نهر دِجلة، وبلغت بلاد الأَشوريِّين. ولمَّا مات الأَبْجَر هذا انضمَّت مدينة الرَّها إلى المملكة الرومانيّة وأَصبح اسقفُها تابعاً لأُسقف أَنطاكية. وكانت اللُّغة السريانيَّة هي السائدةَ فيها، فأَضحت لغةَ الطقوس الكنسيَّة في مدينة الرَّها وفي العراق وبلاد فارس. فاشتهر بين كتَبَتِها في القرنين الثاني والثالث تاتيانوس الذي جمع الأَناجيل الأَربعة في إنجيل واحد ودافع عن المسيحيِّين، كما اشتهر الفيلسوف بَردِيْصَان صاحبُ الترانيم والأناشيد.

آسية الصغرى (تركية الحالية)

انتشرت المسيحيَّة في آسية الصغرى انتشاراً سريعاً واسعاً، وخصوصاً في المدن الواقعةِ في الغرب والجنوب الغربي. إنَّ هذه المقاطَعة قد بشَّرها القدِّيس بولس بالإنجيل وبعث إلى أهمِّ مُدُنِها برسائلَ دينيّة لا تزال محفوظةً لدينا، منها رسالة إلى أهل غَلاطية ورسالة إلى أهل أَفَسُس، ورسالة إلى أهل كولوسِّي، وقبل أن يُغادرها أَقام تلميذَهُ تيموتاوس أسقفاً عليها فتابع تيموتاوس عمل بولس بنشاط وجَدارة.

وقضى يوحنَّا الحبيب أَيَّامه الأخيرة في مدينة أَفَسُس. ولَمَّا كان منفيًّا في جزيرة بَطمس كتب كتابَ «رؤيا يوحنَّا» وفيه يُسلِّم على سبعةٍ من أَساقفة آسية الصغرى. وازداد عددُ المسيحيِّين في هاتِيكَ البِقاع، فبعث بلينوس حاكمُ ولاية بيتينة إلى الإمبراطور تراجان برسالة يُطلِعه فيها على ازدياد النَّصارى في ولايته ويسأله عن كَيفيَّة تصرُّفه نحوَهم.

وفي غُضون القرن الثاني تغلغلت المسيحيَّة إلى داخل آسية الصغرى فبلغت قَيصريّة عاصمة الكَبَّادوك. وفي القرن الثالث امتدَّت إلى النواحي الشماليّة الشرقيّة من الكَبَّادوك، وذلك بفضل القدِّيس غريغوريوس العجائبيِّ تلميذ اوريجانوس الكاتب الشهير.

واشتهر بعد عهد الرسل في آسية الصغرى القدّيسُ بوليكربوس أُسقفُ إزمير الشهيد (+ ١٥٥) وبوليكراتوس أُسقف أَفَسُس في أَواخر القرن الثاني. وقد اتَّصل بالبابا فيكتور لتحديد يوم عيد الفصح.

مَكْدونية وبلاد اليونان

دخلت المسيحيّةُ مَكْدونيةَ وبلادَ اليونان في عهد بولس الرسول، الذي بشَّر مدن فيلبِّي وتسالونيكي وآثينا وكورنتس. وأرسل إلى أَهل فيلبِّي بعد ذلك رسالةً كما بعث برسالتين إلى أَهل تسالونيكي ورسالتين إلى سكَّان كورنتس. ولم تنتشر المسيحيّة في بلاد اليونان خلال القرنين الثاني والثالث إلَّا انتشاراً ضئيلاً، لأَنَّ سكَّانها كانوا متمسِّكين بالتُّراث الوثنيِّ اليوناني القديم.

وجَرى في آخر القرن الأول بعضُ الاضطرابات بين المسيحيِّين في كورنتس، فتدخَّل

في الأمر لتهدئة الأحوال القدّيسُ إكليمنضوس أُسقفُ رومة، فبعث إليهم برسالة خاصة يُحرِّضهم فيها على التمسُّك بالمحبَّة والسلام.

واشتهرَ في القرن الثاني القديسُ ديونوسيوس أُسقف كورنتس، وقام في آثينا جماعةٌ من الكتبة المسيحيِّين يُدافعون بتآليفهم عن المُعتقَد المسيحيِّ.

مِصر

لا نَعرف معرفةً دقيقة متى دخلت النصرانيَّةُ القُطْر المصريَّ، إلَّا أنَّ هناك تقليداً قديماً يَنسُب إلى القدّيس مرقس تلميذ بطرس، أنه نَشرَ المسيحيّةَ في الاسكندريّة.

ويُلاحظ المؤرِّخون أنَّ نصارى الإسكندريّة كانوا يُؤلِّفون فيها منذ القرن الثاني جمعاً غفيراً، ويَستدلُّون من وفرة هذا العدد على أنَّ النصرانيّة قديمة العهد في المدينة المصرية الشهيرة.

ولم تتأخَّر المسيحيّة أنِ امتدّت إلى الريف والصعيد، ودخلت ليبية. وكثرت الأبرشيات في مصر فبلغت المئةَ في أواخر القرن الثالث.

وكانت الإسكندريَّة مركزاً هامًّا من مراكز الثقافة اليونانيّة، وانتشرت فيها أثناء القرن الثاني أقوال وسفسطات أَهل العِرفان (الغنُوسِّيون)، وهم جماعة من الفلاسفة وأَصحاب البِدَع ادَّعوا معرفة العِلم السامي، وأَرادوا أن يُفسِّروا تكوين العالم ووجود الخير والشرّ فيه، فجاءت أقوالهم خليطاً غريباً من الفلسفة الأفلاطونيّة الحديثة والتعاليم المسيحيّة، والخيالات الوهميّة. وأَخذوا يَبُثُّون هذه الأَقوال في عقول الناس. فقام جماعة من المسيحيِّين المثقَّفين وأَنشأوا مدرسة الاسكندرية اللاهوتيّة، وبُغيتهم من وراء ذلك إظهار الديانة المسيحيّة على حقيقتها الناصعة. وقد أَصابوا هدفهم، فقضوا على هذه البِدَع الهزيلة. أَمَّا مُؤسِّس المدرسة فهو بانتينوس الشهيد، وقد خلفه في رئاستها إكلمنضوس الاسكندري وأوريجانوس نابغة عصره. وأَصبحت منارةَ الكنيسة لِمَا كان لها من تأثير في عقول الناس بفضل طريقتها العلميّة وأفكارها الدينيّة السامية. واشتهر بين أساقفة الاسكندرية في القرن الثالث دِيونوسيوسُ الاسكندري تلميذ اوريجانوس، فتدخَّل في معظم الشؤون الكنسيّة في عصره وترك لنا تآليفَ كثيرة.

روما وإيطالية

كان في العاصمة الرومانيّة مجموعةٌ مسيحيَّةٌ هامَّة منذ السنوات الأولى لنشأة الكنيسة. وقد كتب إليها بولس الرسول رسالة طويلة قيِّمة. ثم أَقبَل إلى رومة ومكَثَ فيها بِضعَ سنوات. وجاءها بطرس أيضاً واتَّخذها مقراً له. واضطهد نَيرون المسيحيِّين فيها وشتَّتهم، وقتل بطرس وبولس فماتا شهيدَين. ولمَّا هدأت عاصفة الاضطهاد عاد إليها المسيحيُّون، وانتشر الدين المسيحيُّ بعد نَيرون بين العديد من أفراد الطبقة الارستقراطيّة من أقرباء الأُسرة المالكة.

وامتازت كنيسة رومة بنشاط الحياة الفكريّة وكانت آنذاك مَحَجَّ علماء النصرانيّة كما اتَّصفت بحسن إدارتها ودِقَّة تنظيم أُمورها، فأَضحت مثالاً تَحتذي به الكنائسُ الأخرى واعتبرتها مقرَّ الوحدة المسيحيَّة ورمزَ المحافظة على معتقدات الرسل.

وكانت اليونانيّة لغةَ الكنيسة في رومة، فأَدخل البابا فيكتور (١٨٩ – ١٩٩) اللاتينيّةَ بدلاً منها في الطقوس الكنسيّة، ومع هذا فقد بقيت اليونانيّة اللغةَ الدّارجة على ألسنة رجال الدين في أوائل القرن الثالث.

وأَقدمُ الأبرشيَّات الإيطاليّة تقع في شمال إيطالية، وأهمها أبرشيّتا ميلانو وراڤينَّا، وفي جنوبها أبرشية نابولي.

قرطاجة وأفريقية الشمالية

لا نعرف كيف دخلت المسيحيّة افريقية الشماليّة، إلَّا أَنَّ التاريخَ يُطلعنا في القرن الثاني على أَوضاع كنيسة قرطاجة فإذا هي كنيسةٌ مزدهرة منظَّمة تنبض بالحياة والإِيمان. ويُعرِّفنا بأَشهر الكتبة الكنسيِّين فيها وأَغزرِهم علماً وثقافة أَلاَ وهو ترتوليانوس الذي كتب باللاتينيّة عن المسيحيَّة والمسيحيِّين مقالاتٍ رائعةً في معناها ومَبناها.

وفي غضون القرن الثالث ازداد عدد الأبرشيّات، وبلغت في أواخر هذا القرن مئتَي أبرشيّة وأشهرها قرطاجة، وأَعظم أساقفتِها في هذه الحِقبة القدّيس كبريانوس (٢٤٩ – ٢٥٨) وكان من أبرز المحامين في عصره فاعتنق النصرانيّة وأصبحَ أسقفاً وقد امتاز بإدارته الحازمة وكتاباته اللاهوتيّة ومات شهيداً.

وكانت العلاقات وثيقةً بين قرطاجة ورومة. ولم تَرسُخ النصرانيَّة إلاَّ في قلوب مَن كان من السكَّان رومانيَّ الأَصل، وظلَّت سطحيّة في نفوس القبائل البربرية.

الأَقاليم الغربيَّة: فرنسة وإسبانية وبريطانية

دخلت المسيحيّة أراضي فرنسة، من شواطىء البحر المتوسط، وتوغَّلت فيها عن طريق وادي الرُّون، وكان المبشِّرون فيها شرقيِّين.

واشتهر في أواخر القرن الثاني القدّيسُ إيريناوس أسقفُ مدينة ليون (١٧٨ – ٢٠٢) وهو شرقيُّ الأصل. وقد ترك لنا تآليفَ قيِّمةً يَدحَضُ فيها بدَع أَهل العِرفان. وسعَى في نشر الديانة المسيحيّة في شمال فرنسة، فلم يُوفَّق كثيراً، إذ إنَّ عدد الأبرشيَّات الشماليّة لم يبلغ العشرة.

أمَّا في إسبانية فكان الأساقفة أوفر عدداً، وكانت أكثرُ الأبرشيَّات في جنوب البلاد. وقد عُقد في مدينة ألفيرا (غرناطة) مجمعٌ سنة ٣٠٥ ضمَّ إليه ٣٥ أسقفاً. وهذا دليل على أنَّ المسيحيَّة قد انتشرت في البلاد في مَطلع القرن الرابع انتشاراً واسعاً.

ووصلت البُشرى المسيحيّة إلى بريطانية في غضون القرن الثالث وانتشرت فيها. فقد ضمَّ مجمع أَرْلْ (في جنوب فرنسة) سنة ٣١٤ ثلاثةً من الأَساقفة البريطانيين، وهم أُسقف لندن وأُسقف يُورك وأُسقف لينكُولْن.

ويتَّضح لنا من هذا كلِّه أَنَّ المسيحيَّة قد امتدَّت إلى جميع أرجاءِ المملكة الرومانيّة واقتصر انتشارُها في الغرب على المدن وحدَها دون الريف.

هذا وقد انتشرت دونَ مؤازرةِ السلطة الزمنيَّة ودونَ أَنْ يكون للمبشِّرين بها والمنتسبين إليها أيُّ مَطمع مادي. بل كان المسيحيُّون بعكس ذلك مهدَّدين دوماً بالقتل والنفي والتعذيب وفقدان حقوقهم. ولما تنصَّر الملكُ قسطنطين رأى نفسَه تجاه كنيسة منظَّمة مزدهرة لا يُعوِزُها لتُتابع سيرها سَنَدُ الملوك وقوَّةُ الجيوش.

الفصل الرابع

النّظام الكنسيّ في القرون الثلاثة الأولى

مقدّمة

الكنيسة المحليَّة: كان المؤمنون يؤلِّفون مع رجال الإكليروس وأسقف الأبرشيَّة وحدةً روحيَّةً منظَّمةً قويَّةً مترابطة. فالأسقف هو المسؤول الأوَّل عن صِحَّة المعتقَد وتوطيده ونشره، فلا يُمنَح سرُّ المعموديّة ولا يُوزَّع القربان إلَّا بحضرته أو إذنه. فالمؤمنون والإكليروس الملتفّون حول الأسقف الواحد في الأبرشيَّة يؤلِّفون الكنيسة المحليّة.

الكنيسة الجامعة: ويَشعر المؤمنون في أسفارهم بأنَّهم أينما نزلوا فقد حلُّوا عند إخوانهم وأفراد أُسرتهم، لأنَّ الكنائس المحليّة المختلفة كانت تُؤلِّف بعضُها مع بعض وحدةً روحيَّةً منظورةً واسعةً تَشمل المسكونة كلَّها ألاَ وهي كنيسة السيِّد المسيح الجامعة. وقد نَجمت هذه الوحدة الشاملة عن روابط المعتقد والمحبَّة القائمة بين مختلف الكنائس المحليَّة وكنيسة رومة. فإنَّ هذه الكنيسة كانت ولا تزال مركزَ وحدةِ المعتقَد، ومَقرَّ رابطةِ الإخاء والمحبَّة التي تجمع بين الكنائس المتعدِّدة وتجعل منها كلِّها كنيسةً واحدة هي الكنيسة الجامعة.

الكنيسة الإقليميَّة: ونشأت بين الكنيسة المحليّة والكنيسة الجامعة وحداتٌ وسطى أَوسع من الكنيسة المحليّة وأضيق من الكنيسة الجامعة، ألاَ وهي الكنائس الإقليميّة. فقد ارتبطت الكنائس المحليّة المتجاورة على كَرِّ الزمن بكنيسة عاصمة الإقليم، وألَّفت

معها كنيسةً إقليميّة لها طابعها الخاص وأنظمتها السائدة. وقَبلت هذه الكنائس زَعامة كنيسة العاصمة الإقليميّة ودَعَتها «الكنيسة الأُمّ» إذْ منها انتشرت العقيدة وبَلَغت مدن الإقليم وقُراه، فهي كالأُمِّ التي تَلِد أولادها وتُغذِّيهم وتَعتني بهم وتُشرف على نموِّهم وازدهارهم.

وتضامنت فيمَا بعد أقاليمُ كثيرةٌ وارتبطت بالمدينة العُظمَى في القُطر الواحد وشكَّلت بعضُها مع بعض اتحاداً روحيًّا واداريًّا قوياً كان نواةَ النظام البطريركي.

مَولد النظامِ الكنسيِّ ونشأَتُه الأُولى

عندما تأسَّست الكنيسة في القدس التفَّ المؤمنون حول الرسل الاثني عشر. فأَخذ هؤلاء على عاتقِهم مهمَّة إدارة شؤون الكنيسة بزَعامة بطرس الرسول الأَوَّل. ولمَّا كثُر المؤمنون وتعدَّدت مطاليبهم اختار الرسُل سبعة شمامسة ليساعدوهم على تسيير الأُمور المادية، وكان استفانوس الشماس أَكثرَ السبعة غَيرةً وأَوضحَهم كلاماً.

وشنَّ اليهودُ على المسيحيِّين اضطهاداً عنيفاً، فتبدَّد الرسل وانتشروا في البلاد المجاورة، فأَسَّسوا كنائسَ جديدةً أَقاموا عليها في مختلف المدن مجالسَ كهنة عَهدوا إليهم في مهمَّة ممارسة السلطة الروحيّة والزمنيّة تحت إشرافهم الأَعلى، ولمَّا شعروا بأَنَّهم مالوا إلى الكِبَر والشيخوخة منَحوا بعضاً من تلاميذهم الكهنة مثل تيطس وتيموثاوس السلطة الأُسقفيَّة الكاملة، وذلك بغيةَ رسامة الأَساقفة والكهنة وإدارة شؤون الكنائس فأَصبحوا خلفاءَ الرسل.

وظلَّ الأساقفة حِقبةً من الزمن يتنقّلون من مدينة إلى أُخرى لا يستقرُّون في موضع ثابت. فانحصرت السلطة المحليّة في المدينة بين أَيدي الكهنة الذين كانوا يمارسونها بطريقة جماعيّة. ثم تبدَّلت الأَنظمة في نهاية القرن الأوّل، فأَصبح لِكلٍّ مدينة أسقفٌ واحدٌ مستقرٌّ فيها يَسوس أُمورَها الروحيّة والماديّة ويَخضع له لفيفُ الكهنة والشمامسة. وقد انتشر هذا النظامُ انتشاراً سريعاً وعَمَّ أَطراف الدولة الرومانيّة في مُنتصَف القرن الثاني.

الكنيسةُ المحليَّة

١ – **الأُسقف**: يَنوب الأُسقفُ في كنيسته مَناب الله تعالى، فهو الراعي الصالح والمسؤول الأوَّل عن مُعتقَد الأَبرشيَّة وإدارتها، له يَخضع الكهنة والشمامسة والشعب، وفي يده تجتمع السلطات الروحيَّة كلُّها، فلا تُوزَّع الأَسرارُ المقدَّسة إلاّ بحضرته أو إذنه. فهو رمزُ الوحدة ومركز التضامن والمحبَّة والإدارة المحليّة.

وكان الشعب المسيحيُّ يَنتخب أُسقفَ الأبرشيّة ويَتمّ انتخابُه بموافقة أَساقفة الإقليم ويمنحه أُسقف العاصمة أو المتروبوليت الدرجة الأسقفيّة. وكان الاكليروسُ في غالب الأَحيان يُقدِّم للشعب مرشَّحيه فينتخبون واحداً منهم.

٢ – **لَفيفُ الكهنة**: تَضاءلت أهميَّة مجلس الكهنة بعدما أُقيم في المدينة أُسقفٌ واحدٌ مستقرٌّ يَجمع في يَديه السلطات الروحيّة والإداريّة كلَّها، ويُقيم وحدَه ذبيحة القدَّاس في الكنيسة الواحدة ويَحضرها الشعبُ كلُّه. فأَضحت مَهامُّ الكهنة مؤازرةَ الأُسقف ومشاركته في إقامة الذبيحة الإلهيّة، وتعليم المؤمنين قواعدَ الدين، وإعداد الموعوظين لقبول سرِّ المعمودية، وتهيئة الخطأة التائبين لقبول سرِّ التوبة.

وكانوا يؤلِّفون في الكنيسة المحليّة مجلسَ شُورى يَرئِسه الأُسقف، ويُديرون به شؤون الأَبرشيّة الروحيّة والماديّة، ويَنوبون مَنابَه أَثناءَ غيابه في زمن الاضطهاد أو متى شَغَر المَنصبُ الأُسقفيُّ بموته.

ثم ازدادت أهميَّة الكهنة لَمَّا كَثُر عددُ المؤمنين وانتشرت الديانة في ضواحي المدن والأَرياف النائية. فاضطرَّ الأُسقفُ إلى تشييد كنائس جديدة أَقام عليها كهنة لخدمتها والاهتمام بأُمورها الروحيّة، وكان هذا النظامُ نواةً لنظام الخَورنيَّات القائم حالياً.

٣ – **الشمامسة**: كان للشمامسة الإنجيليِّين أهميَّة كُبرى في الكنيسة. فهم يؤازرون الأسقف في إقامة الطقوس الدينية، والوعظ والإرشاد، وخصوصاً في إدارة الشؤون المادية. وكثيراً ما كان رئيس الشمامسة هو المرشَّحَ الأَوَّل ليَخلف الأُسقف بعد وفاته.

وأُنشِئت في غضون القرن الثالث فئةٌ من الشمامسة من درجةٍ دُنيا، هم الشمامسة الرسائليُّون، والقرَّاء، ومهمَّتهم مساعدة الشمامسة الإنجيليِّين.

٤ – **إمتداد الكنيسة المحليّة**: كثيراً ما كانت الكنيسة المحليّة تتخطّى أسوار المدينة فتمتدُّ على مسافة واسعة حتى تبلغ القرى المجاورة. فكانت هناك طرقٌ متنوِّعة لتأمين خدمة المؤمنين الجُدُد، أهمُّها أنْ يُعيَّن لهم كاهنٌ مقيم يَسكن بينهم فيخدمهم خدمة متواصلة، أو يُناط أَمرُ خدمتهم الدينيّة بكاهن متنقِّل يزورهم في أوقات محدَّدة، ثم يُغادرهم لزيارة سكّان القُرى المجاورة (ويدعى هذا الكاهن «بَرديوط»* أي مُتنقِّلاً. وإذا كانت القرية كبيرة، عُيِّنَ لها «خُورُسْقُف»، وكان في البدءِ أُسقفاً مُرتبطاً بأُسقف المدينة؛ وفي غضون القرن الرابع لم يَعد الخورسقف يمنح الرسامة الأُسقفيّة، فكان كاهناً يحمل هذا اللقب. ومن كلمة خورسقف اختُزِل لَقبُ «خوري». ومتى عَظُم شأنُ القرية وأَصبحت مدينة أُقيم عليها أُسقف يتمتَّع بكامل حقوق الأُسقفيّة، فنشأت كنيسةٌ محليّة جديدة مرتبطة بالكنيسة الأُمّ.

الكنيسة الجامعة

كانت الكنائس المحليّة خلايا متفرِّقة قائمة بذاتها تَحيا حياتَها الخاصة، وتَشعر مع هذا برابطة دينيَّة قويَّة تَجمع بينها وتؤلِّف منها جسماً كبيراً واحداً هو كنيسة السيِّد المسيح الواحدة الجامعة الرسوليّة.

ومن مظاهر هذه الوحدة الشاملة أَنَّ المسيحيِّين كانوا يشعرون في أسفارهم وتنقُّلاتهم بأَنَّهم نزلوا عند إِخوة لهم، يُؤْمنون معهم إيماناً واحداً ويقرأون الكتب المقدّسة ذاتها، ويقبلون الأَسرار الكنسيّة نفسَها، هذا عدا ما كانت بينهم من علاقات متنوِّعة وعادات مشتركة ورسائل متبادَلة وذكريات حبيبة ودلائل مَودَّة...

ولم تكن آنذاك بين الكنائس المحليَّة وحدةٌ إِداريّة منظَّمة تربط بعضَها ببعض بنظام واحد شامل. ورغم هذا التنوُّع والحريَّة في الأَنظمة الكنسيّة فقد كان لكنيسة رومة مركز خاص وقيمة دينيّة تَليدة أَقرَّها الجميع دُون معارضة وهي أَنَّها مركز الوحدة الكنسيّة، وحصن الإيمان المسيحي، ومَوطن المحبة الشاملة في الكنيسة الجامعة.

وكما أنَّ الأَساقفة في أَبرشيَّاتهم يَخلفون الرسل، كذلك أُسقف رومة في أبرشيَّته يخلف

* Périodeute

القدّيس بطرس زعيم الرسل، وخلافتُه هذه تقوم في جوهرها على أنّها رابطة الوحدة بين الأساقفة في الكنيسة جمعاء. أجل، لم يُمارِس أساقفة رومة في الماضي مهمّتهم الدينية كما يمارسونها اليوم، ولا عجب، فالنظام الكنسي في العصور الخالية لم يكن قد تطوّر بعد، والمواصلات بين الشعوب لم تكن يسيرة إلاّ أنّهم مارسوها حسب ما كان يتطلّبه تطوّر النظام الكنسي في ذلك العصر. وها نحن نُورد بعض الشهادات عن أهمّيّة رومة ومركزها الأوّل بين الكنائس المختلفة. وقد اقتبسناها عن أقوال أعظم أساقفة القرون الأُولى:

١) شهادة القدّيس **إغناطيوس** أُسقف أَنطاكية (+ ١٠٧) في رسالته إلى كنيسة رومة: يَدعو كنيسةَ رومة

«الكنيسة المتصدِّرة في بُقعة الرومانيّين، الجديرة بالكرامة، الكليّة النقاء، والمترئّسة في أُمور المحبة... إنّكم لم تحسدوا أحدًا بل علّمتم الآخرين، وأُريد أنَّ ما تأمرون به الآخرين بمَثَلكم يبقى ثابتًا محفوظًا».

٢) شهادة القدّيس **إيريناوس** أُسقف لِيون (+ ٢٠٣) في كتابه «**ضِدَّ البِدَع**»: يُريد إيريناوس أَنْ يُبرهن على أَنَّ التعليم الحقيقيّ ليس ما يَتفوَّه به أَصحاب البِدَع بل ما تُعلِّمه الكنائس التي يَرجع تأسيسُها إلى الرسل، ففيها تَناقَل التعليمُ الحقيقي عن طريق السَّند، وهو سلسلة غير منقطعة من الأَساقفة. يقول:

«إنَّه يَطول بنا في هذا الكتاب أن نَسرِد تسلسل أُساقفة جميع الكنائس، فإنّنا نتحدَّث عن الكنيسة العُظمَى العريقة في القِدَم، المعروفة لدى الجميع، والتي أَسَّسها في رومة الرسولان المجيدان بطرس وبولس... إنّه بسبب السلطة العُظمَى التي أُسِّست هذه الكنيسة، يتوجَّب على سائر الكنائس، أيْ على جميع المؤمنين، أَنْ يتَّفقوا معها. فقد حُفظ فيها بوحدة المؤمنين جميعهم التقاليدُ الصادرة عن الرسل» (الكتاب ٣، عدد ٢).

٣) شهادة القدّيس **كبريانوس** في رسالته التاسعة والخمسين: إنه يَدعو رومة

«كرسيَّ بطرس، الكنيسةَ الأُولى، التي تَصدُر عنها وحدة الكهنوت، والتي لا يمكن أن يصل إليها الشرُّ».

وقد اتَّضح لنا من الأَحداث التاريخيّة أَنَّ الكنيسة الرومانيّة شعرت بمسؤوليتها تجاه جميع الكنائس، فتدخَّل أُسقفها في شؤون الأبرشيَّات الأُخرى، ولم يتبرَّم الأَساقفة من هذا التدخُّل ولم يعتبروه أَمراً لا يَعنيه. وها نحن نُورد أَمثلة على هذا التدخّل:

١) وَجَّه القدّيس **إكليمنضوس** أُسقف رومة رسالة إلى كنيسة كورنثس في آخر القرن الأَوَّل، يَهدُف بها إلى إِصلاحِ أُمورها. إِنَّ الرسالة تُبرهن على أَنَّ لكنيسة رومة سلطةً خاصّة تَسمح لها بالتدخُّلَ في شؤون الأبرشيّات الأُخرى لا بل تُلزمها به. فالقدِّيس إكليمنضوس لا يَعتذر إلاّ لتأخُّره عن هذا التدخُّل بسبب الاضطهاد القائم. ثُمَّ انَّه يأمر، ويُحذِّر بجُرأة. ولم تُحدِث هذه الرسالة استياءً، فالقدِّيس دِيونوسيوس أُسقف كورنثس في أَواسط القرن الثاني يُخبرنا بأَنَّها كانت لا تزال تُقرأ عندهم في الكنيسة.

٢) كان المسيحيُّون في بلاد آسية الصغرى يحتفلون بذكرى موتِ السيِّد المسيح يومَ عيد فصح اليهود، وفي أيّ يوم من أيَّام الأسبوع، بينما كان المسيحيُّون في رومة وسائر الأقطار يُقيمون عيدَ الفصح المسيحي يومَ الأَحد إكراماً لقيامته المجيدة. فأوعز البابا فيكتور (١٨٩ – ١٩٩) إلى أَساقفة مختلف الأَقطار بأَنْ يَعقدوا مجامعَ إقليميّة لإبداء رأيهم في الموضوع بغيةَ توحيد عيد الفصح. واجتمع أَساقفة بلاد آسية الصغرى برئاسة بوليكراتس أسقف أَفَسُس وأصرُّوا على التمسّك بعادتهم في الاحتفال مع اليهود وبلَّغوا رأيهم إلى البابا، فهدَّدهم فيكتور بالحِرم والفَصل عن الكنيسة، فلم يُذعنوا له. وتأزَّم الخلاف بين البابا وأَساقفة آسية الصغرى فتدخَّل في الأمر القدِّيس إيريناوس أُسقف ليون، وكتب إلى البابا يَرجوه أَنْ يُراعي الظروف الراهنة ويَلجأ إلى اللِّين والمُرونة، ولكنَّه لا يَأخذ عليه عدم سلطته وصلاحيَّته في تنظيم شؤون الكنيسة العامة.

٣) أَراد القدِّيس ديونوسيوس أُسقف الإِسكندرية حول سنة ٢٦٢ أَنْ يَدحضَ آراءَ أَصحاب البِدَع الذين أَنكروا وجودَ الثالوث الأَقدس، فنشر تعاليمَ ضدَّهم لم تكن هي الأُخرى صحيحةً مستقيمة. فكتب سكَّان الإِسكندريَّة إلى البابا، وكان اسمه أيضاً ديونوسيوس، وأَطلعوه على أَقوال الأُسقف. فجمع البابا أَساقفة إقليم رومة وعقد معهم مجمعاً بعث إليه في نهايته برسالة تَحتوي الإِيضاحات والتصحيحات اللازمة. وتسلَّم أُسقف الإِسكندريَّة رسالة البابا فصحَّح من أقواله ما كان مغلوطاً وفَسَّر منها ما كان غامضاً. ويتَّضح لنا من هذا الحادث ومن نصِّ الرسالة، أَنَّ أُسقف رومة كان يعتبر نفسَه الحَكَم في قضايا المعتقَد يَحقُّ له أَنْ يُصحِّح أَقوال أَساقفة أَعظم كنائس الشرق.

الكنيسة المحليَّة والمجامع الإقليميَّة

شَعَرت الكنائس المحليَّة المتجاورة بأَنَّ لها في ما بينَها علاقات خاصَّة ومشاكلَ متشابهة، فتقرَّبت بعضها من بعض وأَلَّفت وحدة إدارية ذات نطاق أَضيق من الوحدة الجامعة الكُبرى في حدود التقسيمات السياسية وتحت سلطة أُسقف عاصمة الإقليم (المتربول ومنها المتروبوليت).

وعَقَدَ أَساقفة الإقليم المجامع الإقليميَّة، وتكرَّر انعقاد هذه المجامع كلَّما دعت الحاجة إلى ذلك. وأَوَّلُ هذه المؤتمرات الإقليمية هي التي عُقدت حول ١٨٠ لدحض بِدَع المونتانيِّين في بلاد آسية الصغرى وتراقية. ثمَّ التأم غيرُها بإيعاز البابا فيكتور في أواخر القرن الثاني. وكَثُر انعقادُها في القرن الثالث حتى أصبحت تُعقَد في العام مرَّتين.

وكان من الطبيعي أَنْ تُعقَد في عاصمة الإقليم بسبب سهولة المواصلات، فأَصبح لأُسقف العاصمة من جرَّاء ذلك أهميَّة بالغة.

وتمتَّع أَساقفة المدن الكبرى بنفوذ عظيم تَعدَّى حدود الإقليم الصغير وشمل القُطر الواسع بأَجمعه. وهذا ما حدث لأَساقفة مدينتي الإسكندريَّة وأنطاكية. فأَصبح اتِّساع هذا النفوذ نواةً للبطريركيَّات الكُبرى.

وهكذا نرى أَنَّ الكنيسة في القرن الثالث وقبل وجود قسطنطين الملك، قد نظَّمت إطارها الإداري بشكل واضح ثابت، كما ابتدأت تُحدِّد بتشريعاتها وقوانينها أُسُسَ الحياة المسيحيّة.

* * *

الفصل الخامس

الحياة المسيحيّة في القرون الثلاثة الأولى

مقدّمة

لدينا وثائقُ كثيرةٌ تساعدنا على وصف سِيرة المسيحي في القرون الثلاثة الأُولى، وتُعبّر عن عواطفه الدينية تعبيراً دقيقاً.

كان الإيمان الحيُّ العميقُ يَستولي على قلبه وعقله فيجعله رجلَ عقيدة راسخة يُؤمن بالله الخالق الأوحد، وبالسيِّد المسيح، ويُؤهِّبه لأَنْ يكون في كلِّ لحظة مستعدًّا لسفك دمه في سبيل دينه ومُعتقده.

ويَشتمل إيمان المسيحيِّ على معتقدات دينيّة ثابتة استوحاها من الكتب المقدَّسة، وتسلَّمها من السلف المؤمن بواسطة الأساقفة معلِّمي الكنيسة.

وكان المؤمن ينتمي إلى جماعة المسيحيِّين انتماءً رسمياً عندما يَقبل سرَّ المعموديّة. وهو سرٌّ يُنقّي الإنسان من آثامه كلِّها ويفتح أَمامه باب السماء ويجعله ابناً لله والكنيسة.

وكان يشترك في تقدمة ذبيحة القدّاس ويتناول القربان الأقدس أثناء الحلقات الأُسبوعيّة التي تَجمع المؤمنين حول الأُسقف لسَماع كلام الله وتجديد ذكرى آلام السيِّد المسيح.

أمَّا هذه الأَسرار المقدَّسة فكانت تَفرض عليه أنْ يحيا حياةَ نقاء وزُهد ومحبَّة ويبتعد عن فساد المجتمع الروماني وأَطماعه الماديَّة وشراسة أَخلاقه.

وكان المسيحيُّ مع شعوره بالانتماء إلى مجتمع روحيّ خاص، لا يزال مواطناً مُخلِصاً للدولة الرومانية، يَحترم سلطتها، ويَبتهل إلى الله لأَجل حكّامها الوثنيّين، ويَقوم بخدماته الإجتماعيّة والوطنيّة، ويَختلط بالناس أَجمعين، ولا يَمتنع إلاّ عن العبادات الوثنيّة التي تَتنافى وعقيدتَه المسيحيّة.

لقد كان المسيحيّ يُشبه الناس أَجمعين في حياته وسيرته الخارجيّة، ويختلف عن الناس أَجمعين في طِباعه وأَخلاقه الحميدة، وهذا ما حدا بالجماهير الوثنيّة تارةً على احترامه والإعجاب به، وطوراً على الثورة عليه وطلبِ سفك دمه.

المُعتَقَدُ المسيحي

يُؤمِن المسيحي بالله الخالق الأَوحد وبمحبته السامية للبشر أَجمعين. وقد تجلَّت محبَّة الله عندما أَرسل ابنه الوحيد المولود قبل الدهور إلى العالم فادياً ومخلِّصاً ليَضمَّ إلى أُسرة الله الواحدة جميع الخلائق البشريّة.

وهذا الابن المتجسِّد هو سيِّدنا يسوع المسيح، الذي مات لأجل البشر، ودُفِن وقام في اليوم الثالث. وأَرسل الروحَ القدس إلى كنيسته المقدَّسة. وهو يعود إلى العالم ليَدين الناس كلاً حسب أعماله.

وهذه الكنيسة هي جمعيَّة مَنظورة يجب أَن يدخلَها الناس أَجمعين بواسطة المعمودية ليحصلوا على الخلاص الأَبدي.

وقد لُخِّص هذا المُعتقَد في نصوص قصيرة يَتلوها المؤمِن قبل أن يَقبل سرَّ المعمودية. وقد تَبلورت هذه النصوص في نهاية القرن الثاني وتَطوَّرت بعضَ التطوُّر في غضون القرن الثالث، ثمَّ ثَبتت نهائياً في مقالة مُحدَّدة سُمِّيت «**قانون الإيمان**» يَتلوها المؤمنون أَثناء رُتبة المعموديَّة والقدَّاس الإلهي. والكنيسة الغربيّة تلجأ إلى «قانون» أَبسط وأَقدم يُقال له «**قانون الرسل**».

ويُؤمِن المسيحي بكلام الله كما تَحفظه الكنيسة وتُفسِّره بسلطانها المعصوم عن الخطإ. وكلام الله هو الكلام الحيُّ الذي انتقل عن الرسل إلى خلفائهم الشرعيِّين، وهو أيضاً الكلام المُدوَّن في الكتاب المقدّس.

وقد حَدَّدت الكنيسة في مُنتَهى القرن الثاني الطريقة التي ينتقل بها كلام الله الحيُّ عن الرسل إلى خلفائهم الأساقفة الشرعيِّين. كما أَقرَّت لائحة الكتب المقدَّسة القديمة منها والجديدة. وقد عَثر المؤرِّخون على لائحة كتب كنيسة رومة ويرجع عهدُها إلى القرن الثاني، فهي تُشبه تمامَ الشبه لائحة الكتب الحالية المحفوظة لدينا. وقد حافظ المسيحيُّون بدقَّة على نصوص الكتاب المقدَّس. فالنصوص التي يَستشهد بها الكتبة الأوَّلون في تآليفهم ومقالاتهم هي نفسها التي نَقرأُها اليوم في الكتب المقدسة المتداوَلة لدينا. وهذا دليل على أنَّه لم يتسرَّب إليها أيُّ تحريف أو تزوير.

سرُّ المعموديَّة المقدَّسة

كانت طريقةُ مَنْح سرِّ المعمودية عادةً التغطيسَ في الماء مع ذِكر أَسماء الأَقانيم الإِلهيِّين الثلاثة، واستُعيض عن التغطيس أحياناً بسكب الماء في حالتَي قِلَّة الماء أو المرض.

ولم تكن المعموديّة تُمنح إلاَّ لِمَن اطَّلع على مبادىء الديانة المسيحيّة وآمن بها وأَقرَّها جَهْراً. أَمَّا مدَّة الاطِّلاع فكانت في بادىءِ الأَمر غيرَ منظَّمة. فَلمَّا تَكاثرت في القرن الثاني طلباتُ الدخول في الدين المسيحي وانتشرت البِدَع، اضطرّت الكنيسة إلى إعداد الناس مدَّةً أَطول لقبول سرِّ المعمودية، وإلى تعيين كهنة يُهيِّئون الوثنيِّين لهذا السرِّ العظيم. وقد دُعي المستعدُّون للمعمودية «بالموعوظين».

وفُرض على الموعوظين في القرن الثالث لقبول المعمودية أَنْ يشهد لهم المسيحيُّون شهادة تَنُمُّ عن صَلاح سِيرتهم، وأَنْ يَستمعوا إلى المواعظ مدَّة ثلاثِ سنوات يمارسون في أَثنائها الفضائل المسيحيّة ويتعلَّمون مبادىء الدين. وقد سُمح لهم في هذه المدة بحضور القسم الأول من القدَّاس، وهو قسم القراءات والوعظ. ثم يُدعَون بعده إلى الخروج من الكنيسة قبل أن يُؤتَى بالقرابين (ولا يزال ذكر خروج الموعوظين ثابتاً في القدَّاس البيزنطي).

وجَرت العادة أَنْ يَقبل الموعوظون سرَّ المعمودية بمناسبة الأَعياد والمواسم الكبرى، وخصوصاً يوم السبت العظيم. وكانوا يَقبلون سرَّ الميرون المقدّس حالاً بعد المعمودية ثم يحضرون الذبيحة الإلهيّة بكاملها ويتناولون القربان الأَقدس. وقد بقيت آثارُ هذه العادة في صلوات الطقس البيزنطي.

القدّاس الإلهي

كان حضورُ القدَّاس الإلهي يومَ الأَحد أقدسَ أَعمال المسيحي وأعظمَها. ولم يكن يُقام في المدينة إلاَّ قداسٌ واحد، يَحتفل به الأُسقف مع لفيف الكهنة والشمامسة. وكان هذا القداس الواحد وهو يجمع الاكليروس والشعب، رمزاً جليًّا لوحدة الأُسرة المسيحيّة. ولَمَّا ازداد المسيحيُّون تعدَّدت الكنائس في المدينة الواحدة فتوزَّع عليها الكهنة للقيام بالخدمة الروحية.

وكان القدّاس يُقسَم إلى قسمين كما هي الحال اليوم. فالقسم الأَوَّل، ويحضره الموعوظون، يتألَّف من صلوات وتضرُّعات عَلَنيَّة يتلوها الشمَّاس الإنجيلي باسم الشعب، ومن قراءات في كتب العهد القديم ورسائل القديس بولس، تتخلَّلها أناشيدُ دينيّة اقتبسها المرنِّمون من سِفر المزامير. ثم يَتلو الأُسقف على الحاضرين فصلاً من الإنجيل المقدَّس يختاره كما يشاء ويشرحه للشعب بطريقة الوعظ والإرشاد. وبعد هذا يُصلِّي على الموعوظين فيدعوهم الشمامسة إلى الخروج من الكنيسة فيخرجون.

ويبتدىء آنذاك القسم الثاني من القداس، فيُقدِّم المؤمنون قرابينهم من خبز وخمر، فيأخذ الشمَّاس ما يَكفيه، ويوزِّع الباقي على الفقراء. ويَتلو الأُسقف صلاة الشكر ويُجدِّد ذكرى العشاء السرِّي فيُعيد كلام السيِّد المسيح. ثم يَأكل المؤمنون جسد الربِّ ويشربون دمه فيمتلئون قوَّةً روحية.

ولم يكن للقدّاس نصوص طقسيّة معيَّنة، بل كان الأُسقف يبتهل إلى الله ابتهالات ارتجاليَّة تتصاعد من قلبه وتدور أفكارُها الرئيسية حول موضوع الذبيحة الإلهية.

وظهرت في مَطلع القرن الثالث نصوصُ صلواتٍ ثابتة. وأَقدمُ ما وَصل إلينا نصوص «التقليد الرسولي» لجامِعِه ايبوليتوس الروماني حول سنة ٢١٥ م.

وكذلك لم تكن طقوسٌ دينيّة معيَّنة. غير أَنَّ التقاليد والعادات أَخذت تتبلور تدريجياً وَفق ما كان يَصنعه إكليروس المدن الكبرى الثلاث رومة والإسكندرية وأَنطاكية.

وكان القدَّاس يُقام في دُور الوجهاء المسيحيِّين. وكانت منازل الأَثرياء الرومانيِّين رحبةً تتَّسع لجمهور كبير من الشعب وتَليق بالخدمة الدينيّة العامة.

وفي غضون القرن الثالث ظهرت إلى الوجود دُور العبادة، ودُعيت بدُور الكنائس، وقد عُثر على آثار كنيسة مزيَّنة بالتصاوير في «دورا اوروبس» قُرب الميادين – على الفُرات – يَرجع عهدُها إلى حوالي سنة ٢٥٠. ويذكر تاريخ مدينة الرَّها أنَّ بيت الكنيسة قد انهدم بتأثير فيضان عظيم جرَى عام ٢٠١، وأشارت مراسيم الاضطهاد إلى حجز الكنائس، ممَّا يدلُّ على وجودها بكثرة آنذاك. ولم تكن العبادة تُقام في المغاور والدياميس إلاَّ أثناء الاضطهاد، عندما كانت ملاحقة النصارى تَشتدُّ وتتَّسع. وجرت العادة أَنْ تُقام ذبيحةُ القداس فوق قبور الشهداء، فاعتاد المؤمنون إكرامهم وإحياء ذكرى استشهادهم المجيد.

عيدُ الفصح

عيد الفصح هو أَقدم الأَعياد المسيحية وأشهرُها، وهو يُحيي ذكرى موت السيِّد المسيح وقيامته من بين الأموات. وانتشرت منذ القرن الثاني بين المسيحيِّين عادتان مختلفتان، عادة الآسيويِّين – وهم سكان آسية الصغرى – وعادة سائر المسيحيِّين. وكان الآسيويُّون يُقيمون ذكرى موت السيِّد المسيح مع فصح اليهود (في ١٤ نيسان قمري) في أَيِّ يوم من أَيَّام الأُسبوع، ويَقضونه بالصوم والحزن؛ بينما كان سائرُ المسيحيِّين يحتفلون بعيد الفصح أَيْ بقيامة السيِّد المسيح يومَ الأَحد ويَقضونه بالفرح والابتهاج.

وحدث أَوَّل اصطدام بين هاتين العادتين لَمَّا كثر الآسيويُّون في رومة وأخذوا يُقيمون ذكرى العيد حسب طريقة بلادهم. فأَقبل القدِّيس بوليكَربوس أُسقف إزمير سنة ١٥٥ إلى رومة وبحث قضية الاختلاف مع البابا أَنيكتوس، واتَّفقا على أَنْ تَبقى العادتان قائمتَين. ثمَّ تأزَّم الوضع مرةً ثانية في أَيام البابا فكتور (١٨٩ – ١٩٩) وأَوشك أَنْ يحدث في الكنيسة شقاقاً لولا أَنْ تدخَّل القديس إيريناوس في ما بين الطرفين وأَصلحَ الأَوضاع المتوتِّرة. وبقِي الآسيويُّون على عادتهم مدَّة من الزمن، ربما حتى مَطلع القرن الثالث، ثمَّ لاحظوا أَنَّهم قد انفردوا في سلوكهم وانعزلوا عن سائر المسيحيِّين، فأَهملوا عادتهم واتَّبعوا طريقةَ الأَكثريَّة، فاحتفلوا هم أيضاً بعيد الفصح يومَ الأَحد.

وجرت العادة أَنْ يُعلِن أُسقف الإسكندرية على جميع الكنائس تاريخَ وقوع عيد

الفصح. وكان المسيحيُّون يَستعدُّون للعيد بصوم شديد يدوم بضعة أيَّام يختلف عددُها باختلاف الأقطار. وتَذكر إحدى الوثائق السوريّة العادةَ المتَّبَعة في بلادنا في أواخر القرن الثالث فتقول: «صوموا من الاثنين حتى الخميس فلا تأكلوا إلاّ خبزاً وملحاً، ولا تشربوا إلاّ ماءً، وذلك اعتباراً من الساعة التاسعة (أي من العصر). أما الجمعة والسبت فصوموا فيهما صياماً كاملاً ولا تذوقوا طعاماً». ولم تدخل عادة الصوم الأربعيني إلاّ بعد مُنتصف القرن الرابع.

الأخلاق المسيحيَّة

اتَّصفت حياة المسيحيِّين بنبل الأخلاق وسموِّ العواطف، ونقاوة السيرة وممارسة المحبَّة الأخوية المتبادَلة في عالم وثني غليظ عمَّ فيه اللَّهوُ وانتشر الفِسق وسيطرت القساوةُ وشراسةُ الأخلاق.

وبُنِيَت الأُسرةُ المسيحية على المساواة الطبيعية بين الرجل والمرأة وعلى الأمانة الزوجية المتبادَلة؛ وعامل المسيحيُّون الأثرياءُ عبيدَهم معاملة رقيقة، فأزال حنانُ الروح المسيحية في بادىءِ الأمر كلَّ ما في نظام الرَّقيق من حدَّة واستبداد، إلى أنْ ألغاه تدريجياً إلغاءً تاماً.

واستنكر المسيحيُّون حياةَ البَذْخ والتَّرَف والتبذير، فأخذوا يوزِّعون على الفقراء والمحتاجين ما فاض عنهم من أموال وخيرات مادية.

ولم تظهر إلى الوجود بعدُ في ذلك العهد الحياة النُّسكية والرُّهبانية. إلاَّ أنَّ بعضَ المسيحيِّين قد حافظوا على البتوليَّة مع بقائهم في العالم بين الناس وانصرفوا إلى العمل في سبيل الله وحدَه.

ولم تتميَّز حياةُ رجال الإكليروس كثيراً عن حياة الشعب المسيحي ولم تُفرَض عليهم البتوليَّة حتى في الغرب، إلاَّ في اسبانية وبعد مجمع الفيرا حوالي سنة ٣٠٠ وقد أخذ الكتبة يُميِّزون في تآليفهم الروحية المسيحيِّين العاديين من المسيحيِّين الكاملين. فالكاملون هم الذين يَسعَون بالزُّهد والتأمُّل والتَقشُّف إلى التقرُّب من الله وإدراك المعرفة الحقيقية.

وكانت الصلاة تُرافق المسيحيَّ طوال نهاره، لا سيَّما في الساعات الثالثة والسادسة

والتاسعة وعند غروب الشمس. وسادت بين المسيحيين منذ القرن الأول عادةُ الصيام يومَي الأَربعاء والجمعة، وقد اقتبسوها من اليهود الأَتقياء الذين كانوا يصومون يومَي الاثنين والخميس. فاكتفوا بأَنْ بَدَّلوا يومَين بيومين آخرَين.

ولَمَّا كَثُر المسيحيُّون دخل بينهم أَقوامٌ ضِعافُ الأَخلاق والطِّباع فتضاءَلت فضيلتهم في أَوقات السلام الطويلة فارتكبوا الخطايا الجسيمة وأَنكر غيرُهم الإيمان أثناء الاضطهاد وانفصلوا عن الكنيسة. فلمَّا استتبَّ السلامُ والهدوء نَدِموا على ما فعلوا، وأرادوا أن يرجعوا إلى المسيحيّة، فأَبَى البعضُ قبولَهم ثانية، فقامت بين المسيحيِّين مشكلة دُعيت «مشكلة التوبة».

التوبةُ ومُشكلةُ التَّوبة

لم تَضعِ الكنيسة في بادىءِ الأمر أُسلوباً معيَّناً لمنح سرِّ التوبة لأَنَّ المسيحيِّين كانوا يَقبلون المعمودية في سنٍّ متأخِّرة، فتُغفر لهم خطاياهم السابقة، وكانوا باعتناقهم المسيحية يَتوبون توبةً حقيقية تَردعُهم عن المعاصي كلِّها. وإذا ما زلُّوا في ما بعد اعترفوا بزلَّتهم للأُسقف، فَفرَض عليهم ما رآه مناسباً من أَعمال التوبة والتكفير وأَعادهم إلى نعمة الله وحَظِيرة الكنيسة.

ونشأ في القرن الثالث تيَّارٌ جديد اتَّصف بالعنف والقساوة، وحاول منع غفران ثلاثةِ أَنواع من الخطايا، إلاَّ في ساعة الموت؛ وهي الزِّنا والقتل والجحود.

وقاوم هذا التيَّار رجلان من كِبار رجال الإكليروس امتازا بالاعتدال والرحمة وهما البابا كالِستوس، والقديس كِبريانوس أُسقف قرطاجة. وأَصدر البابا كالِستوسُ قراراً ينظِّم فيه شروط التوبة، فميَّز الخطايا العلنيَّة من الخطايا الخفيَّة. ففرَض على مرتكبي الخطايا العلنية الجسام أَعمالاً تكفيريَّة علنيَّة، أهمُّها الامتناع عن قبول سرّ القربان الأَقدس إلى أَنْ ينالوا مغفرة ذنوبهم يومَ الخميس العظيم بِوضع يدَي الأُسقف على رؤوسهم أَمام جميع المؤمنين. وفرض على أَصحاب الخطايا السريَّة الاعترافَ بها للكاهن الذي يغفرها لهم باسم الله دُون أن يُوجِب عليهم تكفيراً ظاهراً.

وفي مُنتصف القرن الثالث (٢٥١) اشتدَّت وَطأَةُ الاضطهاد على المسيحيِّين من قِبَل

الإمبراطور داسيوسَ فضَعُف الكثيرون وجحَدوا إيمانهم، أو حصلوا على «شهادات» مزوَّرة تُثبت أنَّهم قد قدَّموا العبادة للأصنام. فَلمَّا زال الاضطهاد وهَدأَت الأُمور عادوا إلى حظيرة الكنيسة تائبين فقبلهم القدِّيس كِبريانوس والبابا كورنيليوس. فعارضها البعضُ معارضةً شديدة، وقد تَرأسها رجلان يُدعى الواحدُ نوقاتوس في قرطاجة، ويُسمَّى الآخر نوفاتيانوس في رومة، وأحدثا انشقاقاً في الكنيستين دام زمناً، وكان رأيَها ألاَّ يُقبَل الجاحدون من جديد في حضن الكنيسة. وانتصر أخيراً رأي البابا والقديس كبريانوس وسادت الرأفة وشمل الحنان جميعَ الخطأة.

إلاَّ أنَّ الكنيسةَ لم تتراخَ مع التائبين المشهورين، فلم يكن سرُّ التوبة يُمنَح لكِبار الخطأة المعروفين إلا مرَّة واحدة بعد المعمودية. وهذا ما أشار إليه كتابُ «الراعي» لمؤلِّفه هرماس الروماني (في أواسط القرن الثاني) وبقيت هذه العادة سائدةً في الشرق حتَّى القرن الرابع، وفي الغرب حتى القرن الخامس.

حياة المسيحيِّين في المجتمع

لم ينعزل المسيحيُّون عن مواطنيهم الوثنيِّين، ولم يأبَوا تأديةَ واجبات الحياة القوميَّة العامة. فساهموا في تحقيق مطاليبها المتنوِّعة، فتضرَّعوا لأَجل الملك، وخدموا في الجيش، وتولَّوا الوظائف في الدولة، ووفَدوا إلى الحمَّامات العامَّة، وأقبلوا إلى ساحات المدينة، واشتركوا مع جماهير الوثنيِّين في الأَعياد والاحتفالات القوميَّة، ولم يتميَّزوا عنهم الا بنُبل أَخلاقهم ورقَّة طباعهم وسموِّ عواطفهم. ولم يمتنعوا إلاَّ عن دخول المعابد الوثنيَّة للاشتراك في ألعاب السِّيْرك الوحشية.

وكانت أَخلاقهم الرفيعة تُكسِبُهم صداقةَ بعض الوثنيِّين، إلاَّ أنَّها كانت تُذكي في رَعاع الشعب الكراهية والغضب لِمَا كانوا يتخيَّلون من أَوهام عن اجتماعاتهم السريَّة. فكانت ثوراتُ التعصُّب والبَغْضاء تنفجر من وقت إلى آخر فتَحمل الحكَّام على مطاردة المسيحيِّين وتعذيبهم. فكانت حياةُ المسيحيين في ذلك العصر استعداداً متواصلاً للاستشهاد وانتظاراً لملكوت الله. فانهم – كما قال الانجيليُّ – «كانوا في العالم، ولكنهم لم يكونوا من العالم». إنَّهم لم يرضَوا أن يعيشوا في مجتمعهم حياة خُفيةٍ وعُزلة، بل أَرادوا ان يكونوا «الملحَ» الذي يحفظ من الفساد، و«النور» الذي يُشِعُّ في الظلام.

الفصل السادس

الحياة الفكريّة في القرون الثلاثة الأولى

مقدّمة

اكتفى الكتبةُ المسيحيُّون الأوَّلون باتِّباع طريقةِ الرسل، ففرَضوا على الناس التعليم الدينيَّ الموروث بأُسلوب بسيط أَودَعُوه مؤلَّفات وجيزة أو رسائلَ شخصية، فأُطلِق عليهم اسمُ «الآباء الرسوليِّين».

وفي مَطلع القرن الثاني اعتنق الديانةَ المسيحية فئةٌ من الوثنيِّين المثقَّفين، فسخَّروا أَقلامهم ومواهبَهم للدفاع عن الديانة المضطهَدة وتنويرِ الوثنيِّين أَصحابِ النوايا الحسنة. فسُمّوا «الآباء المدافعين».

ولم يكن دوماً لدخول هؤلاء الوثنيِّين في الكنيسة النتائجُ الطيِّبة. فقد كانت ديانةُ الكثيرين منهم سطحيَّة إذْ لم يَفهموا المُعتقَد المسيحيَّ فهماً صحيحاً، ولم يتخلَّوا عن عقليتهم الوثنيَّة وآرائهم الشخصيَّة. فنشأَت عن تآليفهم بِدَعٌ كثيرة أُرغمت بعضَ الآباءِ على الدفاع عن صحَّة العقيدة المسيحية وسلامتِها، والدخولِ معهم في مُجادَلات دينية طويلة فحملَوا لَقَب «الآباءِ الجدليِّين». واتَّخذ الأَساقفة بِحقِّ البِدَع الناشئة تدابيرَ إدارية مشدَّدة فنبذوا أَصحابَها وفصَلوهم عن الكنيسة، واحتاطوا في قَبول الوثنيين الجُدُد، ففرَضوا عليهم قَبْل المعمودية تهيئة جديَّة طويلة احتوت الدروسَ الدينية والامتحانات الكثيرة في المعرفة والأَخلاق الحسنة.

ورأى بعضُ المسيحيِّين المثقَّفين أنَّ أنجعَ وسيلة لمحاربة البِدَع هي سَبْكُ الحقائقِ المسيحية في قَوالبَ علمية تَستند إلى مُعطياتِ الفلسفة اليونانيَّة. فأكبُّوا على دراسة الدين المسيحي وأخرجوا للناس «اللاهوتَ العلمي» الذي ازدهر أثناءَ القرن الثالث بين علماء مدرستَي الإسكندرية وأنطاكية.

وها نحن نستعرض باختصار أهمَّ هؤلاء الكتبة.

الآباءُ الرسوليُّون وأَشهرُهم القدِّيسُ إغناطيوس

كان **إغناطيوس** تلميذاً للرسولَين بطرسَ وبولسَ، وقد نصَّباه أُسقفاً على أنطاكية، فبَقِي في مَنصبه زُهاءَ أربعين عاماً. وحُكِمَ عليه سنة ١٠٧ بأَن يُلقَى في رومة طعاماً للوحوش أثناء الاحتفالات التي أُقيمت على أَثَر انتصارِ الإمبراطور تراجان. وفي سفره من أنطاكية إلى رومة بحراسة عشرة جنود توقَّف في إزمير عند أُسقفِها القدِّيس بوليكَربوس، فأَقبلت وفودُ كنائس أَفَسُس وترَال ومانِيسيه وسَلَّموا عليه. ولَمَّا غادروه زوَّد كلَّ وفد منهم برسالة إلى كنيسته. وكتب وهو لا يزال في إزمير رسالةً الى أَهل رومة يعلِمهم فيها بقدومه اليهم ويَرجوهم أَلاَّ يَشفعوا فيه لدَى السلطة العليا. وتَنبض هذه الرسالة بمحبَّة السيِّد المسيح والشوق العميق الى الاستشهاد في سبيله. ثُمَّ غادر إزمير مع حرَّاسه وتوقَّف في ترِوَاس فكتب رسائلَ الى القدِّيس بوليكربوس والى كنيستَي ازمير وفيلادِلفية اللَّتين مرَّ بهما. وفي رومة أُلقِيَ في الملعب الروماني طعاماً للوحوش الضارية فافترسته. وتحتفل الكنيسةُ بعِيدِ استشهاده في ٢٠ كانون الاول.

ترك لنا القدِّيس إغناطيوس سبعَ رسائلَ تَشهد على إيمان المسيحيِّين الأَوَّلين بأُلوهيَّة السيِّد المسيح، وحقيقةِ التجسُّد الالهي، وسرِّ القربان الأَقدس، وتُطلعنا على تنظيم الكنيسة وسلطةِ الأَساقفة وأهميَّة كنيسة الرومانيِّين.

الآباءُ المدافعون وأَشهرُهم القدِّيس يُوستينوس

وصلت إلينا بعضُ الوثائقِ الدفاعية ولكنَّ أغلبَها قد ضاع أو تَلِف. وأَشهرُ المدافعين القدِّيس يوستينوس.

وُلد **يوستينوسُ** في نابلُس (فلسطين) من أُسرة وثنيَّة حوالي سنة ١٠٥. أخذ في مَطلع شبابهِ يبحث عن الحقيقة فلم يجدْها في الفلسفة الرِّواقية ولا في الفلسفة الفيثاغورية، وظَنَّ أَنه يَعثر عليها في الفلسفة الأَفلاطونية فخاب ظنُّه. وأخيراً اطَّلع على الديانة المسيحية، فاعتنقها سنة ١٣٠ وسافر الى أَفَسُس واتَّصل بفيلسوف يهوديٍّ يُدعَى تريفون فجادَله في أُمورِ دينه، ثمَّ انتقل الى رومة وأَقام بها وفَتح فيها مدرسةً على نَمَط الفلاسفة ولَقَّن الفلسفة المسيحيَّة. ومات شهيداً في رومة عام ١٦٥.

ضاع الكثير من كتابات القديس يوستينوس، ولم يصل إلينا إلاَّ «الحوارُ مع تريفون» وهو مُؤلَّف ضخم يُوضح فيه زوالَ شريعه العهد القديم ويُثبت أُلوهيَّة السيِّد المسيح؛ ودفاعان، الواحدُ رفعه الى الإِمبراطور أَنطونينوس، والثاني الى ماركوس اورْلِيوس، وفي كِلَيْهِمَا يُبرِّر المسيحيِّين من التُّهم الباطلة، ويتحدَّث عن نُبل أَخلاقهم وسموِّ تعليمهم. وقد ترك لنا في هذين الدفاعين وصفاً للقدَّاس في مطلع القرن الثاني، وأُولى محاولة لاستخدام الفلسفة والعقل في سبيل الدفاع عن العقيدة المسيحيَّة.

البِدَعُ

نشأت البِدَعُ لَمَّا ادَّعى البعضُ أَنَّهم مسيحيُّون ورفضوا أَنْ يخضعوا لتعاليم الرُّسل وخلفائهم الشرعيِّين؛ وقد ظهرت البِدَع في عهد الرسل أَنفسِهم، ولمَّحوا إليها في رسائلهم، وكانت آنذاك ضئيلةً هزيلة. وفي مُنتصف القرن الثاني تجرَّأَ أصحابُ البِدَع وأَخذوا يُجاهرون بآرائهم المُخطئة ويبثُّون لها الدعاية القوية وهدفُهم تأليفُ جمعية مستقلَّة عن الكنيسة الرسميَّة تُقاومها وتناضلها.

واليك كلمةً عن كلٍّ من البِدَع الناشئة:

١) المُونتانيَّة: كان مونتانُس كاهناً وثنياً فاعتنق المسيحيَّة، وادَّعى حول سنة ١٥٠ أَنَّه هو الروح القدس الذي تَحدَّث عنه يسوعُ ووعد به المسيحيِّين. فابتدع تعاليمَ غريبةً، منها أنَّه حَرَّم الزواجَ الثاني بعد موت أَحد الزوجين، وفرض على الناس أَصواماً طويلةً شاقة، وعَلَّم أَنَّ مَنْ هرب مِن الاضطهاد فقد جَحد دينَه، ومَن زنى أو قتل أو جحد

فلن تُغفر له خطيئتُه، ومَن تأنَّق في مَلْبَسه ارتكب إثماً جَسيماً، ومَن لازم الحرب والفنَّ والعلم فقد أَتَى أَعمال الشيطان.

وانتشرت هذه البِدعة انتشاراً واسعاً خصوصاً في آسية الصغرى، فرشقها أَساقفة المِنطقة بالحِرم. وانضمَّ إليها في مَطلع القرن الثالث كاتبٌ شهير من كَتَبَة الغرب، يُدعَى ترتوليانوس، وعاضدها بمؤلَّفاته الغزيرة أَكبرَ معاضدة، فاعتنقها أُناسٌ كثيرون ثم ما لبثَ أَنْ تلاشَت ولم يبقَ لها أَثَرٌ.

٢) **الناصريُّون والأَبيونيُّون**: وهم جماعة من اليهود المتنصِّرين الذين ظلُّوا متمسِّكين بالتقاليد والفرائض الموسَويَّة. كان الناصريُّون يقولون بأَنَّ الشريعة الموسَويَّة لا تُلزِم مَن كان بين المسيحيِّين من أصل وثني، عملاً بما رَسَمه مجمع الرسل في القدس. أَمَّا الأَبيونيُّون فكانوا أَشدَّ تصلباً، فأَكَّدوا أَنَّ ممارستَها فريضةٌ على الجميع. وضَعُفَ نفوذُ هاتين الفئتين واختفت آثارُهما في القرن الرابع.

٣) وقام **مَرقيون** وناقض الأَبيونيِّين فادَّعى أَنَّ العهدَ القديم سيِّىءٌ، وأَنَّ إلهَ اليهود هو غيرُ إلهِ النصارى. فإله النصارى إلهٌ سامٍ صالح وقد خلق العالَم الروحيَّ، بينما إلهُ اليهود هو أَحطُّ منه درجةً، يتَّصف بالقَسوة والعنف وقد كوَّن العالَم المادي وخلق الانسان وتسلَّط عليه. فلَمَّا رأى الإلهُ الصالح أَنَّ إلهَ اليهود يُسيطر على الإنسان بقسوة وعنف أَرسلَ الى العالم ابنَه الوحيد ليُنقذَه من سَطوته، وهذا الابن هو يسوع المسيح. وفُصِل مَرقيونُ عن الكنيسة في رومة سنة ١٤٤ فنظَّم كنيسةً مستقلَّة، ونشر مذهبَه بين الناس، فأضحَى خطراً كبيراً يُهدِّد الكنيسة الرسمية. وما لبثت تعاليمُه أَنِ اختلطت بالمانويَّة وتلاشت البدعتان معاً.

٤) **الغنُوس أو العِرفان**: نَشأَ في القرن الأَوَّل من جرَّاء اختلاط الشعوب والمذاهب والديانات تيَّارٌ فكريٌّ أُطلِق عليه اسمُ «الغنوس» (أي العِرفان). وادَّعَى أَصحابُه أَنَّهم وحدَهم يصلون إلى المعرفة السامية المختفية عن الجمهور وفيها تتجلَّى لهم أَسرار الله والكون. وفحواها أَنَّ الله إلهٌ سامٍ لا يمكن إدراكُه ولا الاتصال به، وأَنَّ عن هذا الإله تنبثق أرواح إلهية كثيرة متسلسلة يَخِفُّ عنها مِقدارُ الأُلوهيَّة كلَّما ابتعدت عن يَنبوعها الأَوَّل، فهي العقل والحكمة والعدل والسلام... وأَنَّ واحداً من هذه الارواح ضَلَّ، وفي

ضَلالِه خلق العالَم بما فيه من خير وشرّ، وقسَّم الناس أقساماً ثلاثة هم الروحيُّون والنفسيُّون والماديُّون، ويُحقِّق خلاصَ الروحيِّين والنفسيِّين روحٌ له قَدر عظيم من الأُلوهيَّة يُسمَّى يسوع المسيح. وهؤلاء يحتقرون المادة، وينكرون حقيقةَ وجود الجسد. ولذا فهم يَنبذون الزواج أو يسمحون لأجسادهم بكلّ شهوة فاسدة، اذ لا غَضَاضة في تدنيسها. وقد تشعَّبوا شُعَباً كثيرة حسب ما يُوحيه اليهم خيالُهم، وأَشهرُ الغنوسيِّين باسيليوس وڤالنتين، ومقرُّهما مِصر.

٥) **المانويَّة**: وُلد ماني في بلاد الفرس حوالى سنة ٢١٥ وحينما بلغ الخامسة والعشرين من عمره انقطع الى تبشير الناس بدين جديد، فنفاه ملكُ الفرس من بلاده مدَّة ثلاثين سنة عاد بعدها إلى التبشير ثانية فحكم عليه الملك بَهرام الثاني بالموت صلباً سنة ٢٧٧.

ويَتلخَّص تعليمُه في ما يلي: إنَّ في الكون مملكتَين متعاديتَين، مملكةَ الخير والله ربُّها، ومملكة الشرِّ والشيطان زعيمها، وهاتان المملكتان لا تكُفّان عن المعارك العنيفة التي تَجري في عالمنا هذا بين النفوس والأَجساد. فالنفوس تأتي من الله، وهو إلهُ الديانة المسيحية، والأَجساد تأتي من الشيطان، وهو مصدر الوثنية واليهودية.

والانسان لا يتطهَّر من ذنوبه إلاَّ اذا اعتنق تعليمَ ماني، وهو في الواقع تعليم نوح وابراهيم وزَرواسترا وبوذا ويسوع. وقد لاقت هذه البدعة نجاحاً عظيماً وعمَّرت طويلاً ثم اضمحلّت.

٦) **المُغالطات الثالوثيَّة**: لم تنتشر هذه المغالطات في هذه الحِقبة بين أَفراد الشعب بل ظلَّت محصورةً بين العلماء والمعلِّمين. وقد نشأت هذه المُغالطات عن محاولة فهمِ ما يقوله الإنجيل عن الآب والابن والروح القدس.

– لقد ادَّعَى البعضُ أَنَّ المسيح إنسانٌ فقط، وقد تبنَّاه الله. وجاء بهذه البدعة ثَاودوطس البيزنطي في أَواخر القرن الثاني وحاول نشرَها في رومة فرشَقَه البابا ڤيكتور بالحِرم. ويَظهر لنا أَنَّ باسيليوس أُسقفَ بُصرَى في حَوران كان على هذا الرأي، فردعه عنه اوريجانوس الكاتب الشهير. واعتنق هذه البدعة بولس السَمُساطي أُسقف أَنطاكية.

وكان بولس من سَمُساط وهي مدينة تقع شمالي أُورفا. وقد رشقه بالحِرم مجمعٌ عُقِد في أَنطاكية عام ٢٦٨

– وادَّعَى آخرون أَنَّ المسيحَ هو الآبُ نفسُه، وأَنْ لا فرق بين الآب والابن والروح القدس الا بالاسم والمَظهر فقط. فالإِله الواحد قد ظهر للناس في ثلاثة مظاهر مختلفة، تارة في مَظهر الآب، وطوراً في مَظهر الابن، ومرَّة أُخرى في مَظهر الروح القدس. فأَنكرت هذه البدعة وجود الثالوث الأَقدس، ودُعيت بالسَابليّة، وقد حَملت اسم أحد مشاهير أَنصارها في رومة حول سنة ٢٠٠ واسمه سابيلوس. وقد رشقه البابا كَالِستوس بالحِرم.

– وأَقرَّ بعضُهم أَنَّ الابن متميِّز عن الآب وأَنَّه إِلهٌ مثله. ثمَّ حاولوا أَنْ يفسِّروا هذا السرَّ فادَّعوا أَنَّ الابن أَدنَى مرتبةً من الآب في الأُلوهيَّة. وقد اعتنق هذه البدعة الكاهن إِيبُّوليت في رومة (حول ٢٠٠) وزَلقَ فيها القدِّيس ديونوسيوس أُسقف الإِسكندرية. فَلامَه عليها أُسقف رومة، فتراجع عنها، واعترف بأَنَّ الابن واحد مع الآب في الجوهر. ولم تُحدَّد علاقة الابن بالآب تحديداً واضحاً إِلاَّ في مجمع نيقية سنة ٣٢٥.

الآباءُ الجدليُّون وأَشهرُهم القدِّيس إِيريناوس

حارب الأَساقفةُ والكتبةُ أَصحابُ التعليم القويم البِدَعَ الناشئة ودافعوا عن المُعتقَد الصحيح وأشهرُهم القدِّيس إِيريناوس. وإِليك كلمة عنه:

وُلد **إِيريناوس** في آسية الصغرى بين سنة ١٢٥ وسنة ١٤٠ واستمع في حَداثته إِلى القدِّيس بوليكربوس أُسقفِ إِزمير وهو يتحدَّث عن أقوال الرسول يوحنَّا الحبيب معلِّمه. فتعمَّق في معرفة التعليم المنقول عنه كما تعمَّق في دراسة الكتاب المقدَّس. ثمَّ سافر الى لِيون (فرنسة) مبشِّراً بالدين المسيحيّ، وانضمَّ الى إِكليروس هذه المدينة. وأَرسله الأُسقفُ في سنة ١٧٧ إِلى رومة للتداول مع البابا في شأن البِدعة المونتانيَّة التي بَدأَت تتسرَّب الى ليون. وفي غِيابه قُبض على الأَسقف وجماعةٍ من المسيحيِّين، فماتوا جميعُهم شهداء. وقد ترك المعاصرون وصفاً دقيقاً لاستجوابهم وعذاباتهم. ولَمَّا عاد إِيريناوس الى ليون انتُخب أسقفاً عليها، فأَعاد تنظيمَ الكنيسة بعد الاضطهاد، واهتمَّ بتبشير شمال فرنسة، وتدخَّل

لدى البابا فيكتور ليَحملَه على مُسالمة كنائس آسية بشأن تحديد تاريخ عيد الفصح وحارَب أهلَ العِرفان وتُوفّي سنة ٢٠٢.

أهمُّ تآليف القديس إيريناوس التي وصلت الينا كتابُ «إيضاح العِرفان وفحصه» وقد كتبه باليونانيَّة، وهو مَشهور اكثرَ بعنوان ترجمته اللاتينية «ضِدَّ البِدَع». يَقع الكتاب في خمسة أبواب؛ في الباب الأوَّل يُوضح أصل بدعة أهلِ العِرفان ومختلف آرائهم؛ وفي الثاني يَدحض تعليمهم بالبراهين العقلية؛ وفي الثالث يَدحضها بأقوال الكتاب المقدس والتعاليم المنقولة عن السلف؛ وفي الرابع يُظهِر اتِّفاقَ العهدَين القديم والجديد، وفي الخامس يَعرِض النظريَّة المسيحية في قيمة الجسد والخلاص. ولهذا الكتاب أهميَّة كبرى تاريخية ولاهوتية.

مَدرستَا الإسكندريَّة وأنطاكية

رأى بعضُ المسيحيِّين المثقَّفين أنَّ طريقة المؤلِّفين المحافظين الذين يَلجأون الى أقوال الكتاب المقدَّس والى التعاليم المنقولة عن الأقدمين لمحاربة البِدَع الناشئة، إنَّمَا هي طريقة لا تُقنع مَن يَستخدمون العقل والفلسفة لنشر آرائهم، فلجأوا هم ايضاً الى العقل والفلسفة ليُحاربوا البِدَع بالسلاح نفسِه، ويقتبسوا منها ما هو فيها قويم صحيح، فيَقضون في الوقت نفسه على البِدَع ويَرْوُونَ العقول المتعطِّشة الى معرفة أسرار الله.

١) **مدرسةُ الإسكندريَّة وأُريجانوس**: اتَّصفت هذه المدرسة بالنَّزعة الصوفيَّة، والتأويل الرمزيِّ لأقوال الكتاب المقدس، واستخدام الفلسفة الأفلاطونية. وأشهرُ ممثِّليها اكليمنضوس الإسكندريّ وأوريجانوس. ونتوقّف خصوصاً عند هذا الأخير.

وُلد أُوريجانوسُ في الإسكندرية حوالي سنة ١٨٥ من أُسرة مسيحية تقية. واستشهد والدُه أثناء اضطهاد الإمبراطور سبْتيموس سَاويروس سنة ٢٠٣ فأخذ أُوريجانوس يعلِّم النَّحو ليقومَ بأَوَد الأُسرة. ثمَّ طلب منه ديمتريوسُ أُسقف الإسكندرية أن يقوم بمهمَّة تثقيف الموعوظين، فقام بها أحسن قيام. وكان يَتوق الى التعمُّق في الديانة والتبحُّر في الكتاب المقدس، فسلَّم أَمرَ تثقيف الموعوظين الى أحد تلاميذه وفتح معهداً عالياً درَّس فيه مختلف علوم عصره ووجَّهها نحو تفهُّم أعمق لمعاني الكتاب المقدس. وانتشر صِيت

أُوريجانوس انتشاراً واسعاً. وقام بعدَّة أسفار علميَّة الى رومة واليونان وأنطاكية وصُور وفلسطين. وأكبَّ على الكتابة والتأليف. ولَمَّا عاد الى الإسكندرية حَدَث بينه وبين أُسقفِه خلافٌ سببُه أنَّه قبل الدرجة الكهنوتية في فلسطين. فاضطرَّ الى تَركِ مِصر والعودة الى القدس ثمَّ الى قيصرية فلسطين حيث فتح مدرسة ازدادت فيها شهرتُه، ودرَّس فيها عشرين عاماً، ودَحَض الكثير من أضاليل عصرِه التي نشأت في حَوران وغيرها. وتعذَّبَ في اضطهاد داسيوس غير انَّه لم يَمت إلاَّ بعد عامين، سنة ٢٥٣.

ترَك أُوريجانوس تآليفَ كثيرةً يَربُو عددُها على الألف، وقد ضاع معظمُها. ولا يزال ما بقي منها غزيراً ضخماً. واليك لائحة كتبِهِ بحسب مواضيعها:

– **في شرح الكتاب المقدس**: «**كتابُ السُّداسيَّات**»، وهو مقارنة بين النص الاصلي للكتاب المقدس العبراني بأحرف عبرانية ويونانية، وأربع ترجمات يونانية وُضعت في ستَّة حقول، بغية ضبط النصِّ الأصحِّ. وهو عمل جبَّار. – وله ايضاً تفاسيرُ ومواعظُ في مختلف كُتبِ العهدَين القديم والجديد.

– **في موضوع الجَدَل**: كتابُ «**الردَّ على كِلسوس**». وكان كِلسوس كاتباً وثنيًّا هاجم المسيحيِّين بكتاب أسماه «الخطاب الحقيقي».

– **في موضوع اللاهوت**: موسوعة كُبرى عنوانها «**المبادىء**» كتب فيها عن الأقانيم الثلاثة، والملائكة، والخليقة، والانسان، والتجسُّد، والآخِرة، والاخلاق المسيحية، والوحي الالهيِّ، وطُرُق تفسير الكتاب المقدس.

في هذا العمل الجبار بعضُ مآخذَ طفيفة بالغَ فيها تلاميذُه وانقسموا في الشرق قسمين، معه وعليه.

٢) **مدرسة أنطاكية**: وقامت في أنطاكية مدرسة أُخرى يخالف اتجاهُها اتجاه مدرسة الإسكندرية. وهذه الخلافات تظهر في المواضيع الآتية:

في التفسير : يُفضِّل الأنطاكيُّون المعنى الحرفيَّ على الرمز والتأويل.

في الأخلاق : يُؤْثِر الأنطاكيون العمل والفضيلة على التأمُّل والتصوُّف.

في الفلسفة : يَمزج الأنطاكيُّون مذهب أرسطو بمذهب أفلاطون، بينما يبدو التأثير الأفلاطوني في الإسكندرية أوضح وأقوَى.

في الثليث : يُوضح الأَنطاكيُّون بدقَّة وتمييز الأَقانيم الإِلهيِّين الثلاثة بينما يُحدِّق الإِسكندريون الى وحدتهم الطبيعية.

في سر التجسد : ينظر الأَنطاكيُّون الى الطبيعة الإِنسانية في المسيح اكثر مما ينظرون الى طبيعته الالهية.

وأشهر ممثِّل للمدرسة الانطاكية في آخر القرن الثالث هو **لُوقيانوس** الكاهن. ويُخبرنا أُوسابيوس المؤرِّخ أَنَّ أَحد كهنة أَنطَاكية – ويُدعَى ملكوس – قد أَفحم الأُسقفَ بولس السَمُساطي. وكان ملكوس أُستاذَ البلاغة والفلسفة في مدارس أَنطاكية العامة.

إزاء هذا الإِشعاع المسيحي الرائع حاولت الوثنية أن تُجدِّد قِواها بنشر ديانة انتقائيَّة تَملأُ فراغ القلوب، كما حاولت الفلسفة اليونانية ان تستعيد شبابها ونضارتها، فبلغت مع أَفلوطين الفيلسوف ذُروة قوَّتها. وصنَّف الوثنيُّون تآليفَ كثيرة هاجموا بها المسيحيِّين وسَعَوا في إزالة المُعتقَدات المسيحية والاستهزاء بها. فتغلَّبت النصرانية على هذه المحاولات كلِّها، كما انتصرت على الاضطهاد العظيم وخرجت من بعده ظافرةً قويَّة.

* * *

الفصل السابع

حَمْلَةَ الوَثَنيّة الكبْرى وَانتِصَار المَسيحيَّة

مقدّمة

قضَت الكنيسة ثلاثةَ قرون في نِضال مستمرٍّ عانَت فيه الآلامَ الكثيرة وبذلَت الجهود الجبّارة وتحمَّلت المتاعب المُضنية.

لقد ناضلت في سبيل حفظ الايمان. فاحتملت تهجُّمات اليهود واضطهادات الأباطرة الوثنيّين.

وجاهدت في سبيل نشر المُعتقَد، فأرسلت المبشِّرين إلى أقطار المسكونة بلا مال ولا سلاح ولا مؤازرة سلطان، لا درعَ لهم إلاَّ قوَّة إيمانهم، ولا حماية لهم إلاَّ ثقتهم بالله وبنعمته المُقوِّية.

وعَكَفَت في الداخل على تنظيمِ صفوفها، فعَقَدت المجامعَ المحليَّة والاقليميَّة وأصدرت القوانين التشريعيَّة، وحَدَّدت حقوقَ أساقفتها وكهنتِها وأوضحت واجباتِهم الكنسية، وربطت كنائسَها المحلية بعضَها ببعضٍ بروابط المحبَّة والأُخوَّة والعقيدة الواحدة.

ثم دافعت عن صِحَّة معتقداتِها فقَارعَت أُصحابَ البِدَع ودحضت آراءهم الوخيمة فأصدر كَتَبتُها التآليفَ القيِّمة وفتح علماؤها المدارس العالية ولجأ فلاسفتها الى اسلحة مقاتليها فاستخدموا العقل والفلسفة والمَنطق للدفاع عن الدين.

فإذا هي بعدَ هذا النضال الطويل جمعيَّة دينية منتشرة في معظم أَقطار المسكونة ، منظَّمة تنظيماً رائعاً ، لها من قِواها الروحيَّة ومؤازرة المسيح مؤسِّسها ما يَحملها على الأَمل في اكتساب من بقي متمسِّكاً بأَهداب الوثنية.

لاحظت الوثنيَّةُ نموَّ المسيحيَّة وازدهارَها طوال هذه القرون الثلاثة رغم الاضطهادات المتواصلة ، فشقَّ عليها أَنْ تَرى العديد من أَبنائها يتركون مذابحها و يهجرون أَصنامَها ويتبعون ديانة يسوع المصلوب ، فانتفضت انتفاضةَ الوحش الجريح وجمعت كلَّ ما لديها من قوَّة وشراسة وخبث وبَطشت بها بطشاً هائلاً وفي عَزمها أَنْ تقضي عليها قضاءً تاماً وتُزيلَها عن الوجود. وها نحن الآن ندرس هذه الحملة الوثنيَّة الكبرى وما آلت اليه حالُ الكنيسة بعدَها من نصر وغَلَبَة.

الاضطهادُ في عهد دِيوقِلِسيانوس (٣٠٣ – ٣٠٥)

كان المسيحيُّون يَنعمون بالطمأنينة والسلام منذ نهاية اضطهاد الامبراطور ڤاليريانوس سنة ٢٥٧. فلما تَسلَّم الملكُ ديوقِلِسيانوس في رِومة زِمام الحُكم سنة ٢٨٤ تركهم هو الآخرُ يَعيشون في هدوء وصفاء. ثم رأى رُقعة الدولة الرومانية واسعة جداً ، فقَسَمها أَربعة اقسام كبيرة ، حَكَم هو قسماً منها ، وعَهِد الى ثلاثة ملوك آخرين في الأَقسام الأُخرى. وهؤلاء الملوك هم مكسيميانوس ، وغَاليروس وكونستانس كلور.

وكان غاليروس يَحكم أَحد القسمين الشرقيين وكان شديدَ التعصّب للوثنيَّة ، يَكره النصارى كراهيةً عميقة. فأخذ يَتحرَّش بالضبَّاط المسيحيِّين في جيشه ، ويُسرِّحهم دونَ سبب. ثمَّ عمل ما في وسعه ليحمل ديوقلسيانوس على البطش بهم. ونجح في مَسعاه كلَّ النجاح. ففي عام ٣٠٢ أَصدر الامبراطور ديوقلسيانوس قراراً يأمر فيه جميع أَفراد الجيش بتقدمة الذبيحة لآلهة الأَصنام تحت طائلة التسريح من الخدمة. وكان هذا القرار بداية الاضطهاد.

ولم يكتفِ غاليروس بأَنْ ينتزع من ديوقلسيانوس هذا القرارَ بل دفعه الى أَنْ يَتَّخذ ضدَّهم اجراءاتٍ تعسُّفية أَقسى وأعمّ ، فأَقنعه بأَنَّ الآلهة غاضبة على المسيحيِّين لأَنَّهم حاولوا مرَّتين إحراقَ العاصمة الرومانيَّة فَأَصدر ديوقلسيانوس مرسوماً أَوَّل في ٢٣ /٢ /٣٠٣ يَقضي بهدم دُور الكنائس ، وإحراق الكتب المقدسة ، وحِرمان المسيحيِّين من الحقوق المدنية.

وطُبِّق هذا المرسوم تطبيقاً شديداً في كل أَرجاء المملكة ، ما عدا القسم الذي كان يَحكمه كونستانس كلور والد قسطنطين وهو فرنسة وبريطانية ، لأن كونستانس كلور كان يُحبُّ المسيحيِّين.

وأَبَى بعضُ المسيحيِّين تسليمَ الكتب المقدسة ، فقُتِلوا. وقامت اضطرابات في النواحي الشرقية من الدولة ، فأقنع الوثنيُّون الملكَ ديوقلسيانوس بأَنَّ النصارى مَصدرُها وسببُها. فأَصدر مرسوماً ثانياً يقضي بسجن جميع رجال الإِكليروس ، ثمَّ مرسوماً ثالثاً يمنح فيه الحرية التامَّة لمن يُقدِّم منهم البخورَ لأَصنام الآلهة ويأمر بتعذيب من يرفض السجود لها. وفي ربيع سنة ٣٠٤ أَصدر مرسوماً رابعاً على غرار مرسوم الملك داسيوس (٢٤٩) شَمل فيه جميع المسيحيِّين دونَ استثناء وأَمَرَهم بأَنْ يقدِّموا الذبيحة للآلهةِ تحت طائلة العذاب والموت. وعلى أَثَر هذه المراسيم الجائرة جرت الدماءُ انهاراً في أَراضي المملكة الرومانية ، ما عدا فرنسة وبريطانية. وكان الاضطهاد شديدَ الوطأة على نصارَى سورية وفلسطين ومِصر[1] وتَعِبَ ديوقلسيانوس من سفك الدماء ، فاستقال من الحكم هو ومَكسيميانوس سنة ٣٠٥.

الاضطهادُ في عَهْدِ غاليروسَ (٣٠٥ – ٣١١)

ماتَ كونستانس كلور سنة ٣٠٦ فخَلَفه ابنُه قسطنطين. واضطربت الاحوالُ السياسية في الغرب فآل الحكمُ الى ليكينيوسَ وقسطنطين. امَّا الشرق فقد كان تحت حُكم غاليروس ومساعده مكسيانوس دَايَا. وكان هذان المَلِكان شرسَين غايةَ الشراسة فاضطهدا المسيحيِّين اضطهاداً لم يُعرَف له مثيلٌ في تاريخ الكنيسة ، ولا سيَّمَا في مِصر وسورية. فتشتَّت النصارى ، وهرب الكثيرون منهم الى البراري والقِفار ، والتجأ آخرون الى اراضي الدولة الفارسية ، وسقط الأُلوف شهداءَ الدِّين تحت ضربات السيوف حتى كلَّت أَيدي الجلاَّدين. وتسلَّط على غاليروس داءٌ خبيث فاستولَى عليه ندم قتَّال. فأَصدر في نيسان سنة ٣١١ مرسوماً باسمه واسم شُركائه في الحكم قسطنطين وليكينيوس ومكسيانوس دايَا ، يسمح فيه للمسيحيين بممارسة شعائر دينهم وعَقدِ اجتماعاتهم ، ويأمرهم مقابل حِلْمِ القياصرة

(١) الأَقباط يبدأون تاريخَهم من سنة ٢٨٤ وهي السنة التي تسلم فيها دِيوقلسيانوس زِمام الحُكم ويُسمُّون تاريخَهم **تاريخ الشهداء**.

وتسامحهم بأَنْ يبتهلوا الى إلهم لأَجله ولأَجل الدولة الرومانية. ومات غاليروس في ٥/١١/٣١١ وخَلَفه ليكينيوس في أَحد القسمين الشرقيَين بعد أَنْ اغتصب منه مَكسانْسُ الحُكم في رومة.



موكبٌ لعذارى شهيدات

نهايةُ الاضطهاد (٣١١ - ٣١٣)

اما مكسيانوس دايًا فقد تابع الاضطهاد الدمويَّ في مِصر وسورية وآسية الصغرى بعد موت غاليروس.

وقامت الحربُ إذ ذاك بين قسطنطين وماكسنْسَ في القسم الغربي من الدولة وتغلَّب قسطنطين على خصمه مكسانس ودخل رومة منتصراً. واعترف به مجلسُ الشيوخ إمبراطوراً أَعظمَ. فأَصدر بعضَ قوانين في صالح الكنيسة. ثم كتب الى مكسيانوس دايا في ٢٨/١٠/٣١٢ يَطلب اليه أَنْ يتوقَّف عن مواصلة الاضطهاد في الشرق، فأصدر مكسيانوس دايا مرسوماً غامضاً لم يَنَلْ ثِقة المسيحيِّين.

وفي مَطلع سنة ٣١٣ اجتمع ليكينيوس بقسطنطين في ميلانو (ايطالية) ورسَما خطوطَ

سياستهما العامَّة وموقفَهما المتساهل مع المسيحيِّين. ودُعيت نتائجُ محادثاتهما «بمرسوم ميلانو» وإنْ لم يصدر مرسومٌ خاص بها.

وفي ربيع سنة ٣١٣ قامت الحرب في الشرق بين ليكينيوس ومكسيمانوس دايًا، فانتصر ليكينيوس، وأَصدر في مدينة نيكوميدية عاصمة آسية الصغرى مرسوماً (حزيران ٣١٣) يَستند فيه الى محادثات ميلانو، ويَقضي بأن يُمنَح المسيحيُّون الحرية التامَّة، ويأمر بأن يُردَّ إليهم كل ما اغتُصب من ممتلكاتهم. واضطُرّ مكسيمانوسُ دايًا في مِصر وسورية الى أَنْ يجاري سياسة ليكينيوس، فأصدر هو الآخر مرسوماً سنة ٣١٣ يسمح بحرية الدين. ومات مكسيمانوس دايا بعد مدَّة وجيزة، فأصبح ليكينيوسُ ملكَ الشرق كلِّه. فطبَّق فيه التشريعات الجديدة للتسامح الديني.

قسطنطينُ الملكُ الأَوحد

ولم يبقَ في الحُكم في آخر سنة ٣١٣ إلا قسطنطينُ في الغرب، وليكينيوس في الشرق. ورفرف السلامُ فوق الكنيسة جمعاء. وبقي ليكينيوس وثنياً، ثم اختلف مع قسطنطين بعد مدَّة في الأُمور السياسية فأخذ يضايق المسيحيِّين، فعرقَل الاجتماعات الدينية، وسرَّح النصارَى من الجيش ووظائف الدولة، وقتل بعضَ المسيحيِّين في المناطق الشرقية. فقرَّر قسطنطين الملك القضاء عليه، وهدفُه نُصرة الحرية الدينية. وقامت الحرب بين المِلكَين، فتغلَّب قسطنطين على خصمه الوثني وكسره سنة ٣٢٤، واستولى على بلاده، وأَصبح السيِّد الأَوحد للإمبراطورية الرومانيَّة. فنَشَر السلام في الشرق والغرب على السواء.

نتائجُ الاضطهاد

دام هذا الاضطهادُ سنتين في الغرب، وعشر سنوات في الشرق، وقد أَحدَثَ في الكنيسة أضراراً جسيمة.

فقد تهدَّمت المعابد ودور الكنائس، واحترقت الكتبُ المقدسة، والمؤلَّفات القديمة ووثائق دُور الأَساقفة، وهذا ما يفسِّر لنا قلَّة معلوماتنا عن القرون الاولى وفقدان نصوص تآليف الأَقدمين.

وهَلَك كثيرٌ من الناس نَجهل أسماءَ أغلبيتهم، ولا نعرف منهم إلا القليل، وأشهرُهم

القديسون جاورجيوس وديمتريوس وسرجيوس وباخوس – وهم من ضباط الجيش – ؛ ولوكيانوس الكاهن الانطاكي ، وكيرلُّس أُسقف أَنطاكية ، وبطرس أُسقف الاسكندرية – وهم من نخبة الإكليروس – . ونُفِيَ الكثيرون من المسيحيِّين ، وتشتَّت غيرُهم في البراري والقِفار ، وتوقَّفت الاجتماعات الكنَسيَّة .

وقد ضَعُف بعض المؤمنين أَمام العذاب ، فسلَّموا الكتب المقدسة أو قدَّموا الذبائح للأصنام ، فأحدثت قضيةُ عودتهم الى حضن الكنيسة بعد الاضطهاد انقساماتٍ حادَّة في بعض الكنائس . في افريقية الشمالية انفصل الدوناتيُّون عن الكنيسة ، ورفضوا الخضوع لأُسقف قرطاجة الجديد ، لأنه قَبِلَ الدرجة الاسقفيَّة من يدَي أُسقف كان اثناء الاضطهاد قد سلَّم الكتب المقدَّسة ، وقد تعصَّب الدوناتيُّون لرأيهم في البلاد وعاثوا فساداً ، ولم تَخمد ثورتُهم إلاَّ بقدوم البرابرة الفَندال سنة ٤٢٩ ، فاندثروا تدريجيًّا .

وَضْعُ المسيحيِّين بعد «مرسوم ميلانو» (٣١٣)

أنهَى قسطنطين وليكينيوس في مَطلع سنة ٣١٣ بمحادثات ميلانو الاضطهاد الديني ، فأَصدر كلٌّ منهما مرسوماً في الولايات الخاضعة له يَقضي بأَنْ :

١ً – يُمنَحَ المسيحيُّون وجميعُ المواطنين الحريةَ التامَّة في اعتناق الديانة التي يرغبون فيها .

٢ً – تُرَدُّ الكنائسُ والمدافنُ الى المسيحيِّين بدون مقابل .

لم تُصبح المسيحية بهذا المرسوم دينَ الدولة ، وبقي العاهل مبدئياً الرئيسَ الأَعلى للديانة الوثنية التقليدية . لكنَّ الدولة الرومانية اعترفت رسمياً بكيان المسيحيِّين ، وبحقِّهم في إقامة شعائر دينهم أُسوةً بسائر أَديان الدولة . فتمتَّعت المسيحية من جَرَّاء ذلك بحماية الدولة وعاشت في سلام . ولكنَّ قسطنطينَ ما عتَّم أَن أَظهر ميله الى النصارى ، ووهبهم عطاياه الكريمة . واستوحَى لِسَنِّ القوانين الجديدة روحَ الانجيل وعقليَّته ، فانتعشت الكنيسة في عهده وازدهرت أَيَّما ازدهار .

وختم مرسومُ ميلانو العصرَ الاول من تاريخ الكنيسة ، وهو عصر الاضطهاد واللاشرعية ، وفتح لها باباً جديداً دخلت منه الى عصر «**الإمبراطورية المسيحية**» . وما انتصرت الكنيسة هذا الانتصار المُبين إلا بفضل إيمان أبنائها وعزم شهدائها الأَبطال .

العصر الثاني

الكنيسة في عهد الإمبراطورية المسيحية

(٣١٣ – ٦١٠)

تمهيد

يمتَدُّ هذا العصر من عهد قسطنطين الملك إلى عهد الدعوة الإسلاميَّة (٦١٠).

لقد **ازدهرت المسيحيَّة** في هذه القرون الثلاثة ازدهاراً رائعاً في جميع النواحي ، فلم تَعد الديانةَ المُختبئة المنبوذة ، بل أَصبحت **الديانة الرسميّة** المكرَّمة فتمكَّنت بطريقة تدريجيَّة من القضاء على الوثنيَّة القديمة.

وتَبلورت العقائدُ الاساسيّة الخاصة بسرَّي **التثليث والتجسُّد** ، واتَّضحت مفاهيمُها بفضل تعاليم الآباء والمناقشات اللاهوتيّة وقرارات المجامع المسكونيّة الأُولى.

واكتمَل التنظيمُ الكنسيُّ العام في إِطار **البطريركيّات الخمس** ، وازدهرت عبادة المؤمنين ، وقامت الكنائس الفخمة ، واكتست الاحتفالات الدينيّة وِشاح الأُبَّهة والجلال ، واتَّخذت الطقوس الدينيّة شكلَها النهائيّ.

وبدا للناس مظهرٌ جديد من مظاهر الحياة المسيحيّة أَلاَ وهو **الحياة الرّهبانيّة** ، وقام الرُهبان في تاريخ الكنيسة بدور هام أَثَّر في تقلُّباته المختلفة أَعمق التأثير.

هذا ما حدث في **القسم الأول** من هذا العصر الذهبيّ ؛ أَمَّا في **القسم الثاني** فقد جَرت أحداثٌ هامَّة **قضت على الوحدة المسيحيَّة** قضاءً نهائيًّا. في **الغرب** ، اجتاحت القبائل الجرمانيّة أَراضي المملكة الرومانيَّة ، وكادت تقضي فيها على مَعالِم الحضارة المسيحيّة. وفي **الشرق** انفصل عن الكنيسة الرسميّة الأَقباط والسريان والكلدان والأَرمن. ففُتح مجالٌ واسع للنكبات الكثيرة ومظاهر الركود الديني التي اعترت الكنيسة في القرون الوُسطى الأولى.

الفصل الثامن

تنصّر المملكة والقضاء على الوثنيّة

مقدّمة

أصدر الملك قسطنطين مع شريكه في الحكم ليكينيوسَ مرسومَ ميلانو سنة ٣١٣، فكان هذا المرسوم انقلاباً في التاريخ وبداية مرحلة جديدة في حياة البشرية. فقد أقرّت المملكة الوثنية للمسيحيّة الناشئة بهذا المرسوم حقَّ الوجود أُسوةً بالديانة الوثنيّة الرسميّة.

ولما اعتنق أفرادُ الأُسرة المالكة الديانة المسيحية أظهروا عليها عطفهم الشديد واستوحوا مبادئها السامية في التشريع. فتضاءلت الوثنية رغم محاولة يوليانوسَ الجاحد في استرجاع عزِّها وقوّتها (٣٦١ – ٣٦٣) ثم قَطعَ الملكان غراسيان (٣٧٥ – ٣٨٣) وثاودوسيوس (٣٧٩ – ٣٩٥) آخر روابط الدولة بالوثنية. فأصبحت المسيحيّةُ آنذاك وحدَها الديانةَ الرسميّة.

وضَيَّق خلفاؤهما على العبادات الوثنية فتقلّصت شيئاً فشيئاً الى أَنْ قَضَى يوستنيانوس على آخر معاقلِها لَمَّا أغلق مدرسة أثينا الفلسفيَّة الوثنيّة سنة ٥٢٩.



الملك قسطنطين
(موزاييك في كنيسة آجيا صوفيا في القسطنطينية)

قسطنطينُ الملك المسيحيّ (٣٠٦ – ٣٣٧)

تَنَصُّر الملك قسطنطين

لم يَعتنق الملكُ قسطنطين الديانة المسيحية طَمعاً في تحقيق مصلحة شخصية أو غاية سياسية ، بل خضوعاً لعاطفته الدينية وإيمانه الحقيقيّ بالسيِّد المسيح . لقد استولى هذا الايمان على قلبه لا سيَّمَا بعد انتصاره على خصمه مكسانْس سنة ٣١٢.

ويُخبرنا المؤرِّخ لاكْتَانْس أنَّ قسطنطينَ قد رأى قبل محاربة مكسانْس حُلماً سماويًّا ، ظَهرت له فيه العلاماتُ المسيحية ، فأمر برسمِها على تُروس جنوده. فلمَّا انتصر في المعركة آمَن بالمسيح ، وجعل يعطِف على المسيحيِّين عطفاً خاصاً . غير أنَّه بقي يعتبر نفسه كأسلافه الأباطرة ، الرئيسَ الأعلى للوثنية والوثنيِّين. اما ليكينيوس شريكُه في الحكم فقد ظلَّ وثنياً يُضيِّق على المسيحيِّين منذ سنة ٣٢٠. فشنَّ عليه قسطنطين حرباً قَضى بها عليه سنة ٣٢٤ ، فأصبح الملك الأوحد ، فأظهر تعلُّقَه الشديد بالمسيحيَّة . فبنَى على شاطىء البوسفور عاصمة جديدة للدولة دعاها باسمه «القسطنطينية» وهدفُه من بنائها أنْ يتحرَّر من جوِّ رومة الوثني ، فدشَّنها سنة ٣٣٠

ولم يضطهد قسطنطين عَبَدَة الأَصنام مطلقاً ، بل سمح لهم بتشييد معابد وثنية في القسطنطينية . ولم يُغلق في الغرب المعابدَ الوثنية ؛ أَمَّا في الشرق فقد أمر باغلاق بعضها لِمَا كان يجري فيها من حفلات دينية مُخِلَّة بالأَخلاق والآداب العامَّة .

الملكُ قسطنطين يَعطِفُ على المسيحيَّة

لم يكتفِ الملك قسطنطين في مراسيمه التشريعية بأنْ يَمنح المسيحيِّين الحريَّة التامَّة في ممارسة شعائر دينهم بل أَمَرَ بأن تُردَّ اليهم جميعُ ممتلكاتهم المغتَصبة ، وسكبَ عليهم العطايا الكريمة وأسهَم في بناء الكنائس ، لا سيَّمَا بناء كنائس القدس والقسطنطينية ورومة . ومنح رجالَ الإِكليروس المسيحيِّ الامتيازاتِ نفسها التي كان الكهَّان الوثنيُّون يتمتَّعون بها في الدولة. فأعفاهم من التكاليف المدنية ، وخوَّل الكنائس حقوق المعابد الوثنية في ما يتعلَّق بإِعتاق العبيد وقَبول الوصية الاخيرة وحِرمة اللاجئين اليها. وسَنَّ في ٥ ايار سنة ٣٣٣ قانوناً يمنح به الأَساقفة صلاحية النظر في دعاوي رجال الدين والبتَّ فيها نهائياً ، وسمح للناس بأن

يلجأوا الى محكمة الاسقف إن شاءوا ، وقرَّر أنَّ شهادة الأُسقف وحدَها تكفي لدعم الحكم المدني .

الملكُ قسطنطين يَستوحي تشريعَه من الروح المسيحية

لما اعتنق الملكُ قسطنطين الدينَ المسيحي تأثَّر تشريعُه تدريجياً بالمُثُل العُليا المسيحية فأدخل في قوانينه احترامَ الشخصية الانسانية ، واعتبارَ المرأة ، والرأفة بالضعيف ، وألغَى ما في نصوص القانون من شراسة وقسوة ، فأتت تشريعاتُه أَساسَ المدنية المسيحيَّة الحديثة .

ومنذ عام ٣٢٠ أَمرَ بأَنْ يكون يومُ الأَحد يومَ العطلة الرسمية وألغَى قانون أُوغسطوس قيصر الذي يُحظِّر البتوليَّة على الناس . وسَنَّ القوانين الصارمة لمنع الفِسْق والفجور ومراقبة المُغتابين وأصحاب الأَكاذيب والبِدَع ، وعاضد الأَيتام والأَرامل ، وحَسَّن حالةَ العبيد والمساجين والأَطفال المشرَّدين .

تَدخُّل الملكِ قسطنطين في شُؤون الكنيسة

لم يَكن الملك قسطنطين ضليعاً من التعاليم اللاهوتيَّة ولا من الأَنظمة الكنسيَّة ، ومع هذا فقد ظَنَّ أَنَّ من واجبه التدخُّلَ في الخلافات الكنسيَّة بغية المحافظة على الوحدة والسلام . وأَهمُّ القضايا التي حاول البتَّ فيها هي :

أولاً – قضية شِقاق الدوناتيِّين: حصل هذا الانشقاق في افريقية الشمالية بسبب انتخاب رئيس أَساقفة قرطاجة المُسمَّى سيسليانوس . فأَمر الملكُ الأَساقفةَ الغربيِّين بأن يَعقِدوا مجمعاً في مدينة آرل في جنوب فرنسة سنة ٣١٤ للبتِّ في أَمر انتخابه . وقد نُقل الأَساقفة وحاشيتهم على نفقة الدولة . ولمَّا أَصرَّ المعارضون على عنادهم ، ورفضوا الإِذعان لحُكم المجمع وأوامر الملك ، لجأ قسطنطين إلى القوة العسكرية وأرغمهم على الخضوع .

ثانياً – الخلافُ الآريوسيُّ: وسنرى ذلك في الفصل المقبل . وهذا التدخّل وإنْ خدم الكنيسة من بعض النواحي إلاَّ أَنَّه ضَيَّق على حريَّتها الداخلية وحدَّ من احترام الملك لنظامها ورئاستها العليا واستقلالها الروحي .

ومع هذا فقد ظلَّت الكنيسةُ شاكرةً للملك قسطنطين حَسَناته الكثيرة التي سكبها عليها بعد اضطهادٍ دمويٍّ تحمَّلته مدَّة ثلاثة قرون ، فرفعته إلى درجة القديسين وجعلته معادلاً للرسل أَنفُسِهم .

خلفاءُ قسطنطين حتَّى ثاودوسيوس الكبير (٣٣٧ – ٣٩٥)

أَبناءُ قسطنطين (٣٣٧ – ٣٦١) ضَيَّقوا على الوثنية

مات قسطنطين (٣٣٧) فوَرِث أبناؤه الثلاثة مملكتَه الواسعة وتابعوا سياسة والدِهم تجاه المسيحية، إلاَّ أنَّهم لم يُحافظوا على تسامحه نحو الوثنية. وما عَتَّم أَنْ مات اثنان منهم، فَأَضحَى قونستانس وهو الولد الثالث السيِّدَ الأَوحد للإمبراطورية، فأصدر مراسيم تمنع تقديمَ الذبائح ليلاً، وأَمَر بإغلاق بعض المعابد الوثنيَّة. إلاَّ أَنَّه تعَصَّب لمذهب الآريوسيِّين فنفَى الأَساقفة أَصحابَ التعليم القويم.

يوليانوسُ الجاحدُ (٣٦١ – ٣٦٣) أَعَاد للوثنيَّة نُفوذَها

كان يوليانوسُ ابنَ أخي الملك قسطنطين. نشأَ في المنفَى، وتلقَّى تربيته المسيحية على أَيدي أساقفةٍ آريوسيِّين. ولمَّا بلغ السادسةَ عشرة من عمره، أُطلِق سراحُه.

وكان مُولَعاً بالآداب والفلسفة اليونانية، فأَقبل على اقتباس المعارف عن أساتذة وثنيِّين، فأُغري بالعقلية اليونانية القديمة، وأَحبَّ أنْ يُعيد للديانة التقليدية عزَّها ومجدَها. وأَخفَى نواياه الى أَنْ حانت الفرصة فتمرَّد على ابنِ عمِّه قونستانس وتغلَّب عليه سنة ٣٦١.

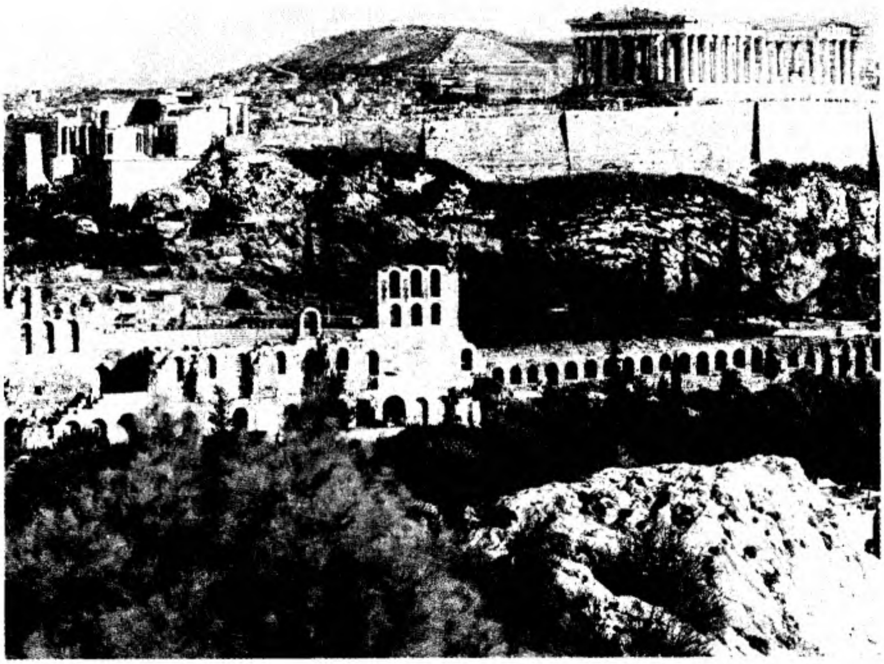
وجاهرَ في بادىء أمره بالتسامح نحو الجميع، وأَعاد الأَساقفة المنفيِّين الى أبرشيَّاتهم، واكتفَى بإلغاء الامتيازات الخاصة التي منحها قسطنطين لرجال الإكليروس، وأَمرَ بفتح المعابد الوثنية المُغلَقة، وإعادة بناء ما تهدَّم منها على نفقة المسيحيِّين. وقد اغتنم بعض الوثنيِّين هذه الفرصة المؤاتية، فانتقموا من المسيحيِّين، فمات الكثيرون منهم شهداء، ومن بينهم مرقس، أسقف الرستن.

وحاول ان يُصلِحَ الوثنية التقليدية ويُنظِّمها على غرار الكنيسة المسيحية، فسعَى جهده ان يَخُصَّها بتعاليم مُنزَلة، وأخلاق طاهرة، ومحبَّة سامية، فلم يُفلح في مسعاه بسبب معارضة الكهَّان الوثنيين.

وضَيَّق يوليانوس على المسيحيِّين فأصدر مرسوماً بتاريخ ٣٦٢/٦/٧ يُحظِّر على الأَساتذة المسيحيِّين التدريس في المعاهد الرسمية «لأَنَّ الأَدب اليوناني يتنافَى وايمانهم» وسرَّحَ

الجنودَ النصارَى بحجة «أنَّ شريعتَهم تُحظِّر عليهم حمل السيف». وأَراد ان ينتقمَ من أَنطاكية، المدينة المسيحيَّة، فدنَّس رفات القديس بابيلاس، فردَّ عليه بعض المسيحيِّين المتحمسين باحراق معبد ابولون الوثني. فأَمر يوليانوس باغلاق الكنيسة الذهبية الكبرَى التي دُشِّنت سنة ٣٤١، وأعاد إلى المنفَى الأَساقفة الذين عادوا الى أبرشيَّاتِهم في مَطلع عهده. وحاول ان يُكذِّب السيِّد المسيح فأَمرَ باعادة بناء الهيكل، فلم يتمكَّن بسبب الزلازل.

وكان يُضمر للمسيحيِّين اجراءاتٍ أَشدَّ وأَقسَى، ينفذها بعد عودته من محاربة الفرس. إلا أنه سقط قتيلاً في المعركة، وهو في الثاني والثلاثين من عمره بعد مُلك دام عشرين شهراً، ومات وهو يقول: «غَلَبْتَني أَيُّها الجليلي». فتلاشَى الاضطهاد بموته.



هيكل أثينا على تلّة الأكروبوليس
رمز المقاومة الوثنية للمسيحية

ڤالنتينيان وڤالنْس (٣٦٤ – ٣٧٥) على الحِياد

لَمَّا قُتِل يوليانوسُ انتخب الجيشُ خلفاً له القائد المسيحي يوفيانوس (٣٦٣ – ٣٦٤) فزالت المضايقات زوالاً تامًّا. وسُرعانَ ما تُوفِّي يوفيانوس. فخلفه في الغرب ڤالنتينيان (٣٦٤ – ٣٧٥) وفي الشرق ڤالنْس (٣٦٤ – ٣٧٨) فتركا الحرية للمسيحيِّين والوثنيِّين على السواء، واكتفيا بحظر أعمال السحر والذبائح الليلية. إلاَّ أنَّ ڤالنْس قد تشيَّع للآريوسيين واضطهد الأساقفةَ أصحاب التعليم الصحيح.

غراسيان وثاودوسيوس يَفصلان الدولة عن الدين الوثنيّ

تُوفِّي ڤالنتينيان فخلَفه في الغرب ابنُه غراسيان (٣٧٥–٣٨٣) ففصل الدولةَ عن الدين الوثني، وألغَى لقب «الحبر الأَعظم» للديانة الوثنية الذي كان يحمله الامبراطور بين ألقابه، وقطع المساعدات المادية للمعابد الوثنية، وأزالَ امتيازات الكُهَّان، ورفع من قاعة مجلس الشيوخ في رومة تِمثالَ إلٰهة النصر.

وفي عهد ڤالنتينيان الثاني بن غراسيان – وكان آنذاك قاصراً – حاول الوثنيُّون إلغاء هذه المراسيم، فتصدَّى لهم القدِّيس امبروسيوسُ أُسقف ميلانو، وقطع دَابر محاولاتهم، وكان صاحبَ نفوذٍ عظيمٍ في البلاط الملكي الغربي.

وتُوفِّي ڤالنْس في الشرق سنة ٣٧٩ فخلَفه الملك ثاودوسيوس. وفي سنة ٣٨٨ امتدَّت سلطته على الغرب ايضاً، بعدما تغلَّب على القائد الثائر مكسيموس، فأَصبح السيِّد الأَوحد للإمبراطورية الرومانية. ومنع خلال سنتَي ٣٩١ و٣٩٢ العبادات الوثنيَّة في أَنحاء المملكة كلِّها. وفي سنة ٣٩٣ استولى على زمام الحكم في رومة القائدُ أُوجين مستنداً إلى مؤازرة الوثنيين، فأَعاد إليهم امتيازاتِهم الكثيرة، فهاجمه ثاودوسيوس وتغلَّب عليه سنة ٣٩٤، وقضَى بذلك على آخر محاولة قامت بها الوثنية المندحرة.

وتراجعت الوثنية في آخر القرن الرابع أَمام المسيحية المنتصرة، ولم يعُد لها صبغة رسميَّة.

وتُوفِّي ثاودوسيوس سنة ٣٩٥ وكان آخرَ ملك جَمَع في يدَيه إدارة المملكة الرومانية بشطرَيها الشرقي والغربي. وقسَم قبل وفاته المملكة الواسعة بين ولدَيه أَركاديوس في الشرق وأُونوريوس في الغرب.

من ثاودوسيوس الى يوستنيانوس

تابع خلفاءُ ثاودوسيوس خُطَّة القضاء على الوثنية في الحياة العامَّة، فحَظَروا على الوثنيّين الوظائفَ في البَلاط الملكيِّ، وحرموهم حقَّ أداء الشهادة في المحاكم. وتضاءلت الوثنية كثيراً في الشرق فلم يبقَ لها أتباع إلاَّ في بعض المناطق الجبلية المنعزلة وفي الأوساط الفلسفية اليونانية.

أمَّا في الغرب، فبعد أنِ امتدَّت المسيحيَّة الى المُدن والقرى في غضون القرنَين الرابع والخامس عادت واندحرت من جديد بظهور القبائل الجرمانية الوثنية. إلاَّ أنَّ تَنَصُّر كلوفيس ملكِ الفَرنجة سنة ٤٩٦ كان فتحاً جديداً للكنيسة، وأضحت قبائله المتنصِّرة باكورةَ الشعوب الأوروبية المسيحية.

ولمَّا آلَ الحُكم الى يوستنيانوس (٥٢٧ – ٥٦٥) إمبراطور الدولة الرومانية في الشرق، أراد ان يَقضي تماماً على الوثنية فنظَّم بعثاتٍ تبشيريَّة في الجبال وأغلق سنة ٥٢٩ مدرسة أثينا الفلسفية، فلجأ سبعة من أساتذتها الى مملكة فارس فاستقبلهم فيها كِسرى أنوشروان واندثرت الوثنية في الشرق الروماني اندثاراً نهائياً.

الفصل التاسع

العَقائدُ المَسيحيَّة وَالتّحاديدُ اللّاهُوتيّة

مقدّمة

إنتصرت الكنيسة في هذه الحِقبة على أعدائها من الخارج وقَضت على الوثنية قضاءً تاماً، فجابهت أخطاراً جديدة داخلية ناجمة عن تعاليم أصحاب البِدَع وأقوالهم المُخطئة. فاضطرّت إلى محاربتهم وأجبرت على التعبير عن معتقَداتها بعبارات لاهوتية واضحة لا غموضَ فيها ولا التباس. وقد اهتمَّت كلَّ الاهتمام بالتعبير اللاهوتيِّ عن مُعتَقَدَيها الأساسيَّين وهما سرُّ الثالوث الأقدس وسرُّ التجسُّد الالهيِّ وحدَّدتهما تحديداً لاهوتياً. وعقد الأساقفة لذلك مجامع كثيرة، مسكونيَّة وإقليمية.

وسَهُل عليهم شذبُ أصحاب البِدَع وفَصْلُهم عن الكنيسة، إلاَّ أنَّهم لم يتَّفقوا على اختيار التعابير اللاهوتية الملائمة الا بمشقَّة عظيمة وبعد مناقشات طويلة. وأسباب هذه الصعوبة، اختلاف اللغة بين الشرق اليوناني والغرب اللاتيني، وتعدُّد المفاهيم للألفاظ نفسِها بين الإسكندرية وأنطاكية وغيرِهما من المدن (طبيعة، جوهر، أُقنوم، شخص)

وأخيراً تدخُّل الملوك المسيحيِّين في الخلافات العقائديّة رغبةً منهم في بَسْط الوحدة والسلام، فكثيراً ما ضغطوا على الأساقفة وعرقلوا سَير النقاش وأثاروا المنافساتِ الشخصية والعَصَبيَّات الإقليمية.

ولهذه الأسباب كلِّها وغيرها ، طالت الجدالات ، وانقسمت الجماعة المسيحية الواحدة الى فئات متعدِّدة لا يزال بعضُها باقياً الى اليوم. وقد ملأت هذه المناقشات اللاهوتية قسماً كبيراً من حياة الكنيسة خلال ثلاثة قرون متوالية. في القرن الرابع دار البحث حول سرِّ الثالوث الأقدس ، بينما قام الجَدَل في القرنَين الخامس والسادس حول سرِّ التجسُّد الإلهي. وكانت النتيجة أنْ حافظت الكنيسة على المعتَقد المسيحيِّ سالماً ، وصاغته في عبارات واضحة ولكنِ انشطر عنها قسمٌ من أبنائها في الشرق.

البَحث في عقيدة سرِّ الثالوث الأَقدس

تعاليمُ آريوس

كان آريوس في مَطلع القرن الرابع أَحدَ كهنة الإسكندرية وكان بارعاً في الكلام والمناقشة، وكان قد تأثَّر تأثيراً عميقاً بتعاليم لوقيانوس صاحب مدرسة أَنطاكية وبالغَ في التعبير عنها وأَذاعها في مواعظِه على الشعب.

اعترف آريوسُ بكيان الأَقانيم الثلاثة غير أَنَّه زَعَم أَنَّ الآبَ هو وحدَه الإِله الحقيقيُّ السَرمدي غيرُ المخلوق. أمَّا الابن فقد انتشلته إِرادةُ الآب من العدم ووضعته في الوجود. واستنتج من هذا القول أَنَّه خليقة لا غير، وقد أَتَى الله في خلقِ الابن دقَّةً فائقة جعَلَته صورةً حيَّة كاملة للآب، ورفعته الى درجة الأُلوهيَّة، فأَضحَى خليقةً متأَلِّهة. ولذا فإِنَّه يَحِقُّ لنا أَنْ نقول عنه إِنَّه «ابن الله». فليس هو ابنَه بالطبيعة والولادة الروحية، وانما هو ابنه بالتبنِّي والارادة.

وقد منحه الله سلطاناً فائقاً يُبدع به الكائنات فينتَشلها من العدم ويَضعها في الوجود. والخليقة الأُولى التي أَبدعها الابنُ هي الروح القدس. فالروح القدس هو خليقة الابن كما أَنَّ الابن هو خليقة الآب، الإِله الواحد الحقيقي. فالأَقانيم الثلاثة ليست واحدة بالطبيعة بل واحدة بالارادة.

بلغ مَسمَعي أَلكسندروسَ رئيسِ أَساقفة الإِسكندرية صدى هذه التعاليم الخاطئة فمنعه من القول بها. وتمسَّك آريوس برأيه وتصلَّب. فجمع أَلكسندروس أَساقفةَ مِصر وعقد معهم مجمعاً درس فيه تعليمَ آريوس فحَكَم عليها المجمعُ بأنها مُخطئة، وأَمَر بفصل صاحبها عن الكنيسة وفَصْل كلٍّ من ارتأى رأيه. ولجأ آريوس الى بعض الأَساقفة زملائه القدماء في مدرسة لوقيانوس الأَنطاكي، وعرض عليهم آراءه اللاهوتية فبرَّأوه من كل خطأ، فتذرَّع بهم وعاد الى الإسكندرية وأَخذ يَنشر قصائدَ وأناشيدَ شعبيَّة قد ضَمَّنها تعاليمَه الدينية فأَلقَى البَلبال في المدينة.

وكتب أَلكسندروس الى مختلف الأَساقفة رسائلَ يُحذِّرهم فيها من تعاليم آريوس، ويُعلِمهم فيها بأنه قد رشقه بالحِرم وفَصَله عن الكنيسة. فأضحت قضيةُ آريوس المحلية قضيةً

عامة اختلفت فيها الآراء، وتبلبلت التعاليم، وانقسم الأَساقفةُ الشرقيُّون بعضهم على بعض بين مُؤَيِّد ومعارض.

واستولى إذ ذاك قسطنطين الملك على الشرق بعدما انتصر على ليكينيوس (٣٢٤)، وساءه الانقسام بين الأَساقفة فدعاهم الى عقد مجمع عام يدرسون فيه تعاليم آريوس ويضعون حدًّا لخلافاتهم. فتَوافدوا الى مدينة نيقيَة وعقدوا فيها المجمعَ المسكونيَّ الأَوَّل سنة ٣٢٥.

المَجمعُ المسكونيُّ الأَوَّل في نيقية (٣٢٥)

إنَّ المَجمع المُنعقد في مدينة نيقيَة سنة ٣٢٥ هو أَوَّل المجامع المسكونيَّة الدينيَّة. وقد ضَمَّ بين أَعضائه أَساقفةً قَدِموا اليه من مختلف أَقطار المسكونة. وقد حضره الملكُ قسطنطين نفسُه، واشترك فيه ممثِّلان عن البابا سِلْفسترُوس، وثلاث مئة وثمانية عشر اسقفاً، أغلبيَّتهم الساحقة من الشرق. وقد دام انعقاد المجمع من ٢٠ ايار ٣٢٥ حتى ١٨ حزيران من السنة نفسها.

محَّص الأَساقفة المجتمعون تعاليمَ آريوس فوجدوها مُخطئة، فرشقوه بالحرم، وحَكَموا على أقواله بالضلال، وفصَلوه عن الكنيسة. ثم اهتمُّوا بوضع صيغةٍ واضحة تُعبِّر عن المعتقد الصحيح الخاص بأُلوهيَّة الابن وعلاقته بالآب. وأرادوا في بادىء الامر أَنْ يستعملوا ألفاظاً وتعابيرَ مُقتبَسة عن الكتاب المقدس وحده، ولكنهم ما لَبثوا أَنْ لاحظوا أَنَّ انصار الآريوسية يُؤوِّلون اقوال الكتاب المقدس تأويلاً يتَّفق وآراءَهم الخاصة فآثروا اللجوءَ الى التعابير الفلسفية. فأَوضحوا صيغة «**قانون الإيمان**» بالعبارة التالية عن السيِّد المسيح: «إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، مولودٌ غيرُ مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر» (أو بالأحرى واحد مع الآب في الجوهر).

وبعدما قاموا بمهمَّة التعبير عن المعتقَد وحدَّدوه فيما يتعلَّق بأُلوهيَّة السيِّد المسيح، سنُّوا عدَّة قوانين تشريعية وإدارية أَشهرُها تحديدُ حساب يوم عيد الفصح. ووَكَلوا الى الملك أَمرَ تنفيذِ الحُكم بآريوس، فنفاه هو وبعض من شايعوه الى مقاطعة إيليريَة شمال بلاد اليونان.

مُقاومة قرارات مَجمع نيقيَة

بقيَ زعماءُ الحركة الآريوسية في المَنفى زهاء ثلاثِ سنوات. وظَنَّ الملكُ قسطنطين سنة

٣٢٨ أَنَّهم قد رجعوا عن غـيِّهم ، فأَعادهم الى ديارِهم وقد دفعه الى ذلك حبُّه للسلام . فما إنْ وَطِئوا أَرض اوطانهم وتمتَّعوا بالحرية حتى أَخذ الكثيرون منهم يَحيكون الدسائس ، وينشرون التُّهم الشنيعة بحقِّ الأَساقفة المُوالين لمجمع نيقيَة. وتوصَّلوا بعد العديد من المؤامرات الى خلعهم عن مناصبهم الأُسقفية ، ونفيهم عن أَبرشياتهم والى تنصيب أَساقفة موالين للآريوسية في أَهمِّ الأَبرشيَّات الشرقية . وأوَّل من نُفي عن مدينته القديسُ أُوستاتيوس رئيسُ أَساقفة أَنطاكية سنة ٣٣٠.

ولم يكن جميعُ مقاومي قرارات مجمع نيقية من أَنصار آريوس فانقسموا على أَنفسهم ثلاث فئات :

الفئة الأُولى ، وهي أَقلُّ الفئات الثلاث عدداً ، كانت على رأَي آريوس ، وكانت تقول إنَّ الابن مختلفٌ تماماً عن الآب ، وهو خليقته.

الفئة الثانية ، وهي فئة كبرى ، كانت تُؤمن بأُلوهيَّة السيِّد المسيح ايماناً قوياً ، إِلاَّ أَنَّها لم تكن لِتَرضَى بهذا التعبير عن أُلوهيَّة السيِّد المسيح «انه واحد مع الآب في الجوهر » لأَنَّ هذه الصيغة لا تُميِّز تمييزاً واضحاً بين شخص الآب وشخص الابن ، ويُمكن أَنْ يُفسِّرها الناس تفسيراً مُخطئاً فيقولوا كما كان سابيلُّوس يقول : إنَّ الله شخصٌ واحد ظَهر مرَّة بهيئة الآب ، ومرَّة بهيئة الابن ، وأُخرى بهيئة الروح القدس . وكان بولس السَمُسَاطي أُسقفُ أَنطاكية في القرن الثالث يقول عن المسيح «إِنَّه واحد مع الآب في الجوهر » ويُفسِّر كلامَه وَفْقَ تعليم سابيلُّوس . وقد عُقد آنذاك في أَنطاكية سنة ٢٦٨ مجمعٌ نَبَذَ التعبيرَ القائل عن المسيح «إِنَّه واحد مع الآب في الجوهر » ورَشَق بولسَ السَمُسَاطي بالحِرم . ولذلك فقد أَبَت الفئة الكبرى من معارضي مجمع نيقية أَنْ تعود الى الضلال نفسه الذي وقع فيه منذ ستين عاماً سابيلُّوس وبولس السَمُسَاطي ففُصِلا عن الكنيسة .

وأَبَت **الفئةُ الثالثة** أَن تُوضِح رأيها في الموضوع وضوحاً جليًّا فَلَجَأَت الى تعبير غامض قالت فيه إِنَّ الابن شبيه بالآب . ولم تَضمَّ هذه الفئة عدداً وافراً من الأَساقفة نظراً إِلى أَنَّ التعبير الذي تبنَّته فيه الكثير من الغموض والالتباس .

واشتدَّ الجدالُ بين أَنصار مجمع نيقيَة وخصومه الكثيرين . وتحزَّب للبدعة الآريوسية على مختلف أَشكالها بين الملوك قونستانس الثاني (٣٣٧ - ٣٦١) وڤالنْس (٣٦٣ - ٣٧٨) وحاولا إِرغام جميع الأَساقفة على قبولها ، واضطهدا الأَساقفةَ أَصحابَ الرأي القويم

ونفياهم عن أَبرشيَّاتهم. إلاَّ أَنَّ الله قَدَّر للكنيسة أَساقفة قدِّيسين دافعوا عن المعتقَد الصحيح وجاهدوا في سبيله جهاداً قوياً.

أَنصارُ قرارات مَجمع نيقيَة

أَشهرُ الأَساقفة الذين دافعوا عن المعتقَد الصحيح هم في الغرب القدِّيس إيلاريوس أُسقف بَواتيه (فرنسة) وفي الشرق القدِّيس أَثناسيوس رئيس أَساقفة الإسكندرية (٣٢٨ – ٣٧٣) والقدِّيس مَلاتيوس رئيس أَساقفة أَنطاكية (٣٦٠ – ٣٨١) والقدِّيس باسيليوس الكبير رئيس أَساقفة قيصريَّة الكَبادوك (٣٧٠ – ٣٧٩). فقد قاوموا الأَباطرة الآريوسيِّين، واحتملوا مشقَّات المَنفى، وشجَّعوا المضطهَدين، وأَلَّفوا الكتب اللاهوتية القيِّمة. وقد أَوضح القديس باسيليوس في كتاباته أَنَّ وحدة الآب والابن في الجوهر لا تَنافى مع التمييز بين الأَقانيم الإلهيِّين الثلاثة، فقرَّب بين وُجُهات النظر، وردَّ الكثيرين من الآريوسيين المُعتدلين أَصحابِ النوايا السليمة الى الايمان القويم.

إنتصارُ المعتقَد القويم، وانعقادُ المَجمع القسطنطينيِّ الأَوَّل (٣٨١)

كان الإمبراطور ڤالنْس من أَنصار الآريوسية، فقُتل سنة ٣٧٨ في معركة شنَّها على القوط البرابرة، فخلَفه على العرش ثاودوسيوس، وكان هذا الملك مُستقيمَ المعتقَد مثل الملك غراسيان الحاكم في بلاد الغرب. فأَعاد ثاودوسيوسُ الأَساقفةَ المنفيِّين الى أَبرشيَّاتهم، ومَنَع الدعاية الآريوسية.

وعُقد في مدينة القسطنطينية المجمعُ المسكونيُّ الثاني سنة ٣٨١، فترأسه القديسُ ملاتيوس رئيس أَساقفة أَنطاكية. وأَقرَّ المجمعُ قانونَ الايمان النيقاويِّ وزَاده بعضَ تفاصيل وأَوضح التمييزَ بين الأَقانيم الإلهيِّين الثلاثة وأَكَّد أُلوهيَّة الروح القدس، وكان بعض الآريوسيِّين قد بدأوا ينكرونها. ثم اتَّخذ بعضَ القرارات الإدارية. وعُقد في رومة سنة ٣٨٢ مجمعٌ مماثل أَقرَّ أَعمال المجمع القسطنطيني.

وهكذا اندثرت البدعةُ الآريوسية وزالت عن الوجود زوالاً تاماً، وأَوضح التعليمُ القويم بتعبير جليٍّ أَنَّ الابن إلهٌ كأبيه السماوي، وهو واحد معه في الجوهر، وأَنَّ الآب والابن والروح القدس أَشخاص ثلاثة متميِّزون بعضهم عن بعض تميزاً لا امتزاج فيه ولا اختلاط.

الجدلُ حول سرِّ التجسُّد الإلهي في القرنَين الخامس والسادس

المُقدَّمة اللاهوتيَّة

إنَّ المناقشات حولَ عقيدةِ سرِّ الثالوث الأَقدس قد أُوضحت علاقة المسيح الإله بأبيه السماوي. فهو ابنُ الله الكلمة، واحد مع أَبيه في الجوهر.

وقد تجسَّد هذا الابنُ واتَّخذ طبيعةً انسانية مثلَنا واتَّحد بها، فإذا هو إله وانسان معاً. ولم يكن علماءُ اللاهوت آنذاك قد حدّدوا بعد بتعابيرَ واضحة طبيعةَ اتِّحاد الإله بالانسان، ولم يتَّفقوا على معاني الالفاظ الفلسفية التي تُعبّر عمَّا هو واحد في المسيح وعما هو مزدوج فيه. وكان هناك رأيان لها ظاهر الاختلاف والتناقض.

ففي المدرسة الأَنطاكية كان اللاهوتيون يؤكِّدون الازدواجَ في المسيح قبل الوحدة، فهو في رأيهم الإلهُ الكامل والانسان الكامل. ولكنَّهم لم يفسِّروا بوضوح وحدة الكيان فيه. وقال المغالون منهم إنَّ الوحدة القائمة في المسيح ليست وحدة جوهرية بل هي مجرَّد تقارب بين الكلمة ابنِ الله والمسيح ابنِ مريم. فالكلمة ابن الله هو شخص، والمسيح ابن مريم هو شخص آخر. ولذلك لا يحقُّ لنا أَن نقول عن مريم العذراء إِنَّها والدة الله بل هي والدة المسيح. وكان هذا رأي نسطوريوسَ بطريرك القسطنطينية.

امَّا اللاهوتيُّون في مدرسة الاسكندرية فقد كانوا يؤكِّدون الوحدة الجوهرية في المسيح الاله قبل الازدواج فيه. فهو في نظرهم الكلمة ابن الله المتأنِّس. ولم يُفسِّروا بوضوح هل كانت طبيعتُه الانسانية قد بقيت كاملةً فيه أَمْ تلاشت بعدما اتَّحدت بطبيعته الإلهية. وقال المغالون منهم ليس في المسيح إلاَّ طبيعةٌ واحدة، وقد ذابت إنسانيَّة الكلمةِ في أُلوهيَّته وتلاشت.

تُجاهَ هذه الآراءِ المتناقضة عقدت الكنيسةُ مجمعاً مسكونياً في أَفسس سنة ٤٣١ وأَكَّدت ضد الغُلاة من أَتباع المدرسة الأَنطاكية (نسطوريوس وأَنصاره) الوحدة الجوهرية في المسيح. فالمسيح شخص واحد، وأُقنوم واحد، وهو أُقنوم ابن الله. وكلُّ ما يأتيه من اعمال إلهية كالعجائب، وانسانية كالعذاب، صادرٌ عن هذا الأُقنوم الواحد ويُنْسَب اليه.

ولذلك يحقُّ لنا أَنْ نقول إنَّ الإله مات لأَجلنا على الصليب ، وإنَّه وُلد من مريم العذراء ، وإنَّ مريم العذراء هي والدة الله.

وعقدت الكنيسة مجمعاً مسكونياً آخر في خلقيدونية سنة ٤٥١ أكَّدت فيه ضد الغُلاة من أتباع مدرسة الاسكندرية أنَّ الوحدة الجوهرية في المسيح لا تَتنافى مع حقيقة طبيعتيه الالهية والانسانية. فللمسيح الشخصِ الواحد طبيعتان، انسانية وبها يأتي الاعمالَ الانسانية ، وإلهية وبها يصنع الاعمالَ الالهية. وهاتان الطبيعتان باقيتان متميِّزتَين في المسيح بعد اتِّحادهما فيه. فالمسيح هو شخص واحد وله طبيعتان.

وقد قاوم الكثيرون ، خصوصاً المصريُّون ، تعليمَ مجمع خلقيدونية الذي تحدَّث عن طبيعتَي المسيح ، لأنَّهم كانوا متمسِّكين بقول القديس كيرلُّس الاسكندري الذي كان يُعلِّم أنَّ في المسيح طبيعةً واحدة. وكانت كلمة «طبيعة» في تعبيره مترادفة للفظة اقنوم. فتعليم كيرلس صحيحٌ في معناه مُلتبِسٌ في مبناه. فلمَّا أكَّد مجمعُ خلقيدونية أنَّ في المسيح طبيعتَين وأهملَ تعبير القديس كيرلُّس لم يرضَ المصريُّون بذلك ظنًّا منهم أنَّ المجمع وقع في خطإ نسطوريوس فقاوموه. واليك الآن تفاصيل الاحداث التاريخية :

نسطوريوسُ ومجمع أَفَسُس (٤٣١)

بِدعةُ نسطوريوس

وُلد نسطوريوسُ في مرعش في شمال سورية، وترهَّب في أَحد الأَديارِ القريبة من أَنطاكية، ثمَّ قَبِل الدرجةَ الكهنوتية، وأضحَى سنة ٤٢٨ اسقفاً على مدينة القسطنطينية. فأخذ يُحارب البدعَ التي كانت منتشرةً في العاصمة. وسمع بعضَ المؤمنين يُلقِّبون مريمَ العذراء «بوالدة الله» فقاوم هذا اللقب وقد توهَّم أَنَّه ينكر على المسيح ألوهيَّته او انسانيَّته.

مجمعُ مدينةِ أَفَسُس (٤٣١)

تَناهت الى القديس كيرلُّس (٤١٢ - ٤٤٤) رئيسِ أَساقفة الاسكندرية تعاليمُ نسطوريوس، فهبَّ فوراً لمقاومتها. فكتب الى البابا سلستينوس يُطلعه عليها، ويسأله أَنْ يَبتَّ فيها حكمَه. فعقد البابا مجمعاً في رومة سنة ٤٣٠ حَكم فيه بالضلال على أقوال نسطوريوس وهدَّده بخلعه عن منصبه الأُسقفي اذا أصرَّ على التمسُّك بها. ثم فوَّض الى كيرلُّس أمر تبليغ نسطوريوس بحكمه.

امَّا نسطوريوس فطلب الى الملك ثاودوسيوس الثاني عقدَ مجمع مسكونيٍّ للبتّ في الخلاف العقائدي القائم، والفصلِ بين رأيه ورأي القديس كيرلُّس، فوافق الملكُ على طلَبه.

وعُقد المجمعُ في شهر حَزيران سنة ٤٣١ في مدينة أَفَسُس وترأسه القديس كيرلُّس. وافتُتحت الجلسةُ الأُولى قبل وصول يوحنا رئيسِ أَساقفة أَنطاكية ومجموع الأَساقفة السوريِّين. ورشق المجتمعون نسطوريوس بالحِرم، وأقرّوا أَنَّ مريم العذراء والدةُ الاله. فابتهج لها الشعب ابتهاجاً عظيماً.

ووصل الأَساقفة السوريُّون بعد يومين، ورفضوا قرار المجمع قبل ان يُسمع لرأيهم، وانفصلوا عن كيرلُّس. ولمَّا رأى القديسُ كيرلُّس أَنَّ الآراءَ متضاربةٌ حول الأَلفاظ

الفلسفية ، تخلّى عن بعض تعابيره ، كما تنازل السوريُّون عن عدد من ألفاظهم الفلسفية ، فحدث بين الطرفين تقاربٌ وتفاهم. ورضي أساقفة سورية بجرم نسطوريوس ، واعترفوا بأنَّ في المسيح شخصاً واحداً وسادَ الاتفاقُ بين معظم الاساقفة سنة ٤٣٣ .

امَّا نسطوريوس فنفاه الملكُ الى البَتراء في شرق الأُردن ثم الى صحراء ليبية حيث مات منفرداً. ولم يُذعن انصاره القليلون لقرارات المجمع ، وبقوا متشبِّثين بتعاليمه مدَّةً طويلة ، فطُردوا من الدولة الرومانية فالتجأوا الى مملكة فارس ، وأَصبح مذهبُهم فيها المذهبَ الرسمي للكنيسة الفارسية او الكلدانية. وقد اعتنق معظمُهم اليوم الكثلكة وهم الكلدان. وبقي لنسطوريوس بضعة آلاف وهم النساطرة أو الآشوريون ويَسكنون إيران والعراق.

أُوطيخا ومجمعُ خَلقيدونية (٤٥١)

تعاليمُ الراهب أُوطيخا

بالغ بعضُ اصدقاء كيرلُّس في معاداة النسطورية ولاموه على الاتّفاق مع الأَنطاكيِّين ومن بينهم الراهب اوطيخا.

كان اوطيخا راهباً ورئيسَ دير كبير في القسطنطينية، وكان تقيًّا وَرِعاً يهرب من أَمجاد العالم، ولكنه كان جاهلاً عنيداً، ضيِّقَ الفكر والصَّدر. وكان الملك ثاودوسيوس الثاني يَنقاد اليه ويستمع الى أقواله.

وتناهت الى اوطيخا تعاليمُ نسطوريوس، فهبَّ يقاومها بكلِّ قواه، فتطرَّف في اقواله ومواعظه ووقع في نَقيضتها، فأكَّد أَنَّ في المسيح طبيعةً واحدة، وأَنَّه لا يشبهنا لأنَّ طبيعتَه الانسانية قد اضمحلَّت في طبيعته الالهية وذابت فيها.

وشاعت هذه الأَقوال، وتعدَّت جدرانَ الدير، وبلغت مسامعَ أَساقفة أَنطاكية والشرق، وهي أَقوال تخالف تعاليم السوريِّين الذين يؤكِّدون أَنَّ في المسيح طبيعتَين متميِّزتين، واطَّلع الملك ثاودوسيوس على ما يُعلِّمه اوطيخا فتحزَّب له.

الحُكم على أُوطيخا ٤٤٨

وبلغ تعليمُ أُوطيخا فلابيانوسَ رئيسَ أَساقفة القسطنطينية فدعا الراهبَ الشيخ الى مجلسه بحضور ثلاثين اسقفاً وسأله عن آرائه اللاهوتية. فأَكَّد أَنَّ في المسيح طبيعةً واحدة، وهي لا تشبه طبيعتَنا الانسانية. واجتهد الاساقفةُ ان يُقنعوه بخطإه فلم يَقتنع، فرشقوه بالحرم. فرفع دعواه الى البابا لاون، وديوسقوروس رئيسِ أساقفة الاسكندرية ويوفنال رئيس أَساقفة القدس. فلمَّا اطَّلع البابا على تعليمه ثبَّت حكم فلابيانوس وأرسل اليه وثيقةً لاهوتية أَوضح فيها بجلاء عقيدةَ سرِّ التجسُّد الإلهي.

مجمع اللصوص ٤٤٩

واعتبر الملك ثاودوسيوس هذا الحُكم جائراً، فدعا الى عقد مجمع مسكوني في أَفَسُس. والتأم المجمعُ سنة ٤٤٩ باشتراك ١٣٠ اسقفاً، وترأسه ديوسقوروس فتحزَّب

لأوطيخا، ونادَى هو ومعظم الأَساقفة المصريِّين ببراءته وصحَّة تعليمه، ورشقوا فلابيانوسَ بالحِرم وأساؤوا معاملتَه، كما حرموا كل من ارتأى رأيه.

وتناهت هذه الأَخبارُ الى البابا، واستغاث به كثيرٌ من الأَساقفة، وعلى رأسهم ثاوذوريطوس أسقف قورش، فاحتجَّ على اجراءات مجمع أَفَسُس وسمَّاه «مجمعَ اللصوص». وسألَ الملكَ أَنْ يعقد مجمعًا آخر، فلم يُعِرْه أُذنًا صاغية. وتُوفِّي الملكُ في ٢٧ تموز سنة ٤٥٠، وخلَفته في الحكم أُختُه بولكاريا، وتزوَّجت مرقيانوس، وكان عدوَّ الأُوطيخيّة، فرَضي بعقد المجمع.

مجمعُ خلقيدونية ٤٥١

في سنة ٤٥١ اجتمع في خلقيدونية (القريبة من القسطنطينية) أكثر من ٥٠٠ اسقف أغلبُهم شرقيُّون، وعقدوا فيها مجمعاً مسكونياً ترأسه الأُسقفُ بسكازينوس مُوفد البابا لاَوُن.

أَبطل المجتمعون أَعمالَ «مجمع اللصوص» المنعقد في أَفَسُس سنة ٤٤٩، وثبَّتوا حرم أُوطيخا وبرَّأوا ساحة فلابيانوس. وحاكموا ديوسقوروس وعزلوه عن مَنصبه الأُسقفي. وجدَّدوا حرم نسطوريوس، وبعثوا الى البابا لاون برسالة تؤكِّد أَنَّ في المسيح طبيعتَين كاملتين متميِّزتين في أُقنوم واحد.

وقبل أَنْ يُنهي الأَساقفة أَعمالهم اتَّخذوا بعض قرارات إِدارية أهمُّها أَنَّ كنيسة القسطنطينية نالت بالقانون الثامن والعشرين المكانةَ الثانية بعد كنيسة رومة. وقد أَصدَر الاساقفة هذا القانون في غياب ممثِّلي البابا. ولمَّا قَدِمَ بسكازينوس واطَّلع عليه احتجَّ احتجاجاً شديد اللهجة. ورفض البابا لاون تثبيته لأَنَّه يَهضِم حقوق كنيستَي الإِسكندرية وأَنطاكية، وهما كنيستان لها حقوق رسوليَّة قديمة.

الثورة على مُقرَّرات مجمع خلقيدونية

لم يَعبأ الناسُ بالحرم الذي رُشق به أُوطيخا، فقد كانت أَنظارهم موجَّهة الى صيغة التعبير اللاهوتي الذي أصدره المجمع، وهو تعبير يؤكِّد أَنَّ في المسيح طبيعتَين كاملتَين. فهو انتصار ظاهر لتعليم بابا رومة، وأقوال السوريِّين، وإِهمال سافر لرأي القديس كيرلُّس.

ورأى البعض في هذا التعبير أكثرَ من إهمال لرأي كيرلُّس، إنَّه حكم عليه. لأنَّه يَحكم على ديوسقوروس، وديوسقوروس هذا هو أقوَى مدافع عن كيرلُّس. فهو اذاً نقد لتعليم القديس كيرلُّس نفسه وتبرير خفيٌّ لأقوال خصمه نسطوريوس.

وفسَّر الناس في فلسطين ومِصر وسورية مُقرَّرات مجمع خلقيدونية على هذا النحو فثاروا عليها ورفضوا قبولها.

ففي فلسطين تحزَّب الكثير من الرهبان لمذهب الطبيعة الواحدة، وأضرموا نار الفتنة، فقمع الملكُ ثورتَهم بالسلاح. وتوصَّل القديس أفتيموس رئيس الرهبان الى تهدئة الخواطر تدريجياً، فلم تتأصَّل معارضة المجمع الخلقيدونيّ في الديار المقدسة.

وفي مصر هاج الشعبُ على خليفة ديوسقوروس وقتلوه. وتدخَّل الجيش لتهدئة الهياج، فحشروا الجنودَ في معبد سرابيس وأضرموا فيه النار. فانتقم الملك للجنود انتقاماً شديداً.

اما في سورية، فلم تحدث اضطراباتٌ عنيفة. وقد دافع القديسُ سمعان العموديُّ عن مجمع خلقيدونية وناصره.

وأيَّد الامبراطورُ مرقيانوس (٤٥٠ – ٤٥٧) وخليفتُه لاون (٤٥٧ – ٤٧٤) قراراتِ مجمع خلقيدونية، كما ناصره قسمٌ من سكَّان سورية ومصر فلُقِّبوا «بالملكيِّين» ودُعي خصومُهم «بالمونوفيزيِّين» اي بموحِّدي الطبيعة في المسيح.

إلاَّ أنَّ مقاومة مقرَّرات المجمع أخذت تنمو وتشتد تدريجياً في ديورة رهبان الجزيرة وفي البيئات السريانية غير المتأثِّرة بالحضارة اليونانية بمؤازرة الملكَين زينون (٤٧٤ – ٤٩١) وانستاس (٤٩١ – ٥١٨). وقد توصَّلوا في آخر القرن الخامس ومطلع القرن السادس الى ترسيخ اقدامهم في البطريركية الأنطاكية بفضل بعض الأساقفة أنصار الطبيعة الواحدة في المسيح، لا بل احتلَّ بعضُ أنصارهم كرسي البطريركية القسطنطينية.

نَشأةُ الكنائس المونوفيزيَّة

نَشأت الكنائسُ المونوفيزية رسميًّا في عهد الملك يوستنيانوس الأوَّل (٥٢٧ – ٥٦٥). كان هذا الملك من مؤيِّدي مجمع خلقيدونية، ولكنَّ امرأتَه ثاودورة ناصرت معارضيه.

فأخذت تؤازر جماعة المونوفيزيّين في السرِّ والعلانية. واستطاعت بدهائها وسياستها أَنْ تنشرَ مذهبهم بين الناس، خصوصاً في سورية، وتجعل لهم كنيسة مستقلة عن الكنيسة الرسمية في الدولة.

ففي سنة ٥٤٣ اتَّصل الامير الغسَّاني الحارث بن جبلة بالبَلاط القسطنطيني، وسأله اسقفاً لعشائره. فأرسلت اليه ثاودورة أُسقفَين مونوفيزيَّين، هما ثاودوروس أُسقف بصرى في حوران، ويعقوب الملقَّب بالبرادعي أُسقف الرَّها (اورفا). وكان يعقوب رجلاً نشيطاً يمتاز بصلابة الإِرادة وحسن التدبير. فجعل يَجوب الشرق كلَّه، متنقلاً من مكان الى آخر وهو يرسم الأَساقفة والكهنة وينظِّم شؤون الكنيسة المونوفيزيَّة.

ومات يوستنيانوس الملك سنة ٥٦٥ والخلافات المذهبيّة تَقسم مسيحيِّي الشرق الى احزاب متطاحنة. واجتهد ملوك الروم بعده أن يحقِّقوا الوحدة الدينية في مصر وسورية وارمينية ويزيلوا الشقاق فلم يُفلحوا، فتنظَّمت في عهدهم الكنائس المونوفيزيَّة. ولمَّا دخل العرب في عهد هِرَقل أَقرُّوا الوضع الديني القائم.

وأَنصارُ الطبيعة الواحدة هم اليوم الأَقباط الأُرثوذكس، والسريان الأُرثوذكس وكانوا يُعرفون قبلاً باليعاقبة، نسبةً الى يعقوب البرادعي، والارمن الأُرثوذكس أو الغريغوريُّون نسبةً الى القديس غريغوريوس مُنشئ الكنيسة الارمنيَّة. وهم مع قولهم بالطبيعة الواحدة مثل القديس كيرلُّس يدينون آراءَ اوطيخا ويعترفون بأنَّ المسيح إله كامل وانسان كامل. فالخلاف محصور اذاً في الأَلفاظ لا في المعاني الدينية. ولم يترسَّخ الشقاق إلاّ لأسباب ثقافيّة وقوميّة.

الفصل العاشر

النِّظامُ الكَنَسيّ العَامّ وَالبَطرِيَركيّات الخَمْس

مقدّمة

إنَّ النظام الكنسيَّ الذي نشأ في القرن الثالث وأقرّه رسمياً مجمعُ نيقية يقوم بتجمُّع الأَساقفة حول أُسقف عاصمة الاقليم او المتروبوليت. وقد أخذ هذا النظام يمتدُّ تدريجياً الى الغرب. هذا وقد اعترف مجمع نيقية ايضاً بالسلطة العليا التي كانت لرومة والإسكندرية وأنطاكية على مقاطعات أوسع.

وبرزت في القرنَين الرابع والخامس أهمِّيَّةُ كنيستَين أُخريَين، هما كنيستا القسطنطينية والقدس. فعلاً شأنُها واتَّسع نفوذهما، فأقرَّ مجمع خلقيدونية (٤٥١) وضعها الجديد واعترف لأسقفَيها بلقب «رئيس أَساقفة».

ورأى يوستنيانوس الملك في القرن السادس أَنَّ هذه الكنائس الخمس تُشرف على شؤون الأَبرشيات الأُخرى دون مقاومة او اعتراض، فأصدر مرسوماً قسّم به العالم الروماني الى خمس «بطريركيَّات» تخضع لها جميع أبرشيّات الدولة، ومنح أساقفتها لقب «بطريرك»، فثبَّت الوضع الراهن ووطَّد سلطة البطاركة. وهذه البطريركيَّات الخمس هي رومة والقسطنطينية والإسكندرية وأَنطاكية والقدس. واعترف الامبراطور «لبطريرك» رومة بأسبقيَّته على البطاركة الآخرين بل وبمسؤوليته الكبرى عن شؤون الكنيسة جمعاء، إذ دعاه «رئيس كهنة الله أجمعين». وقد نال هذا البطريرك الملقَّب «بالبابا» سلطتَه من السيد المسيح نفسِه لأنَّه خليفة القديس بطرس.



إمبراطور بيزنطيّ

أهميَّة البطريركيّات وعلاقاتُها المتبادَلة

حظيَ المَنصِبُ البطريركي في نظر الحكومة البيزنطية بأهميَّة بالغة، إذ كثيراً ما كان البطريرك يهتمُّ بشؤون الكنيسة والدولة معاً. فكان موضوع اختياره امراً خطيراً للغاية. وكان البَلاط الملكيُّ يعيِّنه غالباً تعييناً سرِّيًّا ويترك لأساقفة البطريركية ظواهرَ الانتخاب القانوني. امَّا البابا، فقد كان الملك يكتفي بالموافقة على انتخابه وتنصيبه.

وكانت كلُّ بطريركية مستقلة عن شقيقاتها الأُخرى فيما يتعلَّق بالإدارة والسياسة الداخلية. فلم يكن البطريرك يخضع مبدئياً إلاَّ للقوانين التي تَسنُّها المجامع المسكونية أو الاقليمية الخاصة ببطريركيته.

إلا أنَّه كان هناك روابطُ هامَّة تجمع بين البطريركيات الخمس وتجعل منها وحدة قوية. الأُولى هي رابطة المُعتَقد الواحد، والكلمة العليا في القضايا العقائدية تعود إلى اسقف رومة. اما الروابط الاخرى فقد انحصرت في امور ثلاثة:

أولاً: عندما يتمُّ انتخاب البطريرك، كان المنتخَب يبعث الى كل من البطاركة الاربعة الآخرين برسالة رسميَّة يُخبرهم فيها عن ارتقائه الى المنصب البطريركي ويضمِّنها صورة ايمانه. فيعترفون به ويقبلونه في شركتهم الروحية، او يرفضون الاعتراف به ويأبون قبوله لأسباب عقائدية أو قانونية.

ثانياً: كان كلُّ بطريرك في اثناء الذبيحة الالهية يذكر اسماء البطاركة الاربعة الآخرين.

ثالثاً: كان كل بطريرك يُوفد من يُمثِّله لدى سائر البطاركة. وكان الممثِّل يقوم بدور السفير في ايامنا هذه.

بطريركيَّة رومة

كانت البطريركية الغربية تشمل اوروبَّة الغربية وافريقية الشمالية والبلقان ما عدا تراقيا. وكان البابا يدير مباشرة شؤون ايطالية، وينيب عنه في البلقان رئيسَ اساقفة تسالونيك، وفي افريقية الشمالية رئيسَ اساقفة قرطاجة.

ولم يكن البابا يتدخل في شؤون الشرق إلا نادراً، أي عندما كانت المحافظة على

صِحَّة المُعتَقَد تقتضي تدخُّله او اذا رُفعت دعوى الى محكمته العليا. وكان يترك كل بطريركية تدبِّر أُمورَها بنفسها تحت سلطة البطريرك المحلي.

امَّا في الغرب فقد التفَّ حوله الشعب المسيحي كلُّه، لا سيَّما بعد انهيار الامبراطوريَّة الرومانية تحت ضربات البرابرة، فظهر للناس الزعيمَ الأَوحد والمدافع الأَكبر عن القِيَم الحضارية والدينية القديمة، هذا علاوة على سلطته العليا التي كانت الشعوب المسيحية تعترف بها منذ القِدَم.

وأَشهر الباباوات في ذلك العصر القديس يوليوس (٣٣٧ – ٣٥٥) الذي دافع عن القديس اثناسيوس اثناء البدعة الآريوسية، وناصر مقررات مجمع نيقية (٣٢٥).

والقديس اينوسنت الأَوَّل (٤٠١ – ٤١٧) الذي دافع عن القديس يوحنا الذهبيِّ الفم بطريركِ القسطنطينية، وحكم بالضلال على تعاليم بيلاج القائل بعدم وجود الخطيئة الأَصلية وعدم ضرورة نعمة الله.

والقديس لاون الكبير (٤٤٠ – ٤٦١) الذي تصدَّى لزعيم البرابرة أَتيلاً ومنعه من دخول رومة. ولهذا البابا مواعظُ وتآليفُ لاهوتيَّة كثيرة وقيِّمة. وقد لعب الدورَ الاول في مجمع خلقيدونية واعتبر المجتمعون رسالتَه العقائدية قاعدة للمعتقد المسيحي في الموضوع. وزالت بعده الامبراطوريةُ الرومانية الغربية واستولى البرابرة القوط على رومة.

وناصر الباباوات بعده مقرَّرات مجمع خلقيدونية (٤٥١) فامتنعوا عن قبول أَنصاف الحلول الدينيَّة وساعدوا في الشرق على انتصار المعتقد الصحيح في ايام الملكَين يوستينوس ويوستنيانوس.

واستعاد يوستنيانوس ملك القسطنطينية افريقية الشمالية وجنوب شرقي اسبانية واستولَى على ايطالية. وبقيت رومة في حوزة البيزنطيِّين مدَّة قرنَين. وكانت مدينة رافينَّا في شمال ايطالية مقرَّ الحاكم البيزنطي.

وكان القديسُ غريغوريوس الكبير (٥٩٠ – ٦٠٤) آخرَ باباوات هذا العهد. ففاوض البرابرة اللومبارديِّين الذين استولَوا على شمال ايطالية، وصدَّهم عن غزو رومة فدفع لهم الجزية من مال الكنيسة. واشتهر بحبِّه لشعبه وبتآليفه القيِّمة. وهو الذي نظَّم الطقس الروماني وثبَّت أَلحانَه الدينيَّة، ويَعدُّه المؤرِّخون من أَعظم باباوات الكنيسة.

بطريركيَّة القسطنطينية

أخذ شأنُ كنيسة القسطنطينية يعلو منذ مطلع القرن الرابع بسبب أهميَّتها السياسية. فإنَّ مجمع القسطنطينية (٣٨١) قد منح أُسقفها «اسبقية الإكرام بعد أسقف رومة لأنها رومة الجديدة» ولكنه لم يخوّله سلطة فعلية معيَّنة.

امَّا مجمع خلقيدونية (٤٥١) فقد أَصدر في إحدى جلساته اثناء غياب ممثِّلي البابا القانونَ الثامن والعشرين فنح به كنيسةَ القسطنطينية المكانة الثانية بعد كنيسة رومة وخوَّل أُسقفها السلطة الفعلية العليا على مقاطعات بنطس وآسية وتراقية. ولم يوافق البابا لاون على هذا القانون لأنه يَهضِم حقوق كنيستَي الإسكندرية وأَنطاكية الرسوليَّتَين.

وأشهر بطاركة هذا العصر القديس بولس (٣٣٧ – ٣٥١) الذي نُفِي مراراً لمناصرته مجمع نيقية، ولجأ الى رومة فأمر الملكُ قونستانسُ الآريوسيُّ بقتله.

والقديس غريغوريوس النازيانزي (٣٧٩ – ٣٨١) صديق القديس باسيليوس الكبير وقد اشتهر بكتاباته اللاهوتية فلُقِّب بالمعلِّم اللاهوتي.

والقديس يوحنَّا الذهبيُّ الفم، الأَنطاكي الأَصل (٣٩٨ – ٤٠٤ – ٤٠٧) فخر كنيسة القسطنطينية. كان مثالَ الراعي الصالح، والخَطِيب المسيحي الشجاع، رَغب في اصلاح الاخلاق فتصدَّى له اعداء كثيرون من البلاط الملكي فنُفِي مرَّتين، ومات في منفاه، في ارمينية سنة ٤٠٧.

والبطريرك نسطوريوس (٤٢٨ – ٤٣١) الذي رشقه بالحرم مجمعُ أَفَسُس (٤٣١).

والبطريرك فلابيانوس الذي تصدَّى لأَقوال اوطيخا وذهب ضحيَّة مجمعِ اللصوص (٤٤٩).

وزار ثلاثةُ باباوات مدينةَ القسطنطينية في غضون القرن السادس واحتفل البابا يوحنا في كنيسة «آجيا صوفيا» يوم عيد الفصح وَفق مراسيم الطقس اللاتيني (٥٢٦) واحتفظ بمَقامه الأَوَّل بالنسبة الى البطريرك.

وعقد الامبراطور يوستنيانوس في القسطنطينية عدَّة اجتماعات دينية بين أَنصار مجمع خلقيدونية ومناوئيه بغية الوصول الى التفاهم والاتِّحاد، فلم تجدِ هذه الاجتماعات نفعاً

وفهم الملك أَنَّ المعارضين يتَّهمون المجمع بأَنَّه برَّأ ساحة أَساقفةٍ كثيرين كانت أَفكارهم تقارب آراءَ نسطوريوس، فأمر بعقد مجمع مسكوني في القسطنطينية سنة ٥٥٣ للحكم بالضلال على تآليفهم وأقوالهم، وضغط على البابا ڤيجيل ليوافق على مقرَّراتِ هذا المجمع فوافق. ومع هذا فقد بقي أَنصار الطبيعة الواحدة متمسِّكين بآرائهم. إلّا أَنَّ مذهبهم تلاشى تدريجيًّا في البطريركية القسطنطينية ولم يبقَ له من مناصر إلّا في المناطق الشرقيَّة من المملكة.

واشتهر في آخر القرن السادس القدِّيسُ يوحنا الصوَّام (٥٨٢ - ٥٩٥). ولَقَّب نفسه «بالبطريرك المسكوني» فأنكر عليه البابا غريغوريوس الكبير هذا اللقب.

بطريركيَّة الإسكندريَّة

حَظِيَت كنيسة الإسكندرية بمكانة سامية في العالم المسيحي القديم قبل ان يعلو شأنُ القسطنطينية، فكان لها المرتبة الثانية بعد كنيسة رومة. وبقيت الإسكندريَّة مدَّةً طويلة مركزَ العلم والمعرفة والفلسفة والحضارة في الدولة الرومانية، وأضحت مدرستُها اللاهوتية في القرن الثالث برئاسة اوريجانوس منارةً للعلوم الدينية العالية.

وكان بين الإسكندرية والقسطنطينية بعضُ المنافسة في تزعُّم أُمور القيادة الدينية. وحاول أَساقفة الإسكندرية أَنْ يتدخَّلوا في شؤون الشرق كلِّه فتصدَّى لهم مجمع القسطنطينية وقرَّر أَنَّ المرتبة الثانية بعد رومة هي لكنيسة القسطنطينية، وأَنَّه ليس لأُسقف الإسكندرية سلطة خارج مقاطعة مصر (مصر وليبية).

ولم تكن مصر مقسَّمة إلى ولايات دينية كالبطريركية الأَنطاكية، ولم يكن فيها إلاَّ متروبوليت واحد وهو البطريرك نفسه. وكانت سلطته مطلَقة، يعيِّن الاساقفة رأساً دون ان يهتمَّ بانتخاب الشعب، فلُقِّب «بالفرعون الكنسيِّ». وقد تمتَّع بهذه السطوة لأنَّه يمثِّل في نظر الشعب السلطة الوطنية الحقيقية، بينما كان الحاكم البيزنطي يستمدُّ سلطته من دولة اجنبية مكروهة.

وأَشهر بطاركة هذا العصر القديس اثناسيوس (٣٢٨ - ٣٧٣) وقد جاهد الجهاد الحسن في سبيل تطبيق مقرَّرات مجمع نيقية.

وخلفه أخوه بطرس (٣٧٣ – ٣٨١) الذي نفاه الملك ڤالنس الآريوسي.

والبطريرك ثاوفيلوس (٣٨٥ – ٤١٢) الذي قاوم أنصارَ اوريجانوس، وتعرّض للقديس يوحنا الذهبيّ الفم.

والقديس كيرلُّس (٤١٢ – ٤٤٤) الذي حارب تعاليم نسطوريوس، وترأس مجمع أَفَسُس (٤٣١) وحكم عليه بالضلال ورشقه بالحرم.

والبطريرك ديوسقوروس (٤٤٤ – ٤٤٩) وقد عارض فلابيانوسَ بطريرك القسطنطينية في مجمع اللصوص (٤٤٩). ولما برَّأ مجمعُ خلقيدونية (٤٥١) ساحةَ فلابيانوس ورشق ديوسقوروس بالحرم ثارت ثائرة المصريّين، وانتخبوا لأنفسهم بطريركاً مناوئاً لمجمع خلقيدونية، ولقَّبوا مؤيِّدي المجمع «بالملكيِّين» اي أَنصار الملك البيزنطي، وسمَّوا أنفسَهم «أقباطاً» اي مصريِّين، وعزَّزوا اللغة القبطية وأهملوا شأنَ اليونانية.

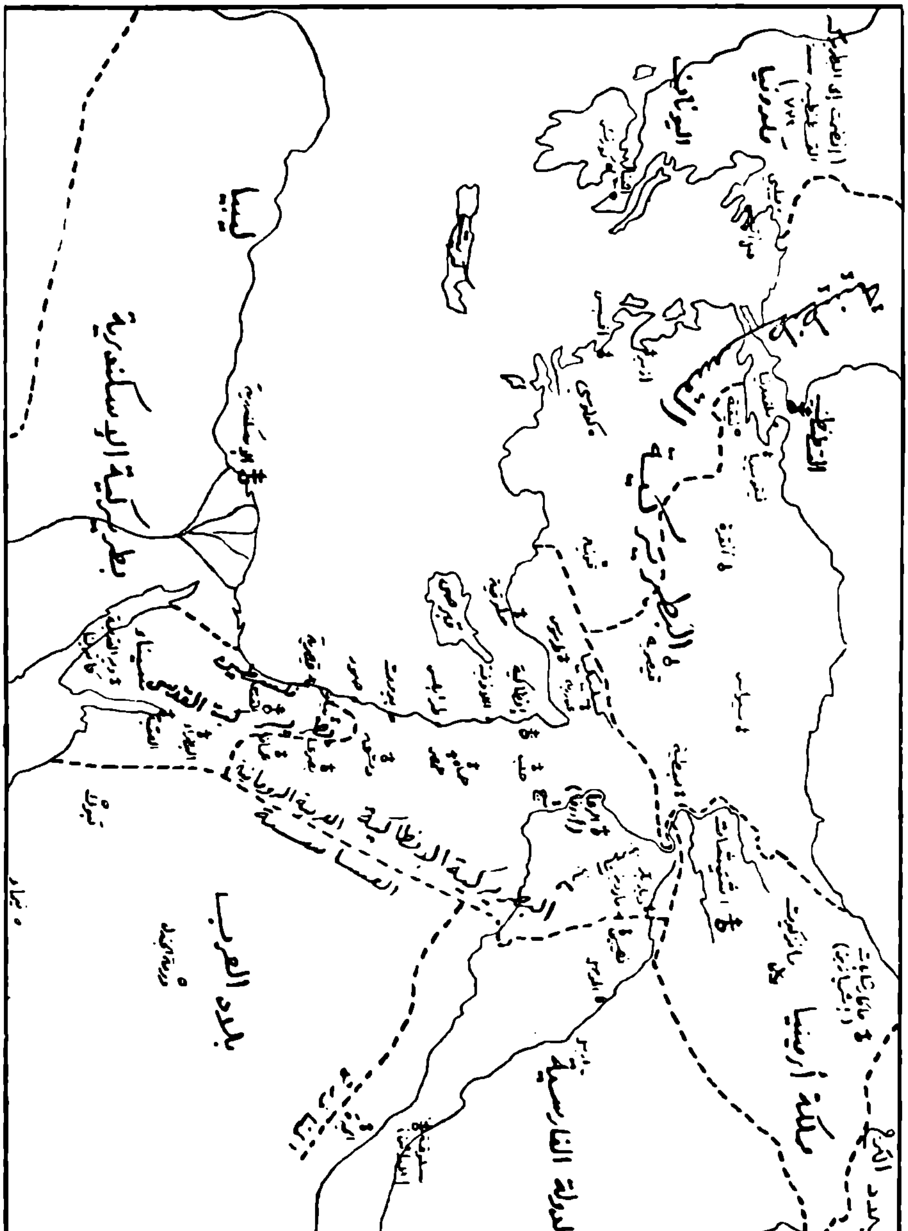
واضطرّ الأَباطرةُ الى التَّساهل معهم فاعترفوا بانقسام البطريركية الى قسمين وهما: البطريركية الملكيَّة وهي قليلة العدد وليس لها كيان يذكر في صعيد مصر، والبطريركيّة القبطية وسواد الشعب المصري من أَتباعها. ثم تصدَّعت الكنيسة القبطية من جرَّاء الانقسامات الداخلية والخلافات المتواصلة مع اليعاقبة السوريِّين، فضعف شأنُها وانعزلت عن العالم المسيحي، وفقدت بسرعة مجدَها القديم.

بطريركيَّة أَنطاكية

أَقرَّ مجمعُ نيقية والمجامع الاخرى سلطة كنيسة أَنطاكية على كل مقاطعات المشرق، أي على بلاد الشام وكيليكية وجزيرة قبرص؛ وامتدَّ نفوذُ أَساقفة انطاكية الى العراق وفارس. ثم ما لبثت عدَّة أَقطار ان انفصلت عنها واستقلَّت. فانشقَّ عنها النصارَى الفرس في مطلع القرن الخامس. واستقلَّت قبرص سنة ٤٣١ في مجمع أَفَسُس، وفلسطين سنة ٤٥١ في مجمع خلقيدونية فأَلَّفت بطريركية القدس.

وكانت البطريركية الأَنطاكية تُقسم في آخر القرن الرابع الى خمسة عشر اقليماً، وعلى رأس كل اقليم مترُوبوليت.

وأشهر بطاركة هذا العصر القديس اوستاتيوس (٣٢٥ – ٣٣٠) وهو أَوَّل اسقف


بلاد العرب
الدولة الفارسية
مملكة أرمينيا
ليبيا

معروف لمدينة حلب، قبل ان يرتقي السدَّة البطريركية. وكان من أَشدِّ أَنصار مجمع نيقية، فنُفي سنة ٣٣٠ وخلفه عدَّة أَساقفة لهم ميول آريوسية. وفي سنة ٣٦٠ انتخب الآريوسيُّون المعتدلون القديس ملاتيوس بطريركاً على أَنطاكية، فتخلَّى عنهم وناصر مجمع نيقية فنُفي ٣ مرَّات. عاد من منفاه الأخير، عام ٣٧٨؛ وتوفي عام ٣٨١، بعد أن افتتح أعمال المجمع القسطنطينيّ.

والقديس فلابيانوس (٣٨١ – ٤٠٤) الذي عرفت الكنيسة الأَنطاكية في عهده ازدهاراً رائعاً وأنجبت كتبةً وخطباء لامعين أَمثال يوحنا الذهبيِّ الفم، وثاودوروس أُسقف مصيصة، وديودوروس أُسقف طرسوس.

ولعب السوريُّون في مجمعَي أَفَسُس وخلقيدونية دوراً مهماً. ولم تجد مقرَّرات مجمع خلقيدونية في سورية معارضة في بادىء الامر، وقد أقرَّها سمعان العمودي الناسك القديس وثاوذوريطس العلاَّمة أُسقف قورش.

ولمَّا تسلَّم زمام الحكم زينون وأَنسطاس – وكانا من معارضي المجمع الخلقيدوني – قويت دعاية أَصحاب مذهب الطبيعة الواحدة في سورية واشتدَّ نشاطهم بهمَّة بطرس القصَّار فحاول الوصول الى السُدَّة البطريركية مراراً كثيرة، ونجح اخيراً في محاولاته فأصبح بطريرك أَنطاكية (٤٨٣ – ٤٩٠).

وناصر فيلوكسانوس أُسقف ممبج المذهب المونوفيزيّ مناصرةً قويَّة فكتب المقالات الكثيرة بالسريانية هاجم فيها تعاليم مجمع خلقيدونية، وأقنع الملكَ أَنسطاس بعزل البطريرك فلابيانوس (٤٩٨ – ٥١٢) صاحب الرأي القويم، وتنصيب الراهب ساويروس بدلاً منه (٥١٢ – ٥١٨)، وكان ساويروس من أَكابر علماء اللاهوت القائلين بالطبيعة الواحدة.

ولمَّا جلس الملك يوستينوس على عرش المملكة، وكان من اعداء المذهب المونوفيزيّ، عزل ساويروس فلجأ هذا الى مصر حيث لاقى ترحاباً كبيراً وتابع من هنالك رعاية أنصاره، وتُوفِّي سنة ٥٣٨.

وقويت شوكةُ الملكيِّين، وكاد الانقسام يزول في سورية. إلا أَنَّه في سنة ٥٤٣ قبل الراهب يعقوب البرادعي الدرجة الأُسقفية بمساعي ثاودورة امرأة الملك يوستنيانوس

واصبح متروبوليتاً عاماً، فأخذ يتنقَّل في مختلف نواحي سورية يرسم الاساقفة والكهنة مؤيِّدي مذهب الطبيعة الواحدة، وأقام في اراضي الامير الغسَّاني الحارث بن جبلة، فانقسمت البطريركية الانطاكية بين الملكيِّين والسريان اليعاقبة. وكان الملكيُّون الاكثرية في المناطق الساحلية والجنوبية، وكان السريان الاغلبية في الجهات الشرقية الشمالية.

ولم تنجح محاولات الأباطرة السلمية منها والعنيفة في ضمِّ شمل المسيحيين المنقسمين، وإزالة الخلاف العقائدي بينهم.

بطريركيَّة القدس

كانت القدس في مَطلع القرن الرابع أبرشيةً بسيطة تابعة لقيصرية فلسطين، وكانت هذه بدورها متعلِّقة من الناحية الكنسية ببطريركية أنطاكية. وأقرَّ مجمع نيقية للمدينة المقدَّسة ميزة شرفية. وقامت فيها البنايات الفخمة التي شيَّدها قسطنطين الملك، لا سيَّما كنيسة القيامة وكنيسة بيت لحم، وكثر الحجاج اليها فازدادت أهميَّتها الكنسية. واشتهر بين اساقفتها في القرن الرابع القديس كيرلُّس (٣٥٠-٣٨٦) وقد ترك مواعظ بليغة ألقاها على جماعة «الموعوظين».

وسعَى الأُسقف يوفنال (٤٢٢ - ٤٥٨) في مجمع خلقيدونية (٤٥١) لرفع شأن كنيسة القدس فحمل اعضاء المجمع على الاعتراف باستقلالها عن كنيسة أنطاكية وجعلها بطريركية تَضمُّ مقاطعات فلسطين الثلاث وقاعدتها قيصرية وبيسان والبتراء.

وعاد يوفنال من المجمع فاستقبله الرهبان استقبالاً عنيفاً، ولم يتأصَّل مذهب الطبيعة الواحدة في الديار المقدسة، ويرجع الفضل في ذلك الى كبار الرهبان مثل القديس أفتيميوس وتلميذَيه القديسَين سابا وثاوذوسيوس. وأضحَى دير القديس سابا القريب من القدس مَعقِلَ المعتقد القويم ولعب دوراً واسعاً في حياة بطريركية القدس.

الفصلُ الحَادي عشر

انتِشارُ الكنيسَة خَارِج العَالَم الرّومَاني

مقدّمة

انتشرت الديانة المسيحية في الامبراطوريَّة الرومانيَّة انتشاراً عظيماً. إلاَّ أنَّها لم تكتفِ برُقعة هذه الدولة، مهما كانت واسعة، لأنَّها ديانة شاملة تدعو اليها شعوبَ الدنيا كلِّها، ولا تَحصر نفسَها في أرض معيَّنة. لمنذ نشأتها الاولى تخطَّت حدود الأراضي الرومانية ودخلت البلاد المجاورة لها وانتشرت فيها. غير أنَّها لم تُنظِّم أُمورها في مختلف هذه البقاع إلاَّ في القرن الرابع.

وها نحن نبحث في أوضاع الكنيسة في بلاد فارس، وأرمينية، وفي ديار العرب، والحبشة، والهند، وأوساط البرابرة الجرمان والإرلنديِّين.

الكنيسة في المَملكة الفارسيَّة

مَولِدُ الكنيسة في بلاد فَارس ونشأتُها الأُولى

دخلت المسيحيَّة بلاد فارس في أوَّل عهد النصرانية. فإنَّ كتاب «أعمال الرسل» يؤكِّد لنا وجودَ الفَرتيِّين (الفارسيِّين) والماديِّين والعيلاميِّين وسكَّان ما بين النهرين في القدس يوم العنصرة. ولا شكَّ في أنَّ المسيحية قد وَطِئت أرضَ الفرس بواسطة من آمن منهم بالمسيح وقبل سرَّ المعمودية.

والاعتقاد السائد في الكنيسة الكلدانية هو أنَّ توما وأدَّاي رسولَي مدينة الرَّها هما اللذان بشَّرا بلاد فارس بالدين المسيحي. وقد اقتبستْ هذا التقليد من الكاتب الشهير أُوريجانوس الذي عاش في القرن الثالث (١٨٥ – ٢٥٤) وذكره بعده أُوسابيوسُ المؤرِّخ الكنسي فقال: «لمَّا تفرَّق الرسل لحمل البشارة الانجيلية كانت بلاد الفَرتيِّين حصَّة توما الرسول». هذا وقد كان للرَّها تأثير كبير في تبشير العراق والبلاد المجاورة. وكانت لغة اهل العراق المتنصِّرين السريانية، وأصبحت فيما بعد لغة الكنيسة الرسمية.

وانتشرت المسيحيَّة في بلاد فارس انتشاراً واسعاً فبلغت في القرن الثالث شرقيَّ البلاد. وقامت هنا وهناك أَبرشيَّات متفرِّقة. وربما كان الأَسرَى الذين سبَاهم سابور الملك بعدما استولى على أَنطاكية سنة ٢٥٦ وسنة ٢٦٠ بين المرسلين الذين بشَّروا الناس بالديانة المسيحية.

الاضطهاداتُ في بلاد فَارس

امتنعت الدولة الفارسيَّة عن اضطهاد المسيحيِّين اضطهاداً رسميًّا ما دامت الدولة الرومانية عدوَّتُها الكَبيرة تكرههم وتطاردهم. ولكن لمَّا اعتنق قسطنطين الملك الديانة المسيحية وناصرها، أضحَى المسيحيُّون الفرس موضوعَ بغض ملوك الدولة الساسانية وحقدهم. فاضطهدهم سابور الثاني (٣٠٩ – ٣٧٩) اضطهاداً شديداً دام من سنة ٣٣٩ حتى سنة ٣٨٧. ولم يهدأ هذا الاضطهاد الا في ايام سابور الثالث الذي عقد مع ثاودوسيوس الكبير اتفاقية هدنة سمح بموجبها للمسيحيين بممارسة عقائد ديانتهم.

وقد استشهد في عهد سابور الثاني الجثالقةُ سمعان برصباغي (٣٤١) وشهودست (٣٤٢) وبربعشمين (٣٤٦). وفي أيّامه ترك مار افرام السرياني مدينة نصّيبين التي أضحت تحت حكم الدولة الفارسية سنة ٣٦٣، والتجأ الى مدينة الرَّها وماتَ فيها سنة ٣٧٣.

وكانت الاضطهادات تخمد أحياناً وتلتهب احياناً اخرى، وكان يشتدُّ لهيبها عندما تقوم الحرب بين المملكتَين الفارسية والرومانية كما جرى في عهد كِسرى أَنوشروان.

تنظيمُ الكنيسة في بلاد فارس

لم تكن الجماعات المسيحية المنتشرة في بلاد فارس تتمتّع بنظام كنسيٍّ محدَّد في القرون الثلاثة الأُولى للنصرانية. فلم تعرف كنيسة الفرس نظاماً يضمُّ شملَ ابنائها إلاَّ في مطلع القرن الرابع. فتمكَّن إذ ذاك فافا بن أَجاي أُسقف ساليق وقطيسفون (المدائن) أَنْ يجمع تحت سلطته جميع المسيحيِّين القاطنين في أراضي الدولة الفارسية فاعترفوا به رئيساً أعلى عليهم ولقَّبوه بالجاثليق (أي بالرئيس العام).

وكانت الكنيسة الفارسيَّة تابعةً منذ ايَّامها الأُولى لكنيسة أَنطاكية، تتَّجه اليها في أوقات المِحَن، وترفع اليها الشكاوى المتعلقة برئيسها الأعلى.

وعقد أَربعون اسقفاً فارسياً مجمعاً في ساليق سنة ٤١٠ برئاسة الجاثليق اسحق (٣٩٩ – ٤١٠) وحضور ماروتا مندوب الكنيسة الأَنطاكية، فرتَّبوا شؤون الكنيسة الفارسية وقسموها الى خمسة اقاليم يرئس كل اقليم منها متروبوليت، ويخضع الجميع لجاثليق المدائن. وكانت علاقات الجاثليق بالبطريرك الأَنطاكي ضئيلة ومتقطِّعة.

ولمَّا ملَك بهرامُ الخامس (٤٢٠ – ٤٣٨) اضطهد المسيحيِّين اضطهاداً شديداً، فأراد اساقفة الفرس ان يُعبِّروا عن ولائهم للدولة الفارسية ففصلوا كنيستَهم سنة ٤٢٤ عن كنيسة أَنطاكية الواقعة في اراضي الدولة الرومانية. وقد تمَّ هذا الانفصال في عهد داد يشوع (٤٢١ – ٤٥٦). وشكَّ المؤرِّخون في صحَّة هذا الخبر، وأَكَّدوا أَنَّ العلاقات بين الكنيستَين الفارسية والأَنطاكية لم تنقطع إلاَّ في أواخر القرن الخامس وذلك لسبب خلافات عقائدية قامت بين الطرفَين.

وحمل جاثليق فارس في أَواسط القرن السادس لقب البطريرك تشبُّهاً بالبطاركة

الخمسة، واشتهر بينهم في القرن السادس مار ابا (٥٤٠ - ٥٥٢) الذي فرض هيبتَه على كسرى نفسه فأخرجه من السجن وامتنع عن اضطهاد المسيحيين.

انتشارُ التعاليم النسطوريَّة في الكنيسة الفارسيَّة

لم ينضمَّ الى مباحثات مجمع نيقية إلاَّ أُسقفٌ واحد من بلاد الفرس. ولم يشترك مسيحيُّو فارس في الجدَل القائم بين نصارَى المملكة الرومانية في ما يختصُّ بعقيدة سرِّ الثالوث الأَقدَس. ثم اطَّلع أَساقفة الفرس في مجمع ساليق سنة ٤١٠ على قرارات مجمع نيقية فاعترفوا بها وأَقرُّوها.

أَمَّا في ما يتعلَّق بعقيدة سرِّ التجسُّد الإلهي فقد تأثَّر الفرسُ بآراءِ اللاهوتيِّين الأَنطاكيِّين القائلين «بالثُنائيَّة» في السيِّد المسيح. وأَشهر هؤلاء اللاهوتيِّين ثاودوروس أُسقف مَصيصة الذي كتب في مطلع القرن الخامس تآليفَ كثيرةً ذات ميولٍ نسطوريَّة واضحة.

وبينما كان بروكلس بطريركُ القسطنطينية يُحذِّر الأَرمنَ من تعاليم هذا الأُسقف، كان إيباس صاحبُ الميول النسطورية ورئيس أَساقفة الرَّها يترجم تآليف ثاودوروس الى السريانية ويعرضها على الفرس بمظهر مُحبَّب مُشوِّق.

واعتاد الكثيرون من شباب الفرس ان يتلقَّنوا دروسهم الدينية في مدينة الرَّها، فتشرَّبوا تعاليمها النسطورية واعتنقوا مذهبها، وكان بينهم الراهب بارصوما الذي أصبح سنة ٤٥٧ أُسقف نصِّيبين وأَيَّد النسطورية تأييداً عظيماً في جميع البلاد الفارسية. ومِمَّا ساعد ايضاً على انتشارها ودعمها هو انتقال مدرسة الرَّها نفسها الى نصِّيبين في فارس سنة ٤٨٩ بعد ان أَغلقها الإمبراطور الروماني زينون مناصر المذهب المونوفيزيّ.

ولم يشترك المسيحيُّون الفرس في مجمعَي أَفَسُس (٤٣١) وخلقيدونية (٤٥١). ولمَّا أرادوا تحديدَ عقيدة التجسُّد الإلهي في مجمع خاصٍّ بهم سنة ٤٨٦ نبذوا القول بالطبيعة الواحدة ومالوا الى النسطوريَّة. ولم يؤكِّدوا قبل سنة ٦١٢ أَنَّ في المسيح «أقنومين». ثم لجأوا الى هذا التعبير لمقاومة مذهب أَصحاب الطبيعة الواحدة الذين ما فتئوا يبثُّون دعايتهم بين الفرس وعرب الحيرة. وعُرفت كنيستُهم منذ القرن السادس بالكنيسة النسطوريَّة، ودُعيت ايضاً بالكنيسة الشرقيَّة، بينما سُمِّيت كنيسةُ اليعاقبة الكنيسةَ السريانية الغربيَّة.

الكنيسةُ الأَرمنيَّة

مَولِدُ الكنيسة الأَرمنيَّة ونشأَتُها الأُولى

كانت ارمينية في مَطلع القرن الرابع دولةً مستقلّة يحكمها ملوكٌ أَرمن. وكانت المسيحيَّة قد تسرَّبت اليها عن طريق الرَّها في غضون القرن الثالث. ولم تنتشر فيها انتشاراً واسعاً إلاَّ في مَطلع القرن الرابع، ويعود الفضل في ذلك الى رسول ارمينية الكبير القديس غريغوريوس المنوِّر (٢٥٥ – ٣٢٦) وهو ابن الأُسرة الأَرمنيَّة المالكة. وقد قبل النصرانيَّة في قيصرية الكبادوك حوالي سنة ٣٠٠ وعاد الى بلاده يُبشِّر فيها بالديانة المسيحية فاعتنقها الملك تيريدات ومعظم الشعب الأَرمني.

وقَبِل غريغوريوسُ الدرجة الأُسقفيَّة هو واثنا عشر اسقفاً من يدَي رئيس أَساقفة القيصرية وحمل لقب جاثليق أَرمينية. وتوالَى على كرسي أَبرشية العاصمة عدَّة أَساقفة كلُّهم من أُسرة القديس غريغوريوس. وفي سنة ٣٧٤ امتنع جاثليق الأَرمن عن قبول الدرجة الأُسقفية من يدَي رئيس أَساقفة القيصرية، فاستقلَّت الكنيسة الأَرمنية عن الكبادوك استقلالاً تاماً، واتَّسمت منذ نشأتها الاولى بطابع القومية والوطنية الضيِّقة واعتنق ملكها وشعبها الدين المسيحي قبل ان يعتنقه الملك قسطنطين.

إزدهار الثقافة الأرمنيَّة في مَطلع القرن الخامس

كانت اللغة الكنسيَّة في أَرمينية حتى آخر القرن الرابع اليونانيةَ والسريانيةَ. ولم يكن للأرمنيَّة حروف أبجدية لكتابتها. فوضع لها الجاثليق اسحق الكبير في مَطلع القرن الخامس حروفاً للكتابة وساعده على ذلك الراهب مَسروب، وقام كِلاهما بحركة ترجمة واسعة النطاق عن اليونانية والسريانية، فنقلا الى الأَرمنية الكتاب المقدس وأَهمَّ تآليف الآباء والكتبة المسيحيِّين ونصوص الطقوس الكنسية. ووضع الكَتَبَةُ الأَرمن كتباً دينية باللغة الارمنية لمحاربة البِدَع. وهكذا قدَّمت الكنيسةُ للغة الأَرمنية أُولى روائعها الأَدبيَّة، ودفعت الأَرمن الى محاربة الفرس في القرن الخامس دفاعاً عن دينهم وقوميَّتهم.

تسلُّطُ الفرس واضطهادهم للأَرمن

اتَّفق الرومان والفرس سنة ٣٨٤ على اقتسام أَرمينية بينهم. وعُقد هذا الاتفاقُ بين ثاودوسيوس الأَكبر وسابور الثالث. وكان للفرس الحصَّة الكبرى وقد بلغت أَربعة أَخماس البلاد. وتركوا في بادىء الامر للأُسرة الارمنيَّة المالكة ظواهرَ الحكم. ودامت هذه الحرية المقلَّصة حتى سنة ٤٢٨، وفيها مات الملك الأَرمني فلم يَسمح بَهرام ملكُ الفرس بتنصيب خَلَف له، وولَّى على الأَرمن مَرْزَباناً فارسياً. واحترم بَهرام الدين المسيحي احتراماً نسبيًّا. أما يَزدجرد الثاني ففرض عليهم سنة ٤٥٠ العودةَ الى المجوسية، فثار ثائرُهم، واجتمعوا صفاً واحداً وقواموا الاضطهاد الديني (٤٥١ - ٤٥٤) واستشهد الكثيرون وسُحِقت ثورتُهم بالدم. وثار الأَرمن مرَّة أُخرى سنة ٤٨١، فاضطرّ مَلِكُ الفرس أَنْ يولِّيَ عليهم واهان زعيم الثورة، وأقرَّ السلام سنة ٤٨٤. أَشهرُ شهداءِ الأَرمن القديس وارطان القائد البطل.

الكنيسة الأَرمنيَّة تعتنق مَذهب الطبيعة الواحدة

انضمَّ الجاثليق اريستاكيس الى مجمع نيقية (٣٢٥). إلاَّ أَنَّ الكنيسة الارمنيَّة لم تتمكَّن من الاشتراك في مجمع أَفَسُس (٤٣١) لأَنَّها كانت خاضعة للفرس. فلمَّا اطَّلعت على قراراته قبلتها ووافقت عليها.

وفيما كان الأَرمن منهمكين في نقل الكتب المقدسة وتآليف أَشهر الكَتَبة المسيحيِّين الى لغتهم، كتب اليهم بروكلس بطريرك القسطنطينية كتاباً يُحذِّرهم فيه من قراءة كتب الأَساقفة الأَنطاكيين وترجمتها، لأَنَّ فيها ميولاً نسطوريَّة. فوجَّههم عن غير قصد منه الى مَذهب الطبيعة الواحدة.

ولمَّا عُقد مجمعُ خلقيدونية (٤٥١) كان الأَرمن يحاربون الفرس، فلم يطَّلعوا على مقرَّراته. وعندما عاد السلام الى بلادهم، واستتبَّ فيها الأَمن والهدوء، ورجعت علاقاتهم الطبيعية مع باقي اجزاء الكنيسة، كان الامبراطور الروماني زينون يؤيِّد آنذاك مذهبَ الطبيعة الواحدة ويحارب قرارات مجمع خلقيدونية ويلاحق أَنصاره. فعقد

الأرمن مجمعاً خاصاً بهم في فاكارشابات سنة ٤٩١ نبذوا فيه مجمعَ خلقيدونية ورسالة البابا لاون، واعتنقت الكنيسةُ الأَرمنيَّة رسمياً مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيَّة).

ولمَّا تسلَّم الإمبراطور يوستنيانوس زمام الحكم في الدولة البيزنطية، وناصر مجمع خلقيدونية نبذوه مرةً ثانية (٥٢٦) وانفصلوا عن الكنيسة البيزنطية انفصالاً عقائدياً بعد أن انشقُّوا عنها انشقاقاً إدارياً. ولم تنجح محاولات الروم لإقناع الأَرمن بقبول المجمع. وكان رفضهم هذا سبيلاً لاستقلالهم عن الإمبراطورية البيزنطية التي كانت تطمع في السيطرة عليهم بواسطة توحيد العقائد الدينيَّة.

العَرب النصارَى قبل الإسلام

عرب الشام

كانت القبائلُ العربية عند ظهور النصرانيَّة تَقطُن منذ أَمَد بعيد في منطقتَي حوران وشرق الأُردن، وهي منتشرة بين الشعوب الآرامية واليونانية.

وأَقام العرب الأنباط لأنفسهم في القرن السادس قبل الميلاد في جنوب شرق الأُردن دولة بلغت أَوْجَ عزِّها في عهد الحارث الرابع (٩٠ - ٤٠ ق. م) فامتدَّت الى سورية وحكمت دمشق واعترفت بها الدولة الرومانية.

وفي سنة ١٠٦ م قضى الرومانيون عليها وجعلوها مقاطعة دُعيت «المقاطعة العربية الرومانية» وقاعدتُها بصرى وهي تابعة كنسيًّا لأَنطاكية.

وانتشرت المسيحيَّة بين عرب الشام منذ العصور الأُولى. واشترك في مجمع نيقية ٣٢٥ خمسةُ أَساقفة من المقاطعة الرومانية العربية.

واقتُطع في أواخر القرن الرابع من المقاطعة العربية قسمُها الجنوبي الممتدُّ من خليج العقبة الى جنوب البحر الميت، وكوَّن فلسطينَ الثالثة وقاعدتُها البَتراء، وخضع كنسيًّا لبطريركية القدس. وواصلت المسيحيَّة نموَّها بين عرب الشام في القرنَين الرابع والخامس. واشترك في مجمع خلقيدونية (٤٥١) سبعةَ عشر أُسقفاً من مقاطعة بصرَى وعشرة من مقاطعة البتراء، مِمَّا يدلُّ على أَنَّ معظم السكَّان العرب كانوا نصارَى.

ولم تقتصر المسيحيَّة على أَهل الحَضر في عرب الشام بل انتقلت منذ القرن الثالث الى قبائل البادية في سورية. وكانت هذه القبائل قد هاجرت من الجزيرة العربية على مراحل متوالية، وخصوصاً بعد خراب سد مأْرِب في اليمن وأَقامت في بادية سورية. وأشهرها غسَّان في الجنوب وتَنوخ في الشمال وتَغلِب في الشرق. وقد دانت بالنصرانية وأقامت عليها اساقفة وقَّعوا محاضرَ جلسات المجامع المسكونية باسم «اساقفة العرب».

ونُقل الينا أَنَّ الصبيبة وهو شيخُ قبيلةٍ عربية كان له ولد مُقعَد، فأبرأَه القديس أَفتيميوس الناسك بمعجزة، فتنصَّر هو وعشيرته. ورسمه بطريرك القدس أُسقفاً ووقَّع محاضر مجمع خلقيدونية باسم «بطرس أُسقف المَضَارب».

وفي وثائق المجمع نفسه توقيعان آخران، الواحد لأُسقف عرب بادية دمشق، والآخر لأسقف عرب بادية الفرات. وقد كَثُرت القبائل في القرن السادس كثرة عظيمة وأخذت تَقطن في المدن نفسها وفي جوارها.

وكانت السيادة السياسية في الشرق آنذاك للدولتَين الكبيرتَين، البيزنطية والساسانية (الفارسية). وكان الغساسنة في جنوب الشام أَنصار البيزنطيِّين، بينما كان المَناذرة في الحِيرة حلفاء الساسانيِّين.

واستعان الإمبراطور يوستنيانوس بالغساسنة النصارَى لصدِّ غارات قبائل البادية ومحاربة امراءِ الحِيرة، فقام الأَمير الغسَّاني الحارث الثاني بن جبلة وهو من أَعظم امراءِ آل جفنة، وحارب المُنذر الثالث أَمير الحيرة وغلبه، فكافأه الامبراطور وجعله سيِّد القبائل العربية كلِّها في الشام، ولقَّبه «بالبطريق» و«الفيلارك» وهما أَعلَى ألقاب الدولة بعد الإمبراطور، ودعاه العرب ملكاً. وكان الحارث نصرانيًّا، وانحاز إلى مذهب الطبيعة الواحدة، وحامَى عن يعقوب البرادعي الذي رُسِم أُسقفاً لعشائره. وارتاب البيزنطيُّون في أمر ابنه المُنذر وشكُّوا في وَلائه لهم لأَنَّه بالغ في حمايته لمذهب اليعاقبة، فحملوه الى القسطنطينية ونَفَوه الى جزيرة صِقلية. وتضاءل نفوذ الغساسنة بعده وانقسم عرب الشام على أَنفسهم وتنازعوا. وفَقَدَ الروم بزوال قوَّة الغساسنة دِرْعاً واقية تَصدّ عنهم هجمات الفرس وغارات الغُزاة.

عربُ العِراق

أقامت في القرن الثالث قبائلُ لَخم اليمنيَّة بجنوب العراق على أَطراف البادية، واتَّخذت لها الحِيرَة مقرّاً وأَسَّست لنفسها دولةً. واعترف الفرس الساسانيُّون باستقلالها ومنحوا امراءَها لقب «الملك».

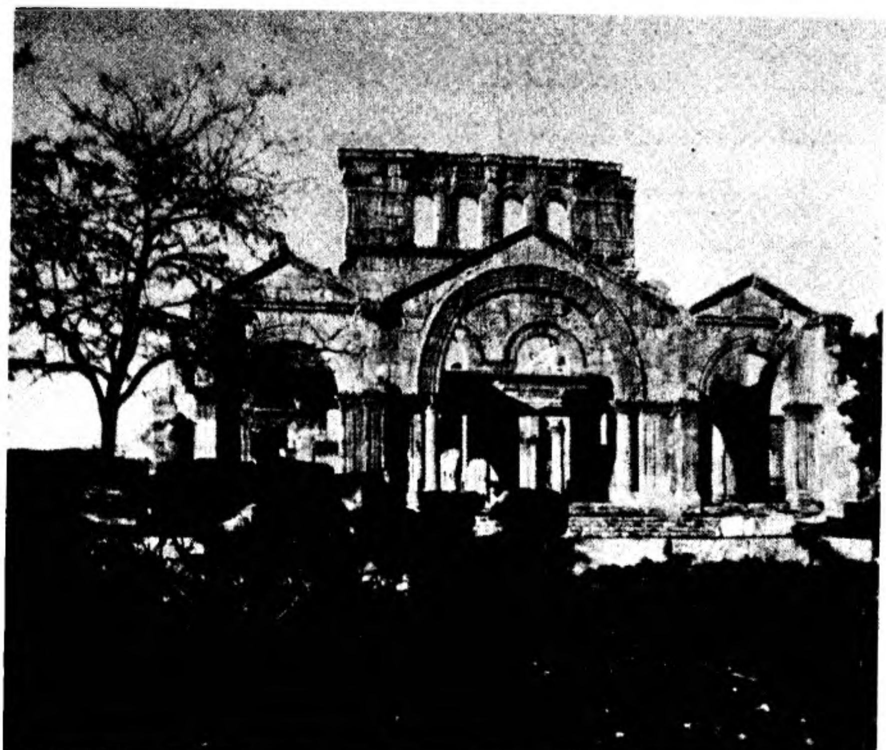
وانتشرت النصرانيَّة في الحيرة، فكان للمسيحيِّين فيها أسقف قد اشترك في مجمع ساليق سنة ٤١٠، كما كان لهم أُسقف آخر في الأَنبار. أمَّا الملوك فقد كانوا عَبَدة أَصنام كملوك الفرس. وقد حاول النُّعمان الأَول المعروف بالأَعور (٤٠٠ – ٤١٨) أَنْ يمنع رعاياه المسيحيِّين من زيارة الناسك العربي سمعان العمودي في منطقة حلب فلم يُفلح. وكان كثيرون من العرب يُقبلون إليه فيعظهم وهو على رأسِ عموده، فيؤمنون بالمسيح.

واعتنق النصرانيَّةَ في آخر القرن السادس الملكُ النُّعمان أَبو قابوس ، ويعود الفضل في تنصيره الى الشاعر المسيحي عَدي بن زيد.

وكان عرب الحِيرة والعراق نساطرةً ، بينما كان الغساسنة يعاقبة ، إلاَّ أَنَّ مذهب الطبيعة الواحدة قد تسرَّب اليهم في أواسط القرن السادس.

عَرَب اليَمَن

من المرجَّح أَنَّ المسيحيَّة دخلت الى أرض اليَمَن في القرن الرابع ، في أَيام الدولة الحِمْيَرية الثانية (٣٠٠ - ٥٢٥) وقامت في عَدن وظَفر ونَجران كنائس ، وازداد انتشار المسيحيَّة فيها بازدياد نفوذ الأَحباش المسيحيِّين في مطلع القرن السادس.



كنيسة جبل سمعان بجوار حلب

ولجأ ملوك اليمن الى يَثرب اثناء الاحتلال الحبشي الاول، فتأثَّروا فيها بالديانة اليهودية، ويبدو أنَّ بعض الملوك التبابعة قد اعتنقوا اليهودية. وفي عهد الدولة التَبعية كان تنافسُ اليهودية والنصرانية قد بلغ أوجه. واستولَى يوسف آخر الملوك التَبابعة الملقَّب بذي نُوَاس على الحكم في اليمن (٥١٠ - ٥٢٣) واضطهد المسيحيِّين وأجبرهم على التَهوُّد وفتك بهم فتكاً شديداً، وأحرقهم في الأُخدود في ظَفر ونَجران (٥٢٣). واستشهد منهم كثيرون، وأشهرهم الحارث ورفقته، وقد أشار القرآن الكريم إلى قصتهم في سورة البروج. فقام الأحباش بحملة تأديبيَّة الى اليمن سنة ٥٢٥ بقيادة القائد أرياط فانتقم من ذي نُوَاس وألجأه في إحدى الروايات الى أنْ يخوض البحر بفرسه وينتحر. وهذا هو الاحتلال الحبشي الثاني لليَمَن (٥٢٥ - ٥٧٠).

وتولَّى الحُكم بعد أرياط أَبْرَهة الأشرم حتى عام ٥٧٠. وثار على الأحباش أميرٌ يمنيٌّ يُسمَّى سيف بن ذي يزَن، والتمس مساعدة الروم في بادىء الامر، فلم يلقَ منهم المعونة، فلجأ الى الفرس. فأرسل كِسرى أنوشروان الى اليمن جيشاً، فطرد الأحباش وبقي الفرسُ يحكمون البلاد بدلاً منهم، الى أنْ جاءَ الإسلام وخلَف الجميع.

واشتهر بين خُطباءِ العرب قُسُّ بن ساعِدة أُسقف نَجران الذي كان يعظ في سوق عُكاظ قرب مكَّة في أواخر القرن السادس.

عَرب نَجْد والحِجاز

تسرَّبت النصرانيَّة وأفكار التوحيد الى عرب شمال الجزيرة العربية، لاتِّصالهم بالعرب المسيحيِّين في الشام والعراق. وأشهر القبائل المتنصِّرة في نَجْد هي كِندة وبَكر ووائل وتَغْلِب وطَيْ.

وتأصَّلت المسيحيَّة في البحرين وعُمان، وكانا تابعَين للنفوذ الفارسي وفيهما عدَّة أبرشيات، أهمها هَجَر قاعدة البحرين، وكلُّها خاضعة لبطريرك ساليق النسطوري.

ونشأتْ في مُدُن شمال الحجاز بعض الأُسقفيَّات ذُكر لنا منها العَقَبة وتَيماء (بلد السَمَوْأل) ودُومة الجُندل (الجوف) وانتشرت النصرانيَّة في وادي القرى.

أمَّا في قلب الحجاز فقد كان عدد المسيحيِّين ضئيلاً. ففي يَثْرب (المدينة) كان

النصارى إبَّان الهجرة بضعَ مئات فقط ، وكانوا في مكَّة والطائف أفراداً ، من النُّخبة الروحية ، يعرفهم الناس هناك بأنَّهم أَهل الكتاب ، وقد نشروا فكرة التوحيد ومن بينهم وَرَقة بن نَوفل قريب خديجة أُولى نساءِ نبيٍّ الإسلام. على أَنَّه رُغم قلَّة عددهم في قلب الحجاز فقد عرف العرب عنهم الكثير من التعاليم المسيحيَّة لقوَّة الروابط التي كانت تَربِطهم بالبلاد النصرانيَّة المجاورة والقبائل المسيحيَّة المُحيطة بالجزيرة العربيَّة من جميع أَطرافها.

ويتَّضح لنا من كل ما سبق أَنَّ النصرانيَّة قد تسرَّبت الى أَغلب القبائل العربية ، ومَنْ لم يَقبل المسيحية منها ، فقد سمع بالإله الواحد. غير أَنَّه لم يكن العرب في الجملة أَصحابَ شعور دينيٍّ عميق ، ولم تكن ثقافتهم الدينية متأصِّلة فيهم ، وخصوصاً لدَى الرُّحَّل منهم. فلم تَنشأ قبل الإسلام كنيسةٌ مسيحيَّة عربيَّة ذات طابع قوميٍّ ، لها كَتَبتُها ولغتها وطقوسها وعاداتها ، كما نشأت مثلُ هذه الكنيسة القومية عند السريان والأَرمن. وكانت غسَّان ولخم وحِمْيَر وهي من أَنصار الروم او الفرس أو الأَحباش ، أَقوى الكُتَل المسيحية وقد تضاءَل نفوذُها في سائر القبائل العربية في أواخر القرن السادس. وما إنْ أطلَّ القرن السابع حتى انهارت هذه الدول فانتقلت الزعامة الى قُريش.

إنتشارُ المسيحيَّة في بعض أَقطار أَفريقية وآسية

الحبشة (إثيوبيا)

تقول الرواية إنَّ المسيحيَّة دخلت بلاد الحبشة بواسطة أَسيرٍ مِن مدينة صور اسمه فرومنسيوس، في القسم الأَوَّل من القرن الرابع. ولمَّا كَثُر عدد المسيحيِّين فيها عاد فرومنسيوس الى الإِسكندرية وقَبِل من يد القديس أَثناسيوس رئيس اساقفتها الدرجة الأُسقفية. وكانت هذه الرسامة الأُسقفية أَساس ارتباط كنيسة الحبشة بالكنيسة المصرية.

وكان للسوريِّين تأثير عميق في تأسيس الكنيسة الحبشية. ففي أواخر القرن الخامس قَدِم الى الحبشة تسعةُ رهبان سوريِّين، هم القدِّيسون التسعة. وأنشأوا تسعة ديورة، وترجموا الكتاب المقدس عن السريانية واليونانية الى الحبشية. ثم غَلَب في ما بعد تأثيرُ الكنيسة القبطية، فتأَصَّل في الحبشة مَذهب الطبيعة الواحدة.

واعتنق ملوك اكسوم العاصمة الدين المسيحي وحالفهم الإِمبراطور يوستنيانوس في محاربة الفرس. وفي سنة ٦١٥ لجأ المسلمون الأولون وعددهم ٨٣ رجلاً و١٧ امرأة الى الحبشة هَرَباً من أَذَى المُشرِكين فأواهم النجاشي. غير أَنَّه لم يتدخَّل في شؤون الحجاز كما فعل سلفُه سنة ٥٢٥ لحماية نصارَى اليمن. وضعف شأنُ دولة الأَحباش في القرن السابع ولم تعد فتزدهر إلاَّ في أَواخر القرون الوسطى.

وانتشرت المسيحيَّة بين قبائل النُّوبة في القرن السادس وبين قبائل الصحارى الكبرى الأَفريقية. ويعود الفضل في نشر الدين المسيحي الى الإِمبراطور يوستنيانوس.

الهند وبعضُ أَقطار آسية

تُشير الرواية الى أَنَّ توما الرسول قد بشَّر الهند بالدين المسيحي. والأَرجح أَنَّ النصرانيَّة قد تسرَّبت اليها بواسطة التجار والجاليات الفارسيَّة والرومانيَّة.

ويُخبرنا الرحَّالةُ قزما في مطلع القرن السادس أَنَّه التقَى جماعاتٍ مسيحيَّة في سوقُوطرة

وسيلان وفي الساحل الجنوبي من الهند حيث يقيم أُسقفٌ يَقبل رسامتَه الأُسقفية في بلاد فارس أَيْ من بطريرك المدائن النِّسطوري. وهؤلاء الهنود النصارَى هم المَلَبار وهم يَخضعون لمراسيم الطقس الكَلداني حتَّى اليوم، وقد انتحل جزءٌ منهم الطقسَ السرياني في القرن السابعَ عشر.

وانتشرت المسيحيَّة بين بعض القبائل التركيَّة، وكان يُقيم منذ القرن الخامس أُسقفٌ في كلٍّ من مَرو ونَيسابور. وتنصَّر الكرَج ايضاً في شمال القَفقاز منذ القرن الرابع وامتازوا عن جيرانهم الأَرمن بأَنَّهم قَبلوا تعليم مجمع خلقيدونية واتَّبعوا الطقس البيزنطي بلغتهم الكَرجية. وكان لبطريرك أَنطاكية الملكيٍّ السلطة العليا عليهم.

الكنيسةُ والجِرمانيُّون الغُزَاة

دخلت المسيحيَّة بين قبائل القُوط الجرمانِيِّين المتمركزين شمالي نهر الدانوب بواسطة الأَسرى الذين سَبَوهم من بلاد الكَبادوك إِبَّان غَزوتهم لآسية الصغرى في منتصف القرن الثالث.

وفي القرن الرابع عُهد الى أولفيلا، وهو من سُلالة أَسرى الكَبادوك، القيام بمُهمَّة في أَنطاكية حيث كان الإمبراطور يقيم آنذاك. وكان أولفيلا ضليعاً باليونانية واللاتينية والقوطية. فوصل الى أَنطاكية سنة ٣٤١ وكان فيها إِذْ ذاك مجمعٌ آريوسي. فتمسَّك به أَعضاءُ المجمع، ومنحه أُوسابيوس أُسقفُ نيكوميدية الدرجةَ الأُسقفية وأَشبعه من آرائه الآريوسيَّة. فلمَّا عاد الى بلاده وضع حروفاً باللغة الجرمانية القوطية، وترجم اليها معظم فصول الكتاب المقدس، وأَقام الطقوس الدينيَّة باللغة الجرمانية، وأَدخل الآريوسيَّة بين بني قومه. ولمَّا تلاشت هذه البدعة في المملكة الرومانية بقي القوط متمسِّكين بها.

ولمَّا اجتاحت القبائل الجرمانية المملكة الرومانية الغربية وأقامت بها في القرن الخامس، كان بعضها لا يزال وثنيًّا، والقسم الأكبر كان آريوسيًّا.

وعلى أَثر اجتياح البرابرة تضعضعت النُّظم الاجتماعيَّة في الغرب واندثرت فيه معالم الحضارة الرومانية، إلاَّ أَنَّ الكنيسة صمدت أَمام هذا السيل الجارف، وتمكَّنت من اكتساب الشعوب الجديدة وتحضيرها تدريجياً، فنشأت في الغرب حضارةٌ مسيحيَّة جديدة. وها نحن نستعرض باختصار أَوضاع الكنيسة في مختلف الأَقطار التي اجتاحها الجرمانيُّون الغُزاة.

في أَفريقية الشمالية

اجتاحها الفَندال حول سنة ٤٣٠، وَهُم أَشهرُ الشعوب الجرمانية شراسةً وضَراوة. وكانوا مسيحيِّين، على مذهب آريوس. فاضطهدوا الكنيسةَ الكاثوليكية فيها اضطهاداً عنيفاً طوال قرنٍ كامل. وتمكَّن الإمبراطور البيزنطي يوستنيانوس من فتح أَفريقية الشمالية

(٥٣٣ – ٥٣٤) فأَعاد للكاثوليك حريَّتهم وممتلكاتهم. وظلَّت أَفريقية في حوزة البيزنطيِّين مدَّة قرن ونصف القرن فاستعادت في هذه الحقبة شيئاً من مجدها المسيحي العريق. ولم تؤلِّف وحدةً قومية مُتراصَّة، فاستولى عليها العرب في آخر القرن السابع.

في فرنسة

غَزاها الفرنجة وكانوا وثنيِّين، ودخلت اليها بعضُ قبائل البُورغون والقوط وكانت آريوسية. وتمكَّن كلوفيس ملك الفرنجة من السيطرة على فرنسة كلِّها واعتنق الديانةَ المسيحيَّةَ الكاثوليكيَّة سنة ٤٩٦، وساعد الأَساقفة على تنصير الفرنجة كلهم في غضون القرنَين السادس والسابع. واختلط الفرنجة بالسكَّان القدماء وانصهروا في شعب واحد. وكانت فرنسة أُولى الدول البربريَّة التي دخلت في حظيرة الكنيسة الكاثوليكية، ولم تتضعضع فيها النُّظم الكنسيَّة القديمة، وأَقام البابا رئيسَ اساقفة آرْل نائباً على فرنسة كلِّها.

في إسبانية

تمركز القوطُ الغربيُّون في اسبانية وكانوا أَهمَّ القبائل الجرمانية، يَدينون بالمسيحيَّة الآريوسيَّة. فاضطهدوا الكنيسةَ الكاثوليكية الأَصيلة، وإِنْ لم يبلغوا شراسةَ القَندال في أَفريقية الشمالية.

واعتنق ملكُهم ريكاردو الدينَ الكاثوليكي سنة ٥٨٩ وأعاد للكاثوليك كنائسهم المُغتصَبة وحريَّتهم المفقودة. فعرفت الكنيسة القوطية ازدهاراً رائعاً في ذلك العهد. وأصبحت طليطلة المقرَّ الأَوَّل للكنيسة الإسبانية وأُقيم فيها مجامعُ عدَّة الى أَنْ دخلها العرب واستولوا عليها عام ٧١١.

في الجُزر البريطانية

لم يحتلَّ الرومانيُّون من الجُزر البريطانية إِلاَّ مقاطعة إِنكلترة الحالية وحدها. وقد دخلت اليها المسيحيَّة في القرن الثالث، ونظَّمت فيها الكنيسةَ واتَّسعت في غضون القرن

الرابع. امّا إيرلندة واسكوتلاندة فقد بقيَتا خارج العالم الرومانيّ ولم تَجتحْها قبائل البرابرة.

ودخلت النصرانيَّة إيرلندةَ في القرن الخامس، ورسولُها الأَعظم القديس باتريك، فعرفت الحياة الرهبانية فيها اثناء القرن السادس ازدهاراً عظيماً، ولعبت إيرلندة دوراً هامًّا في تبشير الشعوب الأُوروبيَّة الوثنيَّة. وكانت إيسكوتلاندة أُولى البلاد التي قَبِلت المسيحية في القرن السادس بفضل إيرلندة. ولا يزال الإيرلنديُّون متمسِّكين حتى اليوم بمُعتقَدهم الكاثوليكي وبالتَّقوى الراهنة.

واجتاحت إقليمَ بريطانية الروماني في القرن الخامس قبائلُ جرمانية إنكلية وسَكسونيَّة، وكانت وثنية، فقضت فيها على معالم الحضارة والمسيحية. ولجأَ السكَّان القُدامَى الى أَطراف الجزيرة الغربية، وعَبَر غيرهم بحرَ المانش وسكنوا في فرنسة ودعيت المقاطعة التي سكنوها باسم «بريطانية». ولم يهتمَّ البريطانيُّون المسيحيُّون الأَقدمون بتبشير الأَنكلوسكسونيِّين بالدين المسيحي، لأنهم أظهروا للبرابرة كراهية عميقة وانفصلوا عنهم في مقاطعات السكن. فاهتمَّ بأمرهم البابا غريغوريوس الكبير وأَرسل اليهم بعثة تبشيرية برئاسة الراهب اوغسطينوس سنة ٥٩٧. وكان الملك أُولير قد تزوَّج بَرتة وهي أَميرة فرنسية كاثوليكية فسمح لأُوغسطينوس بتبشير الشعب. ثم ما عتَّم ان اعتنق هو نفسه النصرانية، وتبعه في ذلك معظمُ أَفراد شعبه. وأصبح اوغسطينوس سنة ٥٩٨ أَوَّل اسقف لكانتربري، ورئيساً أَعلى لكنائس الإنكليز.

ويتَّضح من هذا كلِّه أَنَّ الكنيسة الكاثوليكية قد ربحت المعركة منذ أواخر القرن السادس في جميع أَنحاء العالم الروماني الغربي وأَنشأت مدنيَّة جديدة عُرفت بمَدنيَّة القرون الوسطى.

الفصل الثاني عشر

الحياة الكنسيّة الدّاخليّة من القرن الرّابع الى القرن السّابع

مقدّمة

نَشأت في آخر القرن الرابع ظاهرةٌ جديدة في العبادة المسيحيَّة ألاَ وهي الحياة الرهبانيَّة. فقد رَغِب الكثيرون في اتِّباع الكمال المسيحي، فتركوا العالم وتوغَّلوا في البَراري والقِفار وعاشوا فيها عِيشة الفَقر والعبادة الخالصة. ولجأ البعض الى البريَّة هرباً من الاضطهاد، فاستساغوا الحياةَ المنعزلة، وانقادوا الى التأمل والصلاة، فلم يعودوا إلى ديارهم عندما عاد السلام الى الكنيسة.

واطَّلعت الكنيسة على أوضاع النُّساك والرُّهبان، فاعترفت بها وأقرّت صيغتها الرسمية ونَظَّمت شؤونها الروحيَّة والماديَّة. وقد خدمها الرُّهبان خدمة كبيرة رغم ما بَدر من بعضهم من التدخُّل المُفرط في الشؤون اللاهوتيَّة.

١ - الحياةُ الرُّهبانيَّة

الحياة الرُّهبانيَّة في مِصر

ابتدأت الحياة الرهبانية في مصر بالعِيشة النُّسكيَّة المنعزلة تَمَام الانعزال عن ضَوضاء العالم. فكان الناسك يَقضي أيَّامه في صَوْمَعته وحيداً لا يَرى الناس ولا يَرَونه. فيُصلِّي أَغلب أَوقاته، ويشتغل اشغالاً بسيطة، ويصوم كثيراً، ويسهر شوطاً كبيراً في الليل، فيبكي على خطاياه ويستعدُّ للآخرة الرهيبة. وأَشهر النُّساك القدِّيس انطونيوس الكبير الذي عاش في صَعيد مِصر (٢٥١ - ٣٥٦). وقد ترك لنا سيرة حياته القديس اثناسيوسُ رئيسُ أساقفة الإسكندرية، وكان قد عرفه شخصياً تمامَ المعرفة.

ولم يخفَ على كبار الزُّهاد ما تتضمَّنه هذه الحياة المنعزلة من مشقَّة وخطر. ففكَّروا في ايجاد طريقة أُخرى تُخفِّف من وطأتها وتُزيل شيئاً من صعوبتها. فاهتدوا الى اسلوب الحياة المشتركة بين جدران الدير. وأَوَّل من قام يُحقِّق هذه الفكرة هو القدِّيس باخوميوس (٢٩٢ - ٣٤٦). فبنى ديراً صغيراً في شمال ثيبة سكن فيه بعض الرُّهبان، ثمَّ ازداد عددُهم فبنَى لهم ديورة أُخرى بلغت التسعة. وأقبلت كذلك بعض النساء المتزهِّدات فشيَّد لهنَّ ديرهنَّ الخاص.

وقد نَمَت الديورة في مصر وتعدَّدت في غضون القرنَين الخامس والسادس، ولا يزال بعضُها باقياً حتى اليوم في صحراء النَّطرون جنوب الإسكندرية وفي صعيد مصر. ولما انقسمت الكنيسة في مِصر بعد المجمع الخلقيدوني لم تَذبل فيها الحياة الرهبانية. وعاش الرُّهبان الأَقباط مع الرهبان الملكيِّين جنباً الى جنب، تُرفرف فوق ديورتهم الهادئة أَجنحة المَودَّة والسلام.

باسيليوسُ الكبير يُنظِّم الحياةَ الرُّهبانيَّة

كان للقديس باسيليوس الكبير (٣٢٩ - ٣٧٩) الفضلُ الأَعظم في تنظيم الحياة الرُّهبانيَّة المشتركة. فقد أَدرك أَنَّ الحياة النسكية المنعزلة لا تَصلح إِلَّا لبعض الافراد. أَمَّا

معظم الرُّهبان فعليهم أَنْ يحيَوا في الدير الحياة المشتركة. ولاحظ من ناحية اخرى أَنَّ فرائض باخوميوس تَترك للرهبان الحرية الواسعة في ما يتعلّق بالتقشُّف الفردي ، فمِنهم مَن يبالغ فيه ، ومنهم من يُقصِّر. فكتب فرائضَه على أَساس الطاعة لرئيس الدير. فالطاعة هي خيرُ وسيلة للتقدُّم في طريق الكمال الروحي. وحدَّد أَنواع التقشُّف الجسدي ومَداه وأَجبر الرُّهبان على العمل اليدوي ليحصلوا به على رِزْقهم البسيط. ولم ينسَ واجب الدراسة والصلاة. وأَلزم الرُّهبان بالتعاون في حياتهم المادِّية والأَدبية والروحية حتَّى يؤلِّفوا أُسرة واحدة متعاضدة. فازدهرت في الشرق هذه الحياة المشتركة ازدهاراً رائعاً. وتسرَّبت فرائضه الى قوانين جميع الرهبان البيزنطيِّين، وهم الآن ينتمون اليه ، ويعتبرون أَنفسهم رهبان القديس باسيليوس.

الحياة الرُّهبانيَّة في فِلَسطين

اتَّخذت الحياة الرهبانية في فِلَسطين مظهراً خاصاً. فعاش الرُّهبان هناك عيشةً ليست بالعيشة النُّسكية المنعزلة ، ولا بالعيشة الرُّهبانية المشتركة. فالراهب الفِلَسطيني كان يَطوي خمسة أَيَّام في صومعةٍ بعيدة ، يشتغل ويصلِّي ، ثم يُقبل إلى الدير فيقضي فيه يومَي السبت والاحد ، فيشترك في الحفلات الدينية ، ويتناول القربان المقدس ، ويتحدَّث الى اخوته الرهبان ، ويتزوّد من رئيس الدير بالنصائح الروحية ، ويغادر الدير صباح الاثنين ومعه شيءٌ من الخبز والملح ، وكمية وافرة من القَشِّ والقصب لصُنع البُسُط والسِّلال ، ويعود الى حياة الانزواءِ في القفر مدَّةَ خمسة أيَّام أُخرى. وهكذا إِلى أَنْ توافيه المَنيَّة.

وأَول مَن أَدخل الحياةَ الرهبانية في فِلَسطين القديس إيلاريون الكبير الذي عاش في صحراء غزَّة حول سنة ٣٢٨ ، والقديس خاريطون الذي قضَى شطراً عظيماً من حياته في وادٍ قريب من القدس ، وتُوفي سنة ٣٤٨ بعد أن اسّس ديرَه الشهير جنوب بيتَ لحم.

وأَشهر الرُّهبان في القرنَين الخامس والسادس القديس أَفتيميوس (تُوفي سنة ٤٧٣) والقديس ثاودوسيوس (تُوفي سنة ٥٢٩) والقديس سابا (تُوفي سنة ٥٣٢). وقد أَسّسوا ديورة كثيرة بين القدس ونهر الأُردن ، وكانت لهم السلطة العليا على جميع رهبان فِلَسطين ، ولهم الفضل الأَكبر في منع مَذهب الطبيعة الواحدة من الانتشار في بطريركية

القدس. وأَصبح دير القديس سابا في بادية القدس الشرقية مقرَّ الحياة الفكرية والروحية للرُّهبان الملكيِّين طَوال القرون الوسطى.



دير القدّيس سابا بفلسطين

وبُنِيَ في القرن السادس على جبل سيناء ديرُ القديسة كاترينا المصرية، وهو لا يزال قائماً حتى اليوم. وفيه اشتهر في آخر القرن السادس ومَطلع القرن السابع، القديس يوحنا السُّلَّمي صاحب كتاب «سُلَّم الفضائل».

الحياةُ الرُّهبانيَّة في سورية

انتشرت الحياة الرُّهبانيَّة في العراق وسورية، وخصوصاً في بادية حَلَب الجنوبية وفي جوار أَنطاكية وأَفاميا والرَّها. وقد ترك لنا المؤلِّف ثاودوريطس أُسقف قورش (غربيّ أعزاز) سِيَر عددٍ وافر من النساك والرُّهبان، أَشهرُهم القديس مارون الناسك الذي قضَى حياته منفردًا قرب قورش. وقد اجتمع حوله بعض التلاميذ، فاتَّبعوا طريقته في الحياة النسكيَّة وممارسة الفضائل. وتُوفِّي القديس مارون سنة ٤١٠ فبنَى تلاميذه الرهبان في القرن الخامس بين أَفاميا وحمص ديراً كبيراً ورفعوا الى جانبه كنيسة. ولُقِّب الدير «بدير القديس مارون» ودُعوا بالرهبان الموارنة.

واشتهر ايضاً بين النساك القدِّيس سمعان العمودي (تُوفِّي سنة ٤٥٩). وقد نسك على رأس عمود بين حلب وأنطاكية، وأصبح عمودُه محجَّ الناس يأتونه من كل جهة فيعظهم ويُرشدهم الى طريق الفضائل. ووفدت عليه القبائل العربية فبشّرها بالدين المسيحي ونصَّرها. وبنَى تلاميذه ديراً عظيماً ظلَّ مزدهراً حتى القرن العاشر، ولا تزال خرائبه الأثرية اليوم تشهد بعظمته وفخامته.

الحياةُ الرُّهبانيَّة في القُسطنطينيَّة

ازدهرت الحياة الرهبانية في القُسطنطينيَّة وضواحيها منذ القرن الخامس ازدهاراً رائعاً. فَنَما عدد الرهبان وكَثُرت الديورة في العاصمة حتى بلغت سبعة وستين ديراً تَتْبع كلُّها فرائض القديس باسيليوس.

واشتهر في هذا العصر الرهبان الآكميُّون (كلمة يونانية معناها الذين لا ينامون). وهؤلاء الرهبان هم من أصل سوري أسَّسهم إسكندر الراهب، فبنوا ديرهم على شاطىء الفرات ثم انتقلوا الى البوسفور وعكفوا على الصلاة لا ينقطعون عنها، فلقَّبهم الناس «بالذين لا ينامون». وكان لهم الفضل في محاربة مَذهب الطبيعة الواحدة، ومنعِه من الانتشار في العاصمة.

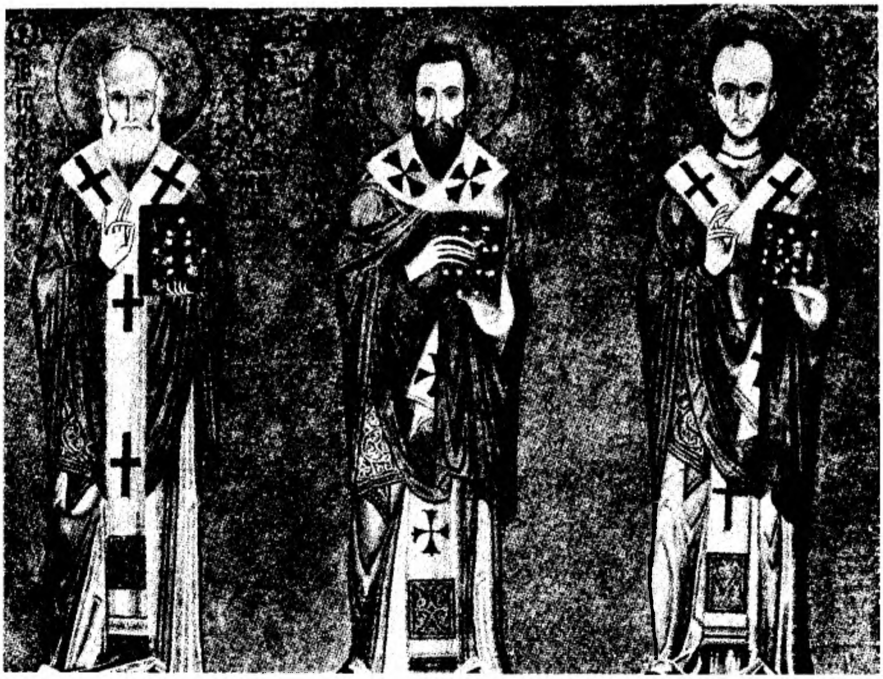
الحياةُ الرُّهبانيَّة في الغرب

نُفي القديسُ أثناسيوس رئيسُ أساقفة الإسكندرية الى الغرب فعرَّف الغربيين اثناء منفاه (٣٣٥ – ٣٤٦) بالحياة الرُّهبانيَّة. ولم يكن رهبان الغرب يتذوَّقون أنواع التقشُّف التي اعتادها الزهَّاد الشرقيُّون، فآثروا عليها النظام الرهباني السائد في ديورة القديس باسيليوس.

ويرجع الفضل في تنظيم الحياة الرُّهبانية في الغرب الى القديس بِندكتُس (مُبارَك) (٤٨٠ – ٥٤٧). فقد عاش بِندكتُس في إيطالية وأنشأ دير كاسينو الشهير، وكتب فرائض الرهبان، فأصبحت القاعدةَ الكبرى التي سار بموجبها جميعُ رهبان الغرب في القرون الوسطى. وقد لعب الرهبان البندكتيُّون دوراً كبيراً في نشر الحضارة المسيحيَّة في أوروبة، ولا تزال حياتهم حتى اليوم أقرب الرهبان الغربيين الى نمط حياة الرهبان الشرقيين.

٢ – مَشاهير الآباءِ القدِّيسين

تُعتبر هذه الحقبة – ولا سيَّما القرن الرابع – العصرَ الذهبيَّ للآداب المسيحيَّة. وقد سطع فيها عددٌ كبير من الآباءِ الذين اتَّصفت كتاباتُهم وتعاليمُهم وخطبُهم بروعة الإِنشاء وعمق التفكير واختلاف المواضيع. وأَهمُّ هذه المواضيع هي التاريخ الكنسيُّ، والتفسير، والجدل، والأَخلاق، والتصوُّف، والتربية، والخطابة، والشعر الديني. وقد لَمَع في الشرق القدِّيسون أَثناسيوس وأَفرام وباسيليوس وشقيقه غريغوريوس أسقف نيصي، وصديقه غريغوريوس اللاهوتي ويوحنا الذهبيُّ الفم وكيرلُّس، وفي الغرب القدّيسون أَمبروسيوس أُسقف ميلانو، وإيرونيموس الراهب، وأُوغسطينوس ولاون الكبير. وقد أَتَى ذكرُ الكثيرين منهم إبّان سرد الأحداث السابقة. وها نحن نأتي على ذكر سيرة ثلاثة منهم، وهم أَفرام الذي كتب بالسريانية، والقديس يوحنا الذهبيُّ الفم الذي خَطَب باليونانية، والقديس أُوغسطينوس الذي أَلَّف روائعه باللاتينيّة.



آباءٌ قدّيسون

القدِّيس أَفرام (٣٠٦ - ٣٧٣)

وُلد القديس أَفرام في نصيبين (قرب القامِشلي) سنة ٣٠٦ ومال الى التزهُّد منذ حداثته فاختاره الأُسقف ليكون له شماساً انجيلياً، وعهد اليه مهمَّة تفسير الكتاب المقدَّس. وقد ساعده في ما بعد على تأسيس مدرسة نصيبين الدينية.

وكانت المدينة وقتئذٍ داخل الأَراضي الرومانيَّة فحاصرها الفرس مراراً ولم يقوَوا عليها، واستولَوا عليها اخيراً سنة ٣٦٣ فخضعت هي وما حولها من القرى للحكم الفارسي. فهجرها أَفرام مع جمع كبير من المسيحيِّين والتجأوا الى مدينة الرَّها، حيث واصل أَفرام نشاطه الرسولي ونظَّم مدرستها، وهدفُه في ذلك بثُّ الثقافة الدينية بين مواطنيه. واشتهرت مدرسة الرَّها فَأَخذ الشبَّان الفرس يؤمُّونها من وراء الحدود في فترات السلام فعُرفت «بمدرسة الفرس». وسلك أَفرام في تفاسيره أُسلوب الأَنطاكيِّين وتُوفي سنة ٣٧٣ وبالغ الأَساتذة بعده في الإِلحاح على الثنائية في المسيح فسقطوا في بدعة نسطوريوس. فما كان من الملك زينون مؤيِّد الطبيعة الواحدة إِلَّا ان أَغلق المدرسة سنة ٤٨٩ فعادت الى نصيبين وطنها الأَوَّل في الأَراضي الفارسية بعد غياب دام قرناً وربع القرن.

ترك لنا القدِّيس أَفرام تفاسير كثيرة لأَقوال الكتاب المقدس، واشتهر خصوصاً بأناشيده الدينية وترانيمه الطقسية وقد بثَّ فيها التعليم الصحيح بأُسلوب عاطفي رقيق رائع. ويعتبر القدِّيس أَفرام من أَمجاد الكنيسة السورية.

القدِّيس يوحنَّا الذهبيُّ الفمِّ (٣٤٤ - ٤٠٧)

وُلد يوحنَّا في أَنطاكية من أُسرة مسيحيَّة نبيلة، ونال ثقافته عن أَيدي أَشهر أَساتذة ذلك العصر في الأَدب والفلسفة والقانون. ولما تُوفِّيت أُمُّه الأَرملة تمكَّن من تحقيق رغبته في العزلة فترك العالم ونسك في الجبال المجاورة مدَّة أَربع سنوات. ولم تحتمل صحَّته النحيلة مشاقَّ الحياة المنعزلة فعاد الى المدينة. فمنحه القديس ملاتيوس رئيسُ أَساقفة أَنطاكية رتبة الشماس الإِنجيلي حول سنة ٣٨٠. فبدأ يوحنا حياته الرسولية بالعمل

والكتابة ولم يُهمل ممارسة العبادة. وفي سنة ٣٨٦ رفعه القديس فلابيانوس إلى الدرجة الكهنوتية، فأضحَى يوحنا خلال اثني عشر عاماً الواعظَ الأكبر لمدينة أنطاكية. واشتهر بفصاحته الخلّابة وتأثيره في الجماهير التي سحرها بكلامه فلقّبه الناس «بالذهبي الفم». وانتُخب يوحنّا سنة ٣٩٧ أُسقفاً على القُسطنطينية، فقام فيها بإصلاحات عميقة، وأعاد للدار الأُسقفية البساطة والزهد، وعمد الى اصلاح الإكليروس والبَلاط الملكي، ودافع عن الفقراء والمظلومين. فاكتسب عداوة الكثيرين فتمكّنوا من نفيه سنة ٤٠٣ في أعقاب انعقاد مجمع غير شرعي ترأسه خصمه ثاوفيلوس رئيسُ أساقفة الإسكندرية. إلّا أنّ الشعب ثار يريد عودة أُسقفه، فأُعيد الى منصبه. واستطاعت الامبراطورة أنْ تنفيه في السنة التالية. فاستغاث بالبابا إينوسنت فلم يُفلح البابا في إعادته الى منصبه. وتُوفّي يوحنا في منفاه في أرمينية سنة ٤٠٧.

ترك القديس يوحنا الذهبي الفم تآليفَ ورسائلَ كثيرة وأهمُّ مواضيعها الحياة الرهبانية، والكهنوت، والدفاع، والمواعظ والتفاسير، منها تفسير انجيل القديس متى في ٩٠ عظة، وتفسير انجيل القديس يوحنا في ٨٨ عظة وتفسير رسائل القديس بولس في ٢٠٠ عظة. ويتبع القديس يوحنا في تفاسيره الأُسلوب الأنطاكي ويستنتج التطبيقات الأخلاقية العملية الكثيرة. وهو يُعتَبر من أعظم الآباءِ اليونانيين. وهو سوريُّ الأصل قد أدخل الى القسطنطينية كثيراً من عادات أنطاكية.

القدِّيس أُوغسطينوس (٣٥٤ – ٤٣٠)

وُلد القديس اوغسطينوس في تاغاست في أفريقية الشمالية (الجزائر الحالية) سنة ٣٥٤ وتلقّى علومه العالية في قرطاجة، ودرس البلاغة والخطابة في عدّة مدن ثم في ميلانو سنة ٣٨٦. وترك لنا في كتابه «الاعترافات» وصفاً عميقاً للأزمة الأخلاقية والعقائدية التي مرَّ بها في سنوات شبابه. وكانت أُمّه التقيّة القديسة مونيكا تبكي وتبتهل الى الله لأجْله. فاستمطرت عليه نعمة الله فارتدَّ عن الكفر والضلال سنة ٣٨٦، وقبل سرَّ المعمودية من يدَي القديس أمبروسيوس أُسقف ميلانو، وعاد الى وطنه وباع أمواله ووزعها على الفقراء وعاش مع أصدقائه عيشة رهبانية.

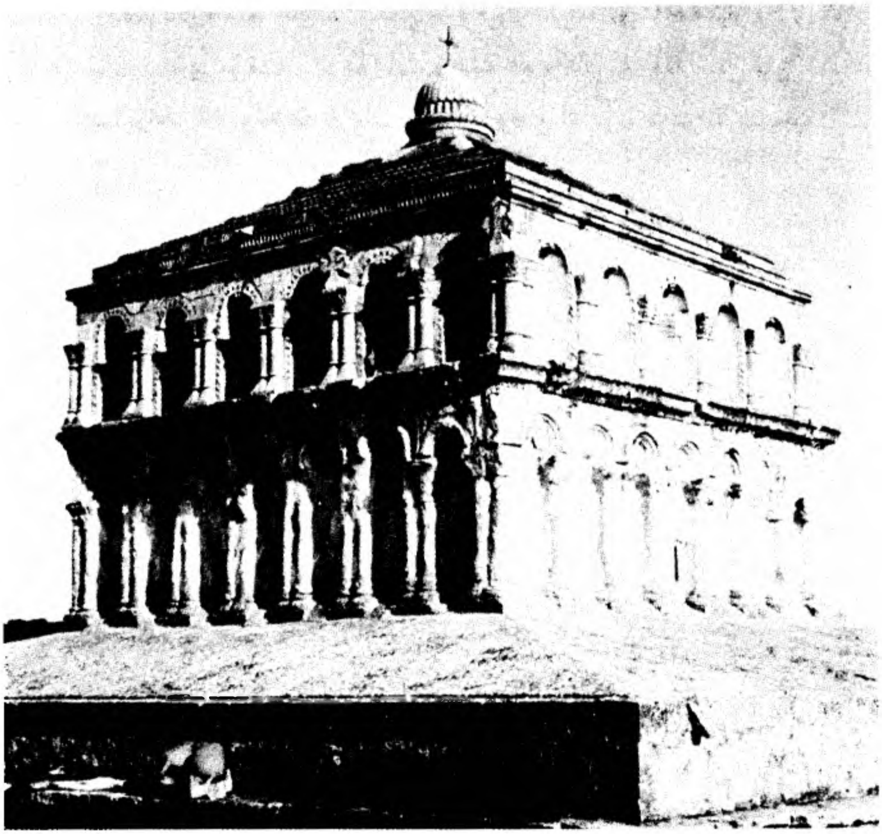
وقَبِل الدرجة الكهنوتية سنة ٣٩١ في مدينة بونا وأَقام بها ونظَّم فيها الحياة الرهبانية ثم اصبح أُسقفاً عليها سنة ٣٩٦. فاهتمَّ بوعظ شعبه وإرشاده، وناضل في سبيل إزالة الانشقاق الذي ضعضع كنيسة أَفريقية بعد اضطهاد ديوقلسيانوس، وحارب المانويَّة وقاوم بدعة بيلاجيوس وهي تُنكر وجود الخطيئة الأَصلية وضرورة النعمة.

وكان لولبَ المجامع الكثيرة التي عُقِدت في أَفريقية آنذاك. وتُوفِّي سنة ٤٣٠ عندما كان القندال البرابرة يحاصرون مدينته.

ترك لنا أوغسطينوس التآليف الكثيرة اللاهوتية والفلسفية والتفسيرية والجدليّة، فأثَّر في الغرب أَعظم تأثير وطبعه بطابعه الفكري مدَّة قرون عديدة. ونشأَ عنه تيَّار فكري عُرِف «بالأُغسطينية». أَشهرُ مؤلَّفاته: الاعترافات ومدينة الله والثالوث. وقد شُغل كثيراً بمشكلة الشر والنعمة والحرية، وعلاقة الإيمان بالعقل، وقدَّم لنا أَوَّل موسوعة مسيحية.

٣ – ازدهارُ العبادة الطقسية

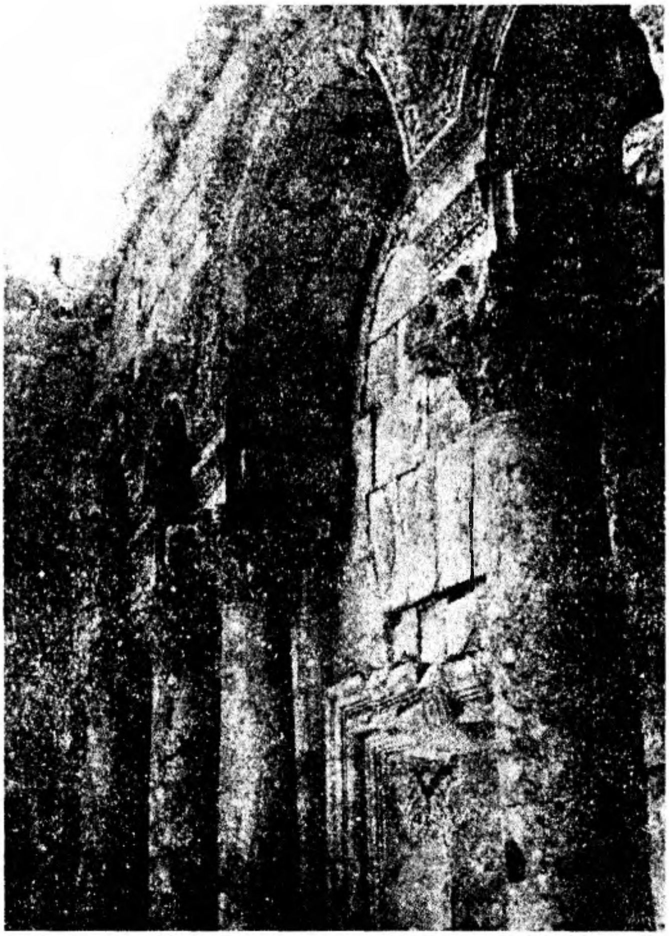
خَرجت الكنيسة في عهد قُسطنطين الملك من الظلمة والخفاء الى النور والحرية وازدهرت العبادة المسيحية أَيَّما ازدهار، فقامت المعابد الفخمة وانتعشت الطقوس الكنسية واتَّسمت الأَعياد الدينية بسمات الأُبَّهة والجلال وانتشرت الأَناشيد الروحية انتشاراً واسعاً. وهذا كله قد ساعد النفوس على الاغتذاء بالمعتقد الصحيح والتقوى المتينة.



كنيسة العذراء في حاح (طور عبدين) من أقدم الكنائس

الكنائس والمعابد

ارتفعت المعابد الفخمة في مطلع القرن الرابع في كل مكان ولا سيَّما في الأَماكن المقدَّسة. وقد ساهم الملك قسطنطين بكَرَم فيَّاض في تشييدها وتزيينها. وأَشهرُ هذه المعابد كنيسةُ القيامة التي شُيِّدت فوق قبر السيِّد المسيح ودُشِّنت سنة ٣٣٥ (دُمِّرت هذه الكنيسة وبُنيت بحجم أَصغر في عهد الصليبيين)، وكنيسة جبل الزيتون، وكنيسة المَهد في بيت لحم، ولم تزل قائمة حتى اليوم، وكنيسة حبرون فوق ضريح ابراهيم الخليل. واتَّخذت الكنائس في ذلك العهد هندسةَ دُور القضاء الرومانية.



كنيسة القدّيسين
سرجيوس وباخوس
في الرصافة (سورية)

ونشأ في القرن الخامس الفنُّ السوري ولا تزال في سورية آثار كثيرة لكنائس فخمة ابيست وشاح هذا الفنّ الرائع. في منطقة الجبال بين أنطاكية وحلب، وبين ريحا والمعرّة كنيسة القديس سمعان العمودي، وكنيسة قلب لوزة (قرب حارم) وغيرهما من الكنائس.

وفي منطقة الفرات كنيسة القديسَين سرجيوس وباخوس (الرُّصافة) وكانت محجّ عرب البادية؛ وفي منطقة حوران آثار كنائس عديدة (قنوات، شهبا، بُصرى) وفي جَرَش آثار كنيسة قديمة. هذا وإنّ المدرسة الحلوية في حلب هي قسم من كاتدرائية حلب في القرن الخامس.



كنيسة آجيّا صوفيّا في القسطنطينية

وأَثَرُ الفنِّ السوري بارز في الفنِّ البيزنطي. ومِن أَروع آياته كنيسة «آجيا صوفيا» التي بناها يوستنيانوس الملك في القُسطنطينية، وكنيسة رافينّا عاصمة إيطالية البيزنطية.

واتَّصفت هذه الكنائس كلُّها بروعة الهندسة وسلامة الذوق وجلال البناء وإتقان التفاصيل وكثرة الفسيفساء وحُسن الصناعة. فكان العصرُ اليوستنياني العصرَ الذهبيَّ لفنِّ البناء البيزنطي.

ازدهارُ الطقوس الدينيَّة وتَنوُّعها

ازدهرت الطقوس الدينيَّة في المَعابد الواسعة الفخمة، وازدادت روعةً بالتطوافات المنظَّمة والترانيم الفنيَّة، وأَشهر مؤلِّفي هذه الترانيم أَفرام السوري ورومانوس الحمصي. وانتشرت في أَنطاكية عادةُ إشراك الشعب في ترنيم المزامير. فالجوقة تُنشد بيتاً والشعب يُردِّد بعده اللازمة على لحن بسيط وهكذا دواليك الى أَنْ ينتهي المزمور.

وازدادت الأَعياد الدينيَّة في القرن الرابع، منها عيد الغطاس، وعيد الميلاد وغيرهما من أَعياد السيِّد المسيح وأُمِّه العذراء. وكان للقدس أَهمية كبرى في انشائها. ثم انتقلت الى غيرها من المدن المسيحية. وتأَثَّرت حفلات اسبوع الآلام تأثيراً عميقاً بحفلات القدس وكانت قد ازدهرت جداً بعد أَنْ بنَى قُسطنطين فيها الكنائس الكبرى.

واحتفل المؤمنون بأَعياد الرسل وكبار الرهبان والزهَّاد والأَساقفة القديسين، وكانوا يكتفون في القرون الأُولى بإقامة ذكرى الشهداء.

وفي هذه الحقبة تَبلورت الطقوس الدينية واتَّخذت شكلها النهائي. ففي رومة اضمحلَّت اليونانية في القدَّاس، وقامت اللاتينية مقامها.

وفي الشرق تشعَّبت الطقوس شُعَباً كثيرة، وكلُّها مُقتبسة من طقسَي الإسكندرية وأنطاكية الأَقدمَين. فالأَقباط في مصر حافظوا على الطقس الإسكندري القديم مع بعض تغييرات طفيفة، وأَهملوا اليونانية في صالح القبطية. واتَّبع الأَحباش ايضاً مراسيم الطقس الإسكندري، ثم طوَّروه وترجموه الى لغتهم.

وحافظ اليعاقبة في سورية على الطقس الأَنطاكي القديم مع بعض الزيادات

والتغييرات وأهملوا اليونانية وتمسَّكوا بالسريانية. واستعمل النساطرة الطقس الأَنطاكي الدارج آنذاك، وزادوه صلواتٍ وأَناشيدَ دينية فأَصبح الطقس الكلداني أو السرياني الشرقي.

واقتبس الأَرمن طقسهم من طقس قيصرية الكَبادوك (وهو نفسه مأخوذ عن الطقس الأَنطاكي) وترجموه الى لغتهم وزادوه أُموراً عدة.

أَمَّا طقس القُسطنطينية – ويدعى الطقس البيزنطي – فهو مشتقٌّ عن طقسَي أَنطاكية والكبادوك، فلمَّا انتشر في العاصمة اكتسب طابعاً ملوكياً. وقد ساهم في تكوينه وتطويره الشعراء والمؤلِّفون من كل انحاء المملكة، ولا سيَّما من سورية.

وظلَّ الملكيُّون محافظين على طقسَيهم القديمَين وهما الإِسكندري في مصر والأَنطاكي في سورية وفلسطين، يقيمونهما في المدن باليونانية وفي القرى بالسريانية. ثم اقتبسوا الكثير عن الطقس البيزنطي وقد ساهموا في تطويره واتَّخذوه نهائياً في القرن الثاني عشر. وما الطقس البيزنطي إِلَّا طقسٌ سوري قد صُقل في العاصمة البيزنطية.

العصر الثالث

الكنيسة منذ ظهور الإسلام حتى حملات الفرنجة

(٦١٠ – ١١٠٠)

تمهيد

يَبدأ في مطلع القرن السابع **عصرٌ جديد** من عصور البشريّة والكنيسة. فالأقطار الشرقية والجنوبية من الدولة الرومانية كانت منذ نهاية القرن الخامس قد انفصلت عن القُسطنطينيَّة وروما **انفصالاً دينيًّا**. ولما أَطلَّ القرن السابع انسلخت عن العالم اليوناني **وانشقَّت عنه سياسيًّا** بعدما كانت قد اتَّصلت به طَوال أَلف سنة منذ عهد فتوحات الإسكندر ذي القرنَين. وقد حصل هذا **الانفصال السياسي** من جرَّاء الغزو الفارسي والفتح العربي. فأَلَّفت سورية ومصر والعراق وأَفريقية الشمالية مع بلاد فارس وجزيرة العرب **قوميَّة** جديدة موحَّدة هي **القومية العربية** ضَعُف فيها الطابع المسيحي.

أَمَّا باقي العالم اليوناني والروماني فقد انشطر هو الآخر الى شطرَين متنافرَين هما **الغرب الأوروبي والشرق البيزنطيّ**. واجتاحت الغرب القبائل البربرية، ففقد باجتياحها معالم الحضارة القديمة، لا سيَّما اليونانية منها، وأَخذ يتمخَّض عن مَولد شعوب لاتينية جديدة في أُوروبة البربرية.

واتَّشح الشرق البيزنطي – وهو الوارث الوحيد للإمبراطورية الرومانيّة – **وشاحًا يونانيًا شرقيًّا** وأَهمل التقاليد الرومانيّة واللغة اللاتينيّة وكانت ما تزال حيَّة في أَيَّام يوستينيانوس الملك. وأَخذت الهوَّة بين الشرق والغرب تَعْمُق وتتَّسع وكلٌّ منهما يحيا حياته الخاصة، ويبتعد عن الآخر حتى تمَّت

كارثة **الانفصال الديني** بين الكنيستين البيزنطية واللاتينية في **القرن الحادي عشر**.

ومع هذا كلّه، فقد كان هذا العصر عصرَ إيمان قوي، استعاضت فيه الكنيسة عن خسارتها في الشرق العربي بفتوحات دينية جديدة، فانضمّت اليها في الغرب **الشعوب الجرمانيّة** كلُّها وفي الشرق **الشعوب السلافيّة**.

كان حوض البحر الأبيض المتوسّط في أيّام قُسطنطين الملك دولة واحدة تربط شعوبها بعضها ببعض روابطُ دينيّة وثقافيّة واحدة، فانقسم في القرن السابع الى ثلاث كُتَل متباينة متنافسة متعادية، **الكتلة العربية**، **والكتلة البيزنطيّة والكتلة الغربيّة**. ولا بُدَّ لنا من دراسة أوضاع الكنيسة في كل من هذه الكتل على حدة. وها نحن قبل ذلك نلقي نظرة خاطفة على الأحوال السياسيّة في هذا العصر.

الفصل الثالث عشر

الأوضاع السّياسيَّة الجَديدَة

الاحتلالُ الفارسيُّ (٦٠٩ – ٦٢٩)

كانت الحرب سِجَالاً بين المملكتَين الفارسية والرومانية. وكان الفرس قد غزوا مِرارًا سورية الشمالية في غُضون القرن السادس.

وقرَّر كِسرى أبرويز (٥٩٠ – ٦٢٨) الاستيلاء نهائيًا على المناطق الشرقية للمملكة البيزنطية المتخبِّطة آنذاك في الفوضى والانقلابات، فعبَر الفُرات واستولى على حلب (٦٠٩) وأنطاكية (٦١١) ثم زحف الى الجنوب ففتح دمشق وبلغ القدس واستولى عليها في ٥ أيَّار ٦١٤. وقتل الفرسُ فيها جميع مَن لم يتمكَّنوا من الهرب وأسروا البطريرك زخريًّا وحملوا عودَ الصليب الى بلادهم. ثم واصلوا زحفهم، فدخلوا مصر واستولوا عليها ٦١٧ – ٦١٨.

وتسلَّم القائد هِرَقل زمام الحكم في القُسطنطينية سنة ٦١٠، وكان البرابرة قد عبروا نهر الدانوب واحتلُّوا البلقان واتَّجهوا نحو العاصمة. فاضطرّ هِرَقل الى مهادنتهم ليأمَن غاراتهم واتَّجه بكل قواه نحو الجنوب لمقاتلة الفرس. وقدَّم سرجيوس بطريرك القُسطنطينية للملك مساعدة مالية جمعها من أموال الكنيسة ليقوم بنفقات الحرب. وترأس هِرَقل نفسه قيادة الجيش بعد أن وكَل أمر الدفاع عن المدينة الى البطريرك.

ودامت الحرب بين الروم والفرس سبع سنوات من ٦٢٢ الى ٦٢٩. وفي غيابه هجم البرابرة على المدينة سنة ٦٢٦ وحاصروها ولم ينفكّ عنها الحصار إلّا باعجوبة نسَبَها الناس الى مريم العذراء. وحارب هِرَقل الفرس وانتصر عليهم وأرغمهم على طلب الصلح. فانسحبوا من مصر وسورية، وامتدَّ نفوذُ الروم الى أرمينية. واستعاد هِرَقل الصليب الكريم ودخل به القدس في احتفال عظيم سنة ٦٣٠.

وكان البطريرك الملكيُّ أَنَسطاس قد قُتل بأنطاكية في فتنة أثارها اليهود اثناء الزحف الفارسي. فلم يسمح الفرس للملكيِّن باقامة خلف له. ومنحوا اليعاقبة الحرية التامَّة. فلمَّا عاد الحكم البيزنطي تضايق منه اليعاقبة أشدَّ المضايقة. وشعر هرقل وهو يَمرّ بسورية وأرمينية بمدى الانقسام الديني بين سكان هذه الأقطار فحاول أنْ يُزيل الشقاق ويُعيد الوحدة الدينية فلم يُفلح.

الفتوحات العربية (٦٣٦-٧١١)

لم تَكد الدولتان العظيمتان الفارسيّة والروميّة تُوقّعان معاهدة الصلح بينهما حتى فوجئتا بالهجوم العربي الإسلامي.

وَثَب العرب من الصحراء على الدولة الفارسية واستولوا عليها بعد المعركتين الفاصلتين، القادسية ٦٣٦ ونَهاوند ٦٤٣. ومكّنتهم القادسية من فتح العراق ومكّنتهم نهاوند من فتح إيران. ولذلك دُعيت نهاوند «فتح الفتوح».

وسقطت المدن السورية الخاضعة لدولة الروم في أَيديهم الواحدة تِلْوَ الأُخرى. وكانت الموقعة الحاسمة بين العرب والروم معركة اليرموك سنة ٦٣٦. فقد خَذَل الفرسانُ الغساسنة النصارى أَسيادَهم الروم وانضمُّوا الى الجيش العربي من بني جنسهم وانقسم جيش الروم على نفسه، فانتصر العرب عليهم انتصارًا عظيمًا. وتُعتبر معركةُ اليرموك في الشام أُخت معركة القادسية في العراق، لأَنها طردت الروم من الشام، ولكن لم تتبعها معركة أخرى تشبه معركة نهاوند وتحطِّم مملكة الروم نفسَها في القُسطنطينية. واستولى العرب على دمشق سنة ٦٣٦ وعلى القدس سنة ٦٣٨ بعد أنْ فاوض البطريرك صفرونيوس الخليفة عمر بن الخطاب نفسه في شروط الاستسلام. وزحف عمرو بن

العاص على مصر سنة ٦٣٩ واشتبك مع الروم في موقعة هليوبوليس وانتصر عليهم سنة ٦٤٠ وحاصر الإسكندرية سنة ٦٤١ ففاوضه كيروس البطريرك الملكي وسلّمه مفاتيح المدينة في شهر تشرين الثاني. وفي ٢٩ من الشهر نفسه غادرت الجيوش البيزنطية مدينة الإسكندرية. وتوجَّه والي مصر عبدالله بن أبي سَرح ففتح بَرْقة وليبية. وما انتهى القرن السابع حتى كان العرب قد استولوا على افريقية الشمالية كلها، ودخلوا الأندلس عام ٧١١.

لقد افتتح الخلفاءُ الراشدون سورية وفارس (٦٣٦ – ٦٤٣) ومصر وجزءًا من آسية الصغرى (٦٣٩ – ٦٤٤).

أمَّا الخلفاء الأمويُّون (٦٦١ – ٧٥٠) فقد نشروا لواء العروبة والإسلام في أفريقية الشمالية والأندلس. وهاجم أُسطول معاوية مدينة القُسطنطينية زهاء خمس سنوات (٦٧٣ – ٦٧٨). وبقيت الحدود بين العرب والروم على هذا الشكل طَوال قرنَين، ولم تتغيَّر رغم الحروب المتواترة.

الأوضاعُ السياسيَّة العامَّة في الدولة العربيَّة (٦٦١ – ١٠٧٥)

كانت المدينةُ عاصمةَ الدولة العربية الناشئة أيَّام الخلفاء الراشدين الأربعة. فلمَّا انتقل الحكم الى الأمويِّين نقل معاوية بن أبي سفيان مقرَّ الخلافة الى دمشق وجعلها قاعدة الدولة.

واستعان الأمويون بالسوريِّين وتوكَّلوا عليهم في تسيير أُمور الدولة وفي الجيش. وكان للنصارى شأنٌ في ادارة الأُمور المالية في الدولة الأمويَّة.

ونقل العباسيُّون مقرَّ الخلافة الى العراق عام ٧٥٠ وبنوا العاصمة الجديدة بغداد، فتضاءلت أهميَّة سورية. ويُقسَم العصرُ العباسيُّ الى قسمين رئيسيَّين، العصر العباسيّ الأوَّل ويحدَّد عمرُه بحوالي مئة عام (٧٥٠ – ٨٤٣) والعصر العبَّاسي الثاني وينتهي بسقوط بغداد (٨٤٣ – ١٢٥٨). ويتَّصف العصر العباسي الأوَّل بقوَّة الخلفاء التسعة، واستئثارهم بالسلطة الفعلية، والدفاع عن أطراف الدولة، ومحاربة البيزنطيِّين، والقضاء على الثورات الداخلية وتشجيع العلم والأدب.

وتظهر دلائل العصر العبَّاسي الثاني منذ أيَّام المُعتصِم الذي استخدم الأتراك في جيشه، وابتدأ فعلاً في عهد المتوكِّل الذي حاول أنْ يتخلَّص من نفوذهم فلم يُفلح وقتلوه. ويمتاز العصر العباسي الثاني بهذَين الحدثَين الهامَّين، الأوَّل تجزئة الدولة العباسية وظهور خلافتين أُخريَين، والثاني نفوذ الأتراك والفرس والسلاجقة في البَلاط العباسي.

١) **تجزئة الدولة العباسية**: دبَّ الضعف في جسم الدولة العبَّاسية في مُنتَصف القرن التاسع. وما كاد هذا القرن ينقضي حتى انسلخت عنها بعض الأقطار فأصبحت دُوَلاً وإمارات مستقلة. استقل أحمد بن طولون بمصر وسورية الجنوبية وأسَّس الدولة الطولونية ودامت من سنة ٨٦٨ حتى ٩٠٥ اي ٣٧ سنة.

وعادت مصر الى الحكم العبَّاسي المباشر مدَّة ثلاثين عاماً. ثم خضعت لحكم الدولة الإخشيدية من سنة ٩٣٥ حتى سنة ٩٦٩، وأشهر امرائها كافور الإخشيدي الذي مدحه الشاعر المُتنبي ثم هجاه.

وقامت في حلب الدولة الحَمَدانية (٩٤٤ – ١٠٠٣) وقد امتدَّت حتى المُوصِل.

وتأسَّست في أفريقية الشمالية دولة الفاطميين وهي شيعية، وأرسل المُعِزُّ لدين الله جيشاً قوياً الى مصر وعلى رأسه القائد جوهر الصِقلّي، فسار جوهر الى الإسكندرية ثم الى الفُسطاط وفتحها وبنَى القاهرة، وأنشأ فيها الجامع الازهر (٩٧٠ – ٩٧٢). واستولت الدولة الفاطمية على جنوب سورية ودامت من سنة ٩٥٢ الى ١١٧١ فقضَى عليها صلاح الدين الأيَّوبي.

٢) **نفوذ الأتراك والفرس والسلاجقة في البَلاط العبَّاسي**: ابتدأ دور نفوذ الأتراك (٨٤٣ – ٩٤٥) في خلافة المتوكِّل ويُعتبَر عهدُه بدءَ انحلال الدولة العبَّاسية، وقد أصبح الخلفاء في هذا الدور تحت رحمة القوَّاد الأتراك، ينتخبون لهذا المَنصب مَن يشاؤون. وأراد الخلفاءُ أنْ يتخلَّصوا من استبدادهم فدعوا بني بُوَيه الى معونتهم وهم من الدَّيلم او الفرس (٩٤٥ – ١٠٥٥). فلمَّا جاؤوا بغداد استبدّوا بالأمر فيها، وأصبح الخليفة أُلعوبة في أيديهم. واستغاث الخليفة العبَّاسي القائم بأمر الله بالأمير السلجوقي طُغْرُل بك فقدم الى بغداد وقضى على البُوَيهيِّين. وهاجم السَّلجوقيون بقيادة ألب أرسلان جيوشَ الروم وكسروهم وانتزعوا منهم قسماً كبيراً من آسية الصغرى، واستولوا على أنطاكية

واللاذقية، ثم طردوا الفاطميين في جنوب سورية (١٠٧٥) وأقاموا الصلاة في دمشق باسم الخلفاء العبّاسيين. إلّا أنّهم لم يقوَوا على صدٍّ حملات الفرنج وغزوات التَتَر وحملة هُولاكو الذي قضى على الدولة العبّاسية (١٢٥٨).

الأوضاع السياسيّة العامّة في الدولة البيزنطيّة (٦٣٦ – ١٠٧١)

تضاءلت رقعةُ دولة الروم بعد الفتح العربي ففقدت الاقطارَ التي كانت فيها الثقافة اليونانية سطحية والانقسامات الدينية عميقة. وتقلّصت ايضاً من حدودها الشمالية، فاستولى السلافيُّون والبَلغار على البَلقان الشمالي، وهي مقاطعة قويت فيها العناصرُ اللاتينية.

وأضحت دولة الروم بعد الفتح العربي دولة يونانية شرقيّة، فتخلّت عن اللاتينية وأحلّت محلّها اليونانية وجعلتها لغة رسمية، وأهمل عاهل الروم لَقَبه اللاتيني «إمبراطور»، واستعاض به لقبًا يونانيًّا هو «ڤاسيلِفْس» أي ملك. ومع هذا فإنّ فكرة الإمبراطورية الرومانية الواحدة ما زالت عالقة في الأذهان. فقد كان الروم في الشرق، والبرابرة في الغرب يتصوّرون أنّ الإمبراطورية الرومانية ما فتئت قائمة. فالشرق والغرب يؤلّفان دولة واحدة لها امبراطور واحد وهو ملك القُسطنطينية. ويقسم تاريخ البيزنطيين الى ثلاث حقب هي:

١ – **حكم الأسرة الهِرَقْلية**: أشهر ملوكها بعد هِرَقل حفيدُه قُونسطان الثاني وقسطنطين الرابع صاحب اللحية. انتشرت الفوضى بعدهما في مملكة الروم فتوالت الانقلابات العسكرية، وتدهور الملوك واستبدَّ القواد بشؤون الدولة. فقد جلس على عرش القُسطنطينية من سنة ٦٩٥ حتى سنة ٧١٧ ستة ملوك بعد انقراض الأسرة الهِرَقلية ذهبوا كلُّهم ضحية انقلابات متوالية. ففقد الروم أفريقية في هذا العهد ووصل سليمان بن عبد الملك الى أسوار القُسطنطينية.

٢ – **القوة في عهد الأسرة الإيصورية**: وتسلّمت زمام الأمور الأسرة الإيصورية المجيدة، فكانت بملوكها العظام وقوّادها الأبطال وسياستها الرشيدة خيرَ عونٍ للدولة البيزنطية المُتداعية. واليك كلمةً عن هؤلاء الملوك:

١) يُعتبر **لاون الثالث** (٧١٧ – ٧٤٠) **وقُسطنطين الخامس** (٧٤٠ – ٧٧٥) من أعظم ملوكها وأشدِّ قوّادها. جلس لاون الثالث على العرش سنة ٧١٧ وكان العرب في عهد سليمان بن عبد الملك يحاصرون القُسطنطينية فدافع عن المدينة دفاع المستميت، فلم يستطيعوا الاستيلاء عليها.

وانتصر قُسطنطين الخامس على العرب في معركة أكرينوس سنة ٧٣٩ في عهد هشام بن عبد الملك وتقدم بجيوشه حتى بلغ الفرات واستولى على أرمينية. وقد ساعدته الظروف على النصر. فقد كانت الحرب قائمة بين الأمويِّين والعبَّاسيين. ولـمَّا انتصر العبَّاسيون على بني أُميَّة ونقلوا مركز الخلافة من دمشق الى بغداد، قلَّ الاحتكاك بين العرب والروم. واستعادت الدولة البيزنطية قوَّتها وبسطت سُلطانها على ربوع آسية الصغرى كلها. إلَّا أنَّ هذَين الملكَين قد أثارا حرباً شعواء على «الإيقونات المقدَّسة» وهاجما الرهبان مهاجمة عنيفة فأقلقا راحة الناس وبلبلا الأوضاع الدينية في الدولة، وفقدا ما تبقَّى لهما من الاراضي في إيطالية.

٢) وأعادت **الملكة إيريني** (٧٨٠ – ٨٠٢) الى المملكة السلام الداخلي، وعقدت الصلح الديني مع رومة والغرب، إلَّا أنَّ حُكمها الضعيف وما تبعه من انقلابات قد جرَّأ البَلغار فهاجموا القُسطنطينية مراراً. فحاربهم الملك لاون الأرمني (٨١٣ – ٨٢٠) وانتصر عليهم. وخلفه مخائيل الثاني (٨٢٠ – ٨٢٧) فلم يقوَ على صدِّ هجمات العرب، فانتصروا عليه وقهروه وانتزعوا منه جزيرتي كريت (٨٢٦) وصِقِلِّية (٨٢٧). وارتقى العرش بعده ثاوفيلوس، وكان رجلاً شجاعاً، فـمَلَك مدَّة طويلة (٨٢٩ – ٨٤٢) فأعاد الى الدولة هيبتها وسطوتها، وعقد صلحاً مع المأمون والمعتصم (بعد فتح المعتصم لعمورية ٨٣٨) وردَّ على الخزينة ثروتها الضائعة وساس البلاد سياسة رشيدة. إلَّا أنَّه حارب الايقونات المقدَّسة وأمعن في اضطهاد الرهبان.

وخلفته امرأته ثاودورة، وبقيت وصية على العرش منذ سنة ٨٤٢ حتى سنة ٨٥٦ مكان ابنها القاصر مخائيل الثالث. كان حُكمها سديداً، فأعاد للبلاد السلام الديني عام ٨٤٣ وللدولة شهرتها البعيدة وبطشها القوي. ويرجع الفضل في ذلك الى اخيها بَرداس. وفي عهده نشأ الخلاف بين القُسطنطينية ورومة بسبب البطريرك فوتيوس. ولـمَّا تَولَّى الحُكم مخائيلُ الثالث (٨٥٦ – ٨٦٧) غَفَل عن أُمور الدولة ومال الى اللهو والخلاعة،

فلم يَلبث وليُّ نعمتِه باسيليوس المقدونيُّ (٨٦٧ – ٨٨٦) أَنْ قتله وارتقَى العرش وأسَّس الأُسرة المقدونية التي كانت فخر الدولة البيزنطية مدَّة مئة وخمسين عاماً (٨٨٦ – ١٠٨١).

٣) **الأُسرة المقدونية فخر الدولة البيزنطية** : استولت الأُسرة المقدونية على زمام الحكم في سنة ٨٦٧ الى ١٠٨١ فأَنبتت رجالاً عظاماً وقواداً ابطالاً وساسة محنَّكين. أَشهرهم باسيليوس الأَول (٨٦٧ – ٨٨٦) وابنه لاون السادس الحكيم (٨٨٦ – ٩١٢) ونيقوفوروس فوقاس (٩٦٣ – ٩٦٩) ويوحنا تسيميساس (٩٦٩ – ٩٧٦) وباسيليوس الثاني (٩٧٦ – ١٠٢٥).

واستولى الروم في عهدهم على جزيرة كريت سنة ٩٦٠ ، وامتدَّت حدودهم حتى بلغت دِجلة. ودخل نيقوفورس ويوحنا تسيميساس كيلكية (٩٦٥) وأَنطاكية (٩٦٨) واقتربا سنة ٩٧٦ من أَبواب القدس ولم يحتفظ الروم إلا بمقاطعتَي أَنطاكية واللاذقية ، وذلك حتى عام ١٠٨٤.

ووجَّهت دولة الروم جُلَّ اهتمامها الى البَلغار. وكان هذا الشعب الشجاع يُقلق بال ملوك القُسطنطينية منذ مطلع القرن السابع . فقد اعتنق النصرانية في عهد الملك بوريس واستطاع أَنْ يوحِّد كلمته ويُحقِّق استقلاله ويطمع في السيطرة على البَلقان. ثم أخذ في عهد القيصر سمعان (٨٩٣ – ٩٢٧) يُلقِي الذعر في قلوب الروم. فحاربوه حرباً شديدة الوطأة استغرقت ثلاثين عاماً (٩٨٦ – ١٠١٤) حتى انتصروا عليه ودحروه.

ودخلت إِيطالية الجنوبية في عهد المقدونيين تحت سيطرة الدولة البيزنطية فترةً من الزمن وكثر فيها الروم حتى دُعيت بلاد اليونان الكبرى.

وكان الملوك المقدونيّون يُحِبُّون العدل والأَمن والنظام ، فأَصدروا القوانين العادلة ، وشجَّعوا التجارة والصناعة والفنون الجميلة ، فأضحت مدينة القُسطنطينية في عهدهم ملكة الدنيا.

وضعف الحكم في القُسطنطينية بعد باسيليوس الثاني وتوالت الانقلابات ووَهَن الجيش ، وكثرت ثورات الإِقطاعيين ، فلم يتمكَّن المقدونيون من الصمود في الغرب أَمام النُورمنديين الذين استولوا على جنوب إِيطالية وشواطىء الأَدرياتيك وهدَّدوا العاصمة

نفسها ولا في الشرق أمام السلاجقة الذين كسروا جيش البيزنطيِّين في معركة منزكرت عام ١٠٧١ واحتلُّوا في اثرها أَرمينية، وقسماً كبيراً من آسية الصغرى، وأَنطاكية. واستولى على الحكم عام ١٠٨١ أَلكسي كُومْنِين وأَنقذ الموقف المُنذر بالخطر.

الأَوضاع السياسيَّة العامَّة في الغرب

تقتسم الغربَ المسيحي عدَّةُ دول في مطلع القرن السابع، وهي دولة القوط الغربيّين في إسبانية، ودولة الأَنكلسكسون في إنكلترة، ودولة المِروفنجيِّين في فرنسة، ودولة اللومبارديِّين في معظم إيطالية.

امَّا الشعوب الجرمانية والسلافية الشمالية والإسكندينافية فكانت لا تزال آنذاك وثنية ولا علاقة لها بالغرب المسيحي.

وسقطت دولة القوط الغربيين الإسبانية في أَيدي العرب سنة ٧١١، ولم يبقَ في حَوزة المسيحيين سوى مقاطعةٍ صغيرة في الشمال الغربي من اسبانية.

وبقي الأَنكلوسكسون منعزلين في جزيرتهم، منقسمين على انفسهم، ولم يجدوا الوحدة الوطنية إلَّا في القرن الحادي عشر. فأَصبح الغرب المسيحي محصوراً بين فرنسة وإيطالية وأَلمانية. وقد وحَّدتها لأَوّل مرة الأُسرة الكاروليّة.

١) **عصر الإمبراطورية الكارولية**: كان كارل مارتيل سيِّدَ البَلاط في فرنسة لما أَوقف زحف العرب في معركة بوَاتيِه عام ٧٣٢. وقلب ابنه بيبان القصير آخر الملوك المروفنجيين الضعفاء عام ٧٥١ واتَّخذ لقب ملك وابتدأ فتوحاته في أَلمانية وإيطالية. وكان اللومبرديُّون قد استولوا على ممتلكات البيزنطيين في إيطالية الشمالية فاستخلصها منهم بيبان القصير وقدَّمها هدية للبابا. فنشأت بذلك «الدولة الباباوية».

وخلفه ابنه كارل الكبير (شارلمان) (٧٦٨ – ٨١٤) فقضَى على دولة اللومبرديِّين في إيطالية، وافتتح البلاد الجرمانية ونشر فيها الدين المسيحي. فتوَّجهُ البابا لاون الثالث في رومة امبراطوراً على الغرب (٨٠٠). وكان لهذا التتويج أَسوأ الأَثر في بلاط دولة الروم، لأَنَّ العقلية آنذاك لم تكن تتصوَّر للدولة الواحدة ملكَين يحملان لقب «امبراطور». والامبراطور الأوحد هو ملك القُسطنطينية سليل أَباطرة الرومان. ويشكّ المؤرِّخون

العصريون في العلاقات السياسية التي ذكرها الرُواة الغربيون الأقدمون بين شارلمان وهارون الرشيد.

وبعد موت كارل الكبير لم يتمكّن خلفاؤه من المحافظة على وحدة هذه الإمبراطورية الواسعة فانقسمت عام ٨٤٣ الى ثلاثة أقسام كبرى لم تلبث أَنْ تفتّتت وأضحت دويلات إقطاعية.

٢) **عصر الإمبراطورية الجرمانية**: تمكّن أَميرساكس أُوتُّون الأول (٩٣٦ – ٩٧٣) من إخضاع سائر الامراء الألمان وضمّهم الى دولته. واستولى عام ٩٥٢ على إيطالية فتوّجهُ البابا عام ٩٦٢ امبراطوراً رومانياً. فنشأت الإمبراطورية الرومانية الجرمانية. وتدخّل الأباطرة الجرمان في تعيين الأساقفة والباباوات، فقاومهم البابا غريغوريوس السابع (١٠٧٣ – ١٠٨٥) ونفض عنه سيطرة الألمان وأصبحت الباباوية السلطة العليا لأوروبة كلّها.

وبقيت فرنسة خارج الإمبراطورية الجرمانية. وانتقل الحكم فيها من الأُسرة الكارولية الى الأُسرة الكابتية. وبقيت سلطة الملك في فرنسة ضئيلة لأنَّ نفوذ الإقطاعيين قد اشتدَّ في البلاد.

وبدأ الإسبان في ذلك العهد هجومهم على العرب في الأندلس، فاسترجعوا النصف الشمالي من بلادهم. واستولى النورمنديون على المقاطعات البيزنطية في جنوب إيطالية وانتزعوا صِقِلّية من العرب، فهدّدت دولتهم ممتلكات البابا. ثم ما لبث النورمنديون أَنْ والوا البابا غريغوريوس وقاوموا الألمان.

بعد هذه العُجالة السياسية لا بُدَّ من العودة الى مواضيعنا الدينية فندرس أوّلاً البدعتين اللتَين قامتا في هذه الحقبة، وهما بدعة توحيد الإرادة في المسيح ثم الحملة على الإيقونات المقدّسة؛ وثانياً أوضاع المسيحيين في العوالم الثلاثة التي ظهرت في القرون الوسطى الاولى: العالَم العربي، والعالم البيزنطي، والعالم الغربي. ونُنهي الموضوع بالبحث في العلاقات القائمة بين كنيستَي الشرق والغرب وما آلت اليه من تفكّك وانحلال.

الفصل الرابع عشر

البدعتان الجديدتان

مقدّمة

قامت في القرون السابع والثامن والتاسع بدعتان جديدتان تميَّزتا عن غيرهما من البدَع القديمة بأنهما اتَّصفتا بأهداف سياسية ودينية على السواء، وربما طغت فيهما الأهداف السياسية على الغايات الدينية.

فالبِدعة الأُولى هي القول بالإرادة الواحدة في السيِّد المسيح، وقد ظهرت قبل الفتح العربي، ورمَت الى توحيد الكلمة بين صفوف النصارى في مصر وسورية، لدَرْء الأخطار السياسية التي كانت تُهدِّد وَحدة الإمبراطورية البيزنطية. فقد لاحظ الإمبراطور هِرَقل، بعد الغزو الفارسي، أنَّ سكَّان هذين القطرَين يَميلون الى الانفصال عنه بسبب الخلاف العقائدي القائم بينهم وبين الروم الحاكمين. فحاول أنْ يَجلِبهم اليه بحلٍّ وَسَطٍ يُقرِّب به وجهة الطرفين، فعرض عليهما فكرة الإرادة الواحدة في المسيح، ولكنَّ محاولته هذه باءت بالفشل الذريع فقد ازدادت بينهما شِقَّة الخلاف وأدَّت الى الانهيار السياسي السريع.

أمَّا البِدعة الثانية، وهي حَملة شعواء شنَّها أباطرة الروم على الإيقونات المقدَّسة، فهي في باطنها هجوم عنيف على صفوف الرهبان أعظمِ المتمسِّكين بعادة إكرام الإيقونات. لقد كانوا آنذاك في وسط الدولة البيزنطية دولة ثانية لها قوّتها المعنوية

والمادية والاجتماعية. فتضايق منها الملوك وعزموا على تقويضها والقضاء عليها. ولمّا رأوا أنَّ سَحْق القوَّة الجبَّارة بطريقة مباشرة أَمرٌ مُحال، عَمَدوا الى الأَساليب غير المباشرة، فأَمروا بتحطيم الإيقونات المقدَّسة. وهبَّ الرهبان للدفاع عنها فهاجمهم الأَباطرة واضطهدوهم اضطهاداً قاسياً. وانتهت المعركة الطويلة الدامية بانتصار الرهبان والرأي القويم. إلّا أنَّ الملوك اعتادوا التدخُّل أكثر فأَكثر في شؤون الكنيسة وتسلَّطوا عليها تسلُّطاً قوياً.

وإليك الآن تفاصيل أحداث هاتين البِدعتَين.

بِدعةُ توحيد الإرادة في السيِّد المسيح

يقول أَصحاب بدعة الإرادة الواحدة في السيِّد المسيح إن في المسيح طبيعتَين وإرادة واحدة فقط. والتعليم الصحيح هو أنَّ في المسيح طبيعتَين وإرادتَين، إرادة إلهية لأَنه إله كامل، وإرادة إنسانية لأَنه إنسان كامل. والقول بإرادة واحدة في السيِّد المسيح يجعل الطبيعة الإنسانية فيه طبيعةً ناقصة ومُشوَّهة، وهو في الواقع انزلاق نحو القول بطبيعة واحدة.

بِدعة القوَّة الواحدة

ما إنْ تسلَّم هِرَقل زمام الحُكم في القُسطنطينية حتى حاول التقرُّب من أَصحاب الطبيعة الواحدة لأَسباب سياسية.

وكان البطريرك القُسطنطيني سَرجيوس، السوري الأَصل، يَرغب هو الآخر في أَنْ يَجْمع صفوفَ أَنصار مجمع خلقيدونية، ومعارضيه المونوفيزيِّين. فابتكر حَّلاً وَسَطاً ظنَّه يُرضي الطَرفَين فقال: إنَّ في المسيح طبيعتَين، ولكن فيه قوَّة واحدة. وعرض عليهما قولَه هذا.

فرَضِي به عازار جاثليقُ الأَرمن، وقبله أَثناسيوس الجمَّال بطريرك اليعاقبة، فاعترف به هِرَقل بطريركاً وحيداً على أنطاكية، ولم يَسمح بانتخاب بطريرك ملكيٍّ. ثم عيَّن الملك في الإسكندرية البطريرك قوروش، وكان قوروش أُسقفاً ملكيًّا في القفقاز. ومنحه صلاحيَّاتٍ واسعة. فما إن قَدِم الى الإسكندرية حتى هرب منها بنيامين بطريرك الأَقباط. وفي سنة ٦٣٣ عُقد في الإسكندرية مجمعٌ أَقرَّ الاتِّحاد بين الأَقباط والملكيِّين على أَساس الطبيعتين والقوَّة الواحدة.

كان هذا الاتِّحاد المزَيَّف ظاهرة فارغة لم يَرضَ عنها معظم اليعاقبة والملكيِّين. وأوَّل من احتجَّ عليها الراهبُ الملكيُّ الدمشقي صُفرونيوس الذي أَصبح سنة ٦٣٤ بطريرك القدس، فنبَّه البابا الى ما في هذا التعليم الجديد من التباس وغموض وخطر على مُعتقد الناس. واطَّلع الملك هِرَقل على هذه المقاومة فأَمر بعدم التحدُّث في الموضوع العقائدي (٦٣٤).

بِدعة الإرادة الواحدة

وتفاقم الوضعُ السياسي في سورية واستولَى العرب على معظم أَراضيها، فأَراد هِرَقل أَنْ يَجلِب اليه أَصحاب الطبيعة الواحدة فأَصدر شرحاً عقائدياً سنة ٦٣٨ أَوضح فيه أَنَّ في المسيح إرادة واحدة. وكان القديس صُفرونيوس بطريرك القدس قد تُوفِّي، فلم يُسمَع في الشرق العربي احتجاجٌ ما. وبلغ البابا يوحنا الرابع هذا القول فعدَّه ضلالاً وبِدعة جديدة. فأَهمله هِرَقل ولم يعد يكترث له. ثم مات وبلاد الروم منقسمة متخاصمة.

وخلفه ابنه قونستان الثاني (٦٤٢ – ٦٦٨)، وتمسَّك بهذه البِدعة تمسُّكاً أَعمى، فقاومه البابا مرتينوس، وأَصرَّ على أَنْ يَنبِذها بطريركُ القُسطنطينيَّة ويَحكم عليها بالضلال. فأَصدر الملك قونستان مرسوماً سنة ٦٤٨ أَمر فيه بالسكوت وعدمِ القول بمشيئة واحدة أو مشيئتَين. ولم يرضَ البابا مرتينوس بالسكوت، فعقد في رومة مجمعًا عظيمًا ضمَّ ٥٠٠ أُسقف نبذوا هذه البدعة ورشقوا أَصحابها بالحرم. فأَوعز الملك الى حاكم مدينة راڤين البيزنطي بأَنْ يقبض على البابا، فقبض عليه وقاده الى الساحة العامة وامتهن الجند كرامته امام أُلوف من الناس ثمَّ نفاه.

وقاوم البِدعة ايضاً الراهب مكسيموس فقبَض عليه الملك وقطع لسانه ويده اليُمنى ونفاه الى قلعة نائية، فأَثارت هذه القساوة البربرية سُخط الشعب وغضبه. وتُوفِّي القديس مكسيموس المعترف عام ٦٦٢ في المنفى وقد خلَّف كتابات لاهوتية ونسكية عميقة.

المجمع المسكوني السادس (٦٨١)

وتسلَّم الحكم قسطنطين الرابع بوغوناطوس (٦٦٨ – ٦٨٥) فعَمِل على تهدئة الخواطر وإعادة السلام الى البلاد. فكتب الى البابا سنة ٦٧٨ رسالة يدعوه فيها الى عقد مجمع في القُسطنطينية لحلِّ هذه المعضلة الدينية.

ودُعي الى المجمع بطريركُ القُسطنطينية وبطريركُ أَنطاكية وأَساقفتها. والتأَم المجمع سنة ٦٨١ في قاعة القصر الملكي، وكان عددُ الأَساقفة مئة وأَربعة وسبعين.

ودرسوا تعاليم هذه البِدعة فرأوها مناقضة للأَقوال الإِلهيَّة فحكموا عليها بالضلال ورشقوا بالحرم كلَّ من علَّمها وسهَّل انتشارها. واندثرت البِدعة تدريجيًّا واضمحلَّت إِلَّا في سورية حيث بقِي لها بعضُ الأَنصار وهم لم يتأَثَّروا بقرارات المجمع السادس لِبُعدهم عن الدولة البيزنطية.

الحملة على الإيقونات المقدَّسة

أَسبابُ هذه الحملة

أَمر بعضُ ملوكِ القُسطنطينية في القرنَين الثامن والتاسع بتحطيم الإيقونات المقدَّسة، واضطهدوا الرهبان بسببها اضطهادًا عنيفاً. وقد اختلف المؤرِّخون في معرفة أَسباب حملتهم هذه. فمنهم مَن ارتأى أَنَّ ملوك الروم قد شنّوا هذه الحملة، تقرُّباً من العرب المسلمين.

ومنهم مَن ذكَر أَنَّ هذه الحملة مَظهَرٌ من مظاهر بِدعة الطبيعة الواحدة. فَإِنَّ بعضَ أَنصار الطبيعة الواحدة قالوا بأَنْ ليس جسد المسيح مادياً كَجَسَدنا، وبالتالي لا يُمكن رَسْمُ صورته. وأَخذ بعض الملوك بهذا القول وأَمروا بتحطيم الإيقونات لأَنَّها خُدعة لا تُمثِّل جسدَ المسيح.

وقال بعض المؤرخين إنَّ الملوك رغبوا في كَسْر شوكة الرهبان وتحطيم قوَّتهم والاستيلاء على أَموالهم، فحملوا على الإيقونات هذه الحملةَ الشعواء لأَنَّ الرهبان كانوا أَشدَّ الناس تعلقاً بها وإِكراماً لها. ويُرجَّح هذا السبب الأَخير لأَنَّه يَتماشى والأَحوال السياسية المضطربة آنذاك في الدولة البيزنطية.

ومهما يَكن من سبب، فقد تعدَّى الملوك على حقوق الله وأَهانوا كرامة أَوليائه القدِّيسين، لأَنَّ إكرام الصور لا يعود الى الأَلواح والأَلوان بل إلى الشخص الكريم الذي تُمثِّله الصورة.

مُلخَّص تاريخ هذه الحملة

يقسم تاريخ هذه الحملة الى مرحلتَين تنتهي كلٌّ منهما بعقد مجمع يُناصر إكرام الصُور المقدَّسة.

١) المرحلة الأُولى (٧٢٣ – ٧٨٧)

منع الملكُ لاون الثالث الإيصوري (٧١٧ – ٧٤٠) إكرام الصوَر، فاستقال

القدِّيس جرمانوس عن مَنصبه البطريركي في القُسطنطينية. وعقد البابا غريغوريوس الثالث عام ٧٣١ مجمعًا حرم فيه الملك لاون. ودافع عن الإيقونات القدِّيس يوحنَّا الدمشقي بكتاباته اللاهوتية. ولكنَّ لاون لم يضطهد الكنيسة اضطهادًا دمويًّا.



يوحنّا الدمشقيّ

أَمَّا قُسطنطين الخامس (٧٤٠ – ٧٧٥) فقد بَدأَ بمقاومة عادة إكرام الإيقونات مقاومةً سريَّة، ثمَّ عقد مجمعاً سنة ٧٥٣ منع فيه اعضاؤه هذا الإكرام واعتبروه ضلالاً وبِدعة. واستند الملك الى قرار المجمع فاضطهد الرهبان المتعلِّقين بإكرام الصور اضطهاداً

عنيفاً، فقَتل أَندراوس الكريتي وسَجن كثيرين غيره. وقاومه البطاركةُ الملكيُّون فعقدوا سنة ٧٦٣ مجمعاً في القدس شجبوا فيه هذه الحملة وعدُّوها بِدعةً في الكنيسة ونبذوها، كما أَصدر عليها الحُكم نفسَه البابا اسطفانوسُ الثالث سنة ٧٦٩.

واستطاعت الملكة إيريني (٧٨٥ – ٨٠٢) بفطنتها وسياستها الرشيدة أَنْ تُعيد السلام الى المملكة فاختارت للمنصب البطريركي القُسطنطيني رجلاً قويمَ العقيدة يُدعَى تاراسيوس، فهيَّأت النفوسَ لقبول التعليم الصحيح، ثم دعت الى عقد مجمع مسكوني، في مدينة نيقية سنة ٧٨٧ حضره ممثِّلو البابا ونوَّاب البطاركة الملكيِّين. فحرم المجتمعون بِدعة تحطيم الإيقونات المقدَّسة، وقرَّروا أَنَّ إكرام الايقونات أَمرٌ جائز ومفيدٌ لتقوَى المؤمنين. ولم يفهم شارلمان ملك الإفرنج معنَى قرارات مجمع نيقية، وحاول أَنْ يمنع البابا أدريانوس من الموافقة عليها، فأَفهمه البابا معناها الحقيقي فاقتنع بها.

٢) المرحلة الثانية (٨١٤ – ٨٤٢)

عاد الملكُ لاون الأَرمني الى مقاومة إكرام الصوَر، فعزل البطريرك نيقوفوروس صاحبَ الرأي القويم عن مَنصبه، وعقد مجمعاً نَبَذ فيه اعضاؤه عادةَ إكرام الصور، وهدَّد الملك كلَّ من يكرمها بأَشدِّ العقوبات. وانتصب الرهبان في وجهه يقاومون تعليمَه، فاضطهدهم اضطهاداً عنيفاً. فاحتملوا منه كلَّ أَنواع العذاب من ضرب وجلد وتحقير وسجن وتقتيل، فكانوا مثالاً حيًّا للمسيحيِّين في أَوقات الشدَّة والضيق.

وغَضِب الملكُ ميخائيل الأَلْثَغ على مَنْ أَكرم الإيقونات، واختصَّ منهم الرهبان. واستولَى العرب في ايَّامه على جزيرتَي كرِيت (٨٢٦) وصِقِلِّية (٨٢٨) فاعتبر الأَتقياء فشلَ الدولة البيزنطية عِقاباً من الله تعالى.

أمَّا الملك ثاوفيلوس فقد فاق الجميع تشنيعاً بالرهبان. فقد أَمعن في اضطهادهم فنفاهم وسجنهم وجلدهم وعذَّبهم. وكتب على جبهتَي الأَخَوين الراهبين ثاوفانوس وثاوذوروس بحديدة مَحمية في النار أَشعاراً تطعن في حقِّ الايقونات المقدسة.

وأَعادت زوجتُه ثاوذورة بعد وفاته التعليم القويم، فعقدت مجمعاً (٨٤٣) اعترف بصحة قرارات مجمع نيقية المسكوني المنعقد سنة ٧٨٧ ورشق أَصحابه بدعة تحطيم

الإيقونات بالحرم، وأمر بإقامة عيد لها يحتفل به في الأحد الاول من الصوم الكبير، ويسمَّى «أحد الأرثوذكسيَّة» أي أحد الرأي القويم. وفيه يكرم المؤمنون صورة السيِّد المسيح إكراماً خاصاً.

نتائجُ هذه الحملة

كان لهذه الحملة نتائج سياسية ودينية وخيمة أهمُّها أنَّها:

أَضعفت الدولةَ البيزنطية إذ أساءت الى وَحدتها في الداخل والى سُمعتها في الخارج؛

وحملت البابوات على الالتجاء الى ملوك الافرنج والتخلِّي عن مساعدة ملوك القُسطنطينية؛

وخلقت جوًّا من النفور المتبادَل بين الشرق والغرب؛

ودفعت الكثيرين من الرهبان الى المهاجرة، فالتجأوا الى إيطالية الجنوبية وملأوها بالديورة؛

وأتلفت كثيراً من روائع الفنِّ البيزنطي من تصوير ونقش ورسم وفُسَيْفِساء. فاستعاض عنها الروم بفنٍّ جديد استوحوه من الطبيعة والتقليد الواقعي الثقيل؛

ولعلَّ أهمَّ نتيجة لها هي تسلُّط الملوك على الكنيسة. فقد اضطهدوها وأرغموا أساقفَتها على قبول آرائهم الوخيمة، وتدخَّلوا في أُمورها، وعزلوا بطاركتها واستبدُّوا بقوانينها. ولم تَنَل الكنيسة هدوءها وسلامها إلَّا عندما أرادوا ذلك. فكانت لهم الغَلَبة في جميع الأطوار.

وفهم بعض الرهبان ضرورة تحرُّر الكنيسة من سُلطة الأباطرة، وأهمية الاستناد الى سلطة البابا. وأشهر المدافعين عن حرية الكنيسة ورئاسة البابا العليا القديس ثاودوروس الإستودي (+ ٨٢٦) وقد قاسى الكثير من اضطهاد الاباطرة وكتب عدَّة مقالات دفاعا عن إكرام الايقونات.

ويبدو أن الأفكار المعارضة لإكرام الإيقونات تغلغلت الى البلاد العربية فكتب ثاوذوروس ابو قرَّة حوالي سنة ٨١٥ مقالاً في الدفاع عن الإيقونات بلغة عربية أصيلة.

الفصل الخامس عشر

أوضاع النصارى في العالم العربي

مقدّمة

استولَى العرب المُسلمون على سورية ومصر والعراق وأفريقية الشمالية وكان كلُّ سكّان هذه الأقطار يَدينون بالنصرانية وإنِ اختلفت مَذاهبُهم وتعدَّدت طوائفُهم.

وشعر الخلفاءُ بضرورة إصدار أحكام خاصَّة تُنظِّم أوضاعهم الدينية والسياسية والاجتماعية، وتَستدرك تطوُّرات هذه الأوضاع على كرِّ الزمن. فاعتبروهم في ذِمتهم أيْ في حمايتهم، لهم عليهم حقُّ الأمان وحقُّ الحريَّة الدينية والسكن ومزاولة الأعمال. وتُقيِّدهم بعض القيود في ما يتعلّق بالزواج من المسلمة والدعاية للدين المسيحي. وعليهم واجبات أهمُّها دفع الجِزية وعدم مقاومة المسلمين. هذا من الناحية القانونية.

أمَّا من الناحية العملية فقد عاشت المسيحية في ظِلِّ الدولة العربية حياة هادئة، وتمتَّع بعض المسيحيِّين في ظِلِّ الخُلفَاءِ الأمويِّين والعبَّاسيين بمراكزَ عالية ووظائفَ هامَّة، ولم يتعكَّر الجوُّ بين المسيحيِّين والمسلمين إلَّا عندما تدخّل الأجانب بينهم من أتراك ومغول وغيرهم، فاشتدَّت النعرات الدينية وتعصَّب كلٌّ لِدينه، فكثرت القيود والاضطهادات والمضايقات. وها نحن نستعرض أوضاع النصارَى في الدولة الإسلامية وحالة الطوائف المسيحية في ظِلِّ الحُكم الإسلامي.

أَوضاعهم العامَّة

شُروط الفتح

لـمَّا استولَى العرب على سورية والعراق ومِصر وأَفريقية الشمالية كان معظمُ السكَّان يَدينون بالنصرانية، وقد فتحت لهم المُدنُ أَبوابَها بموجب عهود أُبرِمت بينها وبينهم، وكانت هذه العهود متقاربة سارت على نَـمَطٍ واحد، واقتبست أَهمَّ شروطها من العهد الذي أَبرمه محمَّد مع أَهل نَجران النصارَى وهو لم يُرغمهم على الدخول في الإِسلام بل اكتفى بأَنْ فرض عليهم الجِزية وتعهَّد بالمحافظة على دينهم وحياتهم وأَرزاقهم. وأَشهر العهود من بعده هو العهد الذي عقده الخليفة عمر بن الخطاب مع صفرونيوس بطريرك القدس الملكيّ سنة ٦٣٨ عندما تسلَّم منه مفاتيح المدينة المقدَّسة. وقد ساعدت هذه الشروط السَمْحة مع عدم ولاءِ اليعاقبة للبيزنطيين، على إِضعاف مقاومة المُدن أَمام الفاتحين وعلى تثبيت الفتح العربي.

ولما استتبَّ الأَمر للعرب بعد السنوات الأُولى من الفتوحات اضطرّ الخلفاءُ والحُكَّام الى إِصدار أَحكام واضحة تُحدِّد موقف المسلمين من النصارَى وتنظِّم أَوضاعهم الدينية والسياسية والاجتماعية. وقد عُرفت هذه الأَحكام «بسياسة العهود». وسواءٌ نسبت الى الخليفة عمر بن الخطاب أَم الى غيره من الخلفاء، فالمُهمّ أَنَّها تُوضح حقوق المسيحيين وتُحدِّد واجباتهم.

لقد اتَّصفت هذه العهود بالسَماحة ورَحابة الصدر فسمحت لِـمَن شاءَ من السكَّان والرهبان والموظَّفين بالهجرة الى الأَراضي البيزنطية، فغادر الدولة الإِسلامية عدد وافر من نصارَى سورية وأَقاموا في بلاد الروم وفي جنوب إِيطالية وجزيرة صِقلِّية. وحافظ الباقون على كنائسهم وأَموالهم وحرِّيتهم الدينية وشرائعهم الخاصة بقيادة أَساقفتهم.

وسُمِّيت هذه الشروط بالذِمَّة أَو العهد والأَمان، وأُطلق اسم أَهل الذِمَّة على المسيحيين واليهود لأَنهم في ذِمَّة المسلمين أَي في عهدهم وحماهم.

وللذِمِّيين حقُّ الأَمان على نفوسهم وأَموالهم، وحق الحماية والسكن، ومزاولة الأَعمال

المختلفة. فلا قَيد عليهم إلَّا في تغيير الدين، فاذا غيَّروا دينهم فَإِلى الإِسلام وحده، وفي الزواج فلا يَحِقُّ لهم الزواج من مُسلِمة.

وعليهم واجبات وهي دفع الجِزية، وعدم الاجتماع على قتال المسلمين، وعدم فَتْنِ المسلِم عن دينه، وقطع الطريق عليه أَو قتله، أَو معونة المُشرِكين عليه في القتال أَو التجسُّس، أَو الإِيواء، أَو التعرُّض لدينه أَو نبيِّه أَو كتابه.

وكان للمسيحيِّين شأنٌ عظيم في الدولة العربية الإِسلامية إِبَّان القرن الأَوَّل الهجري. فقد ساهمت القبائل المسيحية في الفتوحات العربية وتثبيت أَركان الحُكم العربي، وبقيت جماعات كثيرة على دينها مثل أَقباط مِصر وموارنة لبنان وتَغَالبة الجزيرة وغيرهم. وكان نصارَى الشام من القبائل اليمنية وكانوا سَنَد معاوية والأُمويِّين في الجيش وفي الأُسطول. وبقيت إِدارة الدواوين في أَيديهم، وسَمَح الخلفاء والولاة لهم ببناء كنائس جديدة وإِبداء شعائرهم الدينية بالرايات والصلبان والمجامر.

تَطوُّر أَوضاع المسيحيِّين

وتطوَّرت أَوضاع النصارَى في آخر القرن الأَوَّل الهجري (آخر السابع الميلادي) فقد عرَّب عبد الملك لغة الدواوين واستغنى عن كثير من الموظفين النصارَى وضغط على بَني تَغْلِب لِحَملْهم على الدخول في الإِسلام. وتعهَّد الفُقهاء حقوق الذِمِّيين وواجباتهم بالذكر والشرح والتفصيل، وزادوا في القيود. وبقي الخلفاء والولاة اكثر منهم تسامحاً، فكثيراً ما قرَّبوا اليهم المسيحيِّين واستعانوا بهم وقدَّروا علمهم وخدمتهم في الطبِّ والفلسفة والكتابة. ورغم تضاؤل عددهم وأهميَّتهم في ظِلِّ الخلافة العبَّاسية فقد بقي لهم شأن يُذكر حتى قيام السلاجقة وحملات الفرنجة.

وقد نَكَّل بهم المُتوكِّل واضطهدهم وحَظَر عليهم تدريس اللغة العربيَّة ودخول المدارس العامَّة. وقد عرفنا ما اتَّصف به هذا الخليفة من ضيق الفكر والتعصُّب الشديد لآرائه، فاضطهد النصارَى كما اضطهد جماعة المُعتَزِلة من المسلمين. وقد أضعفت هذه القيود نفوذَ النصارَى وقلَّلت عددهم.

ونَعِمَ النصارَى بالحرية التامَّة في ظِلِّ الدولة الطولونية. وتمتَّعوا بنفوذ عظيم، فشَغَلوا

المناصب العالية في عهد الفاطميين بمصر. وشذَّ عنهم الحاكم بأمر الله الفاطمي، فاضطهد النصارَى وهدم كنيسة القيامة في القدس سنة ١٠٠٩ ثم رجع عن غَيِّه في آخر حياته.

واختلط المسيحيُّون بالمسلمين في المجتمع العربي الإسلامي، واصطبغت علاقاتهم المتبادلة إجمالاً بصبغة المودَّة. وما توتَّرت إلَّا نادراً كما حدث ذلك بعد انتصار الروم في القرن العاشر على الجيوش الإسلامية، فهدم المسلمون بعض كنائس النصارَى. ولم تكن القيود والمضايقات إلَّا لفترة وجيزة، فكانت تزول كالعاصفة، فيعود الصفاء ويرجع المسلمون والنصارَى الى الأُلفة وحُسن الجِوار.

وقد نَعِم النصارَى في العصور العربية الإسلامية الزاهية، رغم القيود وعدم المساواة في الحقوق، باحترام المسلمين وتقديرهم، فكان لهم شأن في الدولة تمكَّنوا به من المحافظة على معظم كنائسهم وديورتهم، كما حافظوا على حيويَّتهم الدينية.

وما ساءت أحوال النصارى إلَّا في العصور المُقبلة، أيَّام طغت على العرب غزوات الأتراك والمغول فعمَّت الفوضى، وانتشر التعصُّب، وفرَّق الجهل بين المسلمين والنصارَى.

دور النصارَى في الدولة الإسلاميَّة

لم يكتفِ النصارَى بأن يتمتَّعوا بحقوقهم وينعموا بحماية الإسلام، ويُؤدُّوا واجباتهم النقدية، بل ساهموا مساهمة فعَّالة في بناء الدولة الإسلاميَّة وتوطيد أركانها وإعلاء شأنها من النواحي السياسية والعلمية والدينية. ولا غرابة في ذلك فالمسيحيُّون هم سكَّان البلاد، وإنَّهم فيها مواطنون تتوجَّب عليهم خدمتها بصدق وولاء. واليك كلمة عن هذا الدور.

١) **من الوجهة السياسية**: اشترك النصارَى في الفتوحات العربية، وكانت لهم اليد الطُولَى في توطيد أركان الخلافة الأُمويَّة، وفي إنشاء الأُسطول العربي الذي منح العرب تفوّقاً في البحر مدَّة ثلاثة قرون.

وساهم النصارَى في تدعيم أُسس الدولة الإسلامية. فإنَّه وإنْ حُظِرت عليهم الإمارة

والقيادة، إِلَّا أَنَّهم شَغَلوا مناصب عالية في التنظيم والتنفيذ. وكان بينهم الكثيرون من التجَّار والمزارعين ورجال الصناعة فدعموا اقتصاديات البلاد ورفعوا مستواها، فتفوَّقت على الدولة البيزنطية المتاخمة.

٢) **من الوجهة العلمية**: كان للنصارَى الفضل العظيم في نقل الحضارة اليونانية الى العرب، ولا سيَّمَا علوم الطبّ والفلك والمنطق والفلسفة. فترجموا الكتب وصاغوها في قوالب استطاع العرب ان يستوعبوها ويَزيدوها عمقاً وتحليلاً. وأشهر التراجمة حُنَين بن اسحق وقُسطا بن لوقا البعلبكيّ. وكان أَشهرُ الأَطبَّاء من النصارى، يُذكر بينهم آل بختيشوع. ولم يكتفِ المسيحيون بالنقل والترجمة بل كانوا يؤلِّفون ويدرِّسون. وقد تتلمذ الفارابي لعالِمَين مسيحيَّين.

٣) **من الوجهة الدينية**: لم يتوقف تأثير النصارى عند النواحي السياسية والعلمية بل تعدَّاه الى الناحية الدينية ايضاً. وكانت العلاقات الدينية كثيرة بين رجال الدين الإسلامي وأَئمَّة النصارَى، وقامت جِدالات صريحة بين الفقهاء واللاهوتيِّين بحضرة المَأمون فأثّرت في نشأة علم الكلام عند المسلمين. وكانت الديورة الكثيرة آنذاك محجَّ العدد الوافر من المسلمين فكان لحياة الرهبان والنساك تأثير في مَولد التصوُّف الإسلامي ونشأته.

ويتَّضح من هذا كلِّه أَنَّ العلاقات كانت وثيقة بين المسلمين والنصارَى. فلم يكن المسيحيُّون منعزلين عن مُواطنيهم في أَحياءٍ خاصة بل اشتركوا مع المسلمين في الحياة العامة فقامت الحضارة العربية الإسلامية على أَكتافهم كما قامت على أَكتاف المسلمين.

الطوائف المسيحية في ظِلِّ الحُكم الإسلامي

إنَّ الفتح العربي وجد المسيحيِّين منقسمين الى طوائف، فاعترف بها وأقرَّها وسمح لها بأن تدومَ حتى اليوم.

وعرف المؤرِّخون المسلمون ثلاثة مَذاهب للنصارَى: **مذهب النساطرة** القائلين بشخصَين وطبيعتَين في المسيح **ومذهب الملكيِّين** (وقد تفرَّع عنهم الموارنة) القائلين بشخص واحد وطبيعتين؛ **ومذهب اليعاقبة** من سريان وأقباط وأرمن القائلين بشخص واحد وطبيعة واحدة.

وقد درسنا نشأةَ كلٍّ من هذه المَذاهب الدينية، ورأينا أنْ قد كان لها في الدولة الإسلامية وضع مُتشابه (ما عدا الملكيِّين في أوَّل أمرهم). ومع هذا فقد كان لكلٍّ منها حياة خاصة وتاريخ مُعيَّن علينا أنْ نستعرضها الآن باختصار.

١ – النساطرة:

لم تتغيَّر أوضاع النساطرة من جرَّاء الفتح الاسلامي. فقد كانوا من قَبلُ يعيشون في ظِلِّ مملكة فارس غير المسيحية. وخسرت النسطورية في بادىء الأمر العديد من ابنائها وقد اعتنقوا الإسلام، وخصوصاً في اليَمَن وعُمان وجنوب إيران. فشعر البطاركة بخطورة الحال فقاموا بإصلاحات داخلية في الديورة، وعكفوا على تثقيف الشعب وتعليمه مبادىء الدين المسيحي. فانتعشت الكنيسة النسطورية واكتسبت حيويَّة فعَّالة. فعوَّضت عن خسارتها بفتوحات دينيَّة جديدة في الشرق، في ديار الأتراك والصينيين، وازدهرت ازدهاراً فكريًّا لم تَعْهَده من قبلُ. فلمَّا قامت الدولة العبَّاسية في العراق عَظُمت أهميَّة النساطرة لتقرُّبهم من حاشية الخليفة ورجال البَلاط.

وأشهر بطاركتِهم في ذلك العصر البطريرك تيموثاوس (٧٨٠ – ٨٢٣) الذي نقَل مقرَّ البطريركية من المدائن الى بغداد. وكان رجلَ إدارة وتنظيم، وعِلم وتأليف. فاهتمَّ بالإرساليات التبشيرية في مختلف الأقطار، فامتدَّت الكنيسة النسطورية في عهده غرباً الى دمشق والقدس وحلب، وشرقاً الى الهند وبلاد المغول. وكانت النصرانية قد دخلت

أَراضي الصين عام ٦٣٥ وبقيت مزدهرة فيها حتى القرن الرابع عشر. ومن اشهر الكتّاب النساطرة في ذلك العهد عمار البصري وابن الطيِّب وايليا النِصّيبيني.

٢ - الملكيُّون:

ضعضع الفتح العربي الكنيسة الملكيَّة مدَّة قرن كامل. فقد هجر البلاد العربية قسم كبير من ابنائها وانتقلوا الى اراضي الدولة البيزنطية أو الى إِيطالية كما غادرها عدد كبير من الأَساقفة. ولـمَّا تُوفِّي البطاركة الذين فاوضوا العرب الفاتحين في أَمر تسليم مُدُنهم لم يَقُمْ لهم من يَخلُفهم في مناصبهم مدَّة طويلة. فبقي المَنصب البطريركي في القدس شاغراً حتى سنة ٧٠٦، وفي الإِسكندرية حتى سنة ٧٢٧، وفي أَنطاكية حتى سنة ٧٤٢. إِلَّا أَنَّ سلسلة البطاركة الأَنطاكيين بقيت متواصلة، وقد أَقاموا بالقُسطنطينية.

وكان الملكيُّون أَقليَّة ضئيلة في مِصر. أمَّا في فلسطين وسورية الغربية والجنوبية فكانوا أَوفر النصارَى عدداً. وظلَّت حركتُهم الفكرية منتعشة واشتهر بينهم في القرن الثامن القدِّيس يوحنَّا الدمشقي، وقد فاوض جدُّه المنصور العرب وسلَّم اليهم مفاتيح دمشق. وترهَّب يوحنَّا في دير القدِّيس سابا قرب القدس، وله تآليفُ كثيرة قيِّمة، وهو آخر الآباء اليونان. وتُوفِّي في أَواسط القرن الثامن. واشتهر بعده ثاودوروس أَبو قرَّة أُسقف حرَّان، وقد وضع تآليف كثيرة بالعربية وناقش اليعاقبة وعلماء المسلمين وتُوفِّي حول ٨٢٦؛ والعالِم الفيلسوف قسطا بن لوقا؛ وسعيد بن البَطريق بطريرك الإِسكندرية (٩٣٣ - ٩٤٤) وله تآليفُ لاهوتية وتاريخ عام؛ والمؤرِّخ يحيى بن سعيد الأنطاكيّ؛ وسليمان الغزِّي وهو صاحب ديوان شعر ديني ومقالات لاهوتية.

وفي سنة ٩٦٩ سقطت أَنطاكية وما جاورها من القُرى والأَرياف في شمالي غربي سورية في أَيدي البيزنطيين. فنصَّب أَباطرة الروم عليها بعد سنة ٩٦٩ عدَّة بطاركة من الإِكليروس القُسطنطيني، فازداد تأثيرُ الطقس البيزنطي وطغَى على الطقس الأَنطاكي وقضَى عليه قضاء تامًّا لدى الملكيِّين، فانتحلوا الطقس البيزنطي.

وكانت أَنطاكية آنذاك مركزاً ثقافياً هامًّا. فاشتهر عبدُ الله بن الفضل الأَنطاكي الذي نقل الكتاب المقدس الى العربيَّة، كما ترجم عدداً كبيراً من تآليف الآباء القدِّيسين،

ووضع مصنَّفات جليلة في الفلسفة والدين، وكلها بالعربية. واشتهر ايضا الراهب نيكون الذي وضع باليونانية مؤلَّفات غزيرة اهمُّها الموسوعة التي ترجمت الى العربية بعنوان الحاوي الكبير.

وحافظ الملكيُّون على معظم ديورتهم، وأهمُّها دير القديس سابا بالقرب من القدس، ودير جبل سينا ودير القديس سمعان العجائبي بجوار أنطاكية، كما أنَّهم ساهموا، قدر المستطاع، في معالجة الشؤون الكنسية العامة، فأرسلوا موفديهم الى المجامع المسكونية، وظلوا متمسّكين مع البابا بروابط الشركة الدينية وإنْ كانت قليلة شاقة. وبقي الملكيُّون وحدَهم في البلاد العربية على اتِّصال ديني بروما والقُسطنطينية. وقد أوفد الخلفاء بعض بطاركتهم الى البَلاط البيزنطي في مهام سياسية. وكان للبطريرك الأنطاكي السلطة العليا على بلاد الكَرج والجاليات الملكية في الأراضي الفارسية.

٣ – الموارنة:

تتلمذ للقديس مارون في آخر القرن الرابع ومطلع القرن الخامس جماعة من الرهبان في جوار مدينة أفاميا (قلعة المضيق)، ولمَّا تُوفِّي سنة ٤١٠ بنَوا بين أفاميا وحمص ديراً كبيراً ورفعوا الى جانبه كنيسة. ولُقِّب الدير «بدير القديس مارون» واشتهر هؤلاء الرهبان بإيمانهم القويم وتعلُّقهم الشديد بقرارات مجمع خلقيدونية (٤٥١) ومقاومتهم الباسلة للآراء النسطورية والمونوفيزيّة.

واتَّبعهم خَلق كثير من سكان البلاد واعتنقوا معتقدهم فتلقَّبوا بالموارنة. وكان لهذا الدير في القرن السابع رئيس شهير يُدعَى يوحنَّا مارون. ولمَّا كان الكرسي البطريركي الملكي الأنطاكي شاغراً خلال المدة الواقعة بين ٦٢٦ و ٧٤٢ فقد انتخبه الموارنة بطريركاً عليهم فحافظوا بذلك على وحدتهم وقوَّتهم الناشئة.

وكان الموارنة يعيشون على ضفاف العاصي، فنموا وكثروا وانتشروا في القرنَين السادس والسابع في سهول سورية الشمالية، فسكنوا معرَّة النُّعمان وحَلب وأنطاكية والبلاد المجاورة. ولمَّا جاء الفتح العربي (٦٣٦) تركوا بعد مدَّة هذه السهول الخصبة واعتصموا بجبال لبنان الشمالية فاختلطوا بالسكان الأصليين وبنَوا هناك كنائسهم

وديورتهم ووطَّدوا مقرَّ بطريركيَّتهم. ثم انتشروا رويداً رويداً فاحتلُّوا معظم الجبال اللبنانية.

وفي القرن التاسع، في عهد المأمون، ارتحل قوم منهم الى قبرص، كما عاد بعضهم الى حلب في القرن الحادي عشر. إلَّا أنَّ اغلبيَّتهم الساحقة بقيت في لبنان.

وقد قضَى الموارنة في لبنان حياة منعزلة، فنَعِموا بقسط وافر من الحريَّة والاستقلال الداخلي. إلا أنَّ قلَّة الوثائق التاريخية لا تسمح لنا بان نطَّلع على تفاصيل حياتهم وتطوُّر بطريركيَّتهم حتى مطلع القرن الثاني عشر.

٤ – «اليعاقبة»:

كان السريان (اليعاقبة) قبل الفتح العربي يَميلون الى العرب بصلات الدم واللغة. فلمَّا دخل العرب البلاد السورية استقبلهم السريان وعدُّوهم منقذين وقد أَقبلوا ليخلّصوهم من نير البيزنطيّين ومن محاولاتهم الكثيرة لضمِّهم الى الكنيسة الرسمية فحافظوا بواسطة العرب على بطريركيَّتهم وديورتهم.

وامتاز السريان في ذلك العصر بترجماتهم الفلسفية فنقلوها الى السريانية أوّلاً ثمَّ إلى العربية. ولعبوا دوراً شبيهاً بدور النساطرة. وأشهر كَتَبتهم آنذاك يعقوب اسقف الرَّها (٧٠٨ +) وأَبو رائطة التَكريتي ويَحيى بن عدي (في القرن العاشر) وعيسى بن زَرعه. إلَّا أنَّ الانقسامات الداخلية قد أُضعفت هذه الطائفة.

ولمَّا استولَى الروم في القرن العاشر على الرَّها وشمال الجزيرة ضغطوا على اليعاقبة ليحملوهم على قبول قرارات مجمع خلقيدونية (٤٥١) وعقدوا معهم عدَّة اجتماعات فلم يتوصَّلوا الى نتيجة ما. وهرب البطريرك اليعقوبي ديونوسيوس الرابع (١٠٣١ – ١٠٤١) الى الأَراضي العربية تخلُّصاً من مساعي الروم الاتّحادية وجعل ماردين مقرَّ البطريركيَّة اليعقوبية.

٥ – الأَقباط:

استولَوا على معظم كنائس الملكيِّين بعد الفتح العربي، واعتنق الإِسلام قسم كبير

منهم. ودبَّ الفساد في الإكليروس، وانحطَّت الثقافة لديهم انحطاطاً سريعاً بعد أَنْ غادر اليونانيون مدينة الإسكندرية. إلَّا أَنَّ الديورة ظلَّت آهلة بالرهبان، لا سيَّمَا دير السريان في وادي النَّطرون. وفي آخر القرن الحادي عشر قام البطريرك خريستودولوس (عبد المسيح) (١٠٤٧ – ١٠٧٧) بعدَّة إصلاحات دينية ونقل مقرَّ البطريركية القبطية من الإسكندرية الى القاهرة. واشتهر في ذلك العصر ساويروس بن المقفَّع.

٦ – الأَرمن:

لمَّا استولَى هِرَقل على أَرمينية بعد أَنْ حارب الفرس وكسرهم حاول أَنْ يفرض على الأَرمن قرارات مجمع خلقيدونية، فتضايقوا كثيراً من حُكم البيزنطيين واتَّجهوا نحو العرب. ودخلت بلادهم منذ عام ٦٥٣ تحت النفوذ العربي، فعاملهم العرب في بادىء الأَمر معاملة سَمْحة. فلمَّا قسا عليهم المُتوكِّل ثاروا عليه، فقمع ثورتهم بشدَّة، ثم اضطرّ في نهاية الامر الى أَنْ يعترف سنة ٨٦٠ لزعيمهم أُشوط بكراتوني بلقب ملك. فتقرَّب الأَرمن من الروم سياسيًّا، ولكنَّهم لم يرضَوا بالاتِّحاد الديني. وفي سنة ١٠٥٤ استولَى الإمبراطور قُسطنطين التاسع على العاصمة الأَرمنيّة وحاول فرض العقيدة الخلقيدونيّة فلم يُفلح. وهجم السلاجقة على الروم وكسروهم عام ١٠٧١ في موقعة منزكرت واستولوا على أَرمينية. فهرب الأَرمن وتجمَّعوا في كيليكية، وكوَّنوا فيها بعد ذلك مملكة، واتَّصلوا بالفرنج. وأشهر كَتَبَتهم في هذا العصر غريغوريوس أُسقف نَارِيْك صاحب الأَناشيد الدينية.

الفصل السّادس عشر

الكَنيسَة في العَالَم البيزنطيّ

مقدّمة

اتّصفت الكنيسة في الإمبراطورية الرومانية الشرقية بصفات معيّنة جعلت منها كنيسة ذات طابع خاص فعرفت باسم «الكنيسة البيزنطية». ومن أبرز هذه الصفات أنّها ارتبطت بالمملكة المسيحيّة والحضارة اليونانية والعقيدة الأرثوذكسيّة.

وكانت البطريركيّات الملكيّة الثلاث وبلاد أرمينية قد انسلخت عن المملكة البيزنطيّة بعد الفتح العربي، كما انفصلت عنها في القرن الثامن المقاطعات الإيطاليّة، فلم يبقَ داخل حدودها إلّا الروم وحدَهم. وقد اجتمعوا في بطريركيّة واحدة هي بطريركيّة القُسطنطينيّة.

ومن ناحية العقيدة، فقد انفصل عن الدولة أنصار الطبيعة الواحدة، فهدأت الجدالات العقائديّة. ثمّ خَمَدت أزمة تحطيم الإيقونات المقدّسة وانتصر التعليم القويم نهائيًا سنة ٨٤٣.

واكتملت العقليّة البيزنطيّة وبلغت أَوْجها في الحضارة والفنّ والفكر والأدب كما بلغت الطقوس الكنسيّة آخرَ مرحلة من مراحل تطوُّرها بفضل ما أتحفها المؤلِّفون والشعراء والمنشدون من ترانيمَ ونشائدَ وقصائدَ دينيّة. فأصبحت القُسطنطينية موطنَ الإشعاع الفكريّ والدينيّ البعيد المدَى، وانتشرت منها العقيدة انتشاراً واسعاً، وتسرَّبت الحضارة المسيحيّة الى شعوب جديدة دخلت آنذاك في الأُسرة البيزنطيّة.

امتدادُ نفوذ البطريركيَّة القُسطنطينيَّة

تضاءل شأن البطريركيَّات الملكيَّة بعد الفتح العربي ، ولم يبقَ في العالم البيزنطي إلَّا بطريركيَّة واحدة وهي بطريركيَّة القُسطنطينية. ولمَّا كان تأثيرُ البابا آخذاً في التضاؤل بعدما انسلخت رومة عن الدولة البيزنطيَّة ، فقد أَضحَى البطريرك القُسطنطيني صاحبَ السلطة العليا كأَنَّه «بابا الشرق» تَخضع له أَبرشيَّات الدولة بأَجمعها.

وممَّا زاد في نفوذ بطريرك القُسطنطينية وسلطته وجودُ «**المجمع الدائم**» في العاصمة البيزنطيَّة. وكان يرئسه البطريرك نفسه ويتألَّف اعضاؤه من البطاركة والأَساقفة القاطنين في المدينة. وكان عددهم وافراً لأَنَّهم لم يتمكَّنوا من الاقامة بأَبرشيَّاتهم الخاضعة للعرب أو للسلافيِّين الوثنيِّين.

واتَّسعت رُقعة البطريركيَّة القُسطنطينيَّة ، على حساب البطريركيَّة الأَنطاكيَّة. فإنَّ مقاطعة إِيصورية غربي كيليكيا وقاعدتها سلوقية كانت تابعةً للبطريركيّة الأَنطاكية. فلمَّا استولى العرب على سورية بقيت إِيصورية داخل الحدود البيزنطية ، فضمَّتها البطريركية القُسطنطينية اليها وأَدخلتها في نطاق سلطتها الروحية.

وكانت مقاطعات البَلقان ، وجَنوب إِيطالية ، وجزيرة صِقلية داخلةً قبل سنة ٧٣١ في حدود أَبرشيَّة البابا. فلمَّا منع الملك لاون الثالث اكرام الإِيقونات المقدَّسة عقد البابا غريغوريوس الثالث مجمعاً سنة ٧٣١ قاوم فيه قرار الملك وأَعلنه مخطئاً ورشقه بالحرم. فانتقم منه الملك وسلخ عن أَبرشيَّته هذه المقاطعات وضمَّها الى البطريركية القُسطنطينية. فأصبحت حدودُ البطريركيَّة حدودَ الدولة نفسَها ، لا بل تجاوزتها فامتدَّت الى الإِرساليَّات التبشيريَّة الجديدة في بلاد البلغار والروس.

وامتدَّ نفوذُها على البطاركة الملكيِّين أَنفسهم ، بسبب ما أَصاب هؤلاءِ من الضعف من جرَّاء اقامتهم الطويلة في العاصمة البيزنطية اثناء الاحتلال الفارسي وفي القرن الأَوَّل من الفتح العربي. فاتَّبعوا تدريجيًّا التشريع البيزنطي والطقوس البيزنطيَّة وقد ساهموا هم انفسهم في تكوينها. فأَصبح البطريرك القُسطنطينيُّ ليس فقط رئيسَ مقاطعة شرقية كما كان في العهود السابقة ، بل الرئيس الأَعلى لجميع الارثوذكسيِّين في الشرق. واحتفظ

البطاركة الملكيُّون بمبدإ استقلالهم وبمراتبهم الخاصة، وكان دوماً يُطلَب اليهم رأيهم في القضايا الدينية الهامَّة فيُرسلون عنهم مُوفدين للبتِّ فيها.

أَشهرُ بطاركةِ القُسطنطينيَّة

تدخَّل الإمبراطور كثيراً في أَمر انتخاب البطاركة، أو عيَّنهم مباشرةً، أو عزلهم عن مَنصبهم أو أرغمهم على الاستقالة. ولذلك كثيراً ما سايروا الأَباطرة في أُمور كثيرة. وقام بعضهم وتصدَّوا لآراءِ الملوك عندما انحرفوا عن المُعتقد او تجاوزوا القوانين الكنسيَّة. وأَشهرُ البطاركة في هذا العصر هم:

- **سرجيوس** (٦١٠ – ٦٣٨): سَنَدَ الإمبراطور هِرَقل، وشجَّعه على المُضيِّ في محاربة الفرس وقدَّم له أَموال الكنيسة. ثم دافع عن القُسطنطينية ضدَّ البرابرة بينما كانت جيوش هِرَقل في اراضي الفرس. ونَسب اليه بعضهم تأليفَ رتبة «المدائح لوالدة الاله» وهو الذي ابتدع القول بالإرادة الواحدة في السيِّد المسيح في محاولة أَخيرة للتوحيد بين رأي أَنصار الطبيعة الواحدة وخصومهم الخلقيدونيِّين.

- **القدِّيس جرمانوس** (٧١٥– ٧٣٠): قاوم الملك لأَون الايصوري مُحطِّم الإيقونات وأَوضح الأَسباب التي تُبرِّر إكرامها. ولمَّا تصلَّب الملك في اتِّباع سياسته الدينيَّة الخاطئة استقال من منصبه البطريركي. وترك لنا مواعظَ بليغةً عن مريم العذراء وشروحات وافية للذبيحة الالهية.

- **القدِّيس تاراسيوس** (٧٨٤ – ٨٠٤): عُقد في اثناء بطريركيَّته مجمعُ نيقية الثاني الذي سمح بتكريم الإيقونات. وكانت العلاقات آنذاك متوتِّرةً بين رومة والقُسطنطينيَّة فأَعاد الوفاق بين الكنيستَين.

- **القدِّيس نيكيفوروس** (٨٠٦ – ٨١٥): عارض محطِّمي الإيقونات. فلمَّا تسلَّم الملك لأُون الأَرمني زمام الحكم نفاه عن مَنصبه. وترك لنا قوانين كنسيّة هامّة.

- **القدِّيس متوديوس** (٨٤٣ – ٨٤٧): كان له الفضل الأَكبر في انهاءِ أَزمة تحطيم الإيقونات ونَصْر العقيدة الارثوذكسيَّة. واصطدم بالرهبان الاستوديِّين، لأَنَّه برَّر ساحة الملك ثاوفيلوس بعد موته على طلب امرأته الملكة ثاودورة، وكان ثاوفيلوس من أَكبر

محطِّمي الايقونات. ويدلُّ هذا الاصطدام بين الرهبان والبطاركة على وجود عقليَّتين متناقضتين في العاصمة البيزنطية، عقليَّة الرهبان وهي محافظة ومتمسِّكة بالقوانين تمسُّكاً شديداً، وعقليَّة البطاركة وهي متسامحة فطنة ذات دراية وسياسة لأنَّها على اتِّصال دائم بالبَلاط الملكي وبالثقافة الجديدة. واصطدمت هاتان العقليَّتان اصطداماً عنيفاً أثناء بطريركيَّة **اغناطيوس وفوتيوس** وسبَّبتا انشقاقاً في الكنيسة كما سنرى في ما بعد.

- **اوستاتيوس** (١٠١٩ - ١٠٢٥): أرسل الى البابا سفارةً يسأله ان يعترفَ له بلقب «البطريرك المسكونيّ» وبسلطته العليا على الشرق، كما أَنَّ للبابا السلطةَ العليا على العالم بأسره. وكان البابا يوحنا التاسع عشر يرغب في تحقيق هذا الطلب فعارضه فيه الامبراطور الأَلماني والحاشية البابوية فتوتَّرت العلاقات من جديد بين الكنيستَين.

- **ميخائيل كيرولاريوس** (١٠٤٣ - ١٠٥٩): قاوم محاولة الصلح بين الكنيستَين، فحدث في عهده الانشقاق المعروف باسم انشقاق سنة ١٠٥٤ كما سنرى ذلك.

الحياة الرُّهبانيَّة

١ - **في القرنَين الثامن والتاسع**: ذاق الرُّهبان في القرنَين الثامن والتاسع أَلواناً مختلفة من العذاب بسبب دفاعهم الجريء عن إكرام الايقونات المقدَّسة. فقضَى بعضهم شهداء، وتحمَّل مئات منهم الضرب والسجن والجلد والنفي. واعترفت الدولة اخيراً بضلالها فعاد المسيحيُّون الى اكرام الصُّوَر بحريَّة تامَّة.

وهرب كثيرٌ من الرُّهبان الى ايطالية الجنوبية ورومة وانتشروا في الجزر اليونانيَّة فشيَّدوا الديورة الجديدة، وكانوا خيرَ عونٍ للمسيحيِّين في أَوقات الشدَّة.

ولم يَطُل عهدُ اضطهاد الرهبان. فما إِنْ أَطلَّ عام ٧٨٠ حتى سَمَح لهم الملكُ لاون الرابع بان يتبوَّأوا المناصب الأُسقفيَّة. فتأَلَّقت في الكنيسة بواسطتهم فضائلُ التقوى والتجرُّد والايمان والغَيرة المسيحيَّة الصادقة.

وظهرت في دير الستوديون في عهد رئاسة ثاودورس الراهب أَنظمةٌ جديدة كان لها أَطيب الأَثر في حياة المترهِّبين. فقد عُنيَ ثاودورس بتعليم الرهبان ورفع مستواهم الثقافي، فأسَّس في الدير مدرسة يتلقَّن فيها الأُمِّيون مبادىء القراءة والكتابة، وينسخون

المخطوطات القديمة، ويدرسون تآليف الآباء القدّيسين، ويتعمّقون في شرح الكتب المقدّسة، وينظمون الأشعار الدينية ليُنشدها الرهبان في الكنيسة اثناء الصلاة المشتركة. وقد رُتِّبت هذه الأشعار ترتيباً طقسيًّا ودُعيت «قوانين». ولا يزال معظم هذه القوانين موجوداً الى اليوم، وقد تُرجم كثير منها الى العربية ترجمة نَثرية يتلوها الرهبان في الديورة اثناء صلاة «الفرض الالهي».

٢ – **في القرنَين العاشر والحادي عشر**: ازدهرت الحياةُ الرُّهبانيَّة في القرنَين العاشر والحادي عشر ازدهارًا رائعًا، وأَضحت مدينة القُسطنطينيَّة كأَنَّها دير واسع. وانتشرت الديورة في إيطالية الجنوبية وبلاد اليونان وبَرِّ الأَناضول. وشُيِّدت في اغلب الأَحيان على رؤوس الجبال، وظهرت في القرن العاشر أَديار جبل آثوس الشهير. وقد انفردت ديورةُ هذا الجبل بنظامٍ خاص، أَلَّفت بموجبه شبهَ جمهورية رهبانية يسود بينها وحدة اتّحادية برئاسة رئيس أَعلَى يَسوسها. ويُقيم في كلِّ دير رئيسٌ خاص يُدبِّر أَموره. وساد هذا النظام الاتِّحادي منذ عام ٩٦٣ في أَيَّام الرئيس القدِّيس اثناسيوس الآثوني. وقد أُقيمت في جبل آثوس في شهر حزيران ١٩٦٣ احتفالات رائعة بمرور ألف سنة على قيام هذا النظام.



دير القدّيس بولس، أحد أديار جبل آثوس (اليونان)

ولاحظ بعضُ الملوك أنَّ كثرة الديورة قد أَضحت خَطراً على كيان الدولة وسلامتها. فلم يعد للجيش جنودٌ يَكفونه ، وحُرمت خزينةُ الدولة من عائدات وفيرة. فَمنَع الملك نيقفوروس فوقاس - وهو الصديق الأَكبر للرهبان - انشاء ديورة جديدة ، ولكنَّه لم يتمكَّن من تنفيذ ما رسمه لأَنَّ الروم اعتبروا نَهْيه مخالفاً لحقوق الله.

ولم تُؤلِّف هذه الأَديار مع كثرتها «جمعياتٍ رهبانيَّة» بالمعنى القانوني الذي نعرفه اليوم. فقد كان كلُّ دير مستقلاً عن الآخر، له نظامه الخاص ، وعاداته الطقسيَّة المحلية ، ولا يخضع رئيسه لرئيس أَعلَى منه.

وتبعت أَنظمةُ الديورة في معظمها ما رتَّبه الرهبان القدماء أَنطونيوس وباخوميوس وباسيليوس ، واقتبست عاداتِها الطقسيَّة في مُجملها من عادات دير القديس سابا بفلسطين أَو عادات دير الاستوديون بالقُسطنطينية. وخضعت للسلطة البطريركية او لسلطة أُسقف الأَبرشيَّة.

التشريعُ الكنسيُّ

تَبلْوَر التشريعُ البيزنطيُّ في هذا العهد. وأَوَّل مجموعة كنسيَّة لهذا التشريع هو قرارات مجمع القُبَّة التنظيمي الذي عُقد في القُسطنطينيَّة سنة ٦٩٢. لقد دفع الملكَ يوستينيانوس الثاني الى عقد هذا المجمع الرغبةُ في توحيد العادات والقوانين في كنائس الشرق والغرب ، ورفع المستوى الأَخلاقي الذي انحطَّ بتأثير الحروب والانقلابات المتوالية. وحضر المجمع البطريرك القُسطنطينيُّ بولس ، والبطاركة الملكيُّون الثلاثة ، أَقلّه بمندوبيهم ، وممثِّلو البابا ، ومئة وأَحد عشر اسقفاً ، وهؤلاء كلُّهم شرقيُّون. واصدروا مئة قانون وقانونَين غايتها تنظيم الكنيسة جمعاء الشرقية والغربية على السواء. فلما اطَّلع عليها البابا سرجيوس رفض المصادقة عليها ، وكذلك البابا قسطنطين الأَوَّل ، وكلاهما سوريُّ الأصل. أَمَّا البابا أَدريانوس ، وكان من سكَّان رومة ، فقد وافق على ما فيه من القوانين غير المنافية للشرع الروماني.

وجدَّد التشريع الإمبراطوران باسيليوس الأَوَّل (٨٦٧ - ٨٨٦) وابنه لاَوُن السادس (٨٨٦ - ٩٠٢) وأَصدرا مجموعاتٍ هامَّة من القوانين، التي تمزج الشرع المدني بالشرع الكنسي ، وتُوفِّق بين شرائع يوستينيانوس الملك وحاجات العصر ومتطلَّباته.

الحياة الفكريَّة

أَهمُّ الكتبة الذين أَثَّروا في العقليَّة البيزنطيَّة وميولها الروحية في هذا العصر هم، عدا البطاركة الذين ذكرناهم:

القديس مكسيموس المعترف (+ ٦٦٢): له تآليف قاوم فيها بِدعة المشيئة الواحدة، وتآليف روحيَّة لها عظيم الأَهميَّة؛

القدِّيس ثاودورس المعترف مؤسِّس نظام الرهبان في دير الستوديون، وكان هذا الدير يضمُّ أَلفَ راهب وقد جاهد ثاودورس كثيراً في سبيل حريَّة الكنيسة والتجأَ الى البابا. وترك لنا تآليفَ دفاعية عن اكرام الإِيقونات المقدَّسة، وتآليف روحية، ورسائل كثيرة.

الامبراطور لأَون السادس: كان له شَغَفٌ عظيم بالمسائل اللاهوتية، ترك لنا **٣٩** عظة أَلقاها في الكنيسة عن مواضيع لاهوتية مختلفة، وترانيم دينية كثيرة لا تزال الكنيسة البيزنطيَّة تُنشدها.

سمعان اللاهوتي الجديد: وهو من الرهبان الاستوديين. وضع تآليف روحيَّة كثيرة وصف فيها اتِّحاد النفس بالله، وقد تـأَثَّر بكتاباته رهبانُ جبل آثوس، كما تـأَثَّرت بها في ما بعد تعاليم غريغوريوس بالاماس.

وتـأَثَّر البيزنطيُّون بالكَـتَبة الملكيِّين في ذلك العصر تأثيراً بليغاً، وأَهمُّ هؤلاء الكتبة **القديس صفرونيوس** بطريرك القدس، **والقديس يوحنَّا السُلَّمي** واضع كتاب «سُلَّم الفضائل»، **والقديس اندراوس الكريتي** الدمشقي الأَصل واضع الاناشيد المسمَّاة «قوانين»، **والقديس يوحنَّا الدمشقي** وقد نظم في دير القديس سابا التسابيح الكنسية الرائعة ووضع الموسوعة اللاهوتية الأُولى، فدعي «معلّم الكنيسة» وخاتمة الآباء الشرقيين، **والقديس قزما الشاعر**، **واسطفانوس الناظم** ابن اخت يوحنَّا الدمشقي، والقديس **ثاوفانوس المنشيء** وأَخوه **ثاوذورس**.

ونشأت الى جانب هذه التآليف الروحية والطقسية في اواسط القرن العاشر حركة فلسفيَّة ولاهوتية ممتازة، أَشهر ممثليها بسيلّوس وايطالوس، وهي متأثِّرة كثيراً بتعاليم أَفلاطون وأَرسطو.

الإرساليّات التبشيريّة والتوسُّع المسيحيّ

١ - **في البلاد السلافيّة الجنوبيّة**: كانت الشعوب السلافيَّة الوثنية قد تغلغلت في أَراضي البَلقان في اواخر القرن السادس، وأهمُّها الصِّرب (في يوغسلافيا الحالية). وقد طلب الملك هِرَقل الى البابا أَنْ يُرسل الى بلادهم مبشِّرين، فأَرسل اساقفة مكثوا عندهم ونصَّروهم تدريجياً.

وقامت في شمال بلاد الصِّرب سنة ٨٤٠ دولةُ مورافية السلافية (وهي واقعة في أراضي تشيكوسلوفاكيا والمجر). فحاول الملوك الأَلمان أَنْ يَبسطوا عليها نفوذَهم، وأَرسلوا اليها بعض المبشِّرين. ولكنَّ الملكَ السلافي طلب الى القُسطنطينيَّة المساعدة العسكرية كما سأَلها مُبشِّرين بيزنطيِّين. فَأَرسل اليه البطريرك فوتيوس الراهبَين القدِّيسين كيرلُّس ومتوديوس سنة ٨٦٢. فابتدع هذان الراهبان حروفاً لكتابة اللغة السلافية، وترجما إليها الكتاب المقدَّس والصلوات الطقسيَّة، ونجحا بهذه الواسطة نجاحاً عظيماً. قاما بزيارة رومة لتثبيت رسالتهما. فتُوفِّي كيرلُّس هناك في ١٤ شباط ٨٦٩ فمنح البابا أَدريانوس شقيقه متوديوس الدرجة الأُسقفية وجعله رئيس أَساقفة مورافية وسائر أَراضي السلافيين. وقامت بعض الخلافات بينه وبين الأَساقفة الأَلمان الذين ادّعوا انه قد تعدَّى على حقوقهم، ولاموه لأَنَّه استعمل اللغة السلافية في اقامة القداس والطقوس الكنسية بدل اللاتينية. فاستغاث متوديوس بالبابا، فثبَّته البابا يوحنا الثامن في صلاحيَّاته كلِّها، وأَقرَّ استعمال اللغة السلافية – وهي لغة الشعب – في الطقوس الكنسيَّة. وتُوفِّي متوديوس سنة ٨٨٤، فتمكَّن أَنصار الأَساقفة الأَلمان من منع استعمال اللغة السلافية في القدَّاس، وقبضوا على تلاميذ متوديوس. فهرب البعض منهم الى بلاد البلغار فاستقبلهم الملك بوريس بالترحاب، ولجأ الآخرون الى شواطىء يوغسلافية وما فتئوا يُقيمون الطقس الروماني باللغة السلافية حتى اليوم.

٢ - **في بلاد البلغار**: البلغار شعب من أَصل شرقي مَغولي، قد تمركز في شرق شمالي البلقان وامتزج بالشعوب السلافية التي سبقته وتسلَّط عليها. وكان البلغار وثنيِّين فشنُّوا على القُسطنطينيَّة حروباً ضارية. إِلَّا أَنَّ ملكَهم بوريس أَدرك أَنَّ بلاده لن تتقدَّم في الحضارة ما لم تَدخلها النصرانية. فقبل المعمودية في القُسطنطينية سنة ٨٦٤. ولمَّا عاد

الى بلاده اصطحب معه مُرسَلين بيزنطيِّين عملوا على تنصير البلاد. وفي عصره تَـأَزَّمت العلاقات بين روما والقُسطنطينية لمحاولة كل منهما ادخال بلغاريا في منطقة نفوذها. وخلفه ابنه سمعان، فطالب الى القُسطنطينية أَنْ تعترف له بلقب «امبراطور»، ولرئيس أَساقفة بلاده بلقب «بطريرك» فرفضت، فشنَّ عليها حروباً ضارية لم تُجدِه نفعاً. وسأَل البابا يوحنا العاشر المسأَلتَين نفسَيهما، فلبَّاه البابا سنة ٩٢٧. واعترف البيزنطيُّون أَنفسهم بالأمر الواقع. ثم حاربوا البلغار واستولَى الامبراطور باسيليوس الثاني على بلغارية كلها سنة ١٠١٤ وألغى لقب «البطريرك» فاكتفى رئيس الكنيسة البلغارية بلقب «رئيس أَساقفة» ومَقرُّه مدينة أوكريدا. ونصَّب الروم على أَبرشيَّات الكنيسة البلغارية أَساقفة يونانيِّين.

٣ - **في بلاد الروس**: إنَّ أَوَّل مقاطعة روسية تنصَّرت هي أوكرانية وقاعدتها كييف. وكان هذا التنصير بتأثير مشترك من قِبَل القُسطنطينيَّة والبلاد اللاتينيَّة المجاورة. وقَبِل فلاديمير ملك أوكرانية المعمودية سنة ٩٨٨ واقترن بأُخت الإمبراطور باسيليوس الثاني، وكانت العلاقات طيِّبة منذ البدء بين ملوك كييف وكلٍّ من رومة والقُسطنطينية.



كنيسة روسيّة

وانتشر الطقس البيزنطي في أُوكرانية في مطلع القرن الحادي عشر ايام ياروسلاف وأَزال

الطقس اللاتيني. وأُنشئت عام ١٠٣٧ ميتروبوليةُ كييف، وكان مُعظم أساقفتها من اليونان يأتون من القُسطنطينيَّة. ثم سقطت دولة كييف تحت ضربات المغول (١٢٤٠) وانتقلت الزعامة في روسية الى موسكو في الشمال، وهي بعيدة عن تأثير الغرب.

الفصل السابع عشر

الكَنيسَة في العَالَم الغَرْبيّ مِنَ القَرن السَّابع حَتّى القَرن الحَادي عَشر

مقدّمة

كانت السلطةُ البابويَّة هي السلطةَ العليا المعترفَ بها في الغرب كلِّه، وكان البابا موضوعَ احترامِ جميع الشعوب الساكنة فيه. ويُقسم تاريخ البابويّة في ذلك العصر الى أَربعة عهود: العهد البيزنطيّ (حتى سنة ٧٥٤)؛ وعهد الحماية الفرنجيَّة (٧٧٥ – ٨٨٧)؛ وعهد نفوذ الأُسَر الإيطاليَّة (٨٨٧ – ٩٦٢)؛ وعهد الحماية الأَلمانية (٩٦٢ – ١٠٧٣) وظهرت في آخر القرن الحادي عشر شخصية البابا غريغوريوس السابع، وهي شخصية فذَّة استطاعت ان تُحرِّر البابويَّة من الحمايات، وتبسط الإصلاحات الضروريّة، فبدأَت مرحلةٌ جديدة في تاريخ الكنيسة الرومانيَّة.

السُّلطة الباباويَّة

العهدُ البيزنطيُّ (حتَّى سنة ٧٥٤)

أَضحت رومةُ منذ فتوحات يوستنيانوس الملك تحت حكم البيزنطيِّين في أَواسط القرن السادس. فكَثُرت علاقاتُ الباباوات بالشرق، ولعبوا دوراً مهمًّا في مقاومة بدعة المشيئة الواحدة. وقد قاسَى البابا مرتينوس من جرَّاء هذه المقاومة النفيَ والعذاب، وتُوفِّي في مَنفاه سنة ٦٥٤.

واعتلَى السُّدَّة الباباوية في هذه الفترة عدَّةُ باباوات من أَصل سوري أو يوناني (٦ سوريُّون و ٣ يونانيُّون) وأَشهرهم:

ثاودورس (٦٤٢ – ٦٤٩) وهو مَقدسيّ. حرم البطريرك القُسطنطينيّ القائل بالمشيئة الواحدة، وعيَّن أَسقف عمَّان نائباً عنه لإِدارة شؤون بطريركيتَي أَنطاكية والقدس في مُدَّة شغورهما بعد الفتح العربي.

سرجيوس (٦٨٧ – ٧٠١) وهو سوريُّ الأَصل. رفض المصادقة على مقرَّرات مجمع القُبَّة فحاول الإِمبراطور خطفَه لِيَنفيه. فثار الجُندُ على أَوامر الملك ودافعوا عن البابا. وقد أَدخلَ في الطقس الروماني عاداتٍ وأَعيادًا شرقيَّةً كثيرة.

قُسطنطين الأَوَّل (٧٠٨ – ٧١٥) وهو سوريُّ الأَصل. قَبِل دعوةَ الإِمبراطور يوستنيانوس الثاني فزار القُسطنطينيَّة، ولم يوافق على مقرَّرات مجمع القُبَّة.

غريغوريوس الثالث (٧٣١ – ٧٤١) وهو سوريُّ الأَصل. قاوم الملكَين لاَوُن وقُسطنطين محطِّمَي الإِيقونات المقدَّسة، ورشقهما بالحرم في مجمع عَقَده في رومة عام ٧٣١ فانتقم لاَوُن منه بأَنْ فَصَل عن أَبرشيَّته مقاطعة البَلقان وضمَّها الى سلطة بطريرك القُسطنطينيَّة.

زخريا (٧٤١ – ٧٤٢) وهو يونانيُّ الأَصل وآخر بابا من أَصل شرقيّ.

العهدُ الفرنجيُّ والمُمتلَكات الباباويَّة

لمَّا ضَعُفَ النفوذ البيزنطيُّ في إيطالية استولَى اللومبارديُّون على راڤينَّا سنة ٧٥١ وهدَّدوا رومة نفسَها. ورأى البابا استفانوس الثاني (٧٥٢ - ٧٥٧) أنَّ البيزنطيِّين لن يَقْوَوا على الدفاع عنها فسافر الى فرنسة ومَسَح «بابين القصير» ملكاً وسأله أنْ يدافع عن «القدِّيس بطرس» فَأقبل بابين بجيوشه الى إيطالية وحارب اللومبارديِّين وكسرهم وأرغمهم على فكِّ حصار رومة واسترجع منهم الأراضي التي احتلُّوها. فأقبل وَفْدٌ من القُسطنطينيَّة يطلب إليه أنْ يَردَّ على البيزنطيِّين أراضيهم. فأجابهم «أنَّه لم يَشهر السلاح لحساب دولة بشريَّة بل حبًّا للقديس بطرس وكفَّارةً عن خطاياه». وسلَّم الاراضي الى البابا، فنشأت بذلك «الممتلكات الباباوية» وأصبح البابا تحت حماية الإفرنج. (ودامت هذه الممتلكات حتى ١٨٧٠ وفيها اندمجت بالوحدة الإيطالية).

واضطر البابا أدريانوس (٧٧٢ - ٧٩٥) الى أنْ يطلب مساعدة شارلمان ضدَّ ملك اللومبارديِّين الذي كان يَطمع في احتلال رومة. فحاربه شارلمان ثلاثَ مرَّات في إيطالية وقضَى على استقلال اللومبارديِّين وحمل لقب «ملك الإفرنج واللومبارديِّين» وجدَّد هِبات والده بابين القصير ووسَّع تخومَها. ولم يسمح البابا لشارلمان بأنْ يتدخَّل في شؤون كنيسة رومة الداخليَّة. فقد وافق على مقرَّرات مجمع نيقية (٧٨٧) الذي يسمح بتكريم الإيقونات المقدَّسة رغم معارضة شارلمان. وفي عام ٨٠٠ توَّج البابا لاون الثالث (٧٩٥ - ٨١٦) الملكَ شارلمان امبراطوراً على الغرب، غير أنَّه لم يَرضَ أنْ يزيد على صيغة قانون الايمان لفظةَ «والابن» رغم طلب شارلمان وإلحاحه في زيادتها. وظهر البابا للبيزنطيِّين أجنبيًّا عن الشرق، خاضعاً لنفوذ ملوك الإفرنج مع ما أبداه بعض الباباوات من القوَّة والتمسُّك بسلطتهم، مثل نقولا الأوَّل (٨٥٨ - ٨٦٧) وأدريانوس الثاني (٨٦٧ - ٨٧٢).

عهدُ الفوضى الايطاليَّة

ضَعُفت سلطةُ ملوك الإفرنج من أُسرة شارلمان، فتفتَّتت الوحدةُ السياسيَّة القائمة واندثرت، فاستقال آخرُ ملوكهم عام ٨٨٧، وقامت مَقام الدولة الكبيرة المنظَّمة إمارات

صغيرة، وأضحى المَنصب الباباويُّ آلةً بأَيدي الاحزاب والأُسَر الكبيرة التي سيطرت على ايطالية. ولم تفقد البابوية بعدُ في آخر القرن التاسع كلَّ ما لديها من هَيبة وسيطرة. واشتهر آنذاك البابا يوحنَّا الثامن (٨٧٢ - ٨٨٢) الذي أَنهَى الانشقاق بين رومة والقسطنطينيَّة بعد أَن اعتلى البطريرك فوتيوس السدَّة البطريركيَّة للمرَّة الثانية، وساند القدِّيس مثوذيوس رسول السلافيّين ضدَّ مضايقات الأَلمان المتمسِّكين باللاتينيَّة.

وفي القرن العاشر أخذت كنيسةُ رومة تتخبَّط في الفوضَى والاضطراب تُمزِّقها المنازعات الحزبية والأَطماع الدنيوية. وسَبَبُ هذه الحالة البائسة أَنَّ الأَشراف والأُمراء المسيطرين على رومة كانوا يُنصِّبون أَحباراً لا جدارة لهم ولا تقوَى، ينتخبونهم من بين أَولادهم أو اعضاء حزبهم ويدفعونهم الى تنفيذ سياستهم الخاصَّة. فانحطَّت هَيبة الباباوات ودُعي هذا العصر المشؤوم «العصر الحديدي».



الامبراطور الجرماني أوتّو

عهدُ السيطرة الجرمانيَّة

لمَّا وحَّد الملكُ أُوتُّون ألمانية وفرض سيطرته على ايطالية مَسَحَه البابا يوحنَّا الثاني عشر (٩٥٥ – ٩٦٤) امبراطوراً. فأكَّد لسكان رومة أنَّ تنصيب البابا منوطٌ برضاه، وأخذ فعلاً يتدخَّل في تنصيب الباباوات وعزلهم. وثار أهلُ رومة على التدخُّل الالماني، وسندهم في ثورتهم أباطرةُ القسطنطينيَّة وكانوا من الناحية السياسيَّة منافسين للامبراطورية الرومانية الجرمانية. ولم يكن للباباوات في هذا العصر شأن يذكر. وأشهرهم البابا سلفستروس الثاني (٩٩٩ – ١٠٠٣) وكان عالِماً وقد ترجم الى اللاتينية عدَّة كتب عربيَّة. وأغلَب باباواتِ هذا العصر ألمان.

وفي عهد البابا لاون التاسع (١٠٤٨ – ١٠٥٤) بدأت حركةُ الإصلاح، وتتابعت في عهد البابا نقولا الثاني (١٠٥٩ – ١٠٦١) وقد عَقَد مجمعاً كبيراً أقرَّ أنَّ حقَّ انتخاب البابا منوط بالكرادلة وحدهم. واشتدَّت حركة الاصلاح في ايام البابا غريغوريوس السابع (١٠٧٣ – ١٠٨٥) فاتَّخذ تدابير جذريَّة لرفع مستوى الإكليروس والأساقفة وتحرير الكنيسة من تدخُّل الملوك والأمراء.

التوسُّع المسيحيُّ في الغرب

امتدَّت المسيحيَّةُ في هذا العصر الى جميع أَنحاءِ اوروبة وتخطَّت حدودَ الإمبراطورية الرومانيَّة القديمة.

وازدهرت انكلترة ازدهاراً رائعاً برئاسةِ القدِّيس ثاودورس الطرسوسي الذي أَصبح رئيسَ أُساقفة كانتربري (٦٦٩ – ٦٩٠) ونظَّم الكنيسةَ الانكليزيَّة ورفع فيها مستوى العلوم، فخرج منها في القرنَين السابع والثامن مبشِّرون وعلماء.

وتمَّ تبشيرُ هولندا في القرن السابع، وتأسَّست أَقدمُ أَبرشية هولنديَّة في مدينة أُوتْرِخْت (٦٩٦). وفي هذا القرن نفسه دخلت المسيحيَّة الى سويسرة الالمانية وبافارية، وجاء كثيرٌ من المبشِّرين من إِرْلَندا.

وواصل القدِّيس بونيفاسيوس الانكليزي، في مطلع القرن الثامن، تبشير أَلمانية، فجعله البابا غريغوريوس الثالث رئيسَ أُساقفة فنظَّم الكنيسة الالمانية. وقد اكتمل تبشير باقي الأَراضي الأَلمانية بعد فتوحات شارلمان.

وفي القرن التاسع امتدَّت النصرانيَّة من أَلمانية الى الشعوب السلافية. واتَّفق أَنَّ القسطنطينية قد أَرسلت الى السلافيِّين مبشِّرين بيزنطيِّين. وتلاقَى الأَلمان والبيزنطيُّون معاً في نفس الأَمكنة. ومال السلافيُّون إِجمالاً الى الطقس البيزنطي.

وفي مطلع القرن العاشر غزت القبائلُ المَجَرية أَواسطَ أُوروبَّة وقضت على دولة مورافية، وكان المجرُ وثنيِّين، ففي آخر القرن العاشر سمح ملكُهم جيزا للمبشِّرين المسيحيِّين بدخول أَراضيه، فدخلوا وبشَّروا الناس بالدين المسيحي. وقبل المعمودية ابنُه الملكُ اسطفانوس (٩٩٧ – ١٠٣٨). وطلب الى البابا سِلفستروس الثاني أَنْ يُرسل إِليه مبشِّرين آخرين، فأَرسلهم اليه كما أَرسل اليه التاجَ الملوكي. واستقلَّ لاَدِسْلاَس (١٠٧٧ – ١٠٩٥) عن سلطة الامبراطور الجرماني وعن سلطة البابا السياسية، وأَصبحت المجرُ دولةً مسيحيَّةً الى أَنْ قضَى عليها السلطانُ العثماني سليمانُ الثاني.

وفي آخر القرن العاشر تنظَّمت ايضاً دولةُ بولونية ، وقبل ملكها المعمودية عام ٩٦٦ واتَّسعت شرقاً فضمَّت قسماً كبيراً من روسية الحالية.

وفي مطلع القرن التاسع دخلت المسيحية البلادَ الإسكندنافيَّة ، ولكنها لم تتأصَّل فيها إلَّا في غضون القرن الحادي عشر.

ولم يبقَ في الوثنيَّة إلَّا بعضُ شعوب الشاطىء الشرقيِّ من بحر البلطيك ، اعتنقت المسيحيَّة في ما بعد ، وآخرها شعب ليتوانية وقد أصبح مسيحيًّا في القرن الرابع عشر.

الفصل الثامن عشر

انشقاق الكنيسة

مُقدّمة: التنوُّع والتكامل داخلَ الوحدة المسيحيَّة قبل الانشقاق

تحدَّثنا عن الانشقاقِ الداخلي الذي حدَث في الشرق إبَّان القرن السادس، بين مُناصري مقرَّرات مجمع خلقيدونية (٤٥١) ومناوئيها. وكان سبَبه الاختلافُ في التعابير اللاهوتيَّة عن طبيعتَي السيِّد المسيح. ولم تتأصَّل هذه الاختلافاتُ اللاهوتية الدقيقة في عقول العامَّة إلَّا بفضل ما أُثير حَولها من نَعرات قومية وطنية تحمّس لها الأقباطُ والسريان والأرمن وهدفها مقاومة دولة الروم المستعمِرة.

وبقي الملكيُّون والبيزنطيُّون وحدَهم – وهم من أنصار مجمع خلقيدونية – مشتركين مع رومة والغرب في وحدة الكنيسة الجامعة. وكانت دعائمُ هذه الوحدة الإيمانَ بالمعتقدات نفسها التي أقرَّتها المجامعُ المسكونية، والاشتراك في الأسرار الكنسية ذاتِها، والاعتراف بأسبقيَّة البابا بين مصافِّ البطاركة الخمسة وبزعامته العليا.

وكانت هذه الوحدة الدينيَّة تَقبل كثرةَ الطقوس الكنسيَّة وتَعدُّدَ مظاهرها، واختلافَ التشريعات الكنسيّة في تفاصيل الأمور، كما أنَّها لا تتنافى مع الاستقلال الإداريّ الداخليّ الذي كانت تَنعم به كلٌّ من البطريركيّات الخمس.

ولم يكن البابا يمارس سلطته الروحيَّة في الشرق إلَّا في ظروف خاصَّة يقتضيها الدفاع عن صحَّة المُعتقد وتدعو اليها إدارةُ المجامع المسكونيَّة، والنظر في الدعاوَى الهامَّة التي تُرفع اليه. فكانت الكنيسة تتلاءم مع أطباع كلٍّ من الشعوب المسيحية

وأَنظمتها الخاصَّة. وكانت هذه الشعوب كلُّها تساهم بنشاطها وتَكامُل صفاتها في تقوية وحدة الكنيسة وانماء ثروتها الروحيَّة.

إِلَّا أَنَّه كانت هناك منذ البدءِ عواملُ خفيَّة تُهدِّد الوحدة المسيحيَّة بالانشقاق. وليست هذه العواملُ – كما ظنَّ البعض – اختلافَ الطقوس واللُّغة واستقلالَ البطاركة الشرقيِّين من الناحية الإِداريَّة. إنَّ هذه الأُمور التي تُميِّز الشرق من الغرب هي ضمانٌ للوحدة المسيحية داخل نطاق المحبَّة.

إنَّ العوامل الحقيقية التي فَصلت الشرق عن الغرب تعود كلُّها الى أَمر واحد، وهو أَنَّ الشرق كان يفهم الحياة الكنسية بمعنى يختلف عن معنى الغرب، وبأسلوب آخر كانت نظرةُ الشرقيِّين الى البابا والامبراطور تختلف عن نظرة الغربيّين إليهما.

١) فالشرقيُّون يعترفون بسلطة البابا، ولكنهم يعتبرونها سلطة عليا بعيدة، لا تتدخَّل في شؤونهم الخاصة إِلَّا في ظروف معيَّنة حدَّدتها الأَحداث التاريخية. أَمَّا الغربيُّون فكانوا يعتبرونها سلطة مباشرة، متواصلة، يمارسها البابا في كلِّ وقت وفي كلِّ مناسبة بحقٍّ إلهي. ومن المؤْسف أَنَّ هذه القضية الهامة في حياة الكنيسة لم يُوضحها مجمعٌ ما في وقت كانت فيه الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية تَنعمان بالوئام والصفاء. لقد درس الآباءُ المجتمعون أموراً أَقلَّ منها أَهميَّة، ولم يتطرَّقوا اليها قطُّ، فانشقَّت الكنيسة ولمَّا يبحث فيها مجمع مسكوني.

٢) كان الإمبراطور البيزنطيُّ يتدخَّل في الشؤون الدينيَّة تدخُّلا متواصلا، فيُصدر المراسيم العقائدية، ويدعو الى المجامع المسكونية، ويَسنُّ القوانين الكنسية، ويُنصِّب البطاركة ويعزلهم، فيتصرَّف في الكنيسة وكأنَّه رئيسُها ومصدرُ الوحدة الدينية في الإمبراطورية. أَمَّا في الغرب، فكان البابا هو الذي يُحدِّد القضايا الدينية بسلطته الرسولية التي استمدَّها من السيِّد المسيح، ويمارس مهامَّ الوحدة في الكنيسة، فيشعر الناس بأَنَّه هو المسؤول الأَوَّل عن كيان الكنيسة جمعاء وعن وحدتها المنظورة. لقد ارتبطت الكنيسةُ الغربيَّة بالبابا كما ارتبطت الكنيسة الشرقيّة بالإمبراطور. وهذا ما سبَّب في الكنيسة الجامعة اصطداماتٍ كثيرة بين الإمبراطور والبابا، شقَّتها الى شَطرَين، مرَّاتٍ متعدِّدة. وكانت هذه الانشقاقات تزول وتعود الوحدة الى مَجراها الطبيعي، وكانت هذه الوحدة في أَمان ما دامت الإمبراطوريّة الرومانيّة قائمةً تجمع بين شطرَي الكنيسة الشرقِ والغرب، فلمَّا انقسمت الامبراطوريَّةُ نفسُها وانفصلت عنها الشعوبُ البربريَّة في الغرب، أَضحت الوحدةُ المسيحيَّة في خطر عظيم. وجاء وقتٌ انحلَّت فيه الوحدةُ فعلاً وانشطرت الكنيسةُ الجامعة شَطرين مُتنافسَين.

التباعدُ المتبادَل والخصوماتُ الدينيَّة

إنَّ الأَحداثَ السياسيَّة التي قضت في مطلع القرون الوسطى على الوحدة الرومانيَّة من جرَّاءِ اجتياح البرابرة للغرب، كان لها أَبعدُ الأَثر في تمزيق وحدةِ الكنيسة. فالعالَم البيزنطيُّ انكمش على نفسه انكماشاً قويًّا فأصبح عالَـماً شرقياً يونانيًّا يجهل اللاتينية جهلاً تامًّا، ولم يُفِدْه شيئاً ادِّعاؤه المتواصل بأَنَّ له السلطةَ على العالَم الروماني بأَسره. وفي الغرب ظهرت الشعوبُ البربريَّة الجرمانيَّة وكانت تجهل تمامَ الجهل الحضارة الشرقيَّة اليونانية خلافَ ما كان عليه الرومان في عهد الإمبراطوريَّة القديمة. فأَصبح التفاهم أمراً صعباً بين شطرَي العالَم المسيحي، لا سيَّما وإنَّ التنافس السياسيَّ كان على أَشدِّه بين الإمبراطوريَّة الرومانيَّة البيزنطيَّة في الشرق والإمبراطوريَّة الرومانيَّة الجرمانيَّة في الغرب. وما دامت رومة داخل حدود العالم البيزنطي، كان البابا صلةَ الوصلِ ووسيلةَ التفاهم بين الشرق والغرب، فلمَّا خرجت روما من العالم البيزنطيِّ في مُنتصف القرن الثامن وأصبحت في منطقة نفوذِ ملوك الإفرنج، زالت هذه الصلة وصَعُب التفاهمُ بين الطرفَين.

وتسرَّبت الى رومة في أواسط القرن التاسع مفاهيمُ جديدةٌ للسلطة البابوية جعلت منها سلطة مُطلَقة تتنافى مع الفكرة التي اكتسبتها القسطنطينيَّة في استقلالها الإداري.

وأَصبحت البابويَّة في القرن العاشر أُلعوبةً بأَيدي الحكَّام الزمنيِّين وأباطرةِ الجرمان خصومِ البيزنطيِّين، فضعفت هيبتُها في نظر الشرقيين وطَغت قوَى الانفصال على عوامل الوحدة. وقد سبق هذا الانفصالَ بضعةُ أَحداثٍ تَنمُّ عن البَوْن الذي بدأَ يفصل الكتلتَين المتنافستَين واليك بعضَ هذه الأَحداث:

١ - **مَجمعُ القُبَّة (٦٩٢) والغرب**: رأينا في العصر السابق كيف رفض البابا لاَون قبولَ القانون الثامن والعشرين من المجمع الخلقيدوني، الذي يُخوِّل القسطنطينيةَ حقوقاً شاملة ويمنحها المركز الأَوَّل بعد رومة. وكذلك قاوم البابا غريغوريوسُ الكبير لقبَ «البطريرك المسكوني» الذي أخذ بطاركةُ القسطنطينيَّةِ يُلقِّبون به أَنفسَهم. وفي عام

٦٩٢ سنَّ المجمعُ القسطنطينيُّ المعروف «بمجمع القُبَّة» قوانينَ تَطعن لا فقط في التقاليد الأرمنيَّة بل ايضاً في التقاليد والتشريعات الرومانيَّة. فَنَهَت بعضُ هذه القوانين – تحت طائلة الحرم – امتناعَ الكهنة عن الزواج وصيام يوم السبت. وأقرَّ القانون ٣٦ أَنَّ للقسطنطينيَّة، رومةَ الجديدةِ، الامتيازاتِ نفسَها التي تمتَّعت بها رومةُ القديمة، ولها منزلتُها في الشؤون الكنسية، والمقامُ الثاني في المَرتبة. فأَبَى البابا سرجيوس، مع كونه شرقيَّ الأَصل، أَنْ يصادق عليه ولم يرضَ أَنْ يفرضَ المجمعُ تقاليدَ الشرق على الكنيسة جمعاء، وأَنْ تتساوَى رومة والقسطنطينيَّة في الشؤون الكنسية والفرق عظيم بينهما. فالأُولى مقرُّ كرسيٍّ بطرس زعيمِ الرسل والثانية عاصمةُ الدولة منذ القرن الرابع فقط. وظلَّ هذا المجمعُ في عُرف البيزنطيِّين مجمعاً مسكونيًّا فاستندوا الى قراراته مِراراً لينتقدوا تقاليدَ الغربيِّين وعاداتِهم.

٢ – **شارلمان والشرق**: أَراد شارلمان أَنْ يَقلب خلافاتِه السياسيّة مع الإمبراطورية البيزنطيّة الى خلافاتٍ دينية. فلمَّا تسلَّم مقرَّرات مجمعِ نيقية الثاني (٧٨٧) الذي يقول بتكريم الإيقونات المقدَّسة واطَّلع عليها في ترجمتها اللاتينية المُخطئة رفض قبولَها وانتقدها وطلب الى البابا أَدريانوس أَنْ يمتنع عن التصديقِ عليها. ففسَّر له البابا معناها الحقيقي وطَمأَنَه الى صحَّة العقيدة فيها.

وأَثار شارلمان قضيَّةً دينيةً أُخرى لعبت في الخلافات المُقبلة دوراً هامًّا، هي قضيَّة انبثاقِ الروح القدس من الآب والابن. كان نصُّ قانون الإيمان المتَّبع في رومة والقسطنطينية يقول عن الروح القدس إِنَّه مُنبثق من الآب. ودرجت العادةُ في اسبانية أَنْ يُقال: «مُنبثِقٌ من الآب والابن» وتسرَّبت هذه العادةُ تدريجيًّا الى فرنسة ولم تدخل الى رومة. واطَّلع شارلمان في مقرَّرات مَجمع نيقية الثاني على نصٍّ يقول عن الروح القدس «إِنَّه مُنبَثِقٌ من الآب بواسطة الابن» فكتب الى البابا يَلوم الرومَ على خطإهم. فَطمْأَنه البابا ايضاً الى صحَّة هذا القول، وهو قولٌ قديمٌ صحيحُ العقيدة.

وكان عددٌ من رهبان الإفرنج يسكنون ديراً في جبل الزيتون في القدس، فسافر بعضُهم الى اوروبة لشأنٍ ما. وسمعوا الرهبان في بلاط شارلمان يترنَّمون بقانون الإيمان ويقولون عن الروح القدس «إِنَّه مُنبَثِقٌ من الآب والابن». فلمَّا عادوا الى ديرهم في

جبل الزيتون أُخذوا هم ايضاً يقولون عن الروح القدس في تلاوة قانون الايمان إنَّه «منبثقٌ من الآب والابن». وسمع بذلك الرهبان الروم في دير القديس سابا فقام الجدلُ بين الديرَين. فكتب توما بطريركُ القدس الى البابا لحلٍّ الخلاف، وأُرسل شارلمان من قِبَله الى البابا وفداً ليحمله على فرضِ زيادة لفظة «والابن» المتجادَل عليها. فأَبَى البابا لاون الثالث أَنْ يخضع لرغبة شارلمان وحفر نصَّ قانونِ الايمان باليونانيَّة واللاتينيَّة بدون زيادة في مَدخل كنيسة القدِّيس بطرس.

إنَّ هذه الأَحداث ولو بسيطة في حدٍّ ذاتها تدلُّ على وجود تيَّار فكريٍّ في الغرب لا يَثِقُ بصحَّة مُعتقَد البيزنطيِّين، وهذا التيَّار لا يُبشِّر بالخير في سبيل الوحدة.

المشادَّةُ بين رومة والقسطنطينيَّة في عهد البطريرك فوتيوس (٨٦٧)

إنَّ المشادَّة التي قامت بين البطريرك فوتيوس والبابا نقولا الأوَّل، قد كان لها سببان مباشران، أوَّلُها الخلاف الواقع بين اغناطيوس وفوتيوس على المنصب البطريركي. وقد تدخَّل البابا في هذا الخلاف ومال الى اغناطيوس ورشق فوتيوس بالحرم وعزله عن منصبه.

وثانيهما الخلاف الواقع بين كنيستَي رومة والقسطنطينية حول قضية البِلغار. لقد طلب البِلغار اعتناق المسيحية فقامت المنافسةُ بين الكنيستَين، كلٌّ واحدة منهما تريد أَنْ تجلب اليها هذا الشعب الوثني. فأرسل فوتيوس الى البِلغار مبشرين بيزنطيِّين، وما لبث البابا نقولا أن عيَّن بدلاً منهم مرسَلين لاتين وطرد البيزنطيِّين من بلاد البِلغار، وأمر اللاتين باعادة منح سرِّ التثبيت لِمَنْ قبل منهم المعمودية، فثار ثائرُ البطريرك فوتيوس ورشق البابا بالعزل الكنسي. أجل كان الخلاف خلافاً شخصياً، ولم يفصل بين الكنيستَين ولكنه مسَّ حُرمة البابا ومهَّد الطريق للانفصال. وإليكَ الآن تفاصيلَ هذه الأحداث:

بطريركيَّةُ فوتيوس الأُولى (٨٥٨–٨٦٧)

١ – **عزلُ إغناطيوس وتنصيب فوتيوس**: توتَّرت العلاقات سنة ٨٥٧ بين البطريرك اغناطيوس والقيصر برداس أخي الملكة ثاودورة. ويرجع هذا التوتُّر الى سببَين أوَّلُها أنَّ برداس كان يعيش عيشةً فاسقة لها أسوأُ الأثَر في الشعب، وثانيهما أنَّ البطريرك لم يفهم الحركة التقدمية التي نشأت في عصره وشملت جميعَ مظاهر الحياة الاجتماعية والثقافية. فطلب اليه برداس أَنْ يستقيل ودعا فوتيوس الى المنصب البطريركي، وكان فوتيوس يشغل آنذاك وظيفة أَمانة السرِّ الأُولى في الدولة. فلم يتنازل البطريرك اغناطيوس عن منصبه. فعقد فوتيوس مجمعاً سنة ٨٥٩ عزل فيه اغناطيوس عن البطريركية وعدَّ نفسَه البطريركَ الشرعي. ثم بعث سنة ٨٦٠ الى البابا نقولا والى البطاركة الملكيِّين برسائل رسمية يُعلِمهم فيها بارتقائه الى السدَّة البطريركية ويطلب اعترافهم به بطريركاً. فلم يلقَ من البطاركة الملكيِّين جواباً.

٢ – **الحُكم على إغناطيوس**: وتسلَّم البابا نقولا رسالة فوتيوس فأَوفد الى القسطنطينية ممثّلَين ليطَّلعا على سير الاحداث ويخبراه عنها. فلما وصل الرسولان الى العاصمة البيزنطية اتّفقا مع الملك ميخائيل وفوتيوس على عقد مجمع. فعقدوه سنة ٨٦١ وحاكموا فيه اغناطيوس وعزلوه عن بطريركيَّته ورشقوه بالحرم. وعاد الرسولان الى رومة فلم يرضَ البابا عن عملها لأَنَّهما تجاوزا مهمَّتهما. ووصلته إذ ذاك رسالة من فوتيوس، فأَبَى ان يعترف به بطريركاً.

٣ – **الحُكم على فوتيوس**: وبلغ رومة ممثّل عن البطريرك اغناطيوس، فأَطلع البابا على تفاصيل الأَحداث. فعقد نقولا مجمعاً سنة ٨٦٣ في قصر اللاتران حكم فيه بعزل فوتيوس وعزل كل مَنْ منحهم درجة الأُسقفية، وأَمر بعودة اغناطيوس الى البطريركية. وتبلَّغ الملك قرار مجمع اللاتران، وقامت المحادثات بين البابا والبلاط بغية الوصول الى حلّ وسط لهذه القضية. ولكنها تأَزَّمت من جديد بسبب نشوب المشكلة البلغارية. فقد طرد البابا المرسَلين الروم الذين أُرسلهم فوتيوس الى بلغاريا للتبشير بالدين المسيحي. فثار ثائر فوتيوس وعقد هو الآخر مجمعاً في القسطنطينيّة سنة ٨٦٧ شجب فيه قرارات مجمع رومة وعزل البابا نيقولا عن منصبه. إلَّا أَنَّ البابا تُوفِّي قبل أَنْ تصله قرارات مجمع القسطنطينية. وخلفه البابا ادريانوس (٨٦٧ – ٨٧٢) وحدث فجأة في العاصمة البيزنطية انقلاب سياسي غيَّر مَجرَى الحوادث كلِّها.

٤ – **عودة إغناطيوس**: قتل باسيليوسُ المقدوني الملكَ ميخائيل الثالث واستولَى على الحكم في القسطنطينية، فعزل فوتيوس وأَعاد اغناطيوس الى السدَّة البطريركية. ثمَّ دعا الى عقد مجمع مسكوني ٨٦٩ – ٨٧٠ حضره ممثّلو البابا ونوَّاب البطاركة الملكيّين، فرشق المجمعُ فوتيوس بالحرم واعتبره دخيلاً مغتصباً. وبقي اغناطيوس بطريركاً حتى سنة ٨٧٧، وتُوفِّي في سلام الكنيسة.

بطريركية فوتيوس الثانية (٨٧٧–٨٨٦)

١ – تنصيبُ فوتيوس للمرَّة الثانية: لما تُوفِّي البطريركُ اغناطيوس أَجمع رَأْيُ الاساقفة على إعادة فوتيوس الى المنصب البطريركي. فتولى فوتيوس سنة ٨٧٧ للمرَّة

الثانية المنصب البطريركي، والتفَّ حوله الأساقفةُ إلَّا فئةٌ ضئيلة ظلَّت متشبِّثة بذكرى اغناطيوس ورفضت له الطاعة.

وأرسل البطريرك فوتيوس رسالة الى البطاركة الملكيين يُنبئهم فيها بارتقائه الى السدَّة البطريركية فأبدوا ارتياحهم لهذا الحلِّ الموفَّق واعترفوا به بطريركاً.

٢ – اعتراف البابا ببطريركية فوتيوس: مات البابا ادريانوس وخلفه يوحنا الثامن (٨٧٢ – ٨٨٢) فلما اطَّلع يوحنا على الاوضاع الجديدة آثر الوئام على المشادَّة. فعقد مجمعاً في رومة اشترط فيه على فوتيوس بعض الشروط ليعترف به بطريركاً، وأوفد الكردينال بطرس الى القسطنطينية. فالتأم فيها مجمع سنة (٨٧٩ – ٨٨٠) ترأسه البطريرك فوتيوس نفسه وحضره ممثِّل البابا ونوَّاب البطاركة الملكيِّين و٣٨٣ أُسقفاً. وعرض الكردينال على البطريرك شروط البابا، فقبل منها برضىً تام ما يُمكنه تحقيقه. ولما رأى الكردينال أنَّ الظروف موافقة للقوانين الكنسية اعترف به رسميًّا بطريركاً على الكرسي القسطنطيني كما اعترف به نوَّاب البطاركة الملكيِّين وممثِّل رئيس أساقفة أرمينية. وأقرَّ البابا يوحنا الثامن أعمال المجمع القسطنطينيّ. وبقي فوتيوس في منصبه حتى سنة ٨٨٦، وهي السنة التي مات فيها باسيليوس المقدوني. وخلفه على العرش الملك لاون السادس، فأعاد البطريركَ فوتيوس الى الدير ونصَّب على السدَّة البطريركية أخا الملك بدلاً منه.

الانفصالُ في عهد كيرولاريوس (١٠٥٤)

رفض بعضُ خُلفاء البابا يوحنا الثامن ان ينشئوا مع البطريرك فوتيوس علاقات عادية. ولمَّا غاب البطريرك عن المسرح الديني سنة ٨٨٦ نهائياً لبثت الآراءُ منقسمةً حوله في القسطنطينية وفي رومة. وبقي فريقٌ في العاصمة البيزنطية متمسِّكاً بذكرى البطريرك اغناطيوس يرفض الاعتراف ببطريركية فوتيوس وبجميع من رفعهم الى الدرجة الأُسقفية.

ثم تحسَّنت الأَوضاع بين الكنيستَين في عهد البابا يوحنا التاسع ٨٩٧ – ٩٠٠، إلَّا أَنَّ العلاقات بقيت نادرة متقطِّعة. وبُذلت المساعي في أَواسط القرن الحادي عشر لإزالة هذا الفتور المسيطر على علاقاتهما فلم تنجح، لا بل كانت نتيجتُها المباشرة الانفصال الأَليم الذي ما زال يَشطر الكنيسةَ الى شطرين. واليك تفاصيل أَحداث الانفصال.

الأَحداث السياسيَّة

كانت ايطالية الجنوبية تحت حكم الدولة البيزنطية، فشنَّ عليها النورمنديُّون غاراتٍ متواصلة وهدَّدوا ممتلكاتِ البابا في أَواسط ايطالية فشعر البابا لاون التاسع وملك القسطنطينية قسطنطين مونوماخوس بالخطر المُداهم. فأَخذا يُعدَّان العدَّة لاتِّفاق عسكري مشترك يَدحران به جيوشَ النورمنديين المعتدية.

وأَدرك البطريركُ ميخائيل كيرولاريوس (١٠٤٣ – ١٠٥٩) أَنَّ هذا الاتفاق العسكري لا بدَّ أَنْ يَعقبه اتفاق ديني، فصمَّم النيَّة على إحباطه. فهاجم الكنيسة اللاتينية وانتقد بعضَ عاداتها السائدة. وأَوعز الى لاون مطران البلغار ان يبعث برسالة الى أَحد الاساقفة اللاتين في ايطالية الجنوبية وينتقد فيها بعض عادات الكنيسة اللاتينية ويأمرهم بالكفِّ عنها. فدبَّج لاون رسالة بعث بها الى الأُسقف اللاتيني وانتقد استعمال الفطير في القدَّاس الالهي، والصيام يوم السبت، والامتناع عن ترتيل «هللويا» اثناء الصوم الكبير، وأَكل المخنوق، واشياء اخرى تُشبهها.

تصرّفات نوّاب البابا

بلغ البابا لاونَ التاسع موضوعُ الرسالة، وكان آنذاك شبهَ أَسير بين أَيدي النورمنديين الذين قهروا الجيوش البيزنطية في ايطالية الجنوبية، فلم يحرّك ساكناً وانتظر تقلبات الاحداث.

واطّلع الحاكم البيزنطي على مضمون الرسالة فكتب الى الملك قسطنطين يرجوه أَنْ يَمنع الخصومات الدينية في هذه الأَوقات الحَرجة. فأَرسل الملك الى البابا كتاباً، وأَجبر البطريرك على إرسال كتاب آخر من قِبَله. ووصلت هاتان الرسالتان الى البابا، فأَجاب عليهما لاون التاسع برسالتين بعث بهما مع ثلاثة نوّاب يرئسهم الكردينال همبرتو.

وكان همبرتو رجلاً عالِماً وتقيًّا، ولكنه كان ذا طباع حادَّة يُحب الخصام ويتوق الى الجدال. فلمَّا وصل الى القسطنطينية اتَّصل بالملك والبطريرك. وفي أَثناءِ وجوده في العاصمة البيزنطية مات البابا لاون التاسع فاضمحلّت حكماً صلاحيَّات النوَّاب. فامتنع البطريرك عن مقابلتهم وأَهملهم وشأْنهم.

وأَصدر أَحدُ رهبان الروم كرَّاساً صغيراً دافع فيه عن استعمال الخبز الخمير اثناء القدَّاس الالهي وانتقد العادات اللاتينية. وكان الكردينال يتمنَّى مثلَ هذا التحرُّش، فأَجاب بمقالة في غاية العنف ورشقه بالحرم. وبلغ الملك هذا الحادث فأَمر الراهب بأَن يعتذر للكردينال فاعتذر.

الكردينال يرشق البطريرك بالحرم

وفهم الكردينال همبرتو أَنَّ البطريرك ميخائيل غيرُ مستعدٍّ للاتفاق معه، فقرَّر أَنْ يرشقه بالحرم، ونفَّذ فعلاً قراره. في يوم السبت الواقع في ١٦ تموز سنة ١٠٥٤ دخل كنيسة «آجيا صوفيا» ووضع صكَّ الحرم على المذبح الأَوسط أَمام الاكليروس والشعب. وقد أكَّد في الصكِّ سلطة الكنيسة الرومانية واعترف باستقامة رأي الملك والاكليروس والشعب، ورشق بالحرم البطريرك ميخائيل وأَصحابه ومُشايعيه.

وبلغ البابا ما صنعه الكردينال فاستنكره وامتنع عن الموافقة عليه. ولم يعتبر البطريرك هذا الحرم عملاً من أَعمال البابا بل تعدِّياً قام به الكردينال همبرتو على مسؤوليَّته الخاصَّة.

الانفصال النهائي

غادر نوّاب البابا مدينة القسطنطينية فوراً. واطّلع الملك على صك الحرم فاسترجعهم ليتفاهموا مع البطريرك. ولكنّه لمّا رأى أنّ المدينة هائجة وأنّ حياتهم أضحت في خطر ردّهم الى بلادهم دون ان يُتمّ الاتفاق المنشود.

وجمع البطريرك اعضاء «المجمع الدائم» يوم الأحد المصادف ٢٤ تموز ١٠٥٤ ورشق الصكَّ بالحرم، فانفصلت الكنيسة البيزنطية عن الكنيسة اللاتينية. وظنَّ المعاصرون أنّه خلاف موقّت كالخلافات التي سبقته، إلّا أنّ التطوّر الذي حدث في الكنيسة الغربية وغزو الفرنجة (الحروب الصليبية) ثبّتت هذا الانفصال.

تدخُّل بطريرك أنطاكية

وأرسل البطريركُ كيرولاريوس الى بطرس الثالث بطريركِ أنطاكية رسالة طويلة يسرد له فيها الاحداث التي جرت في القسطنطينية، وينتقد العادات اللاتينية.

وكان بطرس رجلاً تقيًّا يرغب في السلام، فتألّم لهذه التصرُّفات العنيفة، وكتب الى البطريرك القسطنطيني رسالة امتازت بسموّ العاطفة المسيحية والمحبّة الأخوية. فبيَّن له أنّ هذه العادات انّما هي أمور ثانوية، وأنّ بعضها موجودٌ عند الروم أنفسهم، فهي لا تدعو الى الانفصال، وأنّ الكنيسة اللاتينية لا تزال في طور البربرية. فالمحبّة الأخوية تأمر الروم بأنْ يعطفوا على اخوانهم اللاتين ويسامحوا جهلهم وخشونتهم. ويرجوه في النهاية أنْ يعود الى الوئام والاتّحاد.

وذهبت سُدىً جهودُ البطريرك الأنطاكي، فانفصلت الكنيسة البيزنطية عن الكنيسة اللاتينية. أمّا الكنائس الملكيّة فلم تشترك رأساً في الخلاف بين رومة والقسطنطينية، وظلّت العلاقات قائمة بينها وبين رومة على قدر ما كانت تسمح به الظروف آنذاك. وما تأصّل الانفصال في البطريركيات الملكيّة إلّا عندما تسلّم زمام ادارتها الروحية الاكليروس القسطنطيني.

وينتهي في نهاية القرن الحادي عشر العصر الثالث من عصور تاريخ الكنيسة، ويبدأ عصرٌ جديد له أحداثه الخاصّة ومميزاته الدينية.

العصر الرابع

الكنيسة منذ غزو الفرنجة (الحملات الصليبية) حتى الفتح العثماني

من آخر القرن ١١ حتى مطلع القرن ١٦

(١١٠٠ - ١٥١٦)

مقدّمة

في هذا العصر الذي يؤلِّف القسمَ الثاني من القرون الوسطى بقي العالمُ منقسماً – كما كانت حالُه في العصر السابق – الى ثلاثِ كُتَل سياسية كبيرة تشكِّل كلٌّ منها عَالماً قائماً بنفسه، وهي **العالم العربي**، **والعالم البيزنطي**، **والعالم الغربي**.

إلّا أَنَّ **نجمَ العرب والبيزنطيين بدأ يخبو في الشرق** بتأثير الغزوات والحروب التي شنّها عليهم السلاجقة والفرنجة والمَغول والعثمانيون، بينما أخذت **الحضارة الغربيّة في أُوروبة تتأنّق وتزدهر** بعد قرون طويلة من الظُّلمة والانحطاط نجمت عن غزوات البرابرة، كما بدأت النُّظم السياسيّة فيها تتكوَّن وتتبلور.

ومن **الناحية الدينيّة** فإنّنا لا نجد في هذا العصر أحداثاً عامّة اشتركت فيها المسيحية كلُّها بشطرَيها الشرقي والغربي، ما عدا الحملاتِ التي قام بها الغربيُّون في ديار الشرق، وقد توخَّت هذه الحملات جمعَ الشمل عن طريق السيطرة وبسط النفوذ، فنتج منها **ازديادُ عمق الهُوَّة** الفاصلة بين المسيحيّين في الشرق والغرب. ولم يتمكَّن **مجمعا لِيون وفلورنسة** من مَلْءِ هذه الهُوَّة السحيقة.

وقد تسمَّى الغربيُّون الذين قَدموا الى الشرق لاحتلاله عسكريًّا **بالصليبيِّين** وعُرفت حملاتُهم **بالحملات الصليبيّة**. أَمَّا المؤرِّخون العرب فلا يعرفونهم بهذا الاسم ويتحدَّثون فقط عن **الفرنجة وغزو الفرنجة**. ونحن نُـؤْثِر هذه التسمية الأخيرة. وقد نتحدَّث عن «الحروب الصليبية» عندما نأخذ وجهة نظر الغرب.

وها نحن الآن ندرس **الأَوضاع السياسيّة** العامَّة التي أَثَّرت في أَحوال الكنيسة. ثم ندرس غزوات الفرنجة أو «**الحملات الصليبية**» وأَوضاع المسيحيين في كلٍّ من العوالم الثلاثة العربي والبيزنطي والغربي.

الفصل التاسع عشر

الأوضاع السياسيّة العامّة

مُقدّمة

تبدأ هذه الحِقْبَة في بلادنا بدخول السلاجقة والفَرنجة (الصليبيِّين) وتنتهي بالفتح العثماني. ويُناسبها في الغرب حِقْبَة تمتدُّ من عهد السيطرة البابوية من الناحية السياسية حتَّى الإصلاح البروتستاني والإصلاح الكاثوليكي. ويُقابلها في بلاد الروم مدَّةٌ تبدأ بتسلّم أُسرة الكُومنين زِمام الحُكم وتنتهي بسقوط القسطنطينيّة في أيدي العثمانيين (١٤٥٣).

في هذه الحِقْبَة يستيقظ الغربُ من سُبَاته ويخرج من انعزاله ويتقدَّم تقدُّماً مُطَّرداً في مختلف الميادين السياسيّة والاجتماعيّة والحربيّة، بينما يسيطر الركودُ على الشرق فتتضاءل فيه القِوَى العربية ويشتدُّ أُزر الأتراك السلاجقة وتتبدَّد العناصر الوحدويَّة فيتفتَّت الى مجموعة من الدويلات والإمارات، كما أنَّ شقَّة الخلاف الديني تتَّسع أكثر فأكثر بين الروم واللاتين بسبب قيام حملات الفرنجة واليك الآن بعضَ التفاصيل.

الأَوضاعُ السياسيَّة العامَّة في الشرق العربي

اشتدَّ نفوذُ الأَتراك السلاجقة في أَواخر القرن الحادي عشر، وقَويت شوكتُهم، فحاربوا الروم وكسروهم في موقعة مانْزيكيرت (١٠٧١) واستولوا على قسم كبير من بلاد الأَنَاضول. وكان من جرَّائها أَنْ هجر الأَرمنُ بلادَهم واسَّسوا في كيليكية دولةً أَرمنيَّة. واتَّجه السلاجقة نحو الجنوب، فانتزعوا أَنطاكية (١٠٨٥) من أَيدي الروم، كما انتزعوا الأَراضي السوريَّة الواقعة في حَوزة الفاطميين وحصروهم في مِصر. وارتدَّ الفاطميُّون واستولوا على القدس سنة ١٠٩١ مدَّة قصيرة. ومات ملك شاه سلطان السلاجقة عام ١٠٩٢ فانقسمت مملكتُه الى دويلات وإمارات أَخَذت تتنازع في ما بينها وتتحارب فانهارت قِواها واستطاعت جيوش الفرنجة أَن تَقهرها في مواقعَ كثيرة وتستولي على نيقية وقسم من الأَناضول، وأَنطاكية (١٠٩٨) والقدس والرَّها والساحل السوري. فأَسَّس الفَرنجة في هذه الديار إماراتٍ لاتينية دامت أَكثر من قرن كامل.

واسترجع أَميرُ المُوصل عماد الدين زنكي مدينة الرَّها (١١٤٤) وخلفه ابنُه نور الدين زنكي أُمير حلب والمُوصل فحارب الفَرنجة، وأَرسل قائدَه صلاح الدين الأَيُّوبي الى مِصر فقضَى فيها على دولة الفاطميين. ثمَّ استقلَّ صلاح الدين عن زنكي وأَسَّس الدولة الأَيُّوبية التي ضمَّت اليها مِصر ومُعظم أَراضي سورية. وكسر الفرنجة عام ١١٨٧ في معركة حِطِّين واسترجع القدس.

وفي غضون هذه الأَحداث اكتسح المغول بلاد آسية الوسطَى وفارس وروسية. وقضَى هولاكو على الخلافة العبَّاسيَّة في بَغداد (١٢٥٨) واستولَى على حلب وأَباد آخر الأَيُّوبيين فيها. وتابع جنوده زحفهم نحو الجنوب. وكان المماليك البحريُّون قد خلَفوا أَسيادهم الأَيُّوبيين في مِصر عام ١٢٥٠، فجهَّز السلطان الظاهر بَيبَرس جيشاً وخرج من القاهرة وحارب هولاكو عام ١٢٦٠ وغلبه في موقعة عين جالوت (جنوب طبريَّة) فسقطت سوريَّة كلها في حوزة المماليك، وبقي العراق وفارس في ايدي المغول.

وانتزع المماليك من الفرنجة آخر ممتلكاتهم، فاستولوا على أَنطاكية عام ١٢٦٨ وعلى عكَّا عام ١٢٩١ وخلَفتهم دولة المماليك الشراكسة منذ سنة ١٣٨٢، فأَنهَوا الحروب «الصليبيَّة»، كما صدُّوا عن مِصر خطراً مغوليًّا بقيادة تيمورلَنْك وحاربوا العثمانيين،

ولكنَّ السلطان سليم قضَى على دولتهم واستولى على سورية سنة ١٥١٦ وعلى مِصر سنة ١٥١٧.

الأوضاع السياسيَّة العامَّة في بلاد الروم

انهارت الأُسرة المقدونيَّة سنة ١٠٥٧ فعمَّت البلادَ فوضىً داخلية، وتراجعت الجيوش البيزنطية على جميع الحدود. فاستولى النورمنديُّون على ايطالية الجنوبية وكسر الأَتراكُ السلاجقةُ رومانوسَ الرابع في معركة مانزيكِيرت سنة ١٠٧١ كسرةً هائلة.

وقامت بعدَها أُسرةُ الكومنِين وتسلَّمت زِمام الحُكم سنةَ ١٠٨١ فاستطاعت في عهدها أَنْ تُعيد الى الدولة مدَّة قرن واحد شيئاً من عزَّتها وقوَّتها. واشتهر بين ملوكِها القائد أَلكسيوس كومنين (١٠٨٧ – ١١١٨) ويوحنَّا الثاني (١١١٨ – ١١٤٣) ومانوئيل الأَوَّل (١١٤٣ – ١١٨٠) واستطاعوا أَنْ ينظِّموا الجيش ويدافعوا عن حدود البلاد، ويُعيدوا النظام الداخلي، ويُفيدوا من حملة الفرنجة الأُولى فيهدموا دولة السلاجقة المتاخمة لحدودهم. واختلف الملك أَلكسيوس كومنِين مع الفَرنجة وطالبهم باستعادة أَنطاكية والاعتراف بسيادته العليا عليهم فلم يرضَوا بمطاليبه.

واحتلَّ الفَرنجة جزيرة قبرص عام ١١٥٥، ونَكَّلوا بسكَّانها الروم، فهجم البيزنطيُّون سنة ١١٨٢ على اللاتين الساكنين في القُسطنطينية وقتلوهم. فعمَّقت هذه الأَعمال الوحشيَّة هوَّة الخلاف بين الروم واللاتين.

وكَثُرت الانقلابات في القُسطنطينية فأَضعفت الدولة البيزنطيَّة. وانحرفت حملةُ الفرنجة الرابعة عن هدفها في مِصر واتَّجهت نحو القُسطنطينية واستولَت عليها عام ١٢٠٤ وأَقام الفرنجة فيها امبراطوراً لاتينيًّا امتدَّت سلطته على مَملكة سالونيك وإِمارة آثينة وإِمارة أَكائية وعلى مُمتلكات مدينتَي البندقية وجينوَى اللتين كانتا تتزعَّمان الحركة التجارية في الشرق. وتقلَّد زِمامَ الأُمور الروحيَّة في القُسطنطينية بطريركٌ لاتيني نال في المجمع اللاتراني الرابع المكانة الثانية بعد الحبر الروماني.

ولمَّا سقطت القُسطنطينية في أَيدي الفَرنجة التجأَ عظماءُ الروم والاكليروس البيزنطي الى الأَراضي المجاورة وأَسَّسوا دول نيقية وطرابوزَنْط وأَبيرية. وفي نيقية توَّج البطريرك

البيزنطي الملكَ ثاودور لسكاريس «امبراطور الرومان» وانتقلت البطريركية البيزنطيَّة الى شاطىء آسية.

ولم تمضِ ستُّون عاماً حتَّى رجع الروم الى القُسطنطينية واستولَوا عليها في ٢٥ تمُّوز ١٢٦١ يقودهم الى النصر الملكُ مخائيل الثامن باليولوغوس. ولم تُعمِّر هذه الامبراطورية الجديدة طويلاً. فقد كانت هزيلةً لم تقوَ على صَدِّ هجمات البلغار والصِّرب وخصوصاً الأتراك العثمانيين.

كانت دولة بني عثمان في بادىء أَمرها إمارة صغيرة متاخمة لبلاد الروم بين الإمارات الكثيرة التي قامت على أَنقاض دولة السلاجقة في آسية الصغرى في آخر القرن الثالث عشر. فَأَخذت تتوسَّع يوماً بعد يوم على حساب البيزنطيين وأَصبحت خطراً عظيماً يُهدِّد القُسطنطينية وأُوروبة كلَّها. واتَّخذ أُوركَخان بن عثمان (١٣٢٦ – ١٣٦٠) مدينة بُورصة عاصمة له، ونظَّم الجيش الإنكشاري واستولى سنة ١٣٥٩ على شبه جزيرة غاليبولي، وهي ضَفة الدردنيل الغربية. واستقرَّ مراد الاول (١٣٦٠ – ١٣٨٩) في مدينة أَندْرينُوبوليس وقهر محالفةَ البلغار والصِّرب والمَجَريِّين في موقعة كوسوفو سنة ١٣٨٩. وانتصر بايزيد الأَوَّل (١٣٨٩ – ١٤٠٢) على سيجسموند المَجَري في موقعة نيقوبوليس (١٣٩٦) وهدَّد عاصمة الروم. وظهر إذ ذاك تيمورلَنك وحارب بايزيد في أَنقرة وغلبه وأَسَرَه وأَنقذ القُسطنطينية لمدَّة وجيزة (١٤٠٢).

ومال تيمورلَنك نحو الصين وارتدَّ خلفاءُ بايزيد على القُسطنطينية يهاجمونها. فاستولَى مراد الثاني (١٤٠٢ – ١٤٥١) على سالونيك (١٤٣٠) فشعر البيزنطيُّون بضعفهم إزاء العثمانيين فطلبوا معونة الغرب واشترط البابا عليهم إعادة الوحدة الدينيَّة، فعقد البيزنطيُّون مع اللاتين مجمع فلورنسة. لكنَّ الغرب المنقسم على نفسه لم يتمكَّن من مساعدة البيزنطيِّين مساعدةً فعَّالة. وانتصر مراد الثاني على القائد الأَلباني هونياد في موقعة كوسوفو الثانية سنة ١٤٤٨. واستولَى محمَّد الفاتح (١٤٥١ – ١٤٨١) على القُسطنطينيّة في ٢٩ أَيَّار عام ١٤٥٣ وقضَى على دولة الروم. ثم تابع فتوحاته في البَلقان. وأَزال استقلال الصِّرب سنة ١٤٥٩ واستولَى على مُعظم ممتلكات البُندقيِّين. فأَصبحت الشعوب الارثوذكسيَّة تحت سلطة العثمانيين إلَّا روسية وحدَها. وتجمَّعت الشعوب الروسية منذ

القرن الرابع عشر حول موسكو، وأصبحت روسية منذ القرن الخامس عشر في عهد إيفان الثالث دولة كبيرة كَبُرت معها أطماعُها السياسيّة والدينيّة.

الأوضاع السياسيَّة العامَّة في العالَم الغربي

حدثت في القرن الثاني عشر تطوراتٌ خطيرة في الغرب. فقد تراجعت الإقطاعية أمام البورجوازية والسلطة الملكيَّة. وتوحَّدت كلٌ من انكلترة وفرنسة واسبانية. وبقيت كل من ألمانية وإيطالية منقسمةً على ذاتها ومُبعثرة.

وكان الغرب المسيحي يؤلِّف عالَماً موحَّداً بزعامة رئيسَيه الأعلَيين الإمبراطور الجرماني والبابا الروماني. وكانت الكلمة العليا للبابا فكان يُنصِّب الأباطرة والملوك ويَعزِلهم. ثُمَّ تحرَّرت السلطة الزمنيّة تدريجيًّا من وصايته وسلطته في مَطلع القرن الرابع عشر، وعادت الانقسامات والحروب في أوروبة الى ما كانت عليه من قبلُ (حرب المئة سنة بين فرنسة وانكلترة) وظهرت عام ١٢٧٣ أُسرة هابسبُور فحصلت على لَقَب إمبراطورية ألمانية وكوَّنت في العصور الحديثة عظمةَ النمسة.

ونشطت الحياةُ الفكريَّة في أوروبة وازدهرت العلوم الفلسفيَّة واللاهوتية. وسببُ ازدهارها احتكاكُ الغربيِّين بالعرب في الشرق واسبانية، والتطوُّر الاجتماعي والسلام السياسي الذي انتشر في أوروبة مدةً من الزمن.

وازداد اتِّصال الغربيِّين بالشرق البيزنطي بواسطة المدن التجارية الإيطالية وتدفُّقِ اليونانيِّين الى إيطالية بعد الفتوحات العثمانية. فظهرت طلائعُ النهضة العصرية وانحطَّت الأخلاق، وضَعُفَ الايمان، وتضاءلت السلطة البابويّة فأدَّى ذلك كلُّه الى خلق أوضاع سيِّئة نتجت عنها ثورة المُصلحين في القرن السادسَ عشر.

الفصل العشرون

غزوات الفرنجة أو «الحملاتُ الصَّليبيَّة»

مقدّمة

اتّصفت «الحملات الصليبيَّة» بالطابع الدينيّ، وأدَّت الى تأسيس إمارات لاتينيَّة في الشرق دام بعضُها أكثر من قرن. ولا بُدَّ من القول إنَّ هذه الحملات لم تخلُ من أهداف سياسيَّة وأطماع اقتصاديَّة وغايات توسُّعية على حساب المُسلمين أو الروم.

وقد كان لهذه الحملات نتائجُ حسنة بالنسبة الى الغرب نفسِه والى الديار المقدَّسة، إلّا أنَّ نتائجَها في الشرق عامَّةً كانت سيِّئة عميقة. فقد أثارت النعرة الدينيَّةَ والعصبيَّة الطائفية بين المسلمين والمسيحيِّين، ووسَّعت هوَّةَ الانفصال بين الكنيستَين الشرقية والغربية وأقنعت الروم بأنَّ اللاتين يَقسرونهم على الاتّحاد وهدفُهم في ذلك السيطرة عليهم حتَّى بقوَّة السلاح.

وقد تلاحقت «الحملات الصليبيَّة» مدَّة القرنين الثاني والثالث عشر واتَّخذت لها أهدافاً حربيَّة متنوِّعة، فوجَّهت جيوشَها في بادىء الأمر الى فلَسطين ثمَّ مالت الى القُسطنطينية فمصر فتونس. وقد بذلت الكثير من دماء أوروبة وسفكت الكثير أيضا من دماء المسلمين. فكان أوَّلُ لقاء بين الشرق الإسلامي والشعوب الأوروبية الناشئة لقاءً دمويًّا بقيت ذِكراه في نفوس الطرفَين أجيالاً طويلة.

وها نحن نستعرض باختصار أهمَّ أحداث هذه الحملات، ونرى ما آلت اليه أحوالُ النصارى الشرقيِّين في الإمارات اللاتينيَّة.

الحَملات الثلاث الأُولى

أسباب «الحَملات الصليبيَّة»:

قام المسيحيُّون في أُوروبة «بالحملات الصليبيَّة» الأُولى لأَسباب عدَّة أَهمُّها:

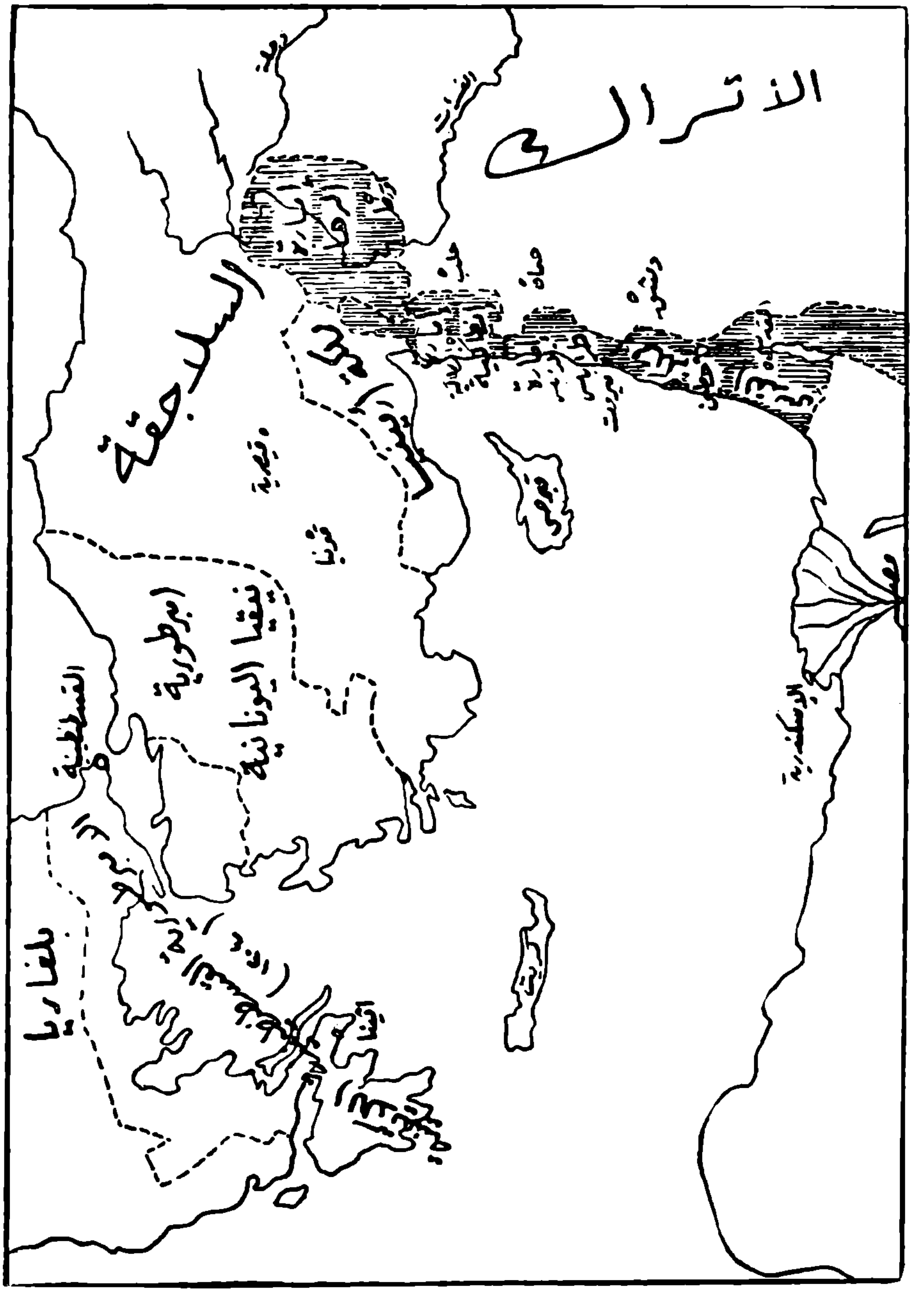
أ - **اضطهاد السلجوقيِّين للمسيحيِّين**: كان العرب المسلمون متسامحين إجمالاً مع المسيحيِّين سواءٌ أكانوا حجَّاجاً أَم مواطنين. فلمَّا ضَعُفت سلطة الخليفة العربي واستولى السلجوقيُّون على قسم من آسية الصغرى وعلى زِمام الحكم في سورية وفلسطين، عاملوا النصارى بالشدَّة واضطهدوهم. ووصلت أَخبار هذه المعاملة السيِّئة الى أُوروبة فاضطرب لها الناس وتحمَّسوا لإخوانهم المسيحيِّين في الشرق، فهبُّوا لقتال المسلمين.

ب - **مهاجمة السلجوقيِّين لدولة الروم**: كان السلجوقيُّون لا يَهدأون عن مهاجمة الدولة البيزنطية، فطلب الملك ميخائيل السابع والملك أَلكسيوس الأَوَّل كوْمنِين الى البابا والى أَمير فلانْدر مساعدتَها العسكرية، فلبَّى البابا والأَمير طلبَها وأَعدَّا الحملة الصليبيَّة الأُولى وأَرسلاها الى الشرق.

ج - **طَمَعُ الغربيِّين في اقتطاع إمارات جديدة**: رأَى الغربيُّون أَنَّ الدول الإسلامية منقسمة على نفسها فهاجموها ليستولُوا على قسم من أَراضيها. فحقَّقوا لأَنفسهم في الشرق إمارات جديدة واسعة. ورغب عبيدُ الأَرض في التخلُّص من حكم أَسيادهم الإقطاعيِّين والهرب من الضيق الذي كانوا يُعانونه في بلادهم، فاشتركوا في الحملات الصليبيَّة.

إنَّ هذه الأَسباب المباشرة لم تكن قادرة بنفسها على إثارة الحملات الصليبيَّة والقيام بها وتحقيقها فعلاً لولا أَن ساعدتها ظروفٌ خفيَّة قوية مهَّدت لها السبيل أَوَّلاً ثُمَّ دفعتها الى الأَمام دفعاً. وهذه الظروف هي:

١) **تَفكُّكُ العالَم الإسلاميّ**: استطاع السلجوقيُّون أَنْ يسيطروا على العالَم الإسلامي ويوحِّدوا أَقطارَه فإذا ايران والعراق والشام وأَرمينية وقسمٌ من آسية الصغرى دولةٌ إسلاميَّة واحدة لها من القوَّة ما يكفيها لتهدِّد الدولة البيزنطية والعالَم المسيحي بأَسْره.


الأتراك
السلاجقة
إمبراطورية نيقيا اليونانية
القسطنطينية
بلغاريا
الإسكندرية
قبرص

وبلغت دولةُ السلجوقيِّين أَوْج عزِّها في عهد مَلِكَشاه السلطان. ولمَّا مات مَلِكشاه تفكَّكت دولتُه الواسعة وتفتَّتت الى إِمارات متعدِّدة، وقام عليها الأُمراءُ يَتزاحمون فيها ويتخاصمون ورأى الغرب أَنَّ الظروف مُوءَاتية لاجتياح الشرق، فأَعدَّ العدَّة للحملات الصليبيَّة، وقد دفعته اليها أيضاً أَوضاعُه الخاصَّة.

٢) **الأَوضاع الاجتماعية في الغرب**: سيطرت الإقطاعيَّة في الغرب، فكان فيه كثيرٌ من الأَشراف والفُرسان بلا مقاطعات ولا أَراضٍ، وكثير من عبيد الأَرض والأَقنان بلا مال ولا مَعاش، وكانوا كلُّهم يتحرَّقون شوقاً الى القتال لتحقيق أَهدافهم المادِّيَّة. وأَخذوا فعلاً يتقاتلون في معارك دامية لا نهاية لها. وتناهت اليهم أَخبارُ الشرق: الدولة الإِسلامية متفكِّكة ضعيفة، والثروات والأَراضي فيها كثيرة واسعة، والسلجوقيُّون يضطهدون إِخوانهم المسيحيِّين والحجَّاج، ودولة الروم المسيحيَّة في خطر عظيم. فهاجت العواطف وتحمَّست النفوس واستعدَّ الناس للحملات الصليبيَّة.

٣) **سيطرةُ السلطة البابويّة**: ولم يكن أُمَراءُ الفرنج وفرسانهم قادرين على القيام بالحملات الصليبيَّة لولا وجود سلطة قويَّة تُوحِّد كلمتهم وتقضي على خصوماتهم. وكانت هذه السلطة القويَّة هي سلطة البابا. فكانت البابوية آنذاك في أَوْج عزِّها، لها الكلمة المسموعة والقدرة الكافية على كَبْح جِماح الملوك والإِقطاعيين والأَشراف والفرسان وتوجيه العالم الغربي حيثما تشاء. فوجَّهته الى الديار المقدَّسة.

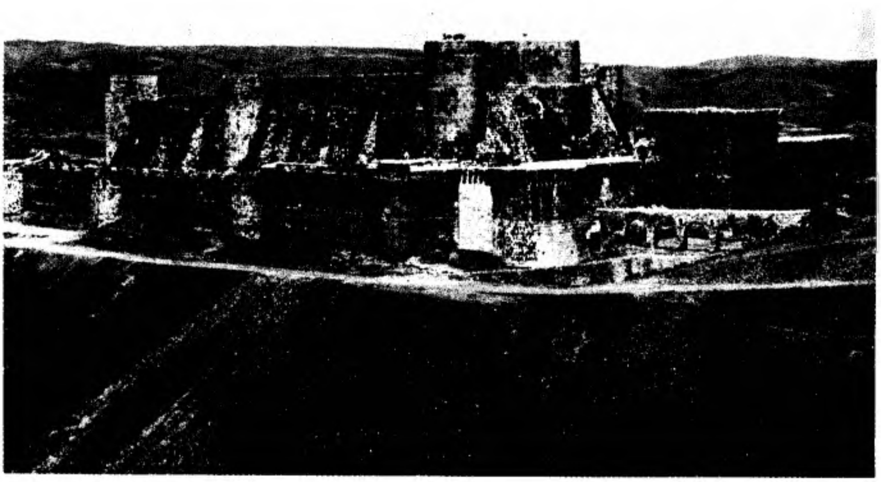
٤) **تأمين طرق المواصلات**: ولم تكن غَزوات الفرنجة لتَتَحقَّق لو لم تكن طرق المواصلات المؤدِّية الى الشرق في أَيدي المسيحيِّين الغربيِّين. فقد سيطرت أَساطيل جَنَوه والبُندقية وبِيزَة وغيرها من المدن الإيطالية على طريق البحر وتغلَّبت على قرصان البحر من عرب وأَتراك ومغاربة؛ أَمَّا طريق البَرِّ فقد أَصبح بأَيدي المسيحيِّين بدخول المَجَريِّين في النصرانية. فاتَّصل الغرب بالشرق اتِّصالاً مباشراً عن طريق البَرِّ والبحر.

هذه الظروف وغيرها قد ساعدت على قيام غَزوات الفرنجة ونجاحها في مرحلتها الأُولى.

الحَملة الأُولىَ

دعا الى القيام «بالحملة الصليبيَّة الأُولى» البابا أُوربانوسُ الثاني (١٠٨٨ - ١٠٩٨) سنة ١٠٩٥ وحدَّد موعد السفر الى الشرق في ١٥ آب ١٠٩٦، فاستعدَّت الجيوش الصليبيَّة للرحيل.

أ - **الحملة الشعبيَّة**: وقبل أَنْ يَحين الموعدُ المضروب، قامت جماعة من أَفراد الشعب يَقودها بطرس الراهب، وتدفعها الحماسة الدينيّة، وأَسرعت لتُنقذ القبر المقدَّس. وسار أَفراد هذه الحملة الشعبية نحو القُسطنطينية لا يَضمُّ شَملهم نظام ولا يَشدُّ أَزرهم سلاح. وبلغوا العاصمة البيزنطيَّة في شهر تمُّوز سنة ١٠٩٦، فاستقبلهم الملك أَلكسيوس باستغراب وحَذَر. وارتأى بطرس الراهب أَنْ ينتظروا مجيء الجيوش النظاميَّة، فلم يتبعوا رأيه بل عَبَروا مضيق البوسفور ودخلوا أَراضي الدولة السلجوقيَّة، فقاتلهم الأَتراك وهزموهم شرَّ هزيمة، فعادت فُلولهم الى القُسطنطينيَّة.



حصن الأكراد بناه الصليبيّون

ب - **الحملة النظاميَّة**: أَمَّا الجيش النظامي فقد انقسم الى أَربعة أَلوية، وبلغ القُسطنطينيةَ في شهر أَيَّار سنة ١٠٩٧. واجتمع القوَّاد بالملك أَلكسيوس ووعدوه بأَنْ

يُعيدوا اليه المُدُن الآسيوية التي يستخلصونها من أَيدي السلجوقيِّين. وفي ١٩ حَزيران سنة ١٠٩٧ استولَوا على نيقية وسلَّموها الى ملك الروم. ورحلوا الى أَنطاكية في ٢١ تشرين الاول وحاصروها، فسقطت في أَيديهم في ٣ حَزيران سنة ١٠٩٨ وبلغوا القدسَ بعد سنة في ٧ حَزيران عام ١٠٩٩، واستولَوا عليها في ١٥ تمُّوز من السنة نفسها، وقتلوا فيها خَلْقاً كثيراً. ودخلوا طرابلسَ في ١٢ تمُّوز سنة ١١٠٩ وأَسَّسوا أَربع دُوَل لاتينيَّة هي مملكة القدس وإمارات أُورفا وأَنطاكية وطرابلس، وفرضوا عليها النظام الإقطاعي السائد آنذاك في أُوروبة. واشتهر من بين القوَّاد غودفِروَا دي بويون الذي أَصبح أَوَّل ملك على القدس، وإنْ رفض حَمْل التاج.

الحملة الثانيَّة

استولَى عماد الدين زَنكي في ٢٣ كانون الأَوَّل سنة ١١٤٤ على أُورفا وقضَى فيها على الإمارة اللاتينيَّة. ولما قُتل سنة ١١٤٦ على أَبواب قلعة جَعْبَر خلفه ابنُه نور الدين أَمير حلب. وكان سقوط أُورفا في أَيدي المسلمين قد سبَّب قيام الحملة الصليبيَّة الثانية. واشترك في هذه الحملة ملك فرنسة لويس السابع وإمبراطور المانية كونراد الثالث.

وصل الإمبراطور عن طريق المَجَر الى بيزنطية ثمَّ الى آسية الصغرى، وفيها هاجمه عدوَّان شديدان وهما الجوع وعلاء الدين السلجوقي. فجُرِح كونراد وفَقَد سبعين أَلفاً من جيشه. وأَدركه ملكُ فرنسة، واتَّجه الاثنان مع ما بقي لهما من جيوش الى البحر وكان هدفهما استرجاع أُورفا فتحوَّلا الى دمشق. وكان أَمير دمشق مُجير الدين بن طغتكين موالياً للصليبيِّين يدفع لهم الجِزية خوفاً على إمارته من نور الدين بن زَنكي. فلمَّا هاجم الصليبيُّون دمشق استجار طغتكين بنور الدين فأَجَاره. وهزمت الجيوش الإسلاميَّة إمبراطور أَلمانية وملك فرنسة أَمام دمشق فباءت حملتهما بالفشل.

الحملة الثالثة

سبَّب قيام الحملة الثالثة سقوطُ القدس سنة ١١٨٧ في يَدَي صلاح الدين الأَيُّوبي بعد معركة حطِّين الشهيرة. واشترك فيها إمبراطور أَلمانية فردريك بَرْبَروس، وملك فرنسة فيليب أُوغُسط وملك انكلترة ريشارد قلب الأَسد.

واختنق فريدريك في مياه نهر السلف في آسية الصغرى، واستولَى الصليبيُّون على عكّا وعلى الساحل السوري. فأضحت عكّا المركزَ السياسيَّ الرئيسي للصليبيِّين بدل القدس. واستولَى ريشارد قلبُ الأَسد في طريقه الى فِلَسطين على جزيرة قبرص، وكانت آنذاك تحت إمرة أَمير بيزنطي، فأَضحت الجزيرة قاعدةً مهمَّة للفرنجة. وقام ريشارد في الديار المقدسة بأَعمال عجيبة في الشجاعة والفروسيَّة فذاعت شهرتُه بين الصليبيِّين والمسلمين. ومع هذا فلم يكن نجاحُ هذه الحملة إلّا جزئياً ولم تستولِ على القدس. وقد سُمح للصليبيِّين حسب اتفاقية صُلْح الرملة المعقودة بين ريشارد قلب الأَسد والسلطان العادل أَخي صلاح الدين بأَن يدخلوا مدينة القدس، ولكن دون سلاح، وتبقَى المدينة في أَيدي المسلمين.

الرهبانيَّات العسكريَّة

وتأَسَّست في فِلَسطين رهبانيَّاتٌ عسكرية ثلاث هدفُها الدفاع عن ممتلكات الفرنجة في الشرق. فكان اعضاؤها رهباناً وفرساناً على السواء. وهذه الرهبانيَّات هي:

– **رهبانيَّة القدِّيس يوحنّا*** وقد تأَسَّست في مطلع القرن الثاني عشر.

– **ورهبانيَّة الهيكليِّين*** الذين تمركزوا سنة ١١١٩ إزاء الهيكل.

– **ورهبانيَّة الفرسان الأَلمان*** وقد تأَسَّست سنة ١١٢٨ ولم تلعب هذه الرهباينة في الشرق إلّا دوراً ضئيلاً.

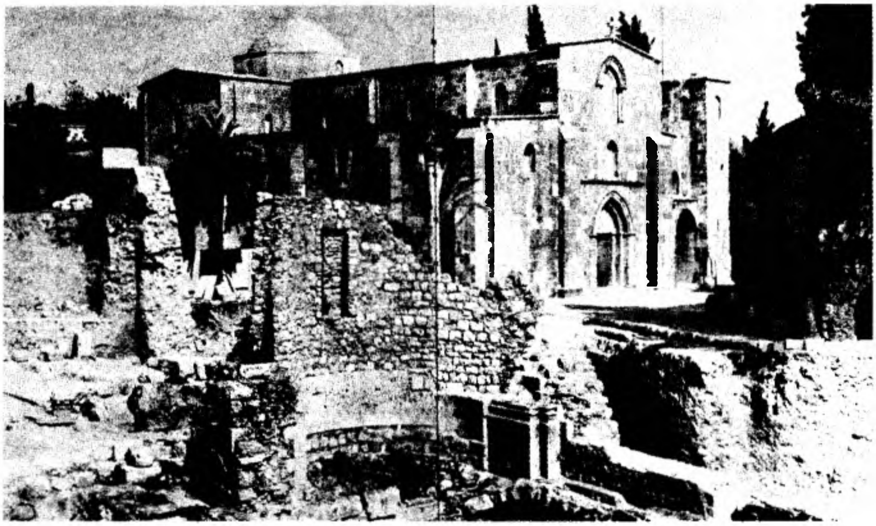
Les chevaliers Teutoniques *

Les Hospitaliers *

Les Templiers *

الحملة الرابعة (١٢٠٤)

دعا الى القيام بهذه الحملة البابا اينوسَنْت الثالث، وقد حدَّد لها هدفَها وهو الاستيلاء على مِصر معقل الأَيُّوبيِّين. ومنع قُوَّاد الحملة منعاً باتًّا من مهاجمة إحدَى الأَراضي المسيحيَّة. ومع ذلك، فقد انحرفت عن غايتها وتوجَّهت الى القُسطنطينية واستولَت عليها.



كنيسة القدّيسة حنّة بالقدس بناها الصليبيّون

أَسباب الاستيلاء على القُسطنطينيَّة

استولَى الفرنجة على القُسطنطينيَّة للأَسباب التالية:

آ - لأَنَّهم كانوا **يُضمرون الحقدَ** لدولة الروم. وقد حقدوا عليها لأَنَّ الروم وقفوا تجاه الحملات الثلاث الأُولى موقفاً عدائيًّا. وكان الغربيُّون لا يزالون يَذكرون مذابح اللاتين في القُسطنطينيَّة سنة ١١٨٢.

ب - لأَنَّ أَلكسيوس الثالث في القُسطنطينيَّة **خلع أَخاه** إسحق عن العرش، **واستولَى** على الحكم بعد أَنْ فَقَأَ له عينَيه. فقام أَلكسيوس الأَصغر ابن الملك المخلوع يستنجد بفرسان الغرب، فأَنجدوه وسيَّروا جيوشهم نحو القُسطنطينيَّة.

ج - **لأنَّ تجّار مُـدُن البُندقية وجَـنَوه وبِيزَة** وغيرِها من المُـدُن الإيطاليَّة طَمِعوا في السيطرة على جميع مرافق الحياة التجارية في الشرق فحرَّضوا الملوكَ والقوّاد على مهاجمة القُسطنطينية والاستيلاء عليها.

الاستيلاءُ على القُسطنطينيَّة ونتائجُ هذه الحملة

أقلع الفرنجة نحو العاصمة البيزنطيَّة وحاصروها واستولَوا عليها في ١٨ تمُّوز ١٢٠٣ وأَعادوا الى العرش الملكَ المخلوع وابنَه أَلكسيوس. ولكنَّ الثورة ما لبثت أَنْ قامت في وجهَيهما في شهر كانون الثاني ١٢٠٤ وقَلَبَتهما عن العرش. فتسلَّم زِمام الحكم أَلكسيوس الخامس. فعاد الفرنجة مرَّة ثانية الى المدينة وحاصروها ودخلوها في ١٢ نيسان ١٢٠٤ وخرَّبوها تخريباً هائلاً، وأسَّسوا دولة لاتينيَّة.

ولم يكن البابا إينوسَنت الثالث موافقاً على عملهم هذا. فما إن هَـمَّ «الصليبيُّون» بالرحيل نحو الشرق حتَّى هدَّدهم بالحرم اذا ما اعتدَوا على إحدى الأراضي المسيحيَّة. وعندما عَلِم أَنَّهم متَّجهون نحو القُسطنطينيَّة نَهاهم نَهياً قاطعاً عن مهاجمة دولة الروم، فلم ينتهوا وخالفوا أَمره واستولَوا عليها. فاستقبح عملَهم ووبَّخهم توبيخاً قاسياً ولكنَّه خضع في النهاية للأَمر الواقع.

ونصَّب الفَرنجة في القُسطنطينيَّة بطريركاً لاتينيًّا بدل البطريرك البيزنطي، وأَقالوا أَساقفةَ الروم الذين رفضوا الاتِّحاد بالكنيسة الرومانية. أَمَّا الأَساقفة الذين قبلوا الاتِّحاد فاعتبروهم نوَّاباً للأَساقفة اللاتين حفظاً للمبدإِ الذي يَنْهى أَنْ يكون للمدينة الواحدة أُسقفان.

وكان لهذه الحملة الطائشة أَسوأُ النتائج منها أَنَّها:

آ - **أَقنعت** الروم بأَنَّ **البابا يريد أَنْ يسيطر** على الشرقيِّين ولو بالقوَّة والعنف.

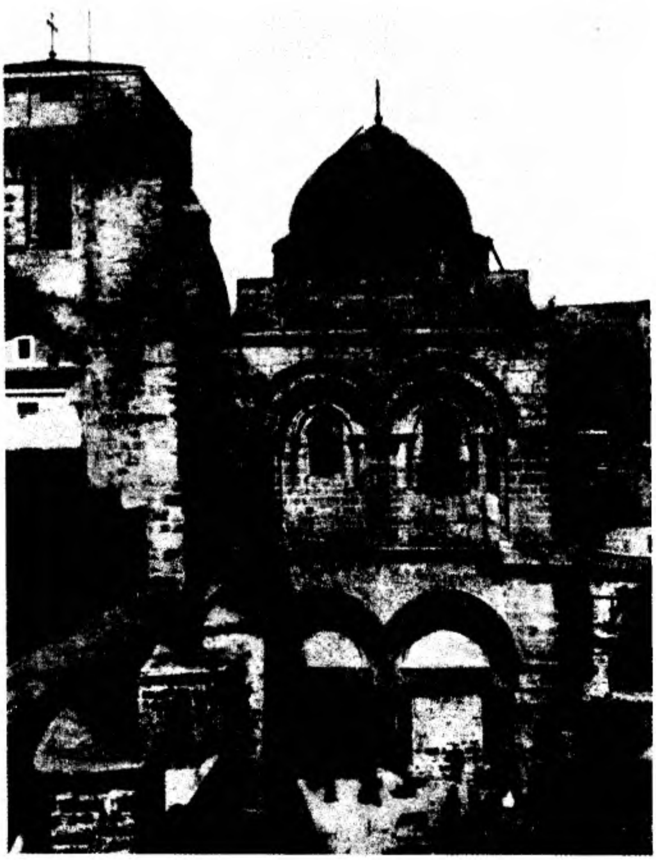
ب - **أَضعفت قوّات الفَرنجة** المرابطة في الأَراضي المقدَّسة ومنعت عنها الامدادات العسكرية.

ج - **حفرت هوَّة** عظيمة بين الكنيستَين الشرقيَّة والغربيَّة وأَثارت حِقد الروم على الكنيسة اللاتينيَّة.

الحملات الأَخيرة

الحملةُ الخامسة

دعا اليها البابا إينوسنت الثالث وأَقرَّها في مجمع اللاتران عام ١٢١٥ . وقام بها ملكُ المجر وملك قبرص ، وتوجَّها بجيوشهما الى مِصر، قلبِ الدولة الأَيُّوبية ، واستوليا على دمياط عام ١٢١٧ وتأَخَّر الإِمبراطور فريدريك الثاني عن اللحاق بهما فتمكَّن السلطان الكامل من جمع قِواه والانتصار عليهما ، فاضطرا الى مغادرة مِصر عام ١٢٢١ .



كنيسة القيامة بالقدس كما أعاد بناءها الصليبيّون

الحملةُ السادسة

حثَّ البابا غريغوريوس التاسع امبراطورَ المانية فريدريك على أَنْ يَبَرَّ بوعده ويذهب الى الجهاد فامتنع ، فلمَّا رشقه بالحرم أَظهر خضوعه وسافر مع جيشه الى عكَّا ووصل اليها عام ١٢٢٨ . وكانت عكَّا آنذاك في أَيدي الفرنجة . واتَّصل بالسلطان الكامل الأَيُّوبي . ودخل معه في مفاوضات . فسلَّمه السلطان في إثرها مدينةَ القدس (ما عدا المسجدَ الأَقصَى) وبيتَ لحم والناصرة ، وعقد المَلِكان هُدنة لمدَّة عَشْر سنوات . وفي هذه الأَثناءِ ظهر المغولُ وضربوا العالَم الإسلامي . فهرب الخَوارزميُّون من وجههم وجاؤوا الى سورية وأَعانوا الملكَ الصالح على استرجاع القدس من أَيدي الصليبيِّين عام ١٢٤٤ .

الحملةُ السابعة

دعا البابا غريغوريوسُ في مجمع ليون الأَوَّل عام ١٢٤٥ جميعَ الملوك المسيحيِّين الى الجهاد فلم يلبِّ دعوتَه إِلَّا لويس التاسع ملكُ فرنسة . ووصل بجيشه إِلى مِصر واستولَى على دمياط سنة ١٢٤٩ وسار الى القاهرة . وسلك طريق الدلتا فاستطاع طوران شاه ابن الملك الصالح أَنْ يفتح عليه نهر النيل وكان في أَوْج فَيَضانه فهلك كثيرٌ من جنود الإفرنج . ومع هذا فقد كسروا جيش طوران شاه . إِلَّا أَنَّ الخسائرَ الفادحة التي وقعت بجيش الإفرنج منعت الملك لويس من متابعة سيره ، فأُرغم على المفاوضة والانسحاب من مِصر . وقضَى أَربعَ سنوات في فِلَسطين يحصِّن المُدُن التي كانت في حوزة الإفرنج .

الحملة الثامنة

قام بها لويس نفسُه سنة ١٢٧٠ لِيفَي نَذْره ويَغسِل عار فشله . وتوجَّه الى تونس ليأخذ مِصر من الخلف ، وقد أَوْهَموه أَنَّ أَمير تونس مستعدٌّ أَنْ يعتنق النصرانيَّة . وتفشَّى الطاعون في جيشه ومات الملك نفسه سنة ١٢٧٠ فانسحبت الجيوش واستولَت على صقلية . وهذه كانت آخر «الحملات الصليبيَّة» ولم يَقُم بعدها حملةٌ أُخرى . واتَّصفت الحملات الأَخيرة بشيءٍ من الفتور وعدم الاكتراث في العالم المسيحي ، لأَنَّ العقليَّة الغربية قد تغيَّرت كثيراً في أُوروبة في غُضون القرن الثالث عشر .

الفصل الحادي والعشرون

الكنيسة في العالَم العربي منذ القرن ١٢ حتّى القرن ١٦

مقدّمة

نَبحث الآنَ في وضع كلٍّ طائفة من الطوائف المسيحيَّة الشرقيَّة في العالَم العربي أثناء قيام الإمارات الصليبيَّة، وفي عهد المماليك (في مِصر وسورية) وعهد المَغول (في العراق).

اختلفت أوضاعُ هذه الطوائف في أيَّام الصليبيِّين، ولم تَحظَ كلُّها بنفس المعاملة الطيِّبة. أمَّا في عهد المماليك والمَغول فقد تدهورت أحوالُ الطوائف المسيحيَّة كلها من جرَّاء الحروب والغَزوات المتوالية التي عمَّت الشرق في أواخر القرن الثالثَ عشر، فقلَّ فيه عددُ المسيحيِّين، وضَعُف شأنُهم، وتضاءل نفوذُهم وانخفض مستوى ثقافتهم.

الملكيُّون

أ – **في بطريركيّة الإسكندريّة**: ظلَّ الملكيُّون في مِصر قليلي العدد، وأقام بطاركتُهم بالقُسطنطينيَّة في غالب الأوقات واشتركوا في حياة هذه الكنيسة. وقد اشتهر بينهم البطريركُ مرقس ١١٨٠ – ١٢٠٩ الذي استعمل في الطقس الكنسيِّ خدمة قدَّاس يوحنَّا الذهبيِّ الفم بدلاً من خدمة قدَّاس مرقس الرسول، وهذه خدمة قديمة في الإسكندرية يتبعها الأقباط.

وقام بعده نقولاوسُ الأوَّل ١٢١٠ – ١٢٤٣ واتَّحد بالكنيسة الرومانيَّة وأرسل عنه ممثِّلاً الى المجمع اللاتراني الرابع (١٢١٥) وقد سمح له البابا اينوسنت الثالث برسامة كاهنٍ لاتينيٍّ للقيام بخدمة الأسرَى الغربيِّين.

وساءت أوضاع النصارَى في مِصر أيَّام المماليك بعد عهد الأيُّوبيِّين والفاطميِّين. وقد ضغط عليهم المماليك بسبب حملات الفرنجة وكأنَّ المسيحيِّين الشرقيِّين مسؤولون عنها أو محرِّضون عليها. وازداد هذا الاضطهاد بعدما غزا ملكُ قبرص مدينةَ الإسكندريَّة.

ب – **في البطريركيَّة الأنطاكيَّة**: كانت أنطاكية قبل حملة الفرنجة الأولى بقليل مدينةً بيزنطيَّة، وكان الفرنجة قد وعدوا ملك الروم بأنْ يُعيدوها اليه شريطةَ أنْ يَنضمَّ اليهم بجيوشه لمحاربة المسلمين في القدس. فلمَّا استولَوا عليها اعترفوا فوراً بسلطة البطريرك الملكيِّ يوحنَّا الخامس، وأعادوه الى مَنصبه البطريركي، ورمَّموا له الكنائسَ والمعابد وجدَّدوا أثاثها. غير أنَّهم نصَّبوا في الأبرشيات الشاغرة أساقفة لاتين.

ولم يَطُل الوفاقُ بين الروم واللاتين، ويرجع النفورُ الى أسباب سياسيَّة أهمُّها أنَّ ملكَ القُسطنطينيَّة لم يَقُمْ بوعده في مساعدة الصليبيِّين، فاحتفظ هؤلاء لأنفسهم بمنطقةِ أنطاكية كما احتفظوا بمنطقة الرَّها. ولم تَمضِ سنتان حتَّى نصَّب الفرنجة بطريركاً لاتينيًّا، وغادر يوحنَّا الخامسُ مدينةَ أنطاكية سنة ١١٠٠ وسافر الى القُسطنطينيَّة. وحافظ الأساقفة الملكيُّون وأفراد إكليروسهم على رُتَبهم ووظائفهم وممتلكاتهم تحت سلطة البطريرك اللاتيني.

وأقام البطاركةُ الملكيُّون إجمالاً بالقُسطنطينيَّة. وسمح التقاربُ السياسي بين الملك البيزنطي وأمير أنطاكية اللاتيني لبعض البطاركة الملكيِّين بأنْ يُقيموا بأنطاكية، وكان

البطريرك اللاتيني ينسحب آنذاك من المدينة حِفظاً للمبدإ القانوني الذي لا يُجيز لأَنْ يكون للمدينة الواحدة أُسقفان. وكان الروم واللاتين يعتبرون أَنفسَهم رغم المنافسة السياسية أَتباع مذهب واحد ومُعتقَد واحد. واشتهر بين البطاركة الملكيِّين في أَنطاكية البطريركُ ثاودوروس بلسامون (١١٨٥ – ١١٩٤) وهو من كبار رجال القانون البيزنطيِّين.

ولما تهدَّمت أَنطاكية في أَيَّام بَيبَرس سلطان مصر انتقل البطاركة الملكيُّون الى دمشق، وأَضحَى انتخابهم في أَيدي رجال الاكليروس المحلِّي، وظلُّوا على اتِّصال بالقُسطنطينيَّة. أَمَّا علاقاتهم بالكنيسة الرومانية فقد أَصبحت في غاية الصعوبة لأَنَّ البابوات كانوا القوَى المُحرِّكة «للحملات الصليبية». فكلُّ اتِّصال بهم يُثير الشُبهة في نفوس الحكَّام المسلمين ويعرِّض المسيحيِّين الشرقيِّين للاضطهاد. وأَشهرُ الكتَّاب الملكيِّين في ذلك العصر بولسُ أُسقف صيدا واضعُ المصنَّفات الجَدَلية واللاهوتية.

ج – **في بطريركيَّة القدس**: لمَّا استولَى الصليبيُّون على مدينة أَنطاكية كان للملكيِّين في القدس بطريركٌ يُدعَى سمعان. وكان رجلاً فاضلاً، وقد تقدَّم في الأَيَّام كثيراً فخَشِيَ وطأَةَ المسلمين فغادر القدس والتجأَ الى جزيرة قبرص، ووافته المَنيَّة هناك. فلمَّا استولَى الصليبيُّون على مدينة القُدس لم يكن فيها بطريرك، فنصَّبوا عليها بطريركاً لاتينيًّا خَلَفاً لسمعان. وبقي الاكليروس والاساقفة الملكيُّون في مناصبهم، وأَضحَوا تحت سلطة البطريرك اللاتيني.

وفي عهد المماليك أَصبحت الأَماكن المقدَّسة في أيدي الرهبان الكَرَج، وهم من منطقة القفقاز، مَوطن المماليك أَنفسهم. وفي القرن الرابع عشر تمركز الرهبان الفرنسيسكان في القدس، بإذنٍ من سلطان المماليك، وقد ساعدهم على ذلك في بادىء الأَمر البطريركُ الملكيُّ نفسُه.

الموارنة

أ – **في عهد الفرنجة**: لمَّا قدِم الفرنجةُ الى لبنان اتَّصلوا بالموارنة، فخرج هؤلاء من عُزلتهم الطويلة وقد بدأَت منذ أَنْ غادروا سهولَ العاصي في القرن الثامن والتجأُوا الى جبال لبنان.

واختلط الموارنةُ بالإفرنج وتعاملوا معهم. وفي عام ١١٨١ تمَّ الاتِّحادُ الدينيُّ بينهم وبين الكنيسة الرومانية وَفْقَ ما رواه المؤرِّخُ الصليبي غِليوم الصوري. فسمح اللاتين لكهنة الموارنة بأَنْ يُقيموا القدَّاس في كنائسهم ويرتَدوا ملابسَهم الطقسيَّة.

وكثرت الاتصالاتُ بين الكنيسة المارونية وكنيسة رومة وانتعشت أَوضاعُ الموارنة في ربوع لبنان من الناحية الدينية، فارتفعت المعابدُ وكثُرت الديورة ونَعِم الموارنة بحريّة تامة.

وحضر البطريرك الماروني إرميا العمشيتي (١١٨٣ – ١٢٣٠) المجمع اللاتراني الرابع المنعقد في رومة سنة ١٢١٥، وتلقّى من البابا إينوسنت الثالث (١١٩٨ – ١٢١٦) رسالة يدعوه فيها الى اقتباس عادات اللاتين وملابسهم الطقسية. وقد أعاد البابا ألكسندروس الرابع (١٢٥٤ – ١٢٦١) والبابا نيقولا الثالث (١٢٧٧ – ١٢٨٨) تَوصيات هذه الرسالة. ولم تتأثر الكنيسة المارونية في عهد الصليبيين بالعادات والطقوس اللاتينية إلا تأثيراً خفيفاً. فقد حافظت على عاداتها القديمة وطقوسها الموروثة.

ب – **في عهد المماليك**: لما استولى المماليك على الممتلكات اللاتينية في سورية قسَموا البلاد الى ستّ نيابات، وأقاموا في لبنان «مقدَّمِين» لجباية الضرائب وحفظ الأمن. وكان المقدّمون من المسيحيين. وكثيراً ما كانوا يقبلون رسامة «الشدياق» لتكون لهم المكانة الاولى بين المؤمنين في الحفلات الدينية.

وهاجر من لبنان آنذاك كثيرٌ من الموارنة وأقاموا بقبرص، وأسَّسوا فيها جالية هامّة كان لها أسقف مارونيّ يسوس أمورها الدينية.

أما الموارنة الذين بقُوا في جبال لبنان، فقد انقطعت علاقاتهم بكنيسة رومة انقطاعاً تامًّا لصعوبة الاتّصالات. ولم يتّصلوا بالغرب إلّا في القرن الخامسَ عشر، في عهد البابا أوجانيوس الرابع (١٤٣١ – ١٤٤٧) بمناسبة انعقاد مجمع فلورنسة (١٤٣٩).

ثم كثُرت العلاقات الدينية بعد مجمع فلورنسة بين كنيسة رومة والكنيسة المارونية. وكان الرهبان الفرنسيسكان صِلةَ الوصل بين الطرفين. واختار البابا واحداً منهم ليكون ممثّله الدائم لدى كاثوليك الشرق. وأشهر الموفَدين هو الأخ غريفون الفرنسيسكاني.

وكان البطاركة الموارنة يسكنون قرية ميفوق. وفي سنة ١٤٤٠ نقل البطريرك يوحنا

الجاجي (١٤٠٤ – ١٤٤٥) مقرّ إقامته الى دير قنّوبين في وادي قاديشا الوعر. وأقام به خلفاؤه أكثر من قرنين.

الأرمن

تمركز الأرمن في القرن الحادي عشر في مقاطعة كيليكية وأنشأوا إمارة مستقلّة حالفت الفرنجة. ومنح البابا أميرها الأرمنيّ لاون الثاني التاجَ الملكي. وكان عددهم كثيراً في إمارتي الرها (اورفا) وانطاكية وقليلاً في مملكة القدس، فعاملهم الفرنجة معاملةً حسنة، وخصوصاً في الرها حيث كانوا الأغلبية الساحقة، وفضّلوهم على السريان.

وقامت محادثات دينية متعدّدة بين الأرمن والروم والسريان في سبيل الاتحاد الدينيّ، فلم تعطِ أثماراً. واتّجه الأرمن وحدهم نحو اللاتينَ وتمَّ الاتحاد بين الطرفين في عهد الجاثليق غريغوريوس الذي حضر مجمع القدس عام ١١٤٠، وفيه اعترف بأن في المسيح طبيعتين. وقد أقرَّ هذا الاتحاد مجمع طرسوس المنعقد سنة ١١٩٦ في عهد الحَبر الأرمنيّ الاكبر نرسيس شنورحالي، ودام الاتحاد زهاء ثلاثةَ قرون، ثم ضعف في أواسط القرن الرابعَ عشر عندما قوي الحزب المعارض له.

ولما سقطت مملكة كيليكية الأرمنية عام ١٣٧٥ في أيدي المماليك، قضي على الاتحاد الديني، ثم جدَّده الأرمن بمناسبة انعقاد مجمع فلورنسة (١٤٣٩) ولم يطُل عهده.

وفي هذه الحِقبة مُنيَت الكنيسة الأرمنية بانقسامات داخليّة عميقة. فقد استقلَّ عنها عام ١١١٣ أسقف اكثمار، وهي جزيرة في بحيرة فان، وحمل لقب جاثليق. واستقلَّ أيضاً عام ١٣١١ أسقف القدس وحمل لقب بطريرك. واحتجَّ عام ١٤٤١ قسم كبير من الأرمن على موقف جاثليق كيليكية الموالي للاتحاد مع رومة، فانفصلوا عنه، وأقاموا لأنفسهم جاثليق آخر في مدينة أشمازين في أرمينية الكبرى قرب القَفْقاز. ولما استولى محمد الفاتح على القسطنطينية اقام سنة ١٤٦١ بطريركاً أرمنياً في إسطنبول مسؤولاً سياسيًّا عن جميع الارمن القاطنين في دولته. وأصبحت الكلمة العليا من الناحية الدينية لجاثليق أشمازين لدى الفروع الأرمنيّة.

السريان

اعترف البطريرك السرياني ميخائيل الكبير بان الفرنجة عاملوا السريان معاملة حسنة. وقد حدث بعض النفور بين الطرفين بسبب تدخّل البطريرك اللاتيني في شؤون الكنيسة اليعقوبية أثناء الخلاف الذي وقع بين البطريرك أثناسيوس السابع والمطران بار صابوني اليعقوبيّين. وعندما اشتدَّ الخلاف في انطاكية بين الروم واللاتين في عهد أثناسيوس بطريرك الروم، مال اليعاقبة إلى اللاتين.

وحظي البطريرك السرياني ميخائيل الكبير لدى الصليبيّين بكل حفاوة وإكرام عندما دخل أنطاكية سنة ١١٦٩. ودعاه ملك الروم مانوئيل الى القسطنطينية ليفاوض فيها السلطات الدينية ويعقد الاتفاق مع الكنيسة البيزنطية، فلم يلبِّ الدعوة، وامتنع عن الذهاب واتخذ ماردين مقرًّا له، وكانت تابعة للأمراء السلجوقيّين.

ومُنِيَت الكنيسة السريانية في هذا العهد بانقسامات داخليّة خطيرة، قوَّضت أركانها وهدَّت قواها. وعقد بعض بطاركة السريان اتّحاداً دينياً مع اللاتين في غضون القرن الثالثَ عشَر، فلم يُكتب له البقاء.

واشتهر في آخر القرن الثالث عشر غريغوريوس أبو الفرج المعروف بابن العبريّ (١٢٦٤ – ١٢٨٦) أسقف حلب ثم مفريان العراق. وكان عالماً وكاتباً ومؤرّخاً، فجمع في تآليفه الكثيرة معارف عهده والعهود السابقة. وكتب بالسريانية والعربية. وهو آخر من لمع نجمه في الشرق قبل الانحطاط الذي خيَّم عليه عصراً طويلاً.

الأقباط

عرفت الكنيسة القبطية بعد عهد الانحطاط شيئاً من الازدهار الداخليّ في القرن الثالث عشر، فقام بعض الكتبة ورجال القانون مثلَ ابن عسَّال وأبو البركات [١] وأثَّرت

(١) وقع خلاف بين بطريرك الاقباط وبطريرك السريان في مطلع القرن الثالثَ عشر، لأن البطريرك القبطيّ رسم أسقفاً قبطياً للقدس، والقدس تابعة لبطريرك أنطاكية. ثم تمّ الاتفاق بينهما على أن يهتمّ الأسقف القبطيّ بالمصريين المقيمين في القدس دون سواهم. وتتابع الأساقفة الاقباط في القدس حتى اليوم.

يقظة الكنيسة القبطية في نهضة كنيسة الأحباش، فانتعشت وتقوّت وازداد فيها عدد المسيحيين بهمّة الرهبان المرسلين. وعادت الى الحكم في الحبشة الأسرةُ الملكية القديمة عام ١٢٦٨ واشتهر في القرن الخامسَ عشر الملكُ زارا يعقوب (١٤٣٤ - ١٤٦٨). وفي عصره بلغت الكنيسةُ الحبشية عصرَها الذهبيّ.

النساطرة

إزدهر النساطرة بدخول المَغول الى العراق، وكان المغولُ وثنيّين، إلّا أن الكثيرين منهم كانوا قد اعتنقوا المسيحيّة النسطورية. واشتهر في مطلع القرن الرابعَ عشر البطريركُ يهب الله (١٢٨٣ - ١٣١٨) وهو من أصل مغوليّ. وأرسل وفداً الى الغرب لعقد حِلْف ضدّ المماليك، فلم ينجح. وفي مطلع القرن الرابعَ عشرَ اعتنق المغول الإسلام.

وقضى تيمورلنك على الكنيسة النسطوريّة في المناطق الشرقيّة، فلم يبقَ من النساطرة إلّا قسم ضئيل لجأ الى جبال كردستان والموصل.

وها نحن الآنَ نُقبلُ على دِراسة الأوضاع الدينية في الدولة البيزنطية، بعدما آلت إليه هذه الدولةُ من الضعف وتفكّك القوى.

الفصلُ الثّاني وَالعِشرُون

الكنيسَة في آخِر أيّام الدّولة البيزَنطيَّة

مقدّمة

هذه الحِقبة في تاريخ الكنيسة البيزنطية ثلاثُ ميزات، الأولى أنّ سلطة البطاركة قد تضاءلت كثيراً بعد سقوط القسطنطينية في أيدي اللاتين (١٢٠٤) فاستقلّت عنهم عدّة كنائس مجاورة؛ والثانية أنّ البلاد البيزنطية قد اضطربت مدة من الزمن بمجادلات دقيقة تتعلّق بالتصوّف وطبيعة الله ورؤيته، فألهت الناس، وخصوصاً الرهبان عن مقاومة الخطر المُحْدق بالقسطنطينية من جَراء ازدياد قوة الأتراك؛ والثالثة أن الأباطرة – وكانوا أكثر الناس شعوراً بخطر الأتراك – قد سعَوا وراء الاتّحاد بالكنيسة الغربيّة طمعاً في الحصول على مساعدات عسكرية ومالية تبعد عنهم هذا الكابوس المخيف. وباءت المساعي كلّها بالفشل الذَريع، فالشعب والرهبان رفضوا الاتحاد. ولم يتمكن الغربُ من تقديم المعونة المطلوبة، وقد كان هو منقسماً على ذاته أو لاهياً عن احتياجات الشعب البيزنطيّ.

أمّا الكنائس الشرقية في العالم العربي فقد سارت في رِكاب الكنيسة البيزنطية، واتّحدت هي الأخرى في آخر مجمع فلورنسة بكنيسة رومة. ولم يُكْتَب البقاءُ لهذا الاتّحاد. لما مضَت عليه مدّة حتى أهملته وعادت إلى عُزلتها البعيدة وتفكيرها الضيّق في بيئتها المحدودة.

وها نحن الآن نستعرض باختصار هذه الميزاتِ الثلاث.

تضاؤل سُلطة البطاركة

إستولى اللاتين على مدينة القسطنطينية سنة ١٢٠٤ فانتقلَ الملكُ والبطريرك والأشراف الى الاراضي البيزنطية التي لم تخضع للاحتلال، وأسَّسوا دول نيقية وطرابوزنط وأبيرية. وفي نيقية توَّج البطريرك البيزنطي الملكَ ثاودور لسكاريس «إمبراطور الرومان»، وانتقلت البطريركية البيزنطية الى شاطىء آسية. وأقام بالقسطنطينية بطريركٌ لاتيني نصَّبه عليها الصليبيّون.

وضعفت السلطة البطريركية بسبب اضطراب الأحوال السياسية، فاستقلَّ البلغار سنة ١٢٠٤ عن سلطة البطريرك البيزنطي، وأعادوا بطريركيّتَهم الى الوجود، فتمركزت في تورنوفو برضى البابا إينوسنت الثالث.

واستقلَّ الصِرْب عنه أيضاً وقد نالوا استقلالهم على مرحلتين. في المرحلة الاولى سنة ١٢١٩ تمتّع رئيس أساقفتهم بالاستقلال الكنسيّ، وفي المرحلة الثانية (١٣٤٦) حمل لقب بطريرك إيباك.

وتمتَّع رؤساء أساقفة دولتي طرابوزنط وأبيرية بقِسْط وافر من الاستقلال الذاتي، فرسموا الأساقفة بدون إذن بطريرك نيقية.

ومن مظاهر ضعف سلطة البطريركية أن الأباطرة لما طردوا اللاتين واسترجعوا عاصمة مملكتهم، تدخَّلوا كثيراً في شؤون الكنيسة، ونصبوا البطاركة وأقالوهم وفق ما كانت تتطلبه أهواؤهم الشخصية وسياسة الدولة. وقد بدأ بذلك الإمبراطور ميخائيل باليولوغوس. فلمّا استرَدَّ العاصمة عام ١٢٦١ اغتصب الحُكم من يوحنا لاسكاريس الملكِ الشرعيّ وفقأ عينيه، فرشقه البطريركُ أرسانيوس بالحُرم، فاغتنم الإمبراطور الفرصة المؤاتية فعزله عن منصبه ونفاه. ونصَّب البطريركَ يوسف الأول مكانه، فانقسم الشعبُ حزبين متطاحنين. وسار الأباطرة على خُطة التسلّط على الأمور الكنسية الى أن قُضي على الدولة نفسِها سنة ١٤٥٣

المجادلات الصوفية

لقد وجدَت الحياة الصوفية (أو الروحيّة) منذ أمَد بعيد أَنصاراً لها وأتباعاً كثيرين في الكنيسة البيزنطية مدةَ قرون متوالية. وكان رهبانُ جبلِ آثوس أشدَّ الناس تحمّساً لها ونُصْرة. ولم تكن هذه الحياة الهادئة لتُثير القلاقل والاضطرابات في الكنيسة البيزنطية، لو لم يتحرَّش الراهبُ بَرْلَعامُ بأنصارها ويهاجمْهم، وأشهرُهم غريغوريوس بالاماس.

ولد غريغوريوس في القسطنطينية سنة ١٢٩٧ وتربّى في كنَف البَلاط الملكيّ، ثم ترك العالم وانضَوى الى ديُورة جبل آثوس، حيث عاش عيشةَ السكينة ومناجاةِ الله، تارةً في عُزلة المَناسك، وأخرى في رئاسة أكبر الأديار. وأقبل الى القسطنطينية الراهبُ برلعام، وهو من سكّان إيطالية الجنوبية، حيث كان يسكن كثيرٌ من الروم المغتربين، وكان قد شبَّ على المبادىء الأرثذكسيّة وتمسَّك بها، وعاشر الرهبان اللاتين واطّلع على أساليب تفكيرهم. وفي القسطنطينية أصبح رئيسَ دير المخلّص في سنة ١٣٣٣، ودافع عن العقيدة الأرثذكسيّة الخاصّة بشأن انبثاق الروح القدس من الآب وحدَه، ضد أقوال الرهبان الدومينيكان. ثم عكف على دراسة الموضوع، وتعمَّق فيه فأصدر مقالاً أكَّد فيه أن اقوالَ الكِتاب المقدس وتعاليمَ الآباء القِديسين لا تُناصر رأيَ الروم وتفضّله أكثر مما تناصر وتفضّل رأي اللاتين. ووصل المَقال الى جبل آثوس، وقرأه الراهب غريغوريوسُ بالاماس فردَّ عليه وانتقده. فتألّم برلعام لهذا النَقد، وأخذ يستقصي الأمور عن حياة المتصوّفين في جبل آثوس، فاطّلع عليها، فإذا هي تصرّفات غريبة جداً تدعوهم إلى التأمّل في ذواتهم مدّة أيام متوالية، دون أن يأتوا بحركة، وتحملهم على التفكير المتواصل في الله وحدَه، فيشاهدون على أثرها نوراً بهيًّا يملأ نفوسهم غبطة وسعادة، وهذا النور هو من نفس طبيعة النور الذي رآه الرسلُ عند تجلّي الرب على جبل طابور. فأخذ برلعامُ يهاجم هذه الطريقة التي لم يفهمها ولم يتذوَّقها، بينما هبَّ غريغوريوسُ بالاماس يدافع عنها وعن التصوّف، فميَّز بين جوهر الله وصفاته، وأكَّد أنّ الملائكة والقديسين في السماء لا يشاهدون جوهر الله والأقانيم الإلهيّين، بل نوراً إلهيًّا هو من نفس طبيعة نور جبل طابور. وقامت بين بالاماس وبرلعام مجادلة عنيفة، وتحزَّب

الناسُ وخصوصاً الرهبان لكلّ منهما ، واضطربت الكنيسة البيزنطية اضطراباً شديداً.

وعقَد البطريركُ في كنيسة «آجيّا صوفيا» مجمعاً سنة ١٣٤١ برّأ رهبان جبل آثوس من التُهم التي أَلصقها بهم برلعام ، ولكنه حظّر على بالاماس نشرَ أقواله. ولما تمادى في بثّ تعاليمه رشقه مجمع عام ١٣٤٤ بالحِرم ، واشترك البطريركُ الأنطاكي أغناطيوس في رَشْق الحرم.



الملك البيزنطيّ حنّا كانتاكوزين

ثم انقلبت الأوضاع السياسية في القسطنطينية. فقد عاد إلى الحكم صديق بالاماس الملك حنّا كانتاكوزين ، فمنحه سنة ١٣٤٧ أسقفيّة سالونيك. وأضحى تعاليمه بعد مجمع عام ١٣٥١ عقيدة رسمية في الكنيسة الأرثذكسيّة. وبعد وفاته رفعه البطريرك فيلوتاوس سنة ١٣٦٨ إلى رتبة القديسين. وتحتفل الكنيسةُ الأرثذكسيّة بعيده في الأحد الثاني من الصوم الكبير.

مساعي الاتحاد

في عهد الدولة اللاتينيّة

بعد الانفصال الذي حدث سنة ١٠٥٤ بين رومةَ والقسطنطينية ، بُذِلت مساعٍ كثيرةٌ لإعادة الوَحدة والوفاق. وكانت المبادرة تأتي أحياناً من البابوات وأحياناً أخرى من الأباطرة. وقامت بين سنة ١٠٥٤ وسنة ١٢٠٤ مساعٍ كثيرةٌ للاتحاد في عهد الملك مانوئيل كومنين الذي كان يرغب في الوحدة رغبة حقيقيّة. فقاومها البطريرك انخيالوسُ فباءت بالفشل التامّ.

ولم تمنع «الحملةُ الصليبية الرابعة» الكنيستين الشرقيةَ والغربية من السَعي المشترك في تحقيق الاتّحاد المنشود. فقد جَهِد البابا إينوسنت الثالث في جَلْب الروم إليه ، وحَمْلهم على قَبول معتقد الكنيسة الغربيّة. فأرسل الى القسطنطينية نُوّاباً عقدوا مع أعضاء الإكليروس البيزنطيّ اجتماعاتٍ كثيرة ، وتباحثوا معهم في القضايا المختلف عليها ، فلم تُفلح هذه المباحثات ولم تأتِ بثمر.

وكذلك لم تنجح المَساعي التي بُذلت في عهد البابا غريغوريوسَ التاسع. وكادت تُصيب هدفَها في عهد البابا إينوسنتَ الرابع وإمبراطور الروم يوحنا الثالث ملكِ نيقية. فقد اتفق الروم واللاتين بعد جلَسات متوالية على النقاط الثلاثِ الآتية :

– يعترف الروم بأن للبابا المَقامَ الأول في الكنيسة والسلطة العليا في قضايا المعتقَد والنظام الكنسيّ ، كما يعترفون بان له الحقّ في قَبول دَعاوى الاستئناف.

– يحمل بطريرك الروم لقب «بطريرك القسطنطينية» ويقيمُ فيها ، ولا يكون للبطريرك اللاتينيّ صلاحيّةٌ روحية إلا على اللاتين فقط.

– يكتفي الرومُ عند تلاوة «قانون الايمان» بأن يقولوا عن الروح القدس إنه «منبثق من الآب» دون ان يزيدوا على هذه العبارة «والابن».

ولم يتمّ الاتحاد بين الكنيستين ، لأن البابا والملك تُوفّيا في السنة عينها عام ١٢٤٦ .

في مجمع ليون (١٢٧٤)

لمّا استولى الملكُ ميخائيل الثامن باليولوغوس على القسطنطينية سنة ١٢٦١ خاف من تحالُف الغرب عليه، فسعى الى الاتحاد بالكنيسة الرومانية، وأرسل وفوده الى مجمع ليون (فرنسة) الملتئم سنة ١٢٧٤.

وصل الوفودُ الى المجمع في ٦ تموز ١٢٧٤ في نهاية الجلسة الثالثة، واتّخذوا أماكنهم عن يمين البابا، بعد الكرادلة. واعترف الوفود بمعتقد الكنيسة الرومانية وَفقَ الشروط التي تمَّ الاتفاقُ عليها في عهد البابا إينوسنت الرابع والملكِ يوحنا الثالث. ولم يتمَّ الاتحاد فعلاً في القسطنطينية لقسوة الملك ميخائيل الثامن الذي عامل بالشِدة كلّ من رفض الاتحاد أو عارضه، ولأن خلفاء البابا غريغوريوس العاشر قد فرضوا على الروم أموراً لم تُذكر في الاتفاق المعقود أثناء المجمع.

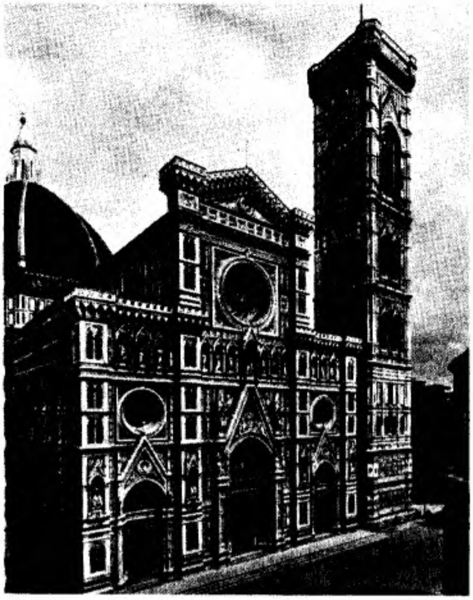
فلمّا مات ميخائيل وملَكَ ابنُه أندرونيكوس الثاني (١٢٨٢ – ١٣٢٨) قاوم الروم فكرة الاتحاد مقاومةً عنيفة، وكان الملك أوّل من ناوأها وحاربها فاندثرت. ومن أشهر المحامين عن هذا الاتحاد البطريرك فيكوس (١٢٧٥–١٢٨٢).

في مجمع فلورنسة (١٤٣٩)

١ – **الروم ومجمعُ فلورنسة**: كان البابا أوجانيوس الرابع يشعر بمقاومة شديدة من قِبَل قسم من أبناء الكنيسة الغربيّة، فرغب في انضمام الروم إليه ليشتدَّ أَزْرُه وتضعف مقاومة خصومه ويسيطر على الموقف سيطرة تامّة.

وكان الروم من ناحية أخرى في حاجة ماسّة الى المساعدة المادية لدرء خطر الأتراك. فرضي الطرفان بعقد مجمع يقرّب وجهة نظريهما، ويوحّد آراءهما، ويخدم مصالحها الخاصّة.

وافتتح المجمع في مدينة فرّاره (إيطالية) في ٩ تشرين الأول ١٤٣٨، وانضمَّ إليه من قبل الروم الملك يوحنا الثامن والبطريرك يوسف الثاني وبعضُ الأساقفة، بينهم بيساريون مطرانُ نيقية ومرقسُ مطران أفسُس، كما وفَد إليه نوّابُ البطاركة المَلَكيّين. وحضر المجمعَ من قبل اللاتين البابا أوجانيوسُ الرابع وبعضُ الكرادلة والاساقفة والرهبان.



كاتدرائيّة فلورنسة (إيطالية)

وطرحوا على بساط البحث المواضيعَ التالية: قضيةَ انبثاق الروح القدس من الآب والابن، ومسألة استعمال الخبز الخمير والفطير في القدّاس الإلهيّ، ونوعَ عذابات النفوس المطْهريّة، وسلطةَ البابا في الكنيسة الجامعة.

وألّف المجتمعون لَجنة مشتركة من علماء الروم واللاتين ووكَلوا إليها درسَ هذه القضايا وإبداء رأيها فيها. وطال بينهم الجدَل، وانتشر الطاعون في المدينة. فعرض أهل مدينة فلورنسة (إيطالية) على المجتمعين ان ينتقلوا الى مدينتهم، وهم يقدّمون للروم المساعدة المادية التي وعدهم بها البابا. فرضي المجتمعون وانتقلوا الى فلورنسة. وطال انعقاد المجمع فيها من سنة ١٤٣٩ حتى سنة ١٤٤٢. وبحثوا خلال هذه المدة القضايا المختلَف عليها، واتّفقوا على صيغة تحريرها والتعبير عنها. وأقرَّ الروم سلطة البابا واعترفوا بها، شريطةَ أن تحفظ جميعَ حقوق البطاركة وامتيازاتهم. ووقّع الروم واللاتين قرارات المجمع. وامتنع عن التوقيع مرقُس مطران أفسس.

ولمّا عاد الروم الى القسطنطينية ما لبثوا أن نقضوا تواقيعهم، ورفضوا الاتحاد بالكنيسة اللاتينية. ومات الملك يوحنا الثامن، وخلفه قسطنطين الحادي عشر. وفي عهده هجمَ الاتراكُ العثمانيون على مدينة القسطنطينية واستولوا عليها في ٢٩ ايار ١٤٥٣،

وقضوا على الدولة البيزنطية المجيدة. ولم تقُم بعدَ سقوط القسطنطينية أيةُ محاولة جدّية لاتحاد شامل بين الروم واللاتين، الى أن بدأ مؤخّرًا الحوار اللاهوتيّ الرسميّ بين الكنيستين عام ١٩٨٠.

٢ - **الكنائس الشرقيةُ الأخرى ومجمع فلورنسة**: إليكَ كلمةً عن موقف كلٍّ من الكنائس الشرقية أثناء مجمع فلورنسة وبعده.

- **الأرمن**: كانت الكنيسة الأرمنية ترغب في الاتحاد بالكنيسة الغربية. فلما دعاها البابا أوجانيوس الرابع الى الاشتراك في مجمع فلورنسة، أجابت بصوت رئيسها الجاثليق قسطنطين السادس أنها تقبل جميع القرارات التي تؤخذ أثناء المجمع. وأوفد الجاثليق نُواباً عنه فوصلوا بعد إعلان قرار الاتحاد. فألّف البابا لَجنة خاصّة لتتعامل معهم. وفي ٢٢ تشرين الثاني ١٤٣٩ قبلوا جميع القضايا التي وقّعها الروم، وكلّ الأنظمة الكنسيّة التي عُرضت عليهم. ولكن الاتحاد لم يدُم طويلاً، فقد عارضه الرهبان في أرمينية معارضة شديدة، وعادت الكنيسة الأرمنيّة الى انفصالها.

- **السريان**: اشترك السريان في مجمع رومة (١٤٤٣-١٤٤٥) الذي عُقد بعد مجمع فلورنسة، فمثّلهم فيه المطران عبدالله رئيس أساقفة أورفا الذي أوفده البطريرك أغناطيوس بهنام الحدلي (١٤١٢ - ١٤٥٥) ليوقع صكّ الاتحاد، وقد وقّعه سنة ١٤٤٤.

- **الكلدان**: مثّل الكلدانَ في مجمع رومة المطران تيموثاوس متروبوليت طرسوس المقيم آنذاك في جزيرة قبرص، وقدَّم خضوعه للحبر الأعظم سنة ١٤٤٥، ووعد بان يمتنع هو وأفراد إكليروس طائفته عن استعمال الزيت في صنع الخبز المعدّ للتقديس أثناء الذبيحة الإلهية.

- **الأقباط**: قدَّم نوّاب بطريرك الإسكندرية القبطيّ يوحنا السادسَ عشر لأعضاء مجمع فلورنسة كتاباً يعترف فيه البطريرك دون جِدال بسلطة الحَبْر الأعظم على الكنيسة كلّها.

إلّا أن اتحاد الكنائس الشرقية بالكنيسة الرومانية لم يدُم طويلاً. فقد انفصلت عنها بعد مدّة وجيزة. وكان الأتراك العثمانيون أقوى عامل يحرّض الشرقيّين على متابعة الانفصال لتبقى هذه الكنائس تحت سيطرتهم.

الفصل الثالث والعشرون

الكنيسة الغربيّة في أواخر القرون الوسطى

مقدّمة

فتحت السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر في الغرب المسيحيّ عهداً جديداً. فمنذ سنة ١٠٧٣، وهي سنة ارتقاء البابا غريغوريوس السابع السُدّةَ الرسوليّة، الى سنة ١٣٠٣ وهي سنة وفاة البابا بونيفاسيوس الثامن، أصبح البابوات رؤساء الغرب كلّه من الناحيتَين الروحيّة والزمنيّة. وبلغت حضارة القرون الوسطى أوجها.

وقُضي على زعامة البابا بعد سنة ١٣٠٣، وتقهقرت سلطتُه الزمنيّة وضعفت سطوته الروحية نفسها. وسبب تدهور هذه الزعامة منفى أفينيون، والانقسام الغربيّ الكبير، وترَفُ البابوات في الفترة الأولى من النهضة. فعانى الغرب في القرنين الرابعَ عشر والخامسَ عشر أزمةً روحيةً وسياسية وفكريّة واجتماعيّة عنيفة، نتجَ عنها الإصلاحُ، وانبثقت حضارة العصر الحديث.

وها نحن نبحث باختصار في تاريخ البابوية إبّانَ هذه القرون، ونلقي نظرة خاطفة على أهمّ المظاهر الفكرية والروحية التي تؤلّف مدنيّة القرون الوسطى المسيحية.

البابوية في أواخر القرون الوسطى

عَهدُ الزعامة البابوية (١٠٧٣-١٣٠٣)

شعر البابا المُصْلح غريغوريوس السابع بأن انحطاط رجال الإكليروس متأَتٍّ عن تدخّل الأمراء في أمر انتخاب الأساقفة وتعيينهم في مختلف الأبرشيّات. فعقد سنة ١٠٧٥ مجمعاً أعاد فيه حقّ الانتخاب إلى الاكليروس والشعب. ثم أعلن سلطة البابا العليا في الشؤون الدينية والزمنية.

وثار الإمبراطور الجرماني هنري الرابع على هذه القرارات، فرشقه البابا بالحُرم، وأَرغمه أمراؤه على الخضوع للبابا. ثم توصّل الطرَفان الى حلّ وسَط رضِيا به، وعقدا بموجَبه اتّفاقية فورمس سنة ١١٢٢.

وحاول الإمبراطوران فريدريك بربروس (١١٥٢ - ١١٩٠) وفريدريك الثاني (١٢١٤ - ١٢٥٠) أن يتحرّرا من سيطرة البابا فلم يُفلِحا في محاولتهما.

وجلس على السُدّة الرسولية البابا إينوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) فبلغ بالسلطة البابوية الى أَوْج عظمتها، وأصبح الحكَم الأكبر لأوروبة كلّها وسيّدَ الغرب بأجمعه. وحاول من الناحية الدينية أن يعيد الوَحدة إلى الشرق والغرب فلم يتوفّق في محاولته. وقاوم البدَع الجديدة، وعقد المجمع اللاتراني الرابع (١٢١٥)، وسعى كثيراً في مَنْع «الحملة الصليبية الرابعة» من غزوِ القسطنطينية، فباءت مساعيه بالفشل التام.

وآخرُ باباوات هذا العهد هو بونيفاسيوس الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣). فقد اصطدم بملك فرنسة فيليب الجميل، وأعلن سلطته العليا في الشؤون الدينية والزمنية، وفرضَها على الأباطرة والملوك، فتعدَّى الملك على كرامته وحريته. ولما توفي سنة ١٣٠٣ زالت بوفاته فكرة المجتمع المسيحيّ الأوحد بزعامة البابا، وانطوت الشعوب على نفسها وتمسّكت بفرديّتها الضيّقة، واستسلمت الى خصوماتها ومشاحناتها التليدة.

عهدُ خُسوف السلطة البابوية (١٣٠٣–١٥١٧)

أربعة أمور سبَّبت انحطاط السُلطة البابوية في أواخر القرون الوسطى وهي :

١) **منفى أفينيون** : انتُخب في سنة ١٣٠٥ أكليمنضوس الخامس ، وهو بابا فرنسي ، فلم يتمكّن من الإقامة في رومة بسبب معارضة الأحزاب ، فأقام في أفينيون (فرنسة) وهي من ممتلكات الكرسيّ الرسوليّ. وخلفَه ستّةُ باباوات ، وكلّهم فرنسيّون أقاموا في أفينيون حتى سنة ١٣٧٨ .

٢) **الانقسام الكبير**: لما تُوفّي البابا غريغوريوس الحادي عشر سنة ١٣٧٨ ، ثار أهالي رومة وطلبوا أن يكون البابا من سكان رومة ، أو على الأقلّ من إيطالية نفسها. فانتخب الكرادلة أسقفَ باري (بايطالية) فاتخذ اسم أوربانوس السادس. وعزم أوربانوس على إصلاح الأوضاع الفاسدة ووقف منها موقفاً متصلباً ، فادّعى الكرادلة أنهم قد انتخبوه تحت تأثير الضغط ، وأن انتخابه بالتالي غير شرعيّ. فاجتمع القسم الأكبر منهم مرّة ثانية وانتخبوا أكليمنضوس السابع فانقسم الناس قسمين. وبعد وفاتهما انتخب أنصار كلٍّ منهما بابا جديداً ، وتحزّبت الدول الغربيّة لهذا أو لذاك ، ودام هذا الانقسام حتى سنة ١٤١٧.

٣) **مبدأُ تفوّق المجمع على البابا** : عُقد في بيزة بإيطالية مجمع لحلّ قضية هذا الانقسام في الكنيسة اللاتينية ، فقرَّر المجتمعون إقالة كلٍ من الباباوين القائمين ، وانتخبوا بدلاً منهما الإسكندر الخامس. إلا أنهما تمسّكا بمنصبيهما فأضحى للكنيسة ثلاثة باباوات واتّسع الشقاق.

وعُقد مجمع آخر في مدينة كونستانس سنة ١٤١٤ بعد وفاة أحد الثلاثة ، وفيه قدَّم أحد الباباوين الباقيين استقالته وأُقيل الآخر ، وتمَّ انتخاب بابا جديد اعترف به الجميع وهو مرتينوس الخامس سنة ١٤١٧. فأنهى المجمعُ هذا الإنشقاق الكبير. إلّا أنه أعلن مبدأ تفوّق المجمع على البابا ، وفرض على البابا الجديد أن يعقد مجمعاً عامًّا كل عشر سنوات. ولم يقبل البابا مرتينوس بمبدإ تفوّق المجمع إلا كُرْهاً ، وذلك رغبةً منه في إنهاء الانشقاق.

ولما مات مرتينوس خلفَه البابا أوجانيوس الرابع في أثناء انعقاد مجمع بال بسويسرا ،

وكان المجتمعون يريدون أن يخضعوا البابا لسلطتهم. فنقل أوجانيوس مقرَّ المجمع الى مدينة فرّاره بايطالية حيث بدأت محادثاته مع الروم في سبيل الاتحاد. وبقي أنصار مبدإ تفوّق المجمع في مدينة بال، وقرَّروا عزْل البابا أوجانيوس ونصَّبوا آخر عوضاً عنه، فلم يلقَوا تأييداً يُذكر، فزال الانقسام سنة ١٤٤٩.

٤) **ترَفُ باباوات النهضة**: حاول الباباوات الأولّون، لا سيما بيوس الثاني (١٤٥٨ – ١٤٦٤) توحيد جهود الملوك لصدّ هجمات العثمانيّين على أوروبة، فلم يوفّقوا في محاولاتهم.

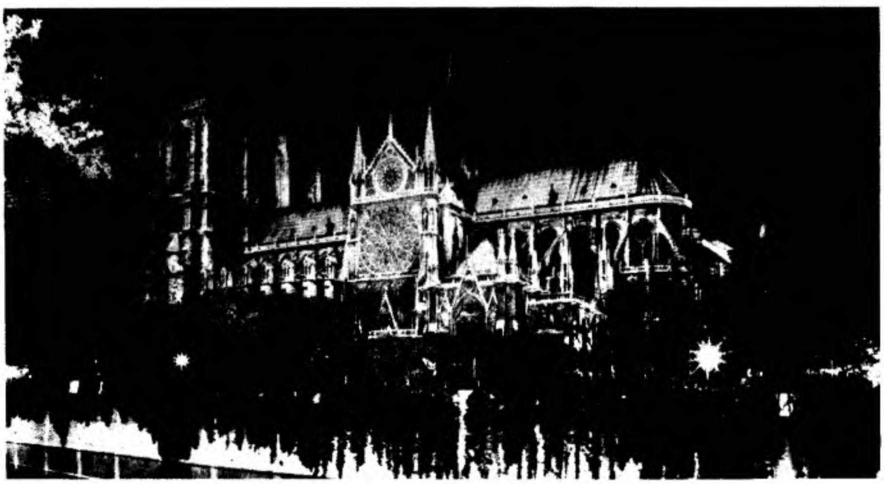
وتأثَّر الباباوات منذ النصف الثاني من القرن الخامس عشر بعقليّة النهضة الإيطالية، فاهتمَّ العديد منهم بالفنون الجميلة. وفي عهد البابا سيكستوس الرابع (١٤٧١ – ١٤٨٤) بُني في الفاتيكان المعبدُ الرائع المعروف «بالكابيلا السكستيّة».

وانحطّت الاخلاق العامة، ولم يرتفع عدّة باباوات الى المستوى الأخلاقيّ الذي يتطلّبه منهم منصبهم الدينيّ الرفيع. فلم يتمكّنوا من إصلاح الأمور الدينية، ولم يفطنوا لأهمية الأحداث التي نشأت في ألمانية بتأثير ثورة لوثير على أوضاع الكنيسة الكاثوليكية.

الحضارة المسيحية في القرون الوسطى

الحياة الفكريّة

إن الإصلاح الدينيّ الذي قام به البابوات في القسم الثاني من القرن الحادي عشر قد شمل الأخلاق وحرَّر الكنيسة ونظَّمها وأدّى الى نهضة مسيحية رائعة. فازدهرت المدارس اللاهوتيّة في ظلّ الكاتدرائيّات والديورة، ثم أُنشئت الجامعات، وأشهرها جامعة باريس (وقد تمَّ تنظيمها بين ١٢٠٠ و ١٢١٥) وقد رافق هذه النهضة الدينية اطّلاعٌ أَوسع على الثقافة اليونانية بواسطة ترجمة الفيلسوف العربيّ ابن الرشد، ثم اطّلاعٌ مباشر نتجَ عن الحملة الصليبية الرابعة. وقام الجدَل الطويل بين علماء اللاهوت التقليديّ المتأثر بأقوال القديس أوغسطينوس، وجماعةٍ من الفلاسفة تأثّروا بتعاليم ابن الرشد وأرسطو المنحرفة عن مبادىء الدين. وكتب حينئذ القديسِ توما الاكويني الشهير (+ ١٢٧٤) موسوعتَه اللاهوتيّة الشاملة، فاستخدم فيها فلسفة أرسطو وتجنَّب انحرافاتها الدينية. وتلقَّب هذه الحركة الفكرية الفلسفية واللاهوتية «بالحركة السكولاسْتيكيّة» أو بالحركة المدرسيّة. وضعفت بعد القرن الثالث عشر، ونضَب فيها الابتكار والتفنّن، وشكَّ العلماء في قيمة فلسفة أرسطو، وأخذوا يبحثون عن فلسفة أخرى.



كاتدرائيّة سيّدة باريس من الفنّ الغوطيّ في القرون الوسطى

الحياة الروحيّة

إزدهرت الحياة الروحية ونمت القداسة في قلوب الكثيرين، وذلك بفضل الخطباء والوعّاظ والرهبان الذين امتازوا بنُبل تعاليمهم وسموّ فضائلهم، وأشهرهم القديس برنردوس (١٠٩٠ - ١١٥٣)

وفي مطلع القرن الثالث عشر، ظهر نظام جديد للحياة الرهبانية، وقد أنشأه القديس فرنسيس الأسيزي (١١٨٢ - ١٢٢٦) مؤسسُ الرهبانية الفرنسيسكانية، فأعطى الناس مثلاً رائعاً في الفقر والمحبة وبساطة السيرة، في أيّام ساد فيها الترَفُ والعنف والكبرياء. وأسَّس القديس دومنيك أو عبد الأحد (+ ١٢٢١) الرهبانية الدومينيكية، وهدفُه منها إلقاء الوعظ ومحاربة البدَع.



القدّيس
فرنسيس الأسّيزيّ

وتجلّى إيمان ذلك العصر ببناء الكاتدرائيات الفخمة التي لا تزال حتى اليوم متّشحة بروعتها القديمة وجلالها الساحر، مثل كاتدرائية باريس وكاتدرائية سيّدة شارتر (في مطلع القرن الثالث عشر).

ثم ظهر في القرن الرابع عشر عهدُ التفكّك الديني والانحلال الأخلاقي، فقاومته الحركات الصوفيّة الرفيعة، وأحد مظاهره كتاب «**الاقتداء بالمسيح**» حول ١٤٠٠

وانتهت القرون الوسطى، واندثرت بما فيها من إيمان عميق، وأخلاق فظّة، وطِباع خشنة، وحروب دامية، وحضارة واسعة. وقد جمعت هذه القرون في طيّاتها المتناقضاتِ العميقة: ففيها «الحروبُ الصليبية»، وفيها الانشقاقات الدينية، وفيها الكنائس الفخمة، وفيها القداسة الرائعة. فهي مزيج من الظلمة والنور، والحرية والاستعباد، والحضارة والهمجيّة، ولا عجب فقد حلّت وسَطاً بين الحضارة القديمة الزاهية والنهضة الحديثة النيّرة.

العصر الخامس

الكنيسة منذ الفتح العثماني والإصلاح حتى أيامنا هذه

(١٥١٦ - ١٩٩١)

مقدّمة

يبتدىء هذا العصر بالسيطرة العثمانية التامّة على الشرق كله بقسمَيه العربيّ والبيزنطي. أمّا روسية فقد نجَت من تسلّط العثمانيّين، فأخذت تواصل نموّها الداخلي وأصبحت دولة مسيحيّة قوية.

ونشأت في الغرب **أوروبة جديدة** من جَراء التقلّبات الكثيرة التي حدثت في آخر القرن الخامسَ عشر ومطلع السادسَ عشر، وأهمّ هذه الأحداث هي تكوينُ الدول الأوروبية الحديثة، وضمُّ شمل أقاليمِها ومقاطعاتها تحت سيطرة الملكيّة المطلقة؛ وتنبيه الأفكار ونهضة العلوم؛ وإحياء الثقافة اليونانيّة والرومانيّة؛ **واختراع الطباعة**؛ واكتشافات جديدة عَبرَ البحار مثل أمريكا وطريق الهند، وإثراء الشعوب الأوروبية بفضل هذه الاكتشافات؛ **والإصلاح البروتستانيّ** وما تبعه من انقسامات؛ **والإصلاح الكاثوليكيّ**؛ وظهور قوة سياسيّة جديدة في إسبانية.

وبلغت إسبانية أَوج عزّها في القرن السادسَ عشر، في عهد شارل الخامس الذي جمع تحت تاج واحد وصولجان واحد إسبانية وألمانية، وقاوم البروتستان والعثمانيّين معاً. وأراد فرنسوا الأوّل ملكُ فرنسة أن يأمن أطماعَه فتحالف مع السلطان العثمانيّ سليمان الثاني الذي منح فرنسة حقوقاً وامتيازات خاصّة في الشرق.

واستأثرت فرنسة في القرن السابع عشر بزعامة أوروبة، بعد أن ضعفت ألمانية وإسبانية، فلعب الدبلوماسيّون والمرسلون الفرنسيّون في الشرق الأدنى دوراً هامًّا كانت إحدى نتائجه مولد الطوائف الشرقيّة الكاثوليكيّة ونشأتها.

وفي القرن الثامن عشر دبَّ الجمود في جهاز السلطنة العثمانيّة، وارتفع شأن الدولتين الكبيرتين، النمسة الكاثوليكية وروسيةَ الأرثوذكسيّة. وحافظت فرنسة على سيطرتها الثقافية؛ إلّا أنّها مرَّت بأزمة سياسية واجتماعية وفكريّة أدّت بها الى **ثورتها الدمويّة** الشهيرة سنة ١٧٨٩، فكان لها تأثير عميق في قلب الأوضاع الأوروبية القديمة وخلق أوضاع جديدة. وعمّم نابوليون مبادىء الثورة بفتوحاته الكثيرة في أوروبة والشرق. ورغم محاولات الرجعيّة لتسلّم زِمام الأمور السياسيّة في مؤتمر فيينّا (١٨١٥)، فقد توالت الثورات في فرنسة وأنحاء أخرى من أوروبا (١٨٣٠ و ١٨٤٨) وقضت على الأنظمة القديمة نهائيًّا.

وتوحّدت كل من ألمانية وإيطالية، ففقد البابا ممتلكاته الإيطالية، وتعزّزت سلطته الروحيّة في المجمع الفاتيكانيّ الأوّل (١٨٦٩ – ١٨٧٠).

وتأثّر الشرق نفسه بمبادىء الثورة الفرنسيّة، فأخذت الشعوب البلقانيّة التي كانت تئنّ تحت النير العثمانيّ تطالب باستقلالها. فثار على العثمانيّين الصِرْبُ واليونان والرومان والبلغار، وتمكّنوا من نيل استقلالهم. فتقلّصت رقعة السلطنة العثمانيّة، واضطُرّ السلطان في القسم الثاني من القرن التاسع عشر إلى ان يمنح رعاياه الحريّات المنشودة، ويقوم بالإصلاحات الدستورية. وازدادت حقوق المسيحيّين السياسيّة، فأدّى هذا التطوّر إلى **إصدار الدستور العثمانيّ** سنة ١٩٠٨، وإلى خلع السلطان عبد الحميد، فتسلّم حزب تركية الفتاة زِمام الأمور في الدولة.

وبرزت الى الوجود في مطلع القرن التاسع عشر **النهضةِ الفكريّة العربيّة**، وأخذت تنمو وتزدهر، وقد ساعدها على النموّ والازدهار الاستقلال الداخليّ في لبنان، والحرية الواسعة في مصر، أيّام محمد عليّ وخلفائه الخديويّين.

وهبَّت **النهضة القوميّة العربيّة** تطالب في بادىء أمرها بحقوق العرب داخل السلطنة العثمانيّة، ثم أخذت تسعى في الانفصال عن الدولة العثمانيّة واستقلال البلاد. وكان للمسيحيّين حظّ كبير في بعث النهضتَين الفكرية

والقوميّة، ولم يعودوا يُعتَبَرون أهلَ الذمّة والجيرة، بل أضحوا مواطنين يتمتّعون بملء الحقوق كمواطنيهم المسلمين.

وتحرّر العرب من سيطرة العثمانيّين بعد الحرب العالميّة الأولى، ثم نبذوا الحماية الغربيّة، وأخذوا يتطلّعون إلى **الوحدة القوميّة** الشاملة، وهم سائرون إليها ولا بدّ.

أمّا أهمّ أحداث القرن العشرين فهي **الحرب العالمية الأولى** (١٩١٤ – ١٩١٨) **والثورة الروسيّة** الشيوعيّة (١٩١٧) **والحرب العالمية الثانية** (١٩٣٩ – ١٩٤٥) وامتداد الثورة الشيوعية الى دول شرق أوروبا، **وتصفية الاستعمار**، وتقريب أجزاء العالم بعضِها من بعض بواسطة وسائل النقل السريعة المتعدّدة، وانتشار الحضارة الأوروبية، وتجاور الحضارات المتنوّعة. ويتمخّض العالم اليوم عن مدنيّة جديدة لها طابَعٌ عالميّ شامل، لا سيَّمَا بعد أن انهارت عامي ١٩٨٩ و١٩٩٠ النظم الشيوعيّة في شرقيّ أوروبة وزالت الحرب الباردة القائمة بين العملاقين، الولايات المتّحدة والاتّحاد السوفياتيّ.

هذا، وإن أحد أهداف **المجمع الفاتيكاني الثاني** (١٩٦٢ – ١٩٦٥) هو تهيئة الكنيسة للقيام بواجباتها تجاه العالم الجديد، وإزالة العقبات التي تراكمت عبر الأجيال أمام وحدة المسيحيين.

وها نحن ندرس في هذه الحِقبة أَهمَّ الأحداث الكنسيّة:

١ – **في الغرب**: الإصلاح البروتستاني والإصلاح الكاثوليكيّ في القرن السادس عشر، وتطوّر الكنيسة الكاثوليكيّة في القرون الثلاثة الأخيرة.

٢ – **في الشرق**: وضع الكنيسة العامّ، وتطوّر الكنائس الأرثذكسيّة، ونشأة الطوائف الشرقيّة الكاثوليكيّة وتاريخ كلّ منها.

٣ – **المجمع الفاتيكانيّ الثاني والحركة المسكونيّة** المعاصرة.

الفصلُ الـرّابع وَالعِشرُون

الكَنيسَة في الغَـرْب

الإصلاح البروتستانيّ في القرن السادسَ عشر

مقدّمة

جرى الإصلاح البروتستانيّ في بلاد الغرب، فكان ثورةً عنيفة على الكنيسة الرومانيّة فَصَلت عنها قسماً كبيراً من أبنائها. وتجلّى هذا الإصلاح في مظاهرَ ثلاثةٍ اللوتيريةِ والكَلْوينيّةِ والأنكليكانية. وإليك الآنَ كلمةً موجزة عن الأوضاع الدينية العامّة في مطلع القرن السادسَ عشر، وعن كل من هذه المظاهر الثلاثة.

الحالةُ الدينيةُ في مطلع القرنِ السادسَ عشر

زالت في الغرب من رؤوس الناس فكرة الدولة المسيحيّة الواحدة تحت سلطة البابا الرئيسِ الأوحد، وبرزت بدلاً منها فكرة تأسيس دُوَلٍ مستقلة وحديثة تجاري العُنصريّة القومية والمصلحة الاقتصادية والعاطفة الوطنية. فاجتمع كل شعب حول مَلكه، وأبى أن ينصاع لأوامر ملكٍ آخر، ولو كان الآمرُ البابا نفسَه.

وعظُم شأنُ الطبقة البورجوازيّة، وكثُر عدد أفرادها، وتكدَّست أموالها، واتّسعت ثقافتها، فعزمت أن تتخلَّص من طبقتَي الإكليروسِ والأرستقراطية النبيلة.

ونفر العلماء والمفكّرون من الفلسفة المدرسيّة الكلاسيكيّة، وتعشَّقوا الفلسفة الوثنية القديمة، واعتنقوا أقوالها وآراءها، فتغلغلت إليهم روح الشكّ والإلحاد.

وأهمل رجالُ الدين واجباتهم الروحية، وتناسى الباباوات أنّ رعايةَ النفوس هي أهمّ من المحافظة على الممتلكات الماديّة.

كل هذا قد حمل المؤمنين من جميع الطبقات الاجتماعيّة على النظر الى السلطة الدينية العليا نِظرةَ حذَرٍ وقلّةِ اعتبار.

ثورة الراهب لوتير

كانت الأوضاع الدينية تدعو الى الاصلاح، فنادى به الراهب لوتير. ولكنه رأى الامور من جانب واحد ولم يأخذ بعين الاعتبار مُجمل التعليم الكتابيّ. وتشبّث برأيه فانشقّ عن الكنيسة وحاربها، وأسَّس كنيسة جديدة دُعيت «الكنيسةَ البروتستانية» أو بالأحرى مجموعةَ الكنائس البروتستانية.

ولد لوتير في ألمانية سنة ١٤٨٣. فلما شبَّ دخل الدير، وقبل فيه سرّ الكهنوت، وأضحى أستاذاً في جامعة وتمبرغ.

كان لوتير رجلاً عبقرياً وعَلَماً من أعلام زمانه، امتاز بقوة التفكير وحُسن البيان. ولكنه كان سَوداويَّ المزاج حمله طبعه العَبوس على الاقتناع بأن الطبيعة البشرية فاسدة، فلا يتمكن الانسان من نيلِ الخلاص الأبدي إلا بواسطة الإيمان وحدَه.



الراهب مارتن لوتير

وقادته الظروف الى مقاومة الكنيسة. وقد أراد البابا لاون العاشر أن يبني كنيسة القديس بطرس، فمنح المتبرّعين لبنائها غفراناً كاملاً يزيل عنهم عقوبات الخطيئة الموقّتة، شريطة أن تكون نفسهم في حال النعمة المبرّرة. فناهض لوتير قضية الغفرانات (عام



كاتدرائيّة القدّيس بطرس بروما

١٥١٧)، وتطرَّق إلى قضايا أخرى، منها عذابات المطهر وحريّة الإنسان. ورشقه البابا بالحرم سنة ١٥٢٠، ونفاه الإمبراطور شارل الخامس، فأجارَه الأمير فرديريك دي ساكس وأسكنه قصراً نائياً. ولما أصبح لوتير في مأمن أخذ يكتب كتابات تخالف تعليم الكنيسة، وهي تدور حول الأفكار الرئيسية الثلاثة :

١ - ليس للبابا سلطة على الكنيسة الجامعة، وليس للكنيسة ان تحتفظ بممتلكات ماديّة.

٢ - لا يتبرَّر الانسان بالأعمال بل بالإيمان فقط؛ وتبرير النفس إنما هو غشاء يخفي ما فيها من دنس ولا يُزيله عنها.

٣ - الكتاب المقدس هو ينبوعُ الإيمان وحدَه، ويحقّ لكل إنسان أن يفسّره تفسيراً خاصاً حسب إلهام الروح القدس.

إنتشار مذهب لوتير وتثبيته

ناصر الأمراء الألمان مذهبَ لوتير لأنهم رأوا فيه واسطة ناجعة للاستيلاء على ممتلكات الكنيسة الواسعة. فحاربهم الإمبراطورُ شارل الخامس؛ إلّا أن المحالفة المعقودة بين السلطان العثمانيّ سليمان الثاني وملك فرنسة فرنسوا الأول قد أرغمته على التساهل معهم، فعقد اتفاقية أوغسبرغ سنة ١٥٥٥ وقد أقرَّت هذه الاتّفاقية وجوب الاعتراف بكيان الكنائس البروتستانية في الدولة الألمانية، وفرضت المذهب البروتستانيّ على السكان متى كان الأمير بروتستانيًّا، واحتفظ الأمراء بممتلكات الكنيسة التي اغتصبوها.

وفي سنة ١٦١٨ حاول الإمبراطور فردينان الثاني محاولة جديدة لقمع الأمراء البروتستان في ألمانية، فكسر عدّة محالفات قاموا بها. إلّا أنّ فرنسة خافت على نفسها من انتصار الإمبراطور، فآزرت البروتستان وساندتهم. فعُقدت سنة ١٦٤٨ معاهدة وتْسفالي التي منحت الناسَ الحرية الدينية وأقرَّت تجزِئة ألمانية وأضعفت سلطة الإمبراطور.

وانتشر مذهبُ لوتير في معظم دويلات ألمانية والدول الاسكندينافيّة ودول البَلطيك. ولمّا مات لوتير في ١٩ شباط ١٥٤٦ كان كَلْوين الفرنسيّ قد دعا لتعاليمَ جديدةٍ فيها الكثيرُ من أقوال لوتير.

مذهب كلوين

ولد كلوين في فرنسة سنة ١٥٠٩، وتأثّر بمذهب لوتير، فغيّره في قضايا كبرى أهمّها الإيمان والتبرير والكنيسة والأسرار. وألغى من الكنيسة النظام الأسقفي، ووضع لها نظاماً شديداً. فانتشر مذهبه في سويسرة وهولاندة واسكوتلاندة وبوهيمية والمجر وفرنسة. وقد سبّب انتشاره في فرنسة حروباً دامت عدة سنوات. وأقرَّ الملكُ هنري الرابع في مرسوم نانت سنة ١٥٩٨ حرية الضمير والمذهب. وبقيت فرنسةُ الدولةَ الوحيدة التي أمكن فيها التعايشُ السلميّ بين الكاثوليك والبروتستان، مع قلّة عدد هؤلاء. ونقض لويس الرابع عشر هذا المرسوم سنة ١٦٨٥ فهاجر معظم البروتستان الفرنسيّين الى هولندة وألمانية.



حنّا كلوين



الملك هنري الثامن

الكنيسة الأنكليكانية

ثار الملك هنري الثامن ملكُ إنكلترة على البابا لأنه لم يعلن بطلانَ زواجه من كاترينةَ الأراغونيّة التي لم تُنجب له وارثاً ذكَراً، وكان الملكُ شَغِفاً بامرأة غيرِها.

وحملَ الإكليروسَ والبرلمانَ على الاعتراف به رئيساً أعلى على الكنيسة الانكليكانيّة (أو الإنكليزية) وعيّن لمدينة كانتربري رئيسَ أساقفة جديد، فسمح له بالزواج. وأعلن البرلمانُ سنة ١٥٣٤ أنْ لا دخْلَ للبابا في شؤون الكنيسة الانكليكانيّة، فانفصلت هذه الكنيسةُ عن الكنيسة الرومانية، ولم يُنكر الانكليزُ جوهر المعتقد الكاثوليكي.

وأدخل الملكُ إدوار السادس والملكة أليصابات بعضَ التعاليم المقتبسة عن البروتستانيّة. غير أن الأنكليكان أحتفظوا بمعظم المعتقدات الكاثوليكيّة، كما حافظوا على النظام الأسقفيّ والقدّاس الإلهيّ. ولذلك فهم يعتبرون أنفسهم حَلقة الوصل بين الكاثوليك والبروتستان. وانتشرت كنيستهم في المستعمرات الإنكليزية. أما إيرلندة فقد تمسّكت بمعتقدها الكاثوليكيّ تمسّكاً شديداً.

وتفرّع عن المجموعات الكنسيّة التي نشأت في عهد الإصلاح مذاهبُ أخرى احتجاجاً على ارتباطها بالدولة، أو نتيجةَ حركة روحيّة تجدّدية (المتوديّون، المعمدانيّون...). ثم تشعّبت هذه إلى فروع يصعب حصرها.

واندفعت إلى التبشير في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، فتأسّست جمعيّات تبشيريّة كثيرة، وصل العديد منها الى الشرق العربيّ في مطلع القرن التاسع عشر.

فتأسّس من جراء ذلك كنائس إنجيلية محليّة أقرّت لها السلطةُ العثمانية بالكيان الطائفي عام ١٨٥٠

وكان المؤتمر الاول للجمعيّات الإرساليّة الإنجيلية، عام ١٩١٠، نقطة الانطلاق لنشأة **مجلس الكنائس العالميّ**، وفيه تتلاقى الكنائس للتعاون ولدراسة السبُل للوصول إلى الوحدة. وقد بدأ عهد جديد من الحوار بين الكنيسة الكاثوليكية والكنائس الإنجيلية.

الإصلاح الكاثوليكيّ في القرن السادسَ عشر

مقدمة

لاحظت الكنيسةُ الكاثوليكية أن الخطرَ الدينيّ قد أحدَق بها من كل جانب. فالشعوب الجرمانية انفصلت، والأخلاق المسيحية تدَهْورت، وسلطة البابا ضعفت، والعقائد الدينيّة تزعزعت، وعزائم رجال الإكليروس تراخت. فجمعت قواها وحقّقت الإصلاح المنشود. وقد تمَّ بسعي الباباوات، ونشاط الرهبانيّات، وقرارات المجمع التريدنتينيّ.

الباباوات المُصْلحون

١ – **بولس الثالث** (١٥٣٤ – ١٥٤٩): أمر بعقد المجمع التريدنتينيّ في **٢٢** أيار ١٥٤٢، ونظَّم محكمة التفتيش الرومانية، ومجمع الإيمان، ومجمع الكتب المحرَّمة.

٢ – **يوليوس الثالث** (١٥٥٠ – ١٥٥٥): أمر بإعادة عَقد المجمع التريدنتينيّ. فالتأم من سنة ١٥٥١ الى سنة ١٥٥٢، ثم انفرط عِقدُه بسبب انتصار البروتستان في ألمانية. وأقرَّ هذا البابا قوانين الرهبانية اليسوعية، وفتح في رومة المدرسة الرومانية والمدرسة الجرمانية.

٣ – **بولس الرابع** (١٥٥٥ – ١٥٥٩): اهتمَّ هذا البابا بالإصلاح الكاثوليكيّ اهتماماً بالغاً.

٤ – **بيوس الرابع** (١٥٥٩ – ١٥٦٥): تمكّن من إنهاء أعمال المجمع التريدنتيني. وقد ساعده على ذلك ابنُ أخيه الكردينالُ شارل بورومه.

٥ – **القديس بيوس الخامس** (١٥٦٦ – ١٥٧٢): دافع عن الشعوب المسيحية ضدّ الأتراك، وبصلواته تغلّبت الجيوش المسيحية في موقعة ليبانت البحرية (١٥٧١) على العثمانيين.

٦ – **غريغوريوسُ الثالثَ عشَر** (١٥٧٢ – ١٥٨٥): أَصلح التقويم اليولياني. فدُعي باسمه التقويمُ الغريغوري. وأنشأ في رومة المدرسة اليونانية.

٧ - **سيكستس الخامس** (١٥٨٥ - ١٥٩٠) : اهتمَّ بإصلاح الشؤون الماديّة في رومة، ونظّم الوزارات البابوية.

أعمال الرهبانيّات

سعَت الرهبانيات سَعياً حثيثاً في سبيل نشر الإصلاح الكاثوليكي بين الناس. وأعادت الرهبانيةُ الفرنسيسكانية النظر في قوانينها، وأسَّست رهبانيةَ الكبّوشيّين، وأصلح القديس يوحنا دي لاكروا والقديسة تريزيا الكبرى ديورةَ الكرمل (الحبيس)

وظهرت الرهبانية اليسوعيّة التي أسَّسها القديس أغناطيوس دي لويولا (١٤٩١ - ١٥٥٦) فامتازت بروح الطاعة والخضوع التامّ لأوامر الرؤساء. فكان لها تأثير بليغ في جميع مظاهر الحياة الدينيّة، وخصوصاً في التدريس والتبشير والوعظ وإرشاد النفوس.

المجمع التريدنتينيّ (١٥٤٢ - ١٥٦٢)

دعا إلى عقد هذا المجمع البابا بولسُ الثالث في ٢٢ أيّار ١٥٤٢. فالتأم سنة ١٥٤٥ وفرَغَ من أعماله سنة ١٥٦٢، وعُقد غالبَ الأحيان في مدينة ترانت (في شماليّ إيطالية) وانقطع عن أعماله ثلاث مرّات بسبب الأحداث السياسيّة. وإليك ما قام به من أعمال:

العقائد

ليس للكتاب المقدس تفسيرٌ آخرُ غير التفسير الذي تقدّمه لنا أمّنا الكنيسة المقدسة؛

تُغفر خطايا الانسان الخاطىء نظراً لاستحقاقات سيّدِنا يسوعَ المسيح، شريطةَ أن يكون نادماً عليها. ولهذه الاستحقاقات مفعولٌ حقيقي في النفس، فإنه يبرّرها تبريراً داخليًّا، ويمحو دنسَها ويجدّدُها تجديداً تامًّا، ويعيد إليها حياة الله؛

إن للبابا السلطةَ العليا على الكنيسة الجامعة؛

إن في الكنيسة أسراراً سبعة، ولهذه الأسرار مفاعيلُ في النفس لا تتحقّق إلّا بشروط معيّنة.

النظامُ والأخلاق

واهتمَّ المجمع بالنظام والأخلاق اهتماماً بالغاً، ففرض على الأساقفة فتحَ مدارس إكليريكيّة لتربية من يرغبون في قَبول سرِّ الكهنوت، كما فرض عليهم أن يزوروا أبرشياتهم ويتفقّدوا شؤونها، ومنع احتكارَ الوظائف المتعدّدة التي تدرّ الأموال، وأوضح بتدقيق واجباتِ الملوك والأمراء المسيحيّين.

ولم يتمكن هذا المجمع من إعادة البروتستان الى المعتقد الكاثوليكيّ (إلا في بولونية والمجر)؛ ولكنه استطاع ان يمنع انتشار البِدْعة البروتستانية، وأثار في الكنيسة الكاثوليكية نهضة روحية وفكرية أعطت ثمارها في القرن السابع عشر.

النهضة الكاثوليكية في فرنسة في القرن السابعَ عشر

كانت إسبانية المركز الأوّل للإشعاع الروحيّ في القرن السادسَ عشر، ففيها نشأ القديسُ أغناطيوس دي لويّولا مؤسسُ اليسوعيين، وفيها عاشت القديسة تريزيا الكبرى، وبها أقام القديس يوحنا دي لاكروا وهما من كبار الرهبان الصوفيّين (الحبيس).

ولم تنتشر في فرنسة أعمال المجمع التريدنتينيّ في وقتها، لأن إصلاحات المجمع لم تحظَ بعطف السلطة الملكيّة والنبلاء.

وكانت قد قامت في عهد الملك فيليب الجميل، في القرن الرابعَ عشر، حركة تحرّرية تجاه كنيسة رومة دعيت «بالحركة الغاليكانية» وهي تناصر مبدأ تفوّق المجمع على البابا.

ورأى الأساقفة الفرنسيّون أن الحكومة تماطل في تطبيق أوامر المجمع التريدنتينيّ فاجتمعوا وأقرّوا تطبيقها سنة ١٦١٤ في أبرشياتهم، رغم معارضة الحكومة. فعرفت فرنسة في القرن السابعَ عشر نهضة روحيّة وفكرية رائعة. وكان أهمَّ أركان هذه النهضة القديسُ فرنسيس دي سال الذي طبّق مبادىء الحياة الروحية على العلمانيّين؛ والقديس منصور دي بول الذي أنشأ المشاريع الاجتماعية وقدّم للناس المثلَ الأعلى في محبة الفقراء وخدمتهم؛ والكاتب الشهير بسكال الذي دافع عن المعتقد الكاثوليكي بأسلوب رائع، والخطباء الكنسيّون بوسويت وبوردالو وفينيلون الذين أصلحوا المجتمع بخطبهم الرائعة. وتأسست المدارسُ الإكليريكية فارتفع مستوى الإكليروس، ونشِطت حركة الإرساليّات، وارتقت أساليب العلوم التفسيرية والتاريخية.

الكنيسة الغربيّة المعاصرة

الثورة الفرنسيّة ونابوليون

نشِبت في القرن الثامنَ عشر في فرنسة أزمةٌ فكرية وأخلاقية واجتماعية، فلم تلقَ أمامها رجالاً بهم الكفايةُ ولهم العلم والمقدرة لحلّها حلاً مُرضِياً، فالتهبت الثورةُ العارمة سنة ١٧٨٩. ولما كانت الكنيسة مرتبطةً بالنظام الملكيّ، ومعظمُ أساقفتها من النبلاء، فقد اتخذت الثورة طابعاً معادياً للدين، وألغت منذ سنة ١٧٨٩ جميع امتيازات الإكليروس، واستولت على ممتلكات الكنيسة، وأقرَّت سنة ١٧٩٠ فصل الكنيسة الفرنسية عن كنيسة رومة، وأصدرت مرسوماً يقضي بانتخاب رجال الاكليروس والاساقفة على طريقة انتخاب نوّاب البرلمان، بدون ان يكون للبابا حقّ التدخّل في شؤون الكنيسة. فأبى معظم رجال الإكليروس الفرنسيّ الانصياع لهذا التشريع المخطىء، فاضطهدتهم الثورة اضطهاداً عنيفاً، وشرّدتهم وقضت على حياة الكثيرين منهم.

وحاولت الثورة إقامة عبادة جديدة بدلَ عبادة الله، فعبدت «العقل». وجَهَدت في نشر ديانة جديدة بدلَ الديانة المسيحية، فعرضت على الناس محبةَ الإنسانية. وتابعت مع هذا قتلَ الناس، فكانت دماء الأبرياء تسيل أنهاراً.

وقاوم البابا بيوس السادس (١٧٧٥ - ١٧٩٩) هذه التشريعاتِ المُلحِدة، فهاجمت الجيوشُ الفرنسية ممتلكاته واحتلّتها، وأخذت البابا أسيراً فمات في طريقه إلى فرنسة.

وخلفه البابا بيوس السابع (١٨٠٠ - ١٨٢٣) وكان نابوليون قد تسلَّم زِمام الأمور في فرنسة، فأظهر رغبته في إعادة السلام والهدوء الى البلاد، فعقد مع البابا معاهدة سنة ١٨٠١، فسيَّرت الأمور الكنسيّة في فرنسة مدة قرن كامل. وفي عام ١٨٠٤ قدِم البابا الى باريس ليتوّج نابوليون إمبراطوراً على فرنسة. إلّا أن العلاقات بين البابا ونابوليون ما عتّمت أن توتّرت، فضمَّ نابوليون ممتلكات الكنيسة الرومانية الى الإمبراطوريّة الفرنسيّة سنة ١٨٠٩، وأسر البابا ليرغمه على توقيع معاهدة جديدة لها طابعٌ غاليكانيّ فأبى.

البابا بيوس التاسع والمجمع الفاتيكانيّ الأوّل

انتعش الإيمان من جديد في عهد البابا بيوسَ التاسع، وارتقت الحياة المسيحية واستعادت السلطة الباباوية هيبتها، وقويت المركزيّة في الكنيسة الرومانية، وتضاءلت النعرات القوميّة في كنائس فرنسة والنمسةِ وألمانية. إلّا أنه يؤخذ على البابا بيوسَ التاسع قلّةُ مرونته في علاقاته مع الدول الناشئة، وعدمُ تماشيه مع التطوّر الاجتماعيّ والفكريّ. في عهده فقدت الكنيسة الرومانية ممتلكاتها الباباوية، بعد أن استولى عليها ملك إيطالية ليحقّق وحدة بلاده الإيطاليّة (١٨٧٠)

ومن أهمّ الأحداث الكنسيّة تحديدُ عقيدة الحبل بلا دنس (١٨٥٤)، وخصوصاً عقد المجمع الفاتيكاني الأول (١٨٦٩ – ١٨٧٠). التأم المجمع لمقاومة المبادىء اللادينية التي تسرَّبت الى النفوس في العصر الحديث، وإعادةِ تنظيم الكنيسة. ولم يتمكّن من إنهاء البحث في البرنامج المهيّأ له، بسبب نشوب الحرب الألمانية الفرنسية، ودخول الجيوش الإيطالية الى رومة في ٢٠ تشرين الأول ١٨٧٠، فأجَّله البابا الى أَجل غير محدَّد. وقد تمَّ في المجمع إدانة المبادىء الفلسفيّة العامّة المنافية للدين، وإعلان عصمة البابا من الخطإ عندما يعلّم الكنيسة جمعاء بصفة كونه رئيساً أعلى لها. ولم تكن عِصمةُ البابا من القضايا المدْرَجة في البرنامج، ولكن الرأي العامّ أثارها، وقام حولها جدلٌ عنيف في ألمانية وفرنسة. فطرحها بعضُ مناصريها على المجتمعين لدرسها وإبداء الرأي فيها، فعارضها فريقٌ من اللاهوتيّين والمؤرّخين، وانضم إليهم بطريرك الروم الكاثوليك غريغوريوسُ يوسف ومعظمُ البطاركة الشرقيّين، لأنهم رأوا أن تحديدها يوسّع الهوّة بين الكاثوليك والأرثوذكس. ثمّ خضع بطريرك الروم الكاثوليك لقرارات المجمع ووقَّعها وزاد هذه العبارة على صكّ التوقيع «**مع المحافظة على جميع حقوق البطاركة وامتيازاتهم**».

الباباوات المعاصرون

– **لاون الثالثَ عشر** (١٨٧٨ – ١٩٠٣): قام بنشاط واسع إيجابي لمجابهة الأوضاع الجديدة، وحرَّض الكاثوليك على عدم التمسّك بالأنظمة السياسيّة البائدة.

ونشر رسالته العامّة الشهيرة «الأوضاع الجديدة»* سنة ١٨٩١ لحلّ المشاكل الاجتماعيّة الناجمة عن التطوّر الصناعيّ، بغيةَ مساندةِ حقوق العمّال. وقد حثَّ برسائله على التعمّق في العلوم الكنسية واتّباع الأساليب العلميّة في البحث والتنقيب، كما حرَّض الناس على احترام قوانين الزواج وعلى التقوى.

وقد أظهر لاونُ الثالثَ عشر تفهّماً عميقاً لرغبات الشرقيّين، فاستدعى البطاركة الى رومة، واستمع الى مطاليبهم، وأصدر رسالته الشهيرة «مَقام الشرقيّين»* سنة ١٨٩٤ التي تقضي باحترام الطقوس الشرقيّة، وتحدّد واجبات المرسلين الكاثوليك في الشرق.

– **القديس بيوس العاشر** (١٩٠٣ – ١٩١٤): قام بإصلاحات مهمّة في الطقوس الكنسية اللاتينية والحقّ القانوني الغربي، وحرَّض على المناولة اليوميّة. وظهرت في عصره أَزمة دينية عميقة في طبقة المفكّرين الفرنسيين اتخذت اسم «البدعة العصرية»* وتقوم هذه البدعة بتفريغ الديانة من كل معتقد، لتتمسَّك فقط بقيمتها التوجيهيّة والأخلاقيّة والعاطفيّة. فقاوم البابا بيوس العاشر هذه البدعة مقاومة شديدة، ورشقها بالحُرم سنة ١٩٠٧

– **بنديكتوس الخامس عشر** (١٩١٤ – ١٩٢٢): حاول بكلّ ما لديه من قوى لإعادة السلام إبانَ الحرب الأولى، ونظَّم المساعدات لمنكوبي الحرب وضحاياها. واهتمَّ بالكنائس الشرقيّة وأسَّس سنة ١٩١٧ «**مجمع الكنائس الشرقية**».

– **بيوس الحادي عشر** (١٩٢٢ – ١٩٣٩): قام بين الحربين بمحاولات كثيرة لتوطيد السلام. وشجَب الماركسيّة الملحدة والعنصرية النازية. وتصالح مع الدولة الإيطالية بعقد اتفاقيّة اللاتران (١٩٢٩) التي اعترفت بسلطة البابا على الفاتيكان، واستقلاله عن الحكومة الإيطالية. وهذا الاستقلال يمنح البابا حرية تامة للقيام بمهامّه الدينية الشاملة. وشجَّع البابا بيوسُ الحادي عشر حركاتِ العمل الكاثوليكيّ ونظَّمها، ونشَّط الإرساليات التبشيرية، وحرّض المرسلين الأوروبيين على تسليم الإكليروس المحليّ في الإرساليات مَهامَّ الخدمة الدينية. ومنح الرسامة الأسقفية لأول أسقف أسود. وتابع في مختلف النواحي خُطّة البابا لاون الثالثَ عشر.

– **بيوس الثاني عشر** (١٩٣٩ – ١٩٥٨): لعب دوراً هامًّا إبان الحرب الثانية

* Rerum Novarum * Orientalium dignitas * Modernisme

لتوطيد السلام والعدل. وقد اشتهر بتوجيهاته الحكيمة لحلّ المشاكل الجديدة الناشئة عن تقدّم العلوم والاختراعات والتطوّرات الاجتماعية. وحدَّد سنة ١٩٥٠ عقيدة انتقال العذراء الى السماء بالنفس والجسد. وفي عصره بعد الحرب العالمية الثانية نشِطت الحركة اللاهوتية والفكرية، ونشأت حركة التجديد الطقسيّ، وتطوَّرت علوم الكتاب المقدس، وأخذت كنائسُ أفريقيةَ وآسية الحديثة مكاناً مرموقاً بين الكنائس القديمة، ونشطت الكنائس الكاثوليكية الشرقية والحركة المسكونية لتقارب المسيحيّين، وقويت الكثلكة في الولايات المتحدة، وبدأت الكنيسة في دول أميركا اللاتينية تنهض من سُباتها.

– **يوحنا الثالث والعشرون** (١٩٥٨ – ١٩٦٣): قرَّر عقدَ المجمع الفاتيكاني الثاني لتجديد أنظمة الكنيسة وتعميم التقدّم الديني القائم في بعض الأقطار على العالم الكاثوليكيّ بأجمعه؛ وقد توخّى البابا من عقده تهيئة الكنيسة الكاثوليكية لأن تلتقي يوماً ما سائرَ الكنائس المسيحية في الوحدة التامّة التي أرادها السيد المسيح. وقد خلق منذ أن ارتقى السُدة الرسولية جوًّا وُدّيًّا بين الكاثوليك وسائر المسيحيّين، وبين الكنيسة والحكومات المُلحِدة نفسِها، ونشر رسالتين عامتين موضوعُها العدلُ الاجتماعي والسلام العالمي.

– **بولس السادس** (١٩٦٣/٦/٢١ – ١٩٧٨/٨/٦): أمر بمتابعة المجمع الفاتيكانيّ الثاني، وسهر على سَير أعماله ونَشر مقرّراته، وهو أوّل من عمل على تطبيقها، فأسّس سينودس الأساقفة الذين يجتمعون حوله بشكل دوريّ، لتدارس أمور الكنيسة الجامعة، ونظّم المجالس الأسقفيّة في مختلف الأقطار، وأعطاها سلطاتٍ واسعة. كما وسّع الدوائر الرومانيّة وفتحها على جميع العناصر والشعوب، وأسّس امانات السرّ الدائمة لوحدة المسيحيّين، وللعلاقات مع سائر الأديان وللحوار مع غير المؤمنين. كما عمل على الإصلاح الطقسيّ في الكنيسة الغربيّة، وشكّل اللجان لوضع الحقّ القانونيّ الجديد. وأبدى حكمة كبيرة في حقبة ما بعد المجمع، لإجراء الإصلاحات الضروريّة والانفتاح على عالم اليوم، متغاضياً عن انتقادات المحافظين المتشدّدين، وكابحاً جماحَ التقدميّين المتهوّسين. وقد أصدر عدّة رسائل عامّة توجيهيّة، أهمّها «**ترقّي الشعوب**» التي يطالب فيها أن تؤازر الدولُ الغنيّة الدولَ النامية، و«**الحياة البشرية**» التي تنادي باحترام حياة الإنسان حتى قبل مولدها، وتشجُب الوسائل الاصطناعيّة لتحديد النسل.

ومن بوادر انفتاح البابا بولس أنه أوّل بابا في العصر الحديث، خرج من الفاتيكان، فزار القدس حيث التقى البطريركَ أثيناغوراس، بطريركَ القسطنطينية الأرثوذكسيّ (٤ – ٦ كانون الثاني ١٩٦٤). ثم زار مدينة بومباي الهنديّة (٢ – ٥ كانون الاول ١٩٦٤) حيث التقى رؤساء الديانات غير المسيحية، وبعد ذلك زار مقرّ الأمم المتحدة (٨ تشرين الأول ١٩٦٥) حيث جابه مشاكل العالم المعاصر. ثم قام بزيارات أخرى الى أفريقيا (أوغندا)، وأميركا الجنوبيّة (كولومبيا)، والشرق الأقصى (الفيليبّين).

وفي عهده انتعش حوار المحبة بين الكنيسة الكاثوليكيّة والكنيسة الأرثوذكسيّة. وقد التقى قداسةَ البطريرك المسكونيّ أثيناغوراس في مدينة القدس في مطلع عام ١٩٦٤، وفي ٧ كانون الأول ١٩٦٥. تم في آخر يوم من انعقاد المجمع الفاتيكانيّ الثاني رُفعَ الحرُم المتبادَلَ بين رومة والقسطنطينية. وفي عام ١٩٦٧ (٢٥ – ٢٦ تموز) توجّه البابا بولس السادس لزيارة البطريرك أثيناغوراس في مقرّه في إسطنبول. وفي العام نفسه ردّ له البطريرك أثيناغوراس الزيارة في الفاتيكان (٢٦ – ٢٨ تشرين الأوّل). ولم تقتصر العلاقاتُ على الكنائس البيزنطية، فالكنائس الشرقية القديمة هي أيضاً كانت موضوع اهتمام. وقد زار كاثوليكوس أنطلياس الارمنيّ خورين قداسةَ البابا بولس السادس عام ١٩٦٧، وتبعه كاثوليكوس الأرمن الأعلى فاسكين عام ١٩٧٠. ثم كانت زيارة البطريرك السريانيّ مار أغناطيوس يعقوب الثالث عام ١٩٧١، والبطريرك شنودا القبطيّ عام ١٩٧٣. وكان هذا أوّل تلاقٍ رسميّ منذ قرون.

وقد سعى البابا بولس السادس لتعزيز أوضاع الكنيسة في البلاد النامية، بعد ان تحرّرت من الاستعمار، فأخذت طابعاً وطنيًّا بأنظمتها وطقوسها ورجالها، كما بدأت تلعب دوراً له أهميّته في الكنيسة الجامعة، وانفتحت بدورها على الرسالة المسيحيّة في الخارج.

– **يوحنا بولس الأول** (٨/٢٦ – ١٩٧٨/٩/٢٩): انتخب في ٢٦ آب ١٩٧٨، في اليوم الأوّل للمجمع الكرديناليّ الانتخابيّ، وتوّج في ٣ أيلول ١٩٧٨. واكتسب قلوب الجميع بانفتاحه ومحبته، وعُقدت عليه الآمال؛ إلّا أنه توفّي فجأة في ٢٩ أيلول ١٩٧٨، ودفن في ٤ تشرين الأول ١٩٧٨.

– **يوحنا بولس الثاني** (١٩٧٨ – ...): انتخب في ١٦ تشرين الأوّل ١٩٧٨، ونصّب في ٢٢ تشرين الأوّل ١٩٧٨، وهو من أصل بولونيّ، وأوّل بابا غير إيطالي منذ

عدّة قرون. تابع منهاج أسلافه الذين اتّصفوا بالانفتاح على العالم المعاصر والكُتلة الاشتراكيّة والدول النامية والكنائس الأخرى. تعرّض في ١٣ أيار ١٩٨١ لمحاولة اغتيال في ساحة القديس بطرس، نجا منها بمعجزة، وشفي من جراحة الخطيرة، واستعاد عافيته ونشاطه.

واشتهر بزياراته الرسوليّة الى سائر أقطار العالم، وقد قام حتى آخر عام ١٩٩٠ بتسع وأربعين زيارةً خارج إيطاليا. وفي ٣٠ تشرين الثاني ١٩٧٩ زار مدينة إسطنبول، حيث التقى قداسة البطريرك المسكوني ديمتريوس الأوّل. وعلى إثر هذه الزيارة أعلن الحبران بدء الحوار اللاهوتيّ الرسمي بين الكنيستين الكاثوليكيّةِ والأرثوذكسية.

أصدر البابا يوحنا الثاني عدةَ رسائلَ هامّة، منها **العملُ الإنسانيّ**، **والأسرة البشرية**، **والألم الفادي**، **والروح القدس الرب المحيي**، **وأمّ الفادي**، **والاهتمام بالمعضلة الاجتماعية**، **وكرامة المرأة**، **والمؤمنون العلمانيون**.

وفي ٢٥ ك٢ عام ١٩٨٣ أصدر التشريع الجديد للكنيسة الغربيّة الذي أعيد النظر فيه على ضوء روح المجمع الفاتيكانيّ الثاني وقراراته.

وفي تشرين الثاني عام ١٩٨٥ عقد في رومة سينودساً خارق العادة، بمناسبة مرور عشرين عاماً على انتهاء المجمع الفاتيكانيّ الثاني، لدراسة ما أُنجز في هذه الحِقْبة من مقرّرات المجمع. ومن أهمّ توصيات هذا السينودس، التعجيل في إنجاز التشريع الخاصّ بالكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة، ووضعُ كتاب تعليم مسيحيّ للمؤمنين يكون قاعدة لكتب التعليم في سائر الأقطار، وتعزيزُ المجالس الأسقفيّة الإقليميّة. وقد صدر رسميًّا التشريع الجديد للكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة في ٢٥ تشرين الأوّل ١٩٩٠.

وفي رسالة أخيرة في الذكرى المئة لرسالة البابا لاون الثالث عشر الاجتماعية التي ظهرت في ١ أيّار ١٩٩١، يستخلص البابا يوحنا بولس الثاني العبر من انهيار الأنظمة الشيوعيّة.

وقد أعاد تنظيم الكنيسة الكاثوليكية بفرعيها الشرقي واللاتيني في بلاد أوروبة الشرقية بعد أن عادت اليها الحرّية الدينية (١٩٩١).

وهو يعدّ الكنيسة لبلوغ الألف الثالث وهو يسعى لتجديد بشارة الإنجيل وإعادة وحدة المسيحيين وتوطيد السلام في العالم.

الفصل الخامس والعشرون

الكنيسة البيزنطيّة الأرثوذكسيّة في القرون الأخيرة

(١٤٥٣ - ١٩٩١)

مقدّمة

ما كاد محمد الفاتح يستولي على القسطنطينية حتى أدرك أن خير وسيلة للسيطرة على الشعوب المسيحيّة الخاضعة لسلطانه إنما هي تقوية مركز البطريرك القسطنطينيّ وتوسيع سلطته الروحيّة. فرسم بأن تخضع له جميع الشعوب التابعة للطقس البيزنطيّ، ومنعها من الالتجاء إلى رئيس روحيّ آخر. فأضحى البطريرك القسطنطيني كأنه «بابا الشرق» تدعم سلطته الدولة العثمانيّة الشاسعة الأطراف.

ونصّب السلطان جناديوسَ بطريركاً على القسطنطينية وفق المراسيم المعهودة لدى أباطرة الروم، فاتخذ البطريرك الجديد كنيسة الرسل مقرًّا له، لأن العثمانيين حوّلوا كنيسة «آجيا صوفيا» الى مسجد. ثم أصدر السلطان فرماناً أكد به للروم أنه يحترم كنائسهم ومعابدهم ويمنحهم الحرية المطلقة في ممارسة شعائرهم الدينية.

واعتادت الحكومة العثمانيّة بعد ذلك أن تأخذ من كل مرشّح الى البطريركية مبلغاً من المال. وازداد هذا المبلغ على كَرّ الأيام حتى أضحى عبئاً ثقيلاً ناء به كاهلُ كنيسة القسطنطينية. وفرض السلطان على البطريرك عِلاوةً على ذلك أن يدفع له كل سنة كميّة محدودة من المال، فإن امتنع عن دفعها أقاله ونصّب غيره.

بطريركيّة القسطنطينية والوضع الأرثوذكسيّ العامّ

أشهر بطاركة القسطنطينية في القرن السادس عشر إرميا الثاني (١٥٧٢ - ١٥٩٥) قاوم البروتستان اللوتيريّين الذين سألوه أن يعلن موافقة الكنيسة الأرثذكسيّة على مبادىء البروتستان، فأوضح اتّفاق المبادىء الأرثذكسيّة والكاثوليكية تجاه البروتستانية. واتصل به البابا غريغوريوس الثالث عشر وعرض عليه قبول إصلاح التقويم السنويّ. فعقد في القسطنطينية مجمعاً رفض التقويم الجديد والسير بموجبه. ثم أجرى البطريرك إصلاحات دينية هامّة، فمنع المتاجرة بالقدسيات، ورفع المستوى الثقافيّ لرجال الدين. وتأسَّست في عهده المدرسة اليونانية في البندقية، وأسَّس البابا غريغوريوس مدرسة القديس أثناسيوس لليونان في رومة، فأمّها طلابٌ كثيرون كان لهم الفضل في تحقيق نهضة لاهوتية في آخر القرن السادسَ عشر وفي القرن السابعَ عشر.

وأقبل اليسوعيون في هذه الأثناء الى القسطنطينية وتمركزوا فيها؛ كما أقاموا في عدة جُزُر يونانيّة، واتصلوا بالبطاركة فأعلن العديد منهم اتحادهم الشخصيّ بكنيسة رومة.

وقاوم حركة التقارب الديني بين رومة والقسطنطينية البطريركُ كيرلس لوكار، وكان متأثراً بالمذهب البروتستانيّ الكَلْوِينيّ (١٦٢٠ - ١٦٣٨)

وفي القرن الثامن عشر نشبت مقاومة عنيفة للكثلكة، خصوصاً من قبل البطريرك إرميا الثالث (١٧١٦ - ١٧٢٦)، فضغط على الكاثوليك في سورية، فأدَّى هذا الضغط الى انقسام طائفة الروم الى شطرين.

أما البطريرك كيرلس الخامس (١٧٤٨ - ١٧٧٤) فقد أنكر صحة معمودية اللاتين، وقرَّر ضرورة إعادة منح المعمودية لمن يعود منهم إلى الأرثوذكسيّة. وحظرت رومة على الكاثوليك الاشتراك مع الارثوذكس في الأسرار (١٧٢٩) فتوقَّفت حركة التقارب الدينيّ بين الغرب والشرق.

وابتدأت في مطلع القرن التاسع عشر حركة تحرّر الشعوب المسيحيّة البلقانيّة من نير الاستعمار العثمانيّ، ورافقتها حركة تحرّر كنائس هذه الأقطار من سلطة بطريرك القسطنطينية.

وكانت كنيسة روسية قد استقلّت عن القسطنطينية منذ انهيار الإمبراطورية البيزنطية، وأسّست بطريركية موسكو في ٢٦ كانون الثاني ١٥٨٩. فساندت موسكو حركة تحرّر الشعوب السلافيّة، وسعَت في نشر نفوذها على العالم الأرثوذكسيّ بأكمله، وقد اعتبرت نفسها «رومة الثالثة» بعد زوال رومة القديمة ورومة الثانية (القسطنطينية).

ولما اندحرت الجيوش العثمانية في الحرب العالميّة الأولى، كاد يتحقّق حلم اليونان في استرجاع القسطنطينية وإحياء مجدها القديم، إلّا أن انتصارات مصطفى كمال قضت على هذا الحلم الرائع.

وقامت عمليّة تبادل السكان بين تركيّة واليونان، فنزحَ عن تركية زُهاءُ مليونَيْ يوناني، فضعفت كثيراً سلطةُ بطريرك القسطنطينية، وحدَّ الاتراكُ كثيراً من حرية اتّصاله بالخارج.

وتمكّن البطريرك أثيناغوراس (١٩٤٨ - ١٩٧٢) من تحسين علاقات بطريركية القسطنطينية بالحكومة التركيّة والاتصال بسائر البطريركيات الأرثوذكسيّة. ونشطت علاقات الأرثوذكس بالكنائس المسيحية غير الكاثوليكية، فاشتركوا اشتراكاً جدّياً في جَلَسات «مجلس الكنائس العالمي». وتوصّل البطريرك أثيناغوراس الى توحيد كلمة الأرثوذكس في مؤتمر رودوس سنة ١٩٦١ الذي وضع برنامجاً لمجمع أرثوذكسي عامّ يُعقد في ما بعد.

وتابع البطريركُ ديمتريوسُ (منذ عام ١٩٧٢) انفتاحَ سلفه على الحركة المسكونيّة، وباشر الحوارَ الرسميَّ بين الكنيسة الأرثوذكسيّة والكنيسة الكاثوليكيّة. كما نشِطت في عهده تهيئةُ المجمع الأرثوذكسيّ العامّ، وعُقِدَت عدّةُ مؤتمرات ضمّت ممثّلي سائر الكنائس الأرثوذكسيّة، لدراسة المواضيع التي ستُطرح على المجمع (جنيف عام ١٩٧٦، و١٩٨٢، و١٩٨٦). وزار قداسة البابا يوحنا بولس الثاني في رومة من ٣ إلى ٧ كانون الأوّل ١٩٨٧.

وللبطريرك القسطنطينيّ أسبقيةٌ شرَفيّة على البطاركة الآخرين في العالم الارثوذكسيّ، وله سلطته الفعلية على الأرثوذكس في تركية وفي بعض المناطق المنضمة حديثاً إلى بلاد اليونان وفي المهجر، وبه منوط إعلان استقلال الكنائس الأرثوذكسيّة.

البطريركيّات الملكيّة

ان الاحتلال العثماني لسورية ومصر قد وضع البطريركيات الملكيّة مرةً أخرى تحت سلطة القسطنطينية، وتمكّن النفوذ اليونانيّ من السيطرة على بطريركيّتي الإسكندرية والقدس. أمّا أنطاكية فبقيت مدة قرنين في أيدي البطاركة العرب، وقد تجاذبتها في هذه الآونة ثلاث عواصم مسيحيّة، ألا وهي رومة والقسطنطينية وموسكو.

قام البطريرك يواكيم الخامس ضَوّ (١٥٨٠ - ١٥٩٢) برحلة دامت ثلاث سنوات زار خلالها القسطنطينية وموسكو وبولونية ورومانية، وتدخّل في شؤون الكنيسة هناك.

وقام بعده مكاريوس زعيم الحلبيّ (١٦٤٧ - ١٦٧٢) برِحلتَين أُخْرَيَين إلى روسية، ولعب دوراً مهمًّا في شؤون هذه الكنيسة.



البطريرك الإنطاكيّ مكاريوس زعيم

وفي هذه الحِقبة ازداد تأثير رومة، وعظُم الاتّجاه الكاثوليكيّ في البطريركية

الأنطاكية، وشعرت به القسطنطينية، فعملت على تنصيب أساقفة يونانيّين على الأبرشيّات السورية. ولما انتخب الدمشقيّون عام ١٧٢٤ الأب ساروفيم طاناس بطريركاً باسم كيرلس السادس، نصبّت القسطنطينيةُ سلفسترُوس القبرصيّ اليوناني (١٧٢٤ - ١٧٦٦) بطريركاً أنطاكيًّا. وتتابع البطاركة اليونانيّون في الفرع الأرثوذكسيّ من البطريركية الأنطاكيّة حتى سنة ١٨٩٨، وكان يعيّنهم بطريرك القسطنطينيّة. وقد عملوا كثيرًا على معارضة التيّار الكاثوليكيّ.

وهذه قائمة البطاركة اليونان الذين تعاقبوا على الكرسيّ الأنطاكيّ من بعد سلفسترُوس: فيليمون (١٧٦٦)، دانيال (١٧٦٧)، أنثيموس (١٧٩٢)، سيرافيم (١٨١٣)، مثوذيوس (١٨٢٣)، إيروثاوس (١٨٥٠)، جراسيموس (١٨٨٥)، سبيريدون (١٨٩٢).

وارتفع المستوى العلميّ في القسم الأخير من القرن التاسع عشر، وانتعشت الروح القوميّة العربيّة. فتقرّر التخلّص من هيمنة القسطنطينيّة والعناصر اليونانيّة.

ففي عام ١٨٩٨ أقيل البطريرك سبيريدون اليوناني وانتخب عوضاً عنه سنة ١٨٩٩ البطريرك ملاتيوس دوماني. فلم تعترف به الكنائس اليونانية، وساندته الكنائس السلافية. وفي عام ١٩٠٩ عادت العلاقات الطيّبة بين مختلف الكنائس الأرثوذكسيّة فاعترفت جميعها بالبطريرك غريغوريوس حدّاد (١٩٠٦ - ١٩٢٨). وقام بعده خلاف حول البطريركيّة أدّى الى تثبيت البطريرك الكسندروس طحّان (١٩٣٣ - ١٩٥٨) وانتخب بعده البطريرك ثاوذوسيوس أبو رجيلي في عام ١٩٥٨.

ولما توفّي البطريرك ثاوذوسيوس عام ١٩٧٠، خلفه البطريرك إيليا الرابع معوّض (١٩٧٠ - ١٩٧٩) وكان مطراناً على حلب. وتمكّن بحكمته من إعادة وحدة الصفّ في كنيسته، بعد التصدّعات التي عكّرت السنين الأخيرة من عهد سلفه. ورأس السينودُس الذي وضع النّظام الأساسيّ الجديد للكنيسة الإنطاكية بتاريخ ٢٢ حزيران ١٩٧٢. ونشر النّظام في الجريدة الرسميّة وحلّ محلّ النظام الأساسيّ الذي أقرّه المؤتمر الأرثوذكسي العام في ١٩ تشرين الثاني ١٩٥٥ على عهد البطريرك ألكسندروس طحّان.

وقام برحلات كثيرة لزيارة الكنائس الأرثوذكسيّة الشقيقة، وزار العربية السعودية، ومثّل مسيحيّي سوريا ولبنان في مؤتمر لاهور الإسلاميّ. ودافع عن القضايا العربيّة حتى لُقّب ببطريرك العرب. وتوفي فجأة في ٢١ حزيران ١٩٧٩.

وانتُخب خلفاً له (١٩٧٩) البطريركُ الحاليّ أغناطيوس الرابع هزيم الذي كان مطراناً على اللاّذقيّة وتابع خطة سلفه في الدفاع عن القضايا القومية، وعن التراث الأرثوذكسيّ الأنطاكيّ، وقد زار هو ايضاً المملكة العربية السعودية (مؤتمر الطائف الإسلاميّ عام ١٩٨١). وهو علاوةً على ذلك منفتح على الحركة المسكونيّة، قام عام ١٩٨٣ بزيارة رسميّة للبابا يوحنا بولس الثاني في رومة، كان لها أطيب الأثر، كما قام بزيارات أخرى لفرنسا وأميركا واسطنبول وأثينا وموسكو. وله دور قياديّ في مجلس الكنائس العالميّ.

وللروم الأرثوذكس، علاوة على الأبرشية البطريركية في دمشق، الأبرشيات التالية:

في الشرق: حلب والاسكندرونة، حماة، حمص، اللاذقية، حوران وجبل العرب، عكّار، طرابلس والكوره، بيروت، جبل لبنان (جبيل والبترون)، صور وصيدا (مرجعيون)، زحلة، بغداد والكويت.

وفي الاغتراب الأبرشيات والمعتمدات البطريركية التالية: أميركا الشمالية (نيويورك)، ساو باولو (البرازيل)، ريو دي جانيرو (البرازيل)، الأرجنتين، الشيلي، المكسيك وأميركا الوسطى، أوستراليا، أوروبة الغربية (باريس).

ولم يحصل الأرثوذكس العرب في بطريركيّتي الإسكندرية والقدس على حقوقهم المشروعة، وهم ما فتئوا يطالبون بها منذ القرن التاسع عشر، ولم يزل طابع البطريركيّتين يونانيًّا خالصاً.

الكنيسة الروسية

كانت مدينة كِياف، عاصمة أوكرانية، المركزَ الرئيسيّ الأول في روسية. فلما سقطت هذه المدينة في أيدي المغول سنة ١٢٤٠ انتقل رؤساء أساقفتها الى موسكو، واتّخذوا لقب رؤساء أساقفة كياف وموسكو. وكانت القسطنطينية لا تزال آنذاك تتدخّل في تعيينهم.

واشترك المتروبوليت إيسيدوروس رئيس أساقفة كياف وموسكو في مجمع فلورنسة عام ١٤٣٩، وكان من أعظم مُناصري الاتحاد. ولما عاد إلى موسكو أساء إليه أمير المدينة – وكان عدوَّ الوَحدة – وعزله وعيَّن بدلاً منه سنة ١٤٤١ المتروبوليت يونان. ولم يستشر القسطنطينيةَ في الامر. فاستقلَّت الكنيسة الروسية عن القسطنطينية. وحملَ متروبوليت موسكو سنة ١٥٨٩ لقبَ بطريرك، بموافقة سائر البطاركة الشرقيّين.

وكان القسم الأكبر من أوكرانية وروسية الغربيّة خاضعاً للحكم البولونيّ. فاستقلّت كياف عن موسكو سنة ١٤٥٩. وفي عام ١٥٩٥ أُعيد الاتحاد بين أساقفة أوكرانية والكنيسة الرومانية، وحافظوا على طقسهم البيزنطيّ. وبقي الأوكرانيّون متمسّكين بمعتقدهم الكاثوليكيّ، ما داموا خاضعين للحكم البولونيّ أو النمساويّ. ولما قُسّمت بولونية، وخضع جزءٌ من أوكرانية للحكومة الروسية، ألغى القيصر الروسي الكنيسةَ البيزنطية الكاثوليكية فيها. وتابعت الحكومة الشيوعية الخطة نفسَها بعد الحرب العالمية الثانية، لما استولت على شرق بولونية. وكان الأوكرانيون الكاثوليك لا يزالون إذ ذاك خمسةَ ملايين نسمة.

وألغى القيصر بطرس الأكبر بطريركيةَ موسكو، واستعاض عنها سنة ١٧٢١ بمجلس كنسيّ، بين أعضائه مراقب من قبل الحكومة. فأصبحت الكنيسة الروسية آلة في يَدي الحكومة الروسيّة.

وفي القرن التاسع عشر بسطَت روسيةُ نفوذها على العالم الأرثوذكسي. ولمّا استقال القيصر نقولا الثاني بعد ثورة ١٩١٧ أُعيدت بطريركية موسكو الى الوجود، وذلك قبل أن يستولي الشيوعيّون على الحكم في البلاد. فلما تسلّموا زِمام الحكم، قاوموا الكنيسة ولم يسمحوا بتنصيب بطريرك أصيل. وانعزلت الكنيسة الروسية عن العالم الأرثوذكسي.

وأظهر المسيحيون الروس في الحرب العالمية الثانية وطنية صادقة، فسمحت لهم الحكومة الشيوعيّة بانتخاب بطريرك. وانتخب البطريرك ألكسيوس في ١٩٤٥/١/٣١ ونُصِّب بطريركاً باحتفال عظيم اشترك فيه البطريرك الأنطاكيّ ألكسندروس طحّان.

وقد تحسَّنت أوضاع الكنيسة الروسية، وهي تحاول الآن استعادة مركزها في العالم الأرثوذكسي، وتسعى جُهدَها في الداخل لأن تحافظ قَدْرَ المُستطاع على وديعة المعتقد المسيحيّ وهي تنتظر عهدَ الحرية التامّة بلَهفة وشوق عظيمين. ولما تُوفي البطريرك ألكسيوس خلفه البطريرك بيمين (١٩٧١ – ١٩٩٠) ثمّ البطريرك الحالي ألكسي الثاني (١٩٩٠ – ...). وقد حصل انفراج بين الكنيسة والحكم السوفياتي في عهد غورباتشوف. وتجلّى هذا بشكل خاص في الاحتفالات الرائعة للذكرى الألف لتنصّر الروس.

الكنائس الأرثوذكسية المستقلّة

استقلّت عن السلطنة العثمانية في القرن التاسع عشر كلٌّ من يوغسلافية واليونان ورومانية وبلغارية، وذلك على مراحل متتابعة.

وتبع هذا التحرّرَ المدنيّ الاستقلالُ الدينيّ عن البطريركيّة القسطنطينيّة. وجرى هو الآخر على مراحل متوالية. وقد أصبح رئيسُ أساقفة بلغراد سنة ١٩٢٠ بطريركاً على يوغسلافية، ورئيسُ أساقفة بوخارست سنة ١٩٢٥ بطريركاً على رومانية، ورئيسُ أساقفة صوفية سنة ١٩٥٣ بطريركاً على بلغارية. ولم تعترف القسطنطينيةُ بالبطريركية البلغارية إلّا عام ١٩٦١. أما رئيس أساقفة آثينا - وهو مستقلٌّ فعلاً - فلم يحمل لقب بطريرك إكراماً للبطريرك القسطنطيني اليونانيّ اللغة. وهناك كنائس أرثوذكسية أخرى مستقلة، والمؤمنون فيها أقلّ عددًا، وهي كنائس جيورجيا وقبرص وألبانية وبولونية وتشيكوسلوفاكية وفنلندا (والأرثوذكسُ في البلدان الثلاثة الأخيرة أقلّيّات).

الفصلُ السّادس والعِشرُون

الكَنائِسُ الشّرقيّة الكاثوليكيّة

مقدّمة

نمت الفكرة الكاثوليكية إبّانَ القرن السابع عشر في الشرق. وجذبت إليها الكثيرين بتأثير عواملَ متعددة، فكوّنت الطوائفَ الكاثوليكية. وكان لا بدَّ لهذه الطوائف لتتمتع بكيان شرعيّ، من أن تحظى باعتراف كلٍّ من البابا والسلطان العثمانيّ.

واعترفت رومة بكيان هذه الطوائف، فأقرَّت شرعيّةَ طقوس الشرقيّين وعاداتهم الخاصة، وسلّمت بحقوق البطاركة وامتيازاتهم ومكانتهم في الكنيسة، ووافقت على وجود تشريع خاصّ بكل من الطوائف الشرقيّة، وجَهَدت أن يكون هذا التشريع منسجماً مع الأوضاع الجديدة للطوائف الكاثوليكية، ومسايراً للأوضاع العامّة في الكنيسة الجامعة. ثم مارست سلطتَها العليا، فاعترفت بانتخاب البطاركة، وثبّتتهم في مناصبهم، كما وافقت على نصوص القوانين التي أصدرتها كلٌّ من المجامع الطائفيّة.

وقد تمَّ اعتراف رومة بالطوائف الكاثوليكيّة على مراحل متفرقة، وبصورة متقطّعة، وَفقَ تقلّبات الأحوال واحتياجات الزمن.

أمّا اعتراف السلطان بكيان الطوائف الكاثوليكيّة فكان أمراً أدقَّ وأصعب. كانت الفرامانات السلطانية قد خوَّلت البطاركة الأرثوذكس السلطةَ الدينيّة والزمنية على

الطوائف المسيحية، فأضحوا نوّاباً لها يمثّلونها أمام السلطان والباب العالي، ويدافعون عن حقوقها ويحفظونها في الطاعة والخضوع للدولة العثمانية. فلم يكن السلطانُ يعترف بغيرهم بطاركةً على الشعوب المسيحية.

ولما تكوَّنت الطوائف الكاثوليكيّة بزَعامة بطاركة وأساقفة كاثوليكيّين، تجاهل السلطان أمرهم في بادىء الأمر، ثم أبى الاعتراف بهم، وقد رفض السلطان هذا الاعتراف لسببين، وهما نفوذُ البطريرك المسكونيّ والجالية اليونانية في القسطنطينية، ووضعُ الطوائف الكاثوليكيّة نفسِها التي كانت تخضع للبابا رئيسِها الأعلى، وهو خارجَ نِطاقِ الدولة العثمانية. وبقيت الأحوال على هذا الشكل من القرن السابعَ عشرَ حتى الثُلثِ الأول من القرن التاسعَ عشر. فاعترف السلطان إذ ذاك بكيان هذه الطوائف. وكان سبب هذا الاعتراف تقلُّصَ النفوذ اليوناني أثناء حرب تحرير اليونان، وعطفَ الرأي العامّ الأوروبيّ على الطوائف الكاثوليكية، بعدما تحمَّلته من اضطهاد وتعسّف، فتمكَّن الدبلوماسيّون الكاثوليكيّون من الضغط على الحكومة العثمانية، لإعتاق الكاثوليكيّين من تَبِعة البطاركة الأرثوذكسيّين، وقد آزرتهم في ذلك أفكارُ الحرية والمساواة التي انتشرت آنذاك في جميع أرجاء السَلطنة العثمانيّة، فأُجبر السلطان على إقرار حقوق النصارى عامّة في أمور الدين والسياسة والضرائب والجيش، وحقوقِ الكاثوليكيّين خاصّةً في أمر استقلالهم عن الطوائف الأرثوذكسيّة.

وهكذا نشأت الطوائفُ الكاثوليكيّة، وكانت نشأتُها شاقّة، وسيُرها بطيئاً، وطريقُها مملوءاً بالمصاعب والعَقبات. فأضحى لكل منها تاريخٌ خاصّ نظَّمت فيه شؤونها الداخليّة، وكوَّنت أبرشياتها، وأسّست رهبانيّاتها، وبنَت ديورتها ومدارسها وكنائسها.

ولكي نفهم الأوضاع الدينية القائمة في الشرق، إبّانَ القرونِ الثلاثة الأخيرة، لا بدَّ لنا من مواجهة الأحداث بشكل يسمح لنا بتحليلها وترتيبها ترتيباً منطقيًّا فندرس:

١ – العوامل الخفيّة والظاهرة التي أثّرت في نموّ الفكرة الكاثوليكيّة أثناء القرن السابع عشر، وحملت الكثيرين من أبناء الطوائف الشرقيّة على الاتحاد بكنيسة رومة؛

٢ – موقفَ الكنيسة الرومانية من الطوائف الكاثوليكية بالنسبة الى طقوسها وتقاليدها، وبطاركتها، وشرَعها، وقوانين مجامعها الطائفية؛

٣ – إستقلالَ الطوائف الكاثوليكية **عن الطوائف الأرثوذكسيّة استقلالاً سياسيًّا، واعترافَ السلطان بكيانها؛**

٤ – تغييرَ أوضاع المسيحيّين **عامّة والكاثوليكيّين خاصّة في الدولة العثمانية، وفي الدول العربية، قبل الحرب العالميّة الأولى وبعدها؛**

٥ – **وأخيراً** تاريخَ كلٍّ من الطوائف الكاثوليكيّة **على حِدَة.**

وها نحن نبدأ بدراسة هذه الأمور، ونتبع الأحداث التاريخيّة كما رتّبناها.

نموّ الفكرة الكاثوليكيّة

إن الاتحاد الذي عُقد بين مختلف الكنائس الشرقيّة والكنيسة الرومانيّة في مجمع فلورنسة (١٤٣٩)، لم يدم طويلاً لأنه كان وليد الظروف السياسية، ولم ينبثق عن رغبة عميقة من شعوب الشرق والغرب، للتلاقي والتّحابّ، بل كان نتيجة مفاوضات قام بها الرؤساء وحدَهم دون استشارة رغبات شعوبهم، ودون تهيئتهم لهذا الحَدث الهامّ.

ومما أدَّى أيضاً إلى انفصام الوحدة المصطنَعة وتقوية الانفصال، أنّ الغرب كان في أواسط القرن الخامسَ عشر متضعضعاً مضطرباً من الناحيتين الروحية والسياسية، وأنّ الشرق كان رازحاً تحت سيطرة المماليك والعثمانيّين الذين سعَوا كل جُهدهم لعزل المسيحيّين عن العالم الغربيّ.

تأثير المدارس الرومانيّة

وتغيَّرت الأوضاع تغيراً طفيفاً في أواخر القرن السادسَ عشر. فقد خرجت الكنيسةُ الغربية بعد المجمع التريدنتينيّ منتعشةً متجدّدة، فأخذت تتطلّع الى الشرق لتحقّق معه الوحدة المنشودة. وفهمت رومة أنه لن يقوم اتّحاد شامل بين الغرب والشرق، ما لم تتهيأ له القلوبُ بتقارب الأفكار والآراء بين أبناء الكنيستين. فأسَّس البابا غريغوريوسُ الثالثَ عشر سنة **١٥٧٦** مدرسةَ القديس أثناسيوس لليونان، وفي سنة **١٥٨٤** مدرستَين أُخرَيَين لكلّ من الموارنة والأرمن. فربَّت هذه المدارسُ نُخبة من خيِرة رجال الكنيسة الذين أحدثوا نهضة لاهوتيّة في الشرق، وخلقوا في القرنين السادسَ عشرَ والسابعَ عشرَ جوًّا من التقارب الفكريّ المرتجى.

مُهمّةُ الأسقف ليورناردو هابيل

وأَوفد البابا غريغوريوسُ الثالثَ عشرَ إلى الشرق المطرانَ ليوناردو هابيل المالطيَّ الاصل ليعمل على اتحاد الشرقيّين بالكنيسة الرومانية، ويحملهم على قبول التقويم الغريغوريّ.

وصل الأسقف ليوناردو الى سورية سنة ١٥٨٣ ، وبقي في الشرق حتى سنة ١٥٨٧ ، واتّصل برؤساء الطوائف الشرقية ، وأقام أكثر أوقاته في مدينة حلب ، وإليك كلمةً عن مهمته الدينية لدى كل من الطوائف الشرقية :

– **لدى طائفة السريان (اليعاقبة)** : سافر البطريركُ نعمة الله أصفر (١٥٥٧ – ١٥٧٦) إلى رومة ، وسعى لدى البابا غريغوريوسَ الثالثَ عشرَ في إرسال الأسقف ليوناردو هابيل الى الشرق ، ليتّصل بخلفه البطريرك داود شاه (١٥٧٦ – ١٥٩١). وكان داود أخا نعمة الله ، فبعث البطريرك داود الى رومة بصورة إيمانه الكاثوليكيّ ، ولكنه عاد الى معتقد الكنيسة السريانية اليعقوبيّة بعد مدّة وجيزة.

– **لدى طائفة الروم** : اتّصل ليوناردو في حلب بالبطريرك المستقيل ، ميخائيلَ السابعِ الصبّاغ ، فقدَّم إليه البطريركُ صورة إيمانه الكاثوليكي. واجتمع بالبطريرك يواكيم الخامس ضَوّ في دمشق ، وحرَّضه على قَبول قرارات مجمع فلورنسة والتقويم الغريغوري. فاعتذر البطريرك ، وأكَّد أنه لا يمكنه البَتّ في مثل هذه الأمور قبل الاتّفاق مع بطريركَيِ القسطنطينيةِ والإسكندرية. وأرسل في هذه الأثناء وجهاءُ طائفة طرابلس رسالة إلى البابا يظهرون له فيها رغبتهم في الوحدة.

– **لدى طائفة النَساطرة** : اتّصل الأسقفُ ليوناردو ببطريركِ النَساطرة إيليّا السابع ، وحرَّضه على الاتحاد بالكنيسة الرومانية. فكتب البطريرك إلى الحَبر الأعظم كتاباً عبَّر له فيه عن إيمانه. وجرَت بينه وبين رومة مراسلاتٌ كثيرة.

لا شكّ أن ليوناردو لم ينجح في مهمته الدينية نجاحاً تامًّا ، ولم يحصل فوراً على نتائجَ هامّة ، إلّا أنه وجَّه الأفكار نحو رومة ، وجعل رجال الإكليروس يشعرون بأضرار الانشقاق ، وأنعش في قلوب الطبقة الراقية الرغبةَ الصادقة في اتحاد المسيحيين. وهذه نتيجة هامّة حصل عليها.

جهود الدبلوماسيّين الغربيّين

كان للدبلوماسيّين الغربيين فضلٌ عظيم في تكوين الطوائف الكاثوليكية في الشرق. فقد استفادوا من الاتفاقية المعقودة بين فرنسة والدولة العثمانية ، عام ١٧٤٠ ، فسمحوا

للمرسلين الغربيّين بالبقاء في الشرق والانتشار فيه. وقد عمل هؤلاءِ المرسلون الشيءَ الكثير في تأسيس الطوائف الشرقيةِ الكاثوليكيّة ودَعْمِها وتقويةِ مشاريعها وإعداد إكليروسها للحياة الكهنوتية.

وكان للدبلوماسيين الاوربيين من سُفَرَاء وقناصل تأثيرٌ مباشر في تحسين أوضاع الشرقيّين وجَلبهم إلى الكثلكة. فقد دافعوا عنهم أثناء الاضطهاد، لدى الباب العالي والباشاوات الأتراك، وكان دفاعهم مستنداً إلى الصداقة الشخصيّة لا غير. وكان الكثيرون من القناصل في مدن حلبَ ودمشقَ وصيدا وغيرِها من المدن الشرقيّة أصحابَ سيرة حميدة وتقوى راهنة، فاختلطوا بالشرقيّين في المجتمعات والكنائس، فاطّلع هؤلاءِ على فضيلتهم، فمالوا الى المذهب الكاثوليكيّ، واتّحد الكثيرون منهم بالكنيسة الرومانية.

وقد تجلّى عملُ الديبلوماسيّين الغربيّين بنوع خاصّ في أمرين هامّين، ألا وهما حملُ البطاركة والشعب على انتخاب أساقفة كاثوليكيّين، ودفعُ الحكومة العثمانية إلى الاعتراف بالبطاركة والأساقفة الكاثوليكيّين وتحريرِهم من تَبِعة البطاركة الأرثوذكسيين تحريراً سياسياً. وهذان الأمران قد مكّنا المذهبَ الكاثوليكيّ من الانتشار في معظم مدن الشرق، وسمحا للطوائف الكاثوليكيّة الناشئة بأن تتمتّع بكيان شرعيّ، وتزدهرَ في ظلّ القانون بحرية واسعة.

أعمالُ المرسلين الأوّلين

لقد كان للمرسلين الغربيين الأوّلين الفضلُ العظيم في إنعاش فكرة الاتّحاد الدينيّ ودعمِها وتنظيمها. فقد أفاد البابا أوربانوسُ الثامن سنة ١٦٢٥ من العلاقاتِ الطيبة القائمة بين حكومة الملك لويسَ الثالثَ عشرَ والدولةِ العثمانية، فأرسل الرهبانَ الكرمليّين والكبّوشيّين واليسوعيّين الى الشرق وخصوصاً الى سورية، وكان الفرنسيسكانُ قد سبقوهم كحرّاس للأماكن المقدسة، ولخدمة الدبلوماسيّين الأجانب الروحية.

وأوعز الملك الى سفيره في القسطنطينية والى قناصله في الإسكندرية وصيدا ودمشق وحلب بأن يساعدوا الرهبانَ المرسلين في مهمّتهم الدينيّة. واختار المرسلون مدينة حلب مقرًّا لهم، وقد أحسنوا في اختيار هذه المدينة، لأنها واقعة في نقطة وُسطى بين آسية

الصغرى والعراق وإيران، ومنها توزَّعوا على سائر المدن، واختلطوا بالطوائف الأرثوذكسيّة، واتّصلوا بأساقفتها، ووعظوا في كنائسها، وسمعوا اعترافات أبنائها، ومنحوهم الأسرار الكنسيّة، وعملوا بواسطة التعليم في المدارس، وبَثٍّ النشرات الدينية، وترجمة الكتب الروحية الكثيرة، وإرشاد أخويّات الرجال والنساء، على رفع مستوى الشرقيّين من الناحيتين الروحيةِ والثقافية، وأقنعوا الكثيرين منهم بأن تطوّر التعليم اللاهوتيّ في الغرب لا يتنافى والمعتقدَ الأرثوذكسيَّ التقليديّ.

وكان الرهبان المرسلون يطلبون الصلاحيّةَ الروحية إلى الاساقفة الأرثوذكس أنفسِهم. وفي غالب الأحيان كان الأساقفة والكهنة والمؤمنون يدعونهم من تلقاء ذواتهم الى القيام بالخدمة الدينية في الكنائس والخورنيّات الأرثوذكسيّة.

وقد أَبدى المرسلون إجمالاً – واليسوعيّون خصوصاً – رحابةَ صدر استطاعوا أن يكتسبوا بها عطف الإكليروس الشرقيّ. فقد كانوا يبدون للأساقفة والكهنة الاحترام والإجلال والثقة التامّة، وللشعب المسيحيّ المحبةَ الفائقة والتفانيَ المتواصل. وظهرت محبتهم المسيحية بنوع خاصّ في تأسيس المدارسِ والاعتناء بالمرضى، فمات الكثيرون منهم بمرض خفيّ كانوا يدعونه «الطاعون»

كل هذا قد أنعش في قلوب الناس فكرةَ الوحدة الدينية، وأثار فيهم الميلَ إلى الاتّحاد بكنيسة رومة.

موقف رومة من تقاليد الكنائس الكاثوليكيّة الناشئة وطقوسها

إن الطوائف الشرقية التي اتّحدت بكنيسة رومة ، لم تنكر من ماضيها إلا ما كان مخالفاً للمعتقد الكاثوليكيّ. فهي لم تتنكّر لتقاليدها وطقوسها وشرعها وتعاليمها الروحية. وقد تمَّ الاتحاد وَفْقَ قرارات مجمع فلورنسة (١٤٣٩) الذي اعترف بشخصيّة الطوائف الشرقيّة ، وأقرَّ حقوقَ بطاركتِها وامتيازاتهم.

وقد جدَّد هذه المقرّرات البابا بنديكتوسُ الرابعَ عشرَ في رسالته الخاصّة بالملكيّين ، سنة ١٧٤٣ ، «**لما قلّد الرب حقارتنا**»* منعَ بها الشرقيّين من انتحال الطقس اللاتينيّ.

غير ان المحافظة على التوازن بين الحقوق الشرقيّة القديمة ومتطلّبات القوى المركزية في رومة ، كان أمراً شاقًّا أثار في الكنيسة بعضَ المتاعب. فقد تربَّى العديد من رجال الإكليروس الشرقيّ الكاثوليكيّ تربيةً غربيةً ، ولم يفهم بعضُ الرهبان المرسلين أهميةَ التُراثِ الشرقيّ العريق ، وقام حتى في الدوائر الرومانيّة تيّاران متناقضان ، الواحدُ يحترم تقاليد الشرق ويدافع عنها ، والآخرُ يحاول دمج الطوائف الشرقيّة تدريجيًّا بالنظام الغربيّ العام. وقد انتصر التيّارُ المركزيّ أحياناً ، فاقتبست الكنيسة الشرقية الكثيرَ عن عادات الكنيسة الغربية ، كما حدث في الهند والحبشة.

وفي عهد البابا بيوس التاسع ، قويت في رومة النزعة المركزية الخاصّة بإدارة الكنيسة. فقد أصدر سنة ١٨٦٧ مرسوماً بمُناسبة ارتقاء المطران أنطونيوس حسّون إلى السُدة البطريركية الأرمنية ، يحصُر فيه انتخابَ البطريرك والأساقفة في يَدي البابا نفسِه. وطُبّق هذا المرسوم فعلاً في السنة التالية على الكلدان. ونتجَ عن تطبيقه اضطراباتٌ عنيفة في الأوساط الشعبية ، لم تنتهِ إلا باستقالة البطريركَين ، وببعض التنازل من قبل البابا.

وكان البابا ينوي تطبيقَ المرسوم على سائر الطوائف الشرقية الكاثوليكيّة لولا أنْ تدخَّل في الأمر بطريركا الرومِ الكاثوليك والموارنة.

وفي المجمع الفاتيكانيّ الاول (١٨٦٩ – ١٨٧٠) أبدى معظم الأساقفة الشرقيّين

---

* Demandatam

وُجهةَ نظرِ الكنائس الشرقيّة في عدم مناسبة تحديد عِصمة البابا، لئلاّ تتّسع شُقّةُ الخِلاف بينهم وبين الإخوة الأرثوذكسيّين. ولما أصرّت الاكثريةُ في المجمع على تحديدها، وافق على ذلك بطريركُ الروم الكاثوليك غريغوريوسُ يوسف ووقّعه مع هذه الزيادة التي اقتبسها عن نصّ مجمع فلورنسة «**مع المحافظة على حقوق البطاركة**».

ثم تطوّرت الأمور، فأظهر البابا لاون الثالثَ عشرَ تفهّماً أوسع لأوضاع الكنائس الشرقية. وكان المؤتمر القربانيّ المنعقد في القدس سنة **١٨٩٣** نقطةَ انطلاق في تغيير موقف رومة تجاه الشرق. لقد اتصل موفَدُ البابا في أثنائه بالأحبار الشرقيّين، واستمع إلى شَكاواهم ورغباتهم، ورفع الى البابا تقريراً عنها. فاستدعى البابا مَصافَّ البطاركة الى رومة، وتحدَّث إليهم مباشرةً، وتفهَّم أوضاع كنائسهم وأدرك مطاليبهم، وأصدر بعد هذا الاجتماع رسالته الشهيرة «**مَقامُ الشرقيّين**» بتاريخ ١٨٩٤/١٢/٦، أكّد فيها من جديد المحافظةَ على التُراث الشرقيّ النبيل، وفرضَ على المرسلين الغربيّين في الشرق احترامَ الطقوس والتقاليد والسُلطات الشرقيّة.

وواصل البابا بناديكتوسُ الخامسَ عشرَ السيرَ في هذا الاتّجاه القويم، وأسَّس في الأول من أيار ١٩١٧ «المجمع الشرقي»، وترأسه شخصيًّا (وقد وسَّع البابا بيوس الحادي عشر صلاحيّات المجمع (١٩٣٨)، فشمِلَ اللاتينَ المقيمين في الشرق) ثم أسَّس في ١٩١٧/١٠/١٥ المعهدَ العاليَ للدراسات الشرقية.

وشجَّع البابا بيوسُ الحادي عشرَ الغربيّين على الاطّلاع على الشرق والشرقيّين، وحرَّض بعض الرهبانيات الغربية على ممارسة فرائض الطقس الشرقيّ. وفي سنة **١٩٢٩** أمر بتشكيل لَجنة خاصّة لجمع مصادر الحقوق القانونية الشرقيّة، فأكد استقلالَ القوانين الشرقيّة عن الشّرْع الغربيّ.

وظهرت في عهد البابا بيوس الثاني عشر بعضُ أقسام الحقوق القانونية الشرقيّة، فوحَّدت بين مختلِفِ تشريعاتِ الطوائف الشرقيّة، إلا في بعض النِقاط الطفيفة.

وشكّل البابا بولس السادس لجنة لمتابعة العمل في التشريع الشرقيّ على ضوء مقرّرات المجمع الفاتيكاني الثاني. وانتهت الأعمال عام ١٩٩٠، ووقّع التشريع قداسة البابا يوحنا بولس الثاني في ١٨ تشرين الأوّل ١٩٩٠ بحضور البطاركة الشرقيين، وقدّمه رسميًّا

لأعضاء السينودس الروماني في جلسة ٢٥ تشرين الأوّل، على أن يدخل حيّز التنفيذ في ١ تشرين الأوّل ١٩٩١.

وقد لعبت الطوائفُ الشرقيّة في المجمع المسكونيّ دوراً هامًّا داخلَ «حركة التجديدات الطقسيّة» والمساعي في سبيل الوَحدة المسيحيّة. فازدادت أهميةُ هذه الكنائس في العالم المسيحيّ، لا سيَّمَا بعد أن استعاد الكاثوليك الشرقيّون حرّيتهم الدينية في روسيا ورومانيا عام ١٩٩٠.

الاستقلال السياسيّ وحريّةُ الكاثوليك

عانى الشرقيّون الكاثوليكيّون المتاعبَ الكثيرة بسبب انتسابهم إلى الكثلكة. فسَعت دولتا فرنسةَ والنمسة لدى البابِ العالي في أمر إعتاق الطوائف الكاثوليكيّة من تَبِعة الطوائف الأرثوذكسيّة، والاعتراف بها كطوائف مستقلّة. فأعتقها جميعَها سنة ١٨٣٠ أثناء المعاهدات التي تبعت حربَ تحرير اليونان، وجعل لها ممثّلاً واحداً لدى الحكومة العثمانية، وهو كاهن أرمني اتخذ لقب «بطريرك»، وأضحى البطاركةُ الكاثوليكيّون نُوّاباً له. هذه هي المرحلة الأولى لاستقلالهم. أما المرحلة الثانية، وهي اعترافُ الباب العالي برئاسة واستقلال كلٍّ من البطاركة على طائفته، فقد حدثت في مناسبات مختلفة نذكرها عندما ندرس تاريخ كل طائفة على حِدَة.

واتّفق أن دخل إبراهيم باشا إلى سورية (١٨٣١) فتحسّنت أحوال الطوائف الكاثوليكية، وتمكّن البطاركة والأساقفة من مغادرة ملجإهم في لبنان، والعودة إلى أبرشيّاتهم، لا سيّما في دمشق وحلب، كما استطاعوا تشييد الكنائس والكاتدرائيّات.

وعاد الآباء اليسوعيّون الى الشرق (كما أقبلت آنذاك البعثاتُ التبشيرية الأميركية) فانتعشت الطوائف الكاثوليكيّة وازدهرت.

تغيير أوضاع المسيحيّين

أوضاع المسيحيّين عامّة

كانت الدولة العثمانية تعامل المسيحيّين، كما يفرِض عليها الشَرعُ الإسلاميّ، معاملةَ أهل الذِمة. فلم تتدخَّل قطّ في شؤونهم الداخلية، وتركت لهم الحرية التامة في أمور دينهم وطوائفهم وأَنظمتهم الخاصّة.

وفي أواسط القرن التاسعَ عشر أَخذت الدولة تعتبرهم تدريجيًّا كمواطنين عاديّين، وأصدرت سلسلةً من الإصلاحات الملقّبة «بالتنظيمات» والرامية الى اللِحاق بالدول الغربيّة في مضمار التشريع والتعليم واستعمال الاختراعات العصريّة.

وأوّلُ هذه الإصلاحات مرسومُ قولخانة بتاريخ ١٨٣٩/١١/٣ المعروفُ بالخط الشريف، أصدره السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ - ١٨٦١) عندما تسلَّم زمام الحكم ونادى فيه بالمساواة بين جميع المواطنين، مسلمين كانوا أم غيرَ مسلمين. ثم أصدر مرسوماً آخر جليلَ الأهمية بتاريخ ١٨٥٦/٢/١٨ لا تزال بعضُ موادّه ساريةَ المفعول، ويعرف بالخطّ الهمايوني، أكَّد فيه السلطان من جديد المساواةَ بين جميع المواطنين، واحترامَ عقيدة النصارى وشعورهم الدينيّ، وحقوقَ البطاركة وامتيازاتهم. وبدأت الحكومة العثمانية آنذاك تهتمّ بشؤون الطوائف الداخلية، فوضعت لها قوانين منحَت العلمانيّين بموجبها دوراً هامًّا في إدارة الطائفة إلى جانب سلطة البطريرك. وقد أدّى تدخّلُ العلمانيين في الشؤون الطائفية الى تحقيق بعض الإصلاحات، كما أثار مشاكلَ كثيرة.

وفي ١٨٥٥/٥/٧ أُعفي النصارى من دفع الخراج والجزية، وكانوا يدفعونها منذ الفتح الاسلامي، وتقرَّرت مبدئيًّا إمكانيةُ قَبولهم في الجيش. ولم تحظَ هذه القرارات برضى الجميع، فاكتفت القيادة العثمانية بقَبول نَقد البدَل.

ولما تسلَّم الحُكم حزبُ تركيا الفتاة بعد إعلانِ الدستور ١٩٠٨/٧/٢٤ وعزَل السلطانَ عبد الحميد ١٩٠٩، أُلغي البدَل، ودُعي النصارى الى خدمة العلم. ثم تصلَّبت الحكومة تجاه النصارى وقامت بدعوة التتريك، وناهضت بها جميع العناصر غيرِ

التركية، وخصوصاً الأرمن واليونانيين، وكانوا أكثريات كثيفة في بعض مناطق الأناضول. ثم تسوَّت قضيتهم، فهجر كثير من الأرمن الأراضي التركية، وقامت اليونان وتركية بعملية تبادل السكان، فانتقل اليونانيون الى بلاد اليونان.

وتحسَّنت أوضاع المسيحيين قُبَيل الحرب العالمية الأولى وبعدها في لبنان ومصر أولاً، ثمّ في باقي البلاد العربية، فشعروا بأنهم مواطنون كسائر السكان، وساهموا في رُقيٍّ البلاد وبلوغ استقلالها الكامل، فشيَّدوا مئات المدارس على مختلف درجاتها، وجلبوا المطابع ونشروا كُبرَيات الصُحف والمجلات، وعكفوا على الكتابة والتأليف، وانتسبوا الى الجمعيات الوطنية لمقاومة العثمانيين، ودخلوا الأحزاب، وانضمّوا الى صفوف الجيش، وتسلَّموا الوظائف العالية في الدول العربية المستقلة، فكان بينهم الوزراءُ والقوادُ والزعماءُ والأدباء. واختلط المسيحيّون عامّةً بمواطنيهم المسلمين في جميع ميادين الحياة الفكرية والتجارية والصناعية والقوميّة، فعملوا بيد واحدة على تحرير البلاد العربية ودَعْم استقلالها ورَفْع مستوى الحياة فيها. فتهدَّمت الفوارق الدينية المصطنعة، وتساوى الجميع أمام القانون.

ولم ينسَ المغتربون النصارى أوطانهم العربية. فقد جلبوا إليها الأموال الطائلة، وأسَّسوا فيها الشركاتِ المتنوّعة، وكانوا صلة الوصل بين الشرق العربيّ ومختلف أقطار الدنيا.

أوضاع الكاثوليك خاصّة

ازدهرت الكنائس الكاثوليكيّة بعد انتهاء الاحتلال العثماني، فتعدَّدت المدارس العلمية والمهنيّة في مختلف أقطار البلاد العربية، وانتعشت المؤسّسات الاجتماعية من مستشفيات وملاجىء ومياتمَ، وازدهرت المشاريع الدينية والتربويّة من حركات كشفية ونَوادٍ ومنظّمات كاثوليكية، فنمَت الحياة المسيحية في القلوب رغم الصعوبات التي نجمت عن اقتحام المدنية العصرية ديارَ الشرق العربي، تلك المدنيةِ الملوّثة بالفساد والإلحاد.

ولا تزال هذه الكنائس، مع ارتباطها كلّها بكنيسة رومة، تعيش كلٌّ منها منفردة منعزلة، حسب أنظمتها الخاصة كما كانت في عهد العثمانيين. وهذه الانعزاليّة في الإدارة والتنظيم تثير الصعوبات العملية، وتكون مصدراً من مصادر الضعف في الكنيسة. وقد

شعرت كلٌّ من كنيسة رومة والطوائف الكاثوليكية بهذا التفكك الإداريّ، فأصدرت رومة تشريعًا كنسيًّا شرقيًّا موحَّدًا (إلا في بعض تفاصيل طفيفة) دخل حيِّز التنفيذ في ١ تشرين الأوّل ١٩٩١. وأخذت الطوائف نفسُها تتقرَّب بعضُها من بعض، وتنظّم مجالس لا طائفيّة للتداول في مختلف الأمور العامّة، على أساس القُطر الواحد، لا على أساس الطائفة المنعزلة، فزالت بعضُ الحدود التي كانت قائمة قديمًا. غير أن هذا التطوّر لم يتبلور بعدُ في صيغة قانونية إلزاميّة.

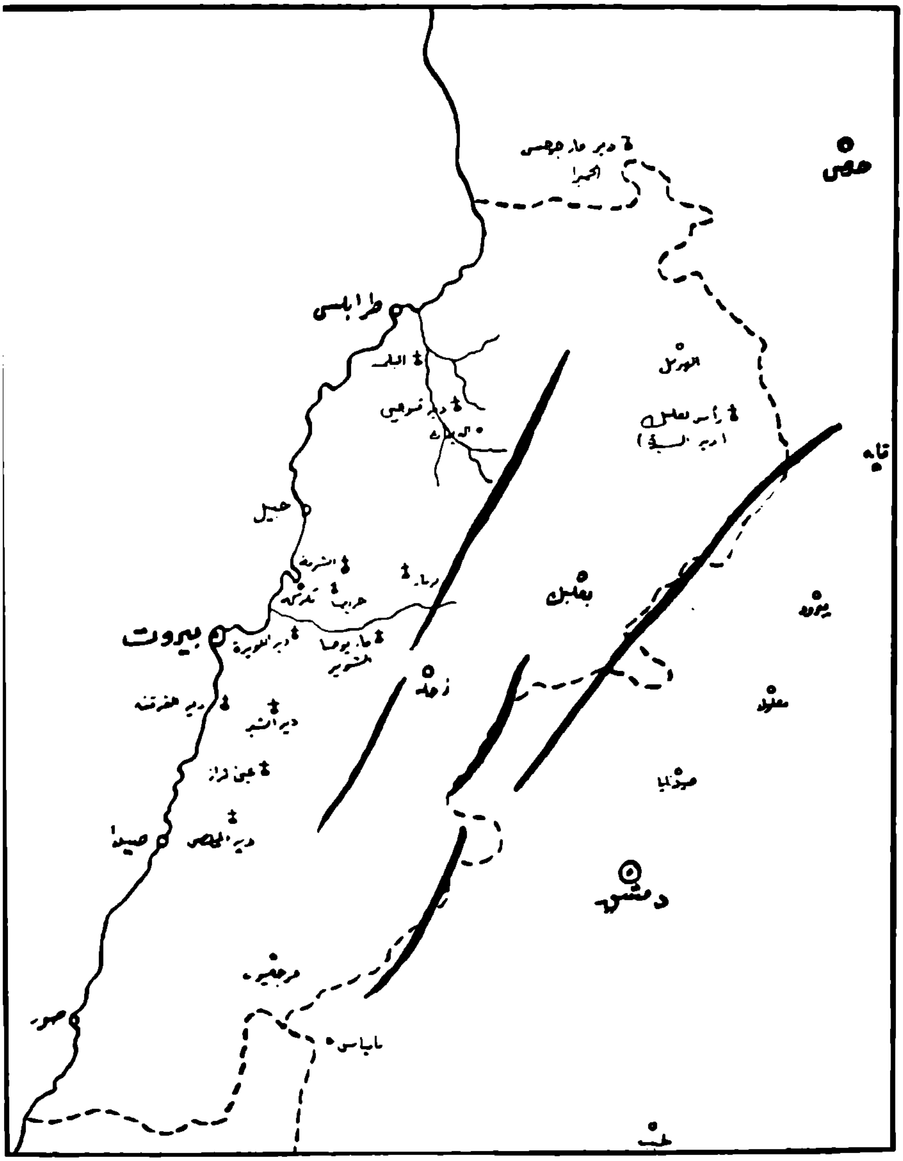
وهاجر كثيرون من مسيحيّي الشرق الى أوروبة وأمريكة، فقامت هناك جاليات كاثوليكية هامّة، وانتقلت معهم الطقوس الشرقية الى بلاد المهجر. وأُقيم للمغتربين نظامٌ خاصٌ من رعايا ونيابات أسقفية فأبرشيّات، وهدفُ الكنيسة في ذلك المحافظةُ على صَبغتهم الشرقية ومَنْعهم من أن يذوبوا في المجتمع الغربيّ اللاتينيّ.

وانتعشت الحركة المسكونيّة مؤخّراً، فأخذت الكنائس الكاثوليكيةُ تشعر بألم انفصالها عن شقيقاتها الأرثوذكسيّات، وتحسّ بأن لها دوراً هامًّا تقوم به بين العالمين الغربيّ والأرثوذكسيّ. فراحت تعمل على إزالة كلّ ما مِن شأنه أن يكون عقبةً في وجه الوحدة المسيحيّة الشاملة، فتمسّكت على السَواء بولائها التامّ للكرسيّ الرومانيّ، وحافظت على شخصيّتها الشرقية وتُراثها التّليد، لتكون صورة محبَّبة للوحدة المنشودة بين الشرق والغرب. وقد تجلّى دورها هذا أثناء المجمع المسكونيّ الفاتيكانيّ الثاني.

وقد انضمّت الكنائس الشرقية الكاثوليكيّة في الشرق العربي إلى مجلس كنائس الشرق الأوسط في عام ١٩٨٩ الذي كان يقتصر تأسيسه عام ١٩٧٤ على الإنجيليّين والأرثوذكس.

وسنستعرض في الفصول التالية تاريخ كلٍّ من الكنائس الكاثوليكية على حِدَة، مقتصرين بحثنا على كنائس الشرق العربيّ وملحقاتها، ومتناولين باقتضاب تاريخ الكنائس الأرثوذكسيّة غير البيزنطية التي انبثقت عنها.

أمّا الكنائس الكاثوليكيّة الشرقية في شرق أوروبة، وهي تتبع الطقس البيزنطيّ، فلها تاريخها الخاص. وكان معظمها يعيش في الخفية والاضطهاد تحت الأنظمة الشيوعية. واستعادت مؤخّرًا حرّيتها (١٩٨٩–١٩٩٠). وأهمّها الكنيسة الأوكرانية وكنيسة رومانيا. وهناك كنيسة بيزنطية منظّمة أيضاً في تشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا والمجر وبلغاريا واليونان وجنوب إيطاليا، ولا مجال لنا للتوسّع في نشأتها وتطوّراتها.



خريطة لبنان في القرن السابع عشر

الفصل السابع والعشرون

كنيسة الروم الملكيّين الكاثوليك

أخذت الكنيسةُ الملكيةُ بعدَ الفتح العثمانيِّ تتجاذبُها العواصمُ المسيحيةُ الثلاث، ألا وهي رومةُ والقسطنطينيةُ وموسكو. وقام بين المؤمنين تيّارانِ متضاربان، الواحدُ يناصر رومةَ وتعاليمَها اللاهوتية، والآخرُ يعارض رومةَ ويجاري البطاركَة اليونانيّين.

وحاول البطاركةُ الملكيّون فترةً من الوقت، أن يحافظوا على ولائهم لرومة دون أن يقطعوا روابطَ المودّةِ مع البطاركة اليونانيّين الأرثوذكسيّين. ولكن لم يكن بإمكان هذه الحالةِ ان تدوم طويلاً، فقد أرغمهم البطاركةُ اليونانيون على شَجْبِ آراء اللاتين شَجْباً علنيًّا، كما فرضَت رومةُ على أنصارها عدمَ الاشتراك مع الأرثوذكسيّين في الحفلات الكنسية، والامتناعَ عن قَبول الأسرار المقدسة من أيدي كهنتهم. فانقسم الملكيون من جَراء ذلك الى فئتين، أصبح لكلٍّ منها بطريركُها وأساقفتُها، فئةٍ جاهرت بالاتحاد مع كنيسة رومة، وحافظت قَدْرَ المستطاع على التقاليد الشرقيّة، فدعيت بـ «**طائفة الروم الكاثوليك**» وفئةٍ رفضت الاتحادَ وتقرَّبت أكثرَ من ذي قبل إلى البطاركة اليونانيّين، واعتنقت آراءَهم اللاهوتية، ودعيت بـ «**طائفة الروم الأرثوذكس**». وها نحن نتحدّث الآنَ عن طائفة الروم الكاثوليك، وقد استعرضنا أحوال الشطرِ الأرثوذكسيِّ في الفصل الخامس والعشرين.

ويُقسمُ تاريخُ هذا العصر من الوُجهةِ الكاثوليكية الى ثلاثِ حقَب :

١ – **من الفتح العثماني حتى عام ١٧٢٤**، وفي هذه الحقبة نما الإيمانُ الكاثوليكي ؛ ولكنّ الكاثوليك لم يكونوا يؤلّفون فئةً خاصّة، وكان الملكيّون جميعُهم كنيسةً واحدة.

٢ – **من عام ١٧٢٤ حتى عام ١٨٣٣** وفيها استقلَّ الملكيّون الكاثوليك عن الملكيّين الأرثوذكس استقلالاً كنسيًّا، ولكنهم ظلّوا يؤلّفون في نظر الحكومة العثمانية طائفةً واحدة.

٣ – **من عام ١٨٣٣ حتى اليوم**، وفيها استقلَّ الرومُ الكاثوليك عن الروم الأرثوذكس استقلالاً سياسيًّا، وتمكّنوا من النموِّ والازدهار.

١ - من الفتح العثمانيّ حتى عام ١٧٢٤

لم يقُم بين الملكيّين وروماَ خلافاتٌ دينية وجدالاتٌ عقائدية كالتي قامت بين روماَ واليونانيين. وقد قبِل الملكيّون بفرح إعلانَ الوحدة عقِبَ مجمع فلورنسة. إلّا أن علاقاتِهم الكنسيةَ المتواصلة بالقسطنطينية وبالبطاركةِ اليونانيين، قد أرغمتهم على مُجاراة الكنيسة الأرثوذكسيّة اليونانية في موقفها تجاهَ اللاتين، كما سايروها في الطقوس والتشريع الكنسيّ.

وما إن أطلَّ القرنُ السادسَ عشرَ حتى بدأت عواملُ جديدة تؤثّر في الملكيّين، فحملتهم على اتّخاذ موقف مستقلّ عن البطاركة اليونانيّين، وإعادة النظر في شَجْب اللاهوت اللاتينيّ جملةً. وأهمّ هذه العوامل هي اتصالاتُهم المتواترةُ بجيرانهم الموارنة الذين مكّنوا علاقاتِهم بكنيسة رومة، والدِراساتُ اللاهوتية التي كان أفراد الإكليروس الشباب يقومون بها في مدارس روماَ للشرقيين، والوفودُ التي كان البابوات يرسلونها الى الشرق لإعادة صِلات الوحدة الى ما كانت عليه آنفاً.

وبقيت عواملُ الاتحاد ضعيفةً الى أن استقرَّ المرسلون الغربيّون في حلب سنة ١٦٢٥ في عهد أسقفها الشهير ملاتيوس كرمه. وانتشروا منها الى دمشقَ وصيدا وطرابلس وجبلِ لبنان، فنشأ بتأثيرهم جيلٌ جديد مقتنع بضرورة إعادة الوحدة الكنسية مع رومة. وأشهرُ دُعاةِ الوحدة بين الملكيّين أنفسهم المطرانُ أفتيميوسُ صيفي، رئيسُ أساقفة صورَ وصيدا، والرهبانُ المخلصيّون والشويريّون الذين تأسّست رهبانيّتهم في هذا العهد. أمّا البطاركة فلم يتخذوا مثلَ هذا الموقفِ الصريح، بل حاولوا كسبَ وُدِّ رومة والقسطنطينية على السَواء. فقاوموا الكثلكةَ تارةً وتغاضَوا عنها طَوراً، حتى اشتدَّ أَزْرُ المعتقدِ الكاثوليكيّ، وكادت الطائفة بجُملتها تصبح كاثوليكيةً لولا رَدُّ فعلِ البطاركة اليونانيّين الذين وقفوا في وجه الكثلكة موقفاً متصلّباً، فانقسمت الطائفةُ شطرين، وخرج الرومُ الكاثوليكُ من العالم المسيحيّ الارثوذكسيّ، فتجمّدت حركةُ التقارب بين الشرق والغرب، تلك الحركةُ التي ظهرت في القرن السادسَ عشر.

بطاركةُ هذا العصر

البطريرك دورثاوس الثالث (١٥٤١ – ١٥٤٣): تداول مع بطريرك الموارنة موسى العكّاري، واتفق معه على ان يؤلّفَ الملكيّون والموارنةُ جماعةً واحدة، فيقومَ الكهنة الملكيّون بخدمة الموارنة، كما يقوم الكهنة الموارنة بخدمة الملكيّين. وسمحا بالتزاوج بين الطائفتين على أن تبقى الطقوسُ دون تغيير. غير أن البطريرك القسطنطينيَّ إرميا عقد مجمعاً في القدس مع بطريركَي الإسكندريةِ والقدس وعزلوا دورثاوس عن مَنصبه.

البطريرك يواكيم الرابع بنُ جُمعة (١٥٤٣ – ١٥٧٦): كان يناصر الاتحاد بكنيسة رومة، وأصدر سنة ١٥٦٠ منشوراً راعَوِيًّا منعَ فيه وصفَ اللاتين «بالهراطقة» كما منع الطعنَ في قداسة البابا.

البطريرك ميخائيل السابع الصباغ (١٥٧٧ – ١٥٨١): اتّصل به ليوناردو، موفَدُ البابا في حلب، فقدَّم إليه البطريرك ميخائيل صورةَ إيمانه الكاثوليكيّ، وكان آنذاك مستقيلاً. وعقد ليوناردو مع **البطريركِ يواكيمَ الخامس ضوّ** (١٥٨٠ – ١٥٩٢) اجتماعاً في دمشق، وحرَّضه على قَبول مقرَّرات مجمع فلورنسة والتقويمِ الغريغوريّ، فاعتذر يواكيم، وأكّد أنه لا يمكنه البتُّ في هذه الامور، قبل الاتفاق مع بطريركَيِ القسطنطينيةِ والإسكندرية.

وفي عهد **البطاركة يواكيمَ السادس بن زيادة** (١٥٩٣ – ١٦٠٤) **ودورثاوسَ الرابعِ ابن الأحمر** (١٦٠٤ – ١٦١١) **وأثناسيوسَ الثاني الدباس** (١٦١٢ – ١٦٢٠) **وأغناطيوسَ الثالثِ عطيّة** (١٦٢٠ – ١٦٣٤) قوِيت فكرةُ الاتحاد برومة وتمكّنت.

البطريرك أفتيميوسُ كرمه (١٦٣٤ – ١٦٣٥): هو من أعظم أحبار الطائفة في عصرها الحديث، وقد أظهر بصراحة إيمانه الكاثوليكيّ. ولد في حماه سنة ١٥٧٢، وترهَّب سنتين في دير القديسِ سابا قرب القدس، وعاد إلى وطنه، فقبل الرسامة الكهنوتية، فاكتسب بعلمه وفضيلته محبةَ الجميع واحترامَهم. وجاء الى حلب فانتخبه الملكيّون فيها أسقفاً عليهم، وقبِلَ الرسامةَ الأسقفية في ١٢ شباط ١٦١٢ باسم ملاتيوس، وبقِيَ أسقفاً على حلب حتى سنة ١٦٣٤، واهتمَّ كلَّ الاهتمام بأبناء رعيّته، وكان مثالاً للتجرّد والغَيرة الرسولية، فجدَّد في المدينة الحياةَ الروحية. وعُنِيَ بتصحيح ترجمة الكتب

الطقسية ، وأرسل مخطوطاتها لتطبع في رومة في مطبعة انتشار الايمان. ولم تظهر النسخاتُ المطبوعة إلا بعدَ وفاته بمدة طويلة. ولما كان أسقفاً على حلب ، أقبل إليها المرسلون الغربيّون من يسوعيّين وكبّوشيين وكرمليّين فأحسن استقبالهم. وساعد كثيراً الأب كيروت* اليسوعي في مهمّته الدينية ، وعَهد إليه تثقيفَ الإكليريكيين في الدار المطرانية. وكان الأب المذكور يأكل على مائدة الأسقف ، ويتعجب من كثرة تقشّفاته. ولما تُوفي البطريرك أغناطيوس الثالثُ عطيّة سنة ١٦٣٤ ، انتُخب مكانه بطريركاً باسم أفتيميوس ، فأرسل الى رومة الكاهنَ باخوميوس لعقد الاتحاد بالكنيسة الرومانية ، ولكنه مات قبل عودةِ باخوميوس ، فلم تطُل بطريركيتُه أكثر من ٧ أشهر.

البطريركُ أفتيميوس الثالثُ الصاقزي (١٦٣٥ - ١٦٤٧) : وهو يونانيٌّ الأصل من جزيرة صاقز أوشيّو ، وكان تلميذاً لسلفِه أفتيميوس كرمه. وشهدَ له المرسلون بانه كان يميل الى الكثلكة ويؤيّدُها ، ولكنه لم يُفصح عن ميله هذا كسَلفِه. وقد أتى بالأب كيروت اليسوعيّ إلى دمشق عام ١٦٤٣ ، ففتح فيها مدرسةً لأولاد طائفة الروم.

البطريرك مكاريوسُ زعيم (١٦٤٧ - ١٦٧٢) : كان في بادىء الأمر كاثوليكياً في الباطن ، وقد ساهم في تنصيب البطريرك السُرِيانيّ الكاثوليكيّ أندراوسَ أخيجان ، وأظهر آنذاك في خطاباته وفي رسالة بعَثَ بها الى الحبر الأعظم رغبتَه في الاتحاد. ولما سافر للمرة الثانية الى روسيّا تغيَّر موقفُه تماماً تجاه الكاثوليك.

البطريركُ كيرلسُ الخامسُ زعيم (١٦٧٢ - ١٧٢٠) : أراد أن يكتسب صداقةَ رومةَ والقسطنطينية ، فأرسل صورة إيمانه الكاثوليكيّ إلى رومةَ سرًّا دون علم البطاركة اليونانيّين ، وقرَّر أن يحافظ على شركتهم الروحية ورضاهم خوفاً على منصبه البطريركيّ ، فرسمَ للأبرشيّات الشاغرة أساقفةً يونانيين.

البطريركُ أثناسيوسُ الثالثُ الدبّاس (١٧٢٠ - ١٧٢٤) : كان حائراً أكثر من سلفه بين الأرثوذكسيّة والكثلكة. وفي ايامه ازدهرت الكثلكةُ وقويت في حلب. قام برحلات كثيرة الى رومانية ، وطبع هناك باللغة العربية للمرة الاولى كتابَ الفرضِ الالهيّ ، وكتابَ

---

* Queyrot

القداس، وأتى الى حلب بأولِ مطبعةٍ عربيّة سنة ١٧٠٦. وأرسلَ إلى رومة صورةَ إيمانه الكاثوليكي؛ إلّا أن اتصالاتهِ بأمراء رومانية وباليونان أضعفت فيه المعتقدَ الكاثوليكي. ولا تزال الآراء متضاربةً حول حقيقة إيمانه. وفي عهده دُعيت جماعةُ الروم المنضمّين جَهْراً الى الكنيسة الرومانية «بطائفة الروم الكاثوليك».

الرهبانيّتان الجديدتان

اتسعت الحركة الكاثوليكية في عهد هؤلاء البطاركة، ولا سيّما في حلب ودمشق. وقامت الى جانب الرهبان المرسلين رهبانيّتان شرقيّتان تَـدْعوان هما أيضاً الى الوحدة، لا بل كانتا أكبرَ دِعامة لنشر الايمان الكاثوليكيّ وتنصيبِ أساقفة كاثوليكيّين مخْلصين. وكان لحلبَ فضلُ تأسيس الرهبانية الشويرية، كما يعود للدمشقيّين تأسيسُ الرهبانية المخلّصية.

الرهبانيةُ الشويرية: نشأ في حلبَ في آخر القرن السابعَ عشر طغمةٌ من الشباب الكاثوليكيّين الذين امتازوا بالفضيلة والتقوى، فاقتبسوا العلومَ الدينية عن الأب بطرسَ التولوي المارونيّ والايكونوموسِ ميخائيل بجع الملكيِّ الحلبيِ الكاثوليكيّ، وتضلّعوا في العلوم اللغوية العربية عن الشيخ سليمانَ النحويّ، فأنعش فريق منهم الحياةَ الرهبانية في الطوائف الأربع الملكية والمارونية والأرمنية والسريانيّة في عصر واحد.

لم يكن للشبان الملكيّين في بادىء الأمر فكرةُ تأسيس رهبانيّة جديدة، بل تركوا حلبَ ودخلوا ديرَ سيدةِ البلمند قربَ طرابلس، وترهَّبوا فيه. ثم تاقت نفوسُهم إلى حياة أفضل، فغادروا الدير سنة ١٧١٠، وانطلقوا الى قرية الشوير في المتن من أعمال لبنان، وأصلحوا دير مار يوحنا المعمدان، وسكنوه وأسَّسوا الرهبانية الباسيليّة الشويرية. ومن أشهر رهبانها الخوري جرجسُ عرجان الذي أصبح في ما بعد أسقفَ حلب باسم جراسيموس، والخوري ميخائيل حكيم الذي أضحى مطرانَ حلب، ثم بطريركاً باسم مكسيموس، والخوري نقولاوسُ الصايغ الذي يعتبر مؤسِساً ثانياً للرهبانية الشويرية لأنه نظَّمها وبناها روحيًّا وماديًّا، وبثَّ فيها الروحَ الطيبة مدة رئاسته التي دامت أكثرَ من سبعة وعشرين عاماً، وتوفي سنة ١٧٥٦. وقد اشتهر معه الشماسُ عبدُالله زاخر الذي كان

نابغةَ زمانه، وقد قيل عنه «إنه ملأ الشرقَ الأدنى طوالَ أربعين سنة جدلاً ونقاشاً، مَنطِقاً ولاهوتاً، وتقشّفاً وإشعاعاً روحياً، تأليفاً وتعريفاً، رسماً وحفراً وطباعة، علماً وعملاً لمجد الله وخيرِ القريب». وقد توفي سنة ١٧٤٨

وفي سنة ١٨٢٦ انقسمت الرهبانيةُ الشويريةُ الى فرعَين، فرع **الحلبيّين** وفرعِ **البلديّين**. فأصلحَ الأميرُ بشيرٌ الشهابي بين الطرفين المتنازعين. وانقسمت مرةً ثانية سنة ١٨٢٩، وكان انقسامها نهائياً فاعترفت به رومةُ سنة ١٨٣٨. واتخذ البلديّون مقرًّا لهم ديرَ مار يوحنا المعمدان في الشوير، وسكن **الحلبيّون** ديرَ الشيرِ بمكّين قربَ عاليه.

الرهبانية المخلصيّة: أسَّس هذه الرهبانيةَ أفتيميوسُ صيفي مطرانُ صور وصيدا. ولد أفتيميوس في دمشق سنة ١٦٤٣ وكان كاثوليكياً صميماً فقبلَ الرسامةَ الأسقفية من يدَي البطريركِ كيرلسَ الخامسِ الزعيم عام ١٦٨٢. وجمع نُخبةً من الشُبان الأتقياء، ودرَّبهم بنفسه على ممارسة الحياةَ الرهبانية. ثم أرسلهم الى القُرى المجاورة داخلَ أبرشيته وخارجَها، ليعظوا الناسَ بالايمان الكاثوليكي. وكان الحبرُ الأعظم قد عيَّنه مدبّراً رسولياً على جميع الروم الكاثوليك في البطريركية الأنطاكية، حيث لم يكن أسقفٌ كاثوليكي.

ولما كثُر عددُ هؤلاءِ الشبانِ المترهّبين وضاقت بهم دارُ المطران في صيدا، بنى لهم سنة ١٧١١ ديرَ المخلّص بقرب جون على مسافة ١٦ كيلومتراً الى الشمال الشرقيّ من صيدا. فكان هذا الديرُ مهدَ الرهبانيةِ الباسيلية المخلصية. ولما توفي مؤسّسها المطرانُ أفتيميوس صيفي سنة ١٧٢٣ تولّى منصبَ الرئاسة العامة الأبُ ميخائيل العجيمي، وجُدّدت رئاسته ثلاثَ مرات، وقد سعى سعياً حثيثاً أثناء رئاسته لأجل اتحاد الرهبانيتين المخلصيةِ والشويرية فلم يُفلح في مَسعاه. وتوفي سنة ١٧٦٣. وامتدَّ عملُ الرهبان المخلصيّين الى أبرشية صورَ وصيدا وبلادِ الجليل ودمشقَ وصيدنايا. وكان أشهر الرهبان المرسلين الأبَ ساروفيم طاناس وجبرائيلَ فينان.

وتأسَّس لكل من الشويريّين والمخلصيين **فرعٌ من الراهبات**. وقد انقسمت الراهباتُ الشويريات أيضاً الى حلبيّاتٍ وبلديّات.

أوضاع الكثلكة عام ١٧٢٤

لما توفي البطريرك أثناسيوسُ الثالثُ دبّاس (١٧٢٠ ـ ١٧٢٤) آخرُ بطريركٍ مشترك بين الكاثوليك والارثوذكس، كان الروم الكاثوليكُ يشكلون عدداً لا يستهان به في أبرشيات بيروت وطرابلسَ وحمصَ واللاذقية. وفي دمشق وصيدنايا وجبالِ القلمون وحوران وبعلبك كانوا الأكثريةَ الساحقة. وأما في أبرشيتي حلب وصيدا فكانوا الكلَّ في الكل إلا ما ندر. وقد جاهر بالكثلكة عدةُ أساقفة ولا سيّما أساقفةِ صيدا وحلب وصيدنايا، وبقي الإيمان الكاثوليكيّ في الطائفة رغمَ الحملة العنيفة التي شنَّها البطاركةُ اليونانيّون بعد أثناسيوس دباس، وقد أدّت الى شَطر الطائفة شطرين.

من عام ١٧٢٤ الى عام ١٨٣٣

إنقسام الطائفة الى شطرين

لما مات أثناسيوسُ الثالث دبّاس سنة ١٧٢٤ عزمَ الرومُ الكاثوليك في دمشق على أن يقيموا بطريركاً كاثوليكياً لا يخشى المجاهرةَ بمعتقده. فوقع اختيارهم على الخوري ساروفيم طاناس، وهو ابنُ أختِ المتروبوليت افتيميوس صيفي، وقد درس في مدرسة انتشار الايمان برومة. فقبل الرسامةَ الأسقفية في كاتدرائية دمشق في ٢٠ ايلول ١٧٢٤، واتخذ اسمَ كيرلّسَ السادس.

وقد بادر الدمشقيون الى انتخابه ورسامته، لأنهم كانوا يعلمون أن البطريرك أثناسيوس الدباس قد رشّح قبل وفاته خَلَفاً له شماسَه ونسيبَه سلفستروسَ القبرصيّ الأرثوذكسي، وأوصى به الحلبيين. وقبلَ سلفستروسُ الرسامة الأسقفية في القسطنطينية في ٢٧ أيلول سنة ١٧٢٤ ونال براءةً سلطانيّة تعترف به بطريركاً أنطاكياً. وارتاح الحلبيّون مع بعض الرهبان المرسلين الى انتخابه، ولاموا تسرّعَ الدمشقيّين. ولكنهم ما عتّموا أن غيّروا رأيهم فيه لما عرفوا نواياه

أما البطريركُ كيرلس طاناس (١٧٢٤ - ١٧٥٩) فلما علم بانتخاب سلفستروس وبأوامر القبضِ عليه التجأ الى لبنان، وأقام في دير المخلص تحت حماية الأميرِ حيدر شهاب وكبيرِ مشايخ الدروز. وأقبل البطريركُ سلفستروس سنة ١٧٢٥ الى سورية واستولى على الكنائس والأوقاف والمدارس. وانقسمت الطائفة الى شطرين، شطرٍ مال الى كيرلسَ الكاثوليكيّ وشطرٍ تبعَ سلفستروسَ الأرثوذكسيّ. ولا يزال هذا الانقسامُ حتى اليوم يفصل الطائفة الملكية الى قسمين.

وتشرَّد الأساقفة الكاثوليك، واستعاض البطريرك سلفستروس عنهم بأساقفة أرثوذكسيّين، فقضوا على الكثلكة في أبرشيات حمص وطرابلس واللاذقيةِ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يزيلوها من حلب ودمشقَ وبعلبكّ وصيدا وبيروت. والتجأ أساقفةُ حلب الكاثوليك الى لبنان، ولم تتوسّع الكثلكةُ في ذلك العصر إلّا في الجليل، حيث كان الحكمُ

بيدي الشيخ ظاهر عمر الزيدانيّ المستقلّ عن العثمانيين والمحامي عن الكاثوليك (١٧٥٠ – ١٧٧٥). وهاجر الكثيرون من كاثوليك دمشق وحلب الى مصر هرباً من تسلّط الأساقفة اليونانيين وتعسّفهم. واشتدَّ الاضطهاد على الكاثوليك في حلب عام ١٨١٨ وقُتل عشرةٌ منهم، واضطُرّ كهنتهم الى الهرب حتى عام ١٨٢٥، فاهتمَّ الكهنة الموارنة بخدمة الروم الكاثوليك.

البطاركة الكاثوليك

البطريرك كيرلس طاناس: لما كان في لبنان صدر سنة ١٧٢٩ حكمُ رومةَ بتثبيته بطريركاً شرعيًّا، وصدرت مع مرسوم التثبيت مراسيمُ أخرى أهمُّها منعُ الكاثوليك من الاشتراك مع الأرثوذكس في القدسيّات. وفي سنة ١٧٤٣ أصدر البابا بندكتسُ الرابعَ عشر براءته الرسولية الشهيرة «لما قلّد الرب حقارتنا» * التي جعلها «سياجًا لكَرمة كنيسة الروم الملكية، بل سياجاً متيناً لكرامتها، يمنع عنها تعدّيَ مَن كانت نفوسُهم تسوّلُ لهم التعديَ عليها وعلى حقوقها، لاعتبارهم أنها مستضعَفة مضطهَدة» فكان لها صدًى بعيدٌ في قلوب أبناء الطائفة، ففرحوا بها فرحاً عظيماً. وعقد البطريرك طاناس ثلاثةَ مجامع لتنظيم شؤون طائفته، وتوفي سنة ١٧٥٩

وارتقى بعده السُدّةَ البطريركية الكاثوليكية سنة ١٧٦٠ **البطريركُ مكسيموس الثاني حكيم** (١٧٦٠ – ١٧٦١) وكان مكسيموس رئيساً عاماً على الرهبانية الشويرية، ثم رئيسَ أساقفة حلب سنة ١٧٣٢، وهو الذي ألّف خدمةَ عيدِ الجسد الإلهيّ وأمر بإقامة هذا العيد.

وخلفه **البطريركُ ثاودوسيوسُ الخامس الدهّان** (١٧٦١ – ١٧٨٨) وقد فوَّض إليه البابا في ١٣ تموز ١٧٧٢ سياسةَ جميع الروم الملكيين الكاثوليك القاطنين في بطريركيّتَي الإسكندريةِ والقدس.

وانتُخب بعده **أثناسيوسُ الرابع جوهر** (١٧٨٨ – ١٧٩٤) بطريركاً على الطائفة

---

* Demandatam

الملكية. فعقد سنة ١٧٩٠ مجمعاً في دير المخلص، وهو المجمعُ الطائني الرابع، فأصدر عدة قوانين منها أنه رفع أسقفيةَ حلب الى مَقام «المتروبوليتيّة».

وارتقى السُدّةَ البطريركيةَ بعده **كيرلسُ سياج** (١٧٩٤ - ١٧٩٦) وكان راهباً مخلصياً، ثم رئيسَ أساقفة حوران شرفاً (١٧٦٣)، وتوفي في ٢٦ تموز ١٧٩٦ «وكان مزداناً بالاتضاع والاستقامة وحُسن الطَويّة».

وخلفه **أغابيوسُ الثاني مطر** (١٧٩٦ - ١٨١٢) وكان راهباً مخلصياً. وقد سافر الى أوروبة يوم كان مدبّراً للرهبانية ليجمع الإعانات اللازمة لإصلاح حالة الأديار التي نهبتها سنة ١٧٧٧ جنودُ الجزّار والي عكا. واشترى أثناء بطريركيته سنة ١٨١١ داراً واسعة في عين تراز، وجعلها مدرسة إكليريكية. وقد اشتهر في عهده المطرانُ جرمانوس آدم متروبوليتُ حلب (١٧٧٧ - ١٨٠٩) بتآليفه اللاهوتية وكتاباته الكثيرة. وقد شذَّ في بعضها ومالَ الى المبادىء اللاهوتية المتطرّفة المعروفة بالتعاليم الغاليكانية، وقد اقتبسها عن أقوال مطران مدينة بستوا (بإيطالية)

وفي مطلع القرن التاسعَ عشرَ كان البطاركةُ الثلاثةُ من الرهبان. فقد كان **أغناطيوس الرابع صرّوف** (١٨١٢) شويرياً، **وأثناسيوسُ الخامس مطر** (١٨١٣) **ومكاريوس طويل** (١٨١٣ - ١٨١٥) من الرهبانية المخلصيّة.

وفي آخر عهد **البطريركِ أغناطيوسَ الخامس القطّان** (١٨١٦ - ١٨٣٣) تقهقرت أحوال البطريركية بسبب عجزه وعماه. وكان كاتبه الشيخ ناصيف اليازجي.

من سنة ١٨٣٣ الى يومنا هذا

مكسيموس مظلوم محرّرُ الطائفة الملكية

ارتقى السدةَ البطريركية بعد أغناطيوسَ الخامسِ القطّان **البطريركُ مكسيموسُ الثالث مظلوم** (١٨٣٣ - ١٨٥٥) وهو الذي حرَّر الطائفةَ الملكية الكاثوليكية من تَبِعة الطائفة الأرثوذكسية.



البطريرك مكسيموس مظلوم

الأسقف: هو حلبيّ الأصل، ومن تلاميذ المتروبوليتِ جرمانوسَ آدم (١٧٧٧ – ١٨٠٩) وقد رقّاه الى الدرجة الاسقفية سنة ١٨١٠ البطريركُ أغابيوس مطر فلم ترضَ به في حلب الفئةُ التي كانت تقاوم تعاليمَ آدم، ورفعت قضيتَه الى الدوائر الرومانية، فلم يستطع أن يتسلّمَ زِمامَ أبرشيته فعيَّنه البطريرك أثناسيوس مطر وكيلاً له في رومة. فتوجَّه إليها سنة ١٨١٣ وبقي في أوروبة حتى سنة ١٨٣١ أي ثمانيَ عشْرةَ سنة، أسَّس خلالها خورنية مرسيلية الملكية (١٨٢٠)

ولما كان البطاركة الكاثوليك يرغبون في عودة الرهبان اليسوعيّين الى الشرق، عرَض المطران مكسيموس مظلوم على مجمع انتشار الايمان أن يرافقهم الى سورية، فرضي بذلك البابا غريغوريوس السادسَ عشر. فسافر مكسيموس مع ثلاثة رهبان يسوعيين، ووصل الى بيروت في ١٣ تشرين الثاني ١٨٣١، واهتمَّ فوراً بتنظيم مدرسة عين تراز الإكليريكية، وبقي فيها اليسوعيون مدة من الزمن ثم غادروها الى بكفيّا.

البطريرك: وتوفي البطريركُ أغناطيوس القطان في ١٣ آذار ١٨٣٣ فعقد الأساقفة مجمعاً في دير الشير لانتخاب خلَفِه. وتوجَّهت إليه أبصار الجميع، فانتخبوه بطريركاً في ٢٤ آذار ١٨٣٣، واعترف البابا ببطريركيته سنة ١٨٣٦

أعماله الاولى: وباشر البطريركُ مكسيموس فوراً أعمالَه الرسولية. كانت سورية خاضعةً لحكم المصريين، فاغتنم هذه الفرصةَ، ودخل دمشق في ٤ نيسان ١٨٣٤ دخولاً رسمياً. ثم سافر الى حَوران فرسم لهذه الأبرشية أسقفاً، وانقلب الى عين تراز وعقد في مدرستها الإكليريكية مجمعاً (٣ – ١٨ كانون الاول ١٨٣٥) اهتمَّ بشؤون أبرشية ديار بكر وأحوالِ الروم الملكيّين القاطنين في مصر.

وسافر الى مصر سنة ١٨٣٦، واهتمَّ بأوضاع الطائفة فيها حتى سنة ١٨٤٠. ولما استعدّ للعودة الى سورية قامت الثورةُ على المصريّين، فغادر مصر متوجّهاً الى أوروبة ليبقى محايداً بين إبراهيم باشا والسلطانِ عبد المجيد. وبقي في أوروبة حتى سنة ١٨٤١ ثم جاء الى القسطنطينية.

لقبُه الجديد: كانت أحوالُ الطوائف الكاثوليكيّة قد تحسَّنت كثيراً بعد أن أعتقَها السلطانُ محمودٌ الثاني سنة ١٨٣٠ من تَبِعة الطوائف الأرثوذكسيّة. وفي سنة ١٨٣٧

حصل البطريرك مكسيموس وهو في مصر على براءة شريفة من السلطان محمود بتسميته رئيساً على البطريركيّات الملكيّة الثلاث ، فطلب الى البابا غريغوريوسَ السادسَ عشر أن يمنحه لقب «بطريرك الكنيسة الرومية الملكية الكاثوليكية» فمنحه البابا سنة ١٨٣٨ إنعاماً شخصيًّا وهو لقب «بطريرك إنطاكية والإسكندريّة وأورشليم».

قضيّةُ القلنْسُوةَ : وما تحرَّر كهنةُ الروم الكاثوليك ، حتى أخذوا يلبسون القَلَنسوة الشرقيةَ ولم يكونوا يلبسونها من قبلُ إلا في لبنان. وقامت بين الروم الكاثوليك والروم الارثوذكس بشأن لبس القَلَنْسُوَة مجادلةٌ طويلة ، تدخّلت فيها دولتا فرنسةَ وروسية. فكانت فرنسةُ تدافع عن الكاثوليك ، وروسية تحامي عن الأرثوذكس ، والبابُ العالي يصدر الفرامانات المتناقضة تحت تأثير كلٍّ من هاتين الدولتين. وأخيراً توصّل البطريركُ بعد إقامة مدةِ ستّ سنوات ونيّفٍ في القسطنطينية (من آب ١٨٤١ حتى آذار ١٨٤٨) الى أن يستعمل الكاثوليكُ القلنسوة الشرقية شريطةَ أن تكون مسدَّسةَ الزوايا بنفسجيةَ اللون.

تحرير الطائفة : وفي اثناء هذه المدة سعى لدى الحكومة العثمانية في أمر تحريره من سلطة «الكاهن البطريرك» المدنيّ الأرمني ، والحصول على الحقوق والامتيازات نفسِها التي كان بطريركُ القسطنطينية الأرثوذكسيُّ يتمتّع بها. فنال من السلطان عبدِ المجيد في ٧ كانون الثاني ١٨٤٨ براءةً تعترف بسلطته المدنية على الروم الكاثوليك. فتحرَّرت الطائفة تحريراً مُطلقاً من كل سلطة خارجية. فبنى في القسطنطينية كنيسةً وأقام فيها نائباً بطريركياً يمثله لدى الباب العالي.

أعماله الأخيرة : وقدِمَ إلى بيروت في شهر آذار ١٨٤٨ ، فاستقبله فيها أبناءُ طائفته بحماسة بالغة. وأراد أن ينظّم أوضاع طائفته الداخلية ، فعقد في القدس مجمعاً سنة ١٨٤٩ ، وكان من قبلُ قد أمرَ ببناء كنيسة فيها تحت حماية سيدة البشارة. وجاء بعد المجمع الى حلب فاستقبله فيها المسيحيون استقبالَ الظافرين. وبقي في حلب مدة من الزمن. وقد كدَّرت صفاءَ إقامتِه في هذه المدينة سنة ١٨٥٠ ثورةٌ كادت تقضي عليه. فهرب الى أنطاكية ثم إلى دمشق ، وبقي فيها حتى سنة ١٨٥٤

وفي سنة ١٨٥٤ سافر الى مصر، وكان يَنوي بناءَ كنيسة ودار بطريركيّة في

الإسكندرية ، فلم تتحقَّق أمنيته. فمات في ٢٣ آب ١٨٥٥ ميتةً تجلَّى فيها الوقارُ والايمان والتقوى.

وفي عهد بطريركيته ازداد عدد أبناء طائفته عشرين ألفاً ، فأضحوا سبعين ألفاً. وكان عدد الاساقفة ثمانية فأصبحوا ثلاثةَ عشَر. ويعتبر البطريركُ الثالث مظلوم من أكابر بطاركة الطائفة الملكيّة الكاثوليكية ، إذ له عليها الفضلُ في تحريرها وتنظيمها.

أكليمنضوسُ بحّوث والتقويمُ الغريغوريّ

وخلفه **البطريركُ أكليمنضوسُ بحّوث** (١٨٥٦ - ١٨٦٤) وهو من الرهبان المخلصيّين. درس في رومة في مدرسة انتشار الايمان ، ورسم كاهناً سنة ١٨٢٤ ، وأضحى أسقفاً على أبرشية عكا سنة ١٨٣٦. وفي مطلع سنة ١٨٥٧ أصدر منشوراً بطريركيًّا ، قرَّر به تركَ التقويم الشرقيّ واتّباعَ الحسابِ الغريغوري. ولمّا لم تكن الأفكار قد تهيأت لهذا التغيير ، فقد قاومه بعضُ أبناء طائفته. ولما حلَّت سنة ١٨٦٠ وهي السنة التي حدثت فيها المذابحُ بلبنان ودمشقَ مدة ثلاثةِ أشهر ، نسيَ الناسُ قضيةَ التقويم واهتمّوا بأرواحهم وممتلكاتهم ، فاضمحلَّ الخلافُ شيئاً فشيئاً. وانضمَّ معظمُ أبناء الطائفة الى البطريرك ، وانصاعوا الى ما رسمه. ولم يبقَ على عناده إلا فريقٌ ضئيل العدد تلاشى مع الزمن.

ومع ذلك فقد اجتمع البطريركُ أكليمنضوس بالأساقفة في كنيسة مار يوحنا الشوير ، وقدَّم استقالته رسمياً سنة ١٨٦٤ ، ورفعها إلى الحَبر الأعظمِ بيوسَ التاسعِ فقبلَها. وانتخب الأساقفةُ بطريركاً عوضاً عنه المطرانَ غريغوريوسَ يوسف رئيسَ أساقفةِ عكا. وتوفي البطريرك المستقيل برائحه القداسة في ١٣ حزيران ١٨٨٢

غريغوريوسُ يوسف وبناءُ المدارس والكنائس وتنظيمُ الأبرشيّات

كان **البطريرك غريغوريوسُ يوسف** (١٨٦٤ - ١٨٩٧) من كبار أحبار الطائفة المَلَكيّة ومن أنشط بطاركتها. وُلد في الرشيد في مصر سنة ١٨٢٣ ، ودخل ديرَ المخلص ، فأرسلته الرهبانية المخلصية الى رومة ليكمل فيها ثقافته الدينية ، فدرس في معهد القديس أثناسيوس ، ورسم كاهناً سنة ١٨٥٢ ثم مطراناً على عكا سنة ١٨٥٦. ولما استقال

البطريركُ أكليمنضوسُ بحّوث انتخبه الاساقفة بطريركاً على الطائفة الملكيّة في ٢٩ أيلول ١٨٦٤

اهتمَّ في أول عهده بإصلاح شؤون المدارس ، فأسَّس المدرسةَ البطريركيّة في بيروت (١٨٦٥) ، ثم عُني بتجديد مدرسة عين تراز الإكليريكية (١٨٦٦) والمدرسةِ البطريركيّة في دمشق (١٨٧٥) وأسَّس مدرستين، الواحدةَ في القاهرة والأخرى في الإسكندرية.

وبنى ما يُنيف على عشرين كنيسة ، منها الكاتدرائيةُ في الاسكندرية ، ورسم ستةَ عشرَ أسقفاً ، وأعاد تأسيس أبرشيتَي بانياس مرجعيون (١٨٨٦) وطرابلس (١٨٩٧) وحصل من الحكومة الفرنسيّة (١٨٨٩) على كنيسة القديس يوليانوسَ الفقير في باريس * ، وخصَّصها للجالية الملكية.

واشترك سنة ١٨٩٣ في حفلات المؤتمر القربانيّ الذي أُقيم في القدس ، ونال بعده من البابا لاونَ الثالثَ عشر الولايةَ الكنسيّة على جميع أبناء الطائفة الملكيّة في الدولة العثمانية.

وفي عهده تأسَّست في القدس مدرسةُ القديسةِ حنةَ الإكليريكيّةُ المعروفةُ بالصَلاحيّة (١٨٨٢) بالاتفاق مع الكردينال لافيجري مؤسسِ جمعية الآباء البيض. وقد أنجبت هذه المدرسةُ عدةَ أساقفة وعدداً وافراً من الكهنة العلمانيّين والرهبان.

وكان البطريركُ شديدَ التمسك بمعتقده الكاثوليكيّ ، وكثيرَ الحِرص على الامتيازات البطريركية. وحضر سنة (١٨٦٩ – ١٨٧٠) المجمع الفاتيكاني مع ثمانية من أساقفته. وألقى فيه عدّة خطابات هامّة ، دافع فيه دفاعًا حارًّا عن مفهوم الكنيسة في التقليد الشرقيّ ، حرصاً على ألّا يتّسعَ الصَدْعُ القائم بين الكنيسة الرومانيّة والعالم الأرثوذكسيّ ، وانضم الى معارضي تحديد العصمة الباباوية. وفي آخر الأمر قبِلَ قرارات المجمع بكل خضوع ، إلا أنه طلب أن تحفظ سالمةً جميعُ حقوق البطاركة وامتيازاتهم. وتوفي في ١٣ تموز ١٨٩٧

بطاركة النصف الأول من القرن العشرين

وارتقى السُدةَ البطريركيةَ بعده **بطرسُ الرابعُ الجريجيريَ** (١٨٩٨ – ١٩٠٢) مطرانُ

(*) St-Julien Le Pauvre

مرجعيون. فكانت بطريركيته القصيرة مضطربةً فلم تسمح له الظروفُ بأن يحقق المشاريع الجليلة التي كان ينوي تحقيقها.

وخلفه **البطريركُ كيرلسُ الثامن جحا** (١٩٠٢ - ١٩١٦) مطرانُ حلب. وفي عهده تأسَّست سنة ١٩٠٣ جمعيةُ **الآباء المرسلين البولسيين** بسعي المطران جرمانوسَ معقَّد. وفي اثناء أسقفيته أنشأ المدرسةَ الأسقفية في حلب والجمعيةَ الخيرية. وافتتح إرساليةَ السودان (١٩١٢)، وفي آخر أيامه اندلعت الحربُ العالمية الاولى، وكان آنذاك في مصر، فأُقيم المطرانُ ديمتريوسُ قاضي، متروبوليتُ حلب، وكيلاً بطريركياً. وتوفي في مصر في ١٠ كانون الأول ١٩١٦

وخلفه **البطريركُ ديمتريوسُ الأول القاضي** (١٩١٩ - ١٩٢٥) وهو دمشقيّ الأصل ومطرانُ حلب. أنشأ عدةَ مدارسَ وكنائس في دمشق وشرقيِّ الأردن والقاهرة، وبنى داراً بطريركية في الاسكندرية، وتوفي في ٢٥ تشرين الاول ١٩٢٥ أثناءَ ثورة الدروز.

وارتقى السُدّةَ البطريركية بعده **كيرلسُ التاسع مغبغب** (١٩٢٥ - ١٩٤٧) مطرانُ زحلة. سافر الى أوروبة وأميركة أثناء أسقفيته، لجمع التبرّعات وإصلاح شؤون أبرشية زحلة. ولما عاد إليها قاوم الماسونيةَ مقاومةً شديدة. وفي عهد بطريركيته تجدَّدت أبرشيةُ شرقِ الأردن (١٩٣٢)، وتأسَّست **جمعيّة راهبات سيدة المعونة الدائمة** (١٩٣٦) واتخذت الراهبات المخلصيّات المرسلات (١٩٤٠) والراهبات الشويريّات المرسلات شكلاً جديداً (١٩٤٥) وقد اشتهر البطريركُ كيرلس بالبناء، فبنى أكثر من أربعين كنيسة ومدرسة وداراً للكهنة. وتوفي في ٨ أيلول ١٩٤٧

البطريرك مكسيموسُ الرابعُ صائغ (١٩٤٧ - ١٩٦٧)

هو حلبيّ الأصل، ومن جمعية الآباء البولسيّين وخرِّيجي مدرسة القديسة حنة الاكليريكيةِ بالقدس. كان متروبوليتَ صور من ١٩١٩ حتى ١٩٣٣، ورئيسَ أساقفة بيروت من ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٤٧، وفيها انتخبه مجمعُ السادة الأساقفة بطريركاً على الطائفة الملكية.

في عهده انتعشت أبرشيةُ شرق الأردن، وأبرشيةُ القدس البطريركية، وتحسَّنت أحوال أبرشية دمشق البطريركيّة، وتأسَّست أبرشيةُ اللاذقية (١٩٦١) واهتمّ البطريرك اهتماماً شديداً بالحركة المسكونية، وتمسَّك بالتقاليد والحقوق والطقوس الشرقية، واشترك مع أساقفة البطريركية في المجمع المسكونيّ الفاتيكانيّ الثاني، وقام فيه بدور هامّ لفتَ إليه أنظارَ الأساقفة الملتئمين، فدافع عن الحقوق والامتيازات البطريركيّة وعن الكنيسة الشرقية جمعاء. ومن أهمّ أعماله عقدُ مجمع القاهرة سنة ١٩٥٨، وفيه أُوضح وُجهة نظر الطائفة الملكيّة في التشريع القانونيّ الجديد، وفي عهده درَجت العادةُ على أن يَعقد السينودسُ المقدس اجتماعه كل سنة. قام بزيارات كثيرة الى أنحاء أوروبا وأميركا وأهمها زيارتهُ التاريخية للبطريرك أثيناغوراس في القسطنطينية حزيران ١٩٦٤. وتوفي في ٥ تشرين الثاني ١٩٦٧.

البطريرك مكسيموسُ الخامس حكيم (١٩٦٧ –...)

ولد في طنطا (مصر) عام ١٩٠٨. ومارس نشاطه الكهنوتيّ في القاهرة من عام ١٩٣٠ الى ١٩٤٣. وساس أبرشية عكّا وحيفا من حزيران ١٩٤٣ حتى تشرين الثاني من عام ١٩٦٧. وفي عهده حلّت النَكبةُ بفلسطين، وتشرّد معظم أبناء كنيسته في الجليل. فاعتنى بشؤون اللاجئين وأعاد تنظيم الأبرشية، ليثبّت الذين صمدوا في الوطن. أُنتخب بطريركاً في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٦٧، وأدار كنيسته بحكمة في هذه الحِقبة المضطربة. أتمّ عام ١٩٧٧ بناء الصرح البطريركيّ في الربوة (لبنان)، وفيه مقرُّ الإكليريكية البطريركية الجديدة التي عُني بتنظيمها، بعد أن أُغلقت إكليريكية القديسة حنة في القدس عَقِبَ حرب ١٩٦٧. وقام بمشاريع عمرانيّة هامّة في مختلف أنحاء البطريركيّة. بذل جهداً كبيراً لإعادة السلام إلى لبنان أثناء الحرب الأهليّة التي اندلعت عام ١٩٧٥، ونُكبت أثناءها بشكل خاصّ أبرشيّاتُ الجنوب وجزء كبير من أبرشيّة بيروت، فجنّد كل طاقات كنيسته لإعانة المهجّرين. بذل اهتماماً كبيراً بأوضاع الروم الكاثوليك خارجَ الشرق، وقد ازدادت هجرتهم إثر الأحداث الأخيرة، فكرّس الكثير من وقته لزيارة جالياتهم. وفي عهده نشأت أبرشيّات خارج الشرق في كلٍّ من الولايات

المتحدة والبرازيل وكندا واوستراليا والمكسيك وفنزويلاً وتابع جهود سلفه في الدفاع عن حقوق الكنائس الشرقيّة وامتيازاتها.

الأوضاع الحاليّة

للروم الكاثوليك ثلاثُ أبرشيّات متعلّقة مباشرةً بالبطريرك: أبرشيّةُ دمشق في سوريا، وأبرشيّة القدس جنوبيًّ فلسطين، وأبرشيّة مصر.

وهنالك ثلاثَ عشْرَةَ أبرشيةً في الشرق عائدة للأساقفة المحليّين، أربعٌ منها في سورية: حلب وحمص وحوران واللاذقية؛ وسبعٌ في لبنان: بيروت وصيدا وزحلة وبعلبكّ وصور وطرابلس ومرجعيون؛ وابرشية حيفا والناصرة شماليّ فلسطين؛ وابرشية عمان في المملكة الاردنية. وستّ في بلاد الاغتراب: الولايات المتّحدة والبرازيل وكندا وأوستراليا والمكسيك وفنزويلاً كما لهم نيابات بطريركية في كلّ من بغداد والكويت والخرطوم وإسطنبول، متعلّقة مباشرة بالبطريرك. وثمّةَ مراكزُ رعويّة في الاغتراب: في الأرجنتين وباريس ومرسيليا وبروكسيل وروما. ولهم أربع جمعيات رهبانيّة أو إرساليّة للرجال، وخمس رهبنات للنساء.

ويضمّ الروم الكاثوليك زُهاء مليون مؤمن، نصفُهم تقريباً خارجَ الشرق.

الفصل الثامن والعشرون

الكنيسة المارونيّة في القرون الأربعة الأخيرة

أهميةُ الموارنة في الشرق العربي

اكتسب الموارنةُ في هذا العصر أهميةً جديدة كبرى. فمن الوُجهة القوميّة فقد تحرَّروا من سيطرة الأمراء المتاولة، وخرجوا من عزلتهم في وادي قاديشا وانتشروا في كسروان وتقوّوا فيه. وحصلت بعض الأسر المارونية -كأسرة الخازن مثلاً- على نفوذ واسع لدى الامير فخر الدين المعنيّ الذي ارتكز على مؤازرة الموارنة، وفتح بلاده للتأثير الأوروبي. ومن بعده بقي الأمراء من بني مَعْن ثم من بني شهاب (اعتباراً من سنة ١٦٩٧) يستندون الى الموارنة لسياسة البلاد اللبنانية. وقد اعتنق النصرانيةَ بعضُ أمراء ابي اللمع وقسمٌ كبير من بني شهاب، فأصبح الموارنةُ والدروز ركنَ القوميةِ اللبنانية الحديثة.

ولما انقرض حكمُ الأمراء عام ١٨٤٠، أصبحت الكلمةُ الأولى في تمثيل لبنان للبطريرك الماروني، فالتفَّت حوله جميعُ الطوائف اللبنانية. وما كانت حوادث عام ١٨٤٥ وعام ١٨٦٠ إلّا أَزمتين عابرتين حرَّكتها الدولُ الأجنبية الطامعة، حصل لبنان بعدهما على السلام والازدهار في ظل نظام المتصرفيّة الذي قام من سنة ١٨٦٤ حتى سنة ١٩١٤، وفيها نقض-جمال باشا العثماني هذا النظامَ ونكّلَ باللبنانيين.

وتكوَّن لبنانُ الكبير بعد الحرب العالمية الاولى في ظل الانتداب الفرنسي، ثم نال استقلالَه تماماً عام ١٩٤٦. والكيانُ اللبناني يرتكز اليوم على التعايش والتوازن القائمين بين مختلفِ الطوائف وأهمُّها الموارنة بموجب الميثاق الوطني الذي وضع عام ١٩٤٣. وظلّ

هذا الوضع قائماً رغم الهزّة العنيفة التي انتابت لبنان سنة ١٩٥٨.

وجاءت أحداث عام ١٩٧٥ لتعصف بالتعايش الذي كان سائداً بين مختلف الطوائف. وتدخّل الجيش السوريّ على طلب من الحكومة الشرعيّة لإيقاف الاقتتال ومساعدة مختلف الجهات على التفاهم. وزادت الأمورُ تعقيداً إثر اجتياح الجيوش الإسرائيلية وانسحابها الجزئيّ المفاجىء. وقد بذل البابا بولس السادس والبابا يوحنا بولس الثاني جلَّ اهتمامها لمساعدة لبنان على حلّ مشاكله، وعلى إيجاد صيغة للتعايش تتلاءم وما جرى من أحداث، ولا تزال المساعي الطيّبة تتابع جهودها. وبعد أن سكتت الأسلحة (نهاية عام ١٩٩٠) دعا قداسة البابا يوحنا بولس الثاني إلى عقد سينودس عام في لبنان لدراسة ما تتطلّبه الأوضاع الراهنة من انفتاح وتجدّد.

ومن الوجهة الثقافية فقد كان الموارنةُ أولَ من اطّلعوا على الثقافة الغربية، وأوّلَ من نقلوا الى الغرب الحضارةَ الشرقية، فمهّدوا الطريق لحركة المستشرقين. وفي الشرق نفسه فتحوا المدارس الكثيرة ونشروا العلم والمعرفة، وكانوا أيضاً في الطليعة. ولا بدَّ من ذكر ما كان للمطران جرمانوس فرحات المارونيّ من فضل عظيم في رفع مستوى الثقافة العربية بين النصارى، مع زميلَيه الملكيّين عبدالله زاخر ونقولا صائغ. فقامت النهضةُ الادبية في لبنان على اكتاف الموارنة والملكيّين، وانتشرت في أرجاء الشرق كلّه.

أما من الوجهة الكنسية فقد قوّى الموارنةُ ارتباطَهم بكنيسة رومة في مطلع القرن السادسَ عشر، واقتبسوا الكثير عن التشريع اللاتينيّ والطقس الروماني. وفاقوا في ذلك جميع الكنائس الشرقية. والكنيسة المارونية هي الكنيسة الشرقية الوحيدة التي انضمّت بجملتها الى الكثلكة، وليس لها فرعٌ أرثوذكسيّ يقابلها.

وقد آزرَ الموارنةُ إخوانهم الشرقيّين الكاثوليك إبانَ المحن التي حلّت بهم في القرن الثامن عشر، فقد فتحوا كنائسهم وديورتهم للاجئين منهم، وأضافوا فيها بطاركتهم ورهبانهم المطارَدين.

وها نحن الآن نستعرض أهمَّ الأحداث منذ مطلع القرن السادسَ عشر حتى اليوم.

الموارنة وكنيسةُ رومة في القرن السادسَ عشر

فتح الأتراك العثمانيون سورية سنة ١٥١٦ فلم يغيّروا الأوضاع الراهنة في جبل لبنان، بل اكتفوا بجمع الضرائب التي كان المقدَّمون يَجْبونها من الناس.

وتمكَّنت العلاقاتُ بين الموارنة وكنيسةِ رومة في عهد البابا لاونَ العاشر والبطريركِ سمعان. وقد طلب البطريركُ الى البابا ملابِسَ طقسية، كما سأله أن يتوسّط لدى حكومة البندقية في شأن الموارنةِ القاطنين جزيرةَ قبرص. وكانت الجزيرةُ آنذاك تحت حكمِ البندقية.

وأرسل البابا لاونُ العاشر الى البطريرك الماروني اثنين من الرهبان الفرنسيسكان مع هدايا وتعليمات دينيّة تتعلّق بالعقائد والأسرار الكنسيّة. وفي ١ آب ١٥١٥ ثبَّت لسمعان بطرس لقبَ «**بطريرك أنطاكية**» ومنحه درعَ التثبيت، واعترف بسلطته على جميع الشعب الماروني الذي امتدح ثباته وإيمانه القويم.

وفي سنة ١٥٦٧ انتُخب **ميخائيلُ الرزّي** بطريركاً على الطائفة المارونية (١٥٦٧ – ١٥٨١) واعترف البابا غريغوريوسُ الثالث عشر (١٥٧٢–١٥٨٥) ببطريركيته سنة ١٥٧٩، وكان قد أرسل إليه سنة ١٥٧٨ راهبين يسوعيّين هما الأبوان يوحنا إليانو وتوما راجيو. وتعلَّم الأب إليانو مبادىء اللغة العربية والقراءة الكرشونية. ولم تطل إقامتُهما بلبنان إلا سنةً واحدة، فغادراه سنة ١٥٧٩. وعاد الأب إليانو سنة ١٥٨٠ مع الأب برونو ومعهما كتبٌ دينية وملابسُ طقسية.

وعقد البطريركُ ميخائيل بمناسبة مجيئهما مجمعاً في قَنّوبين (آب ١٥٨٠)، وكان من نتائج مجيء هذين الراهبين أن البابا غريغوريوسَ الثالثَ عشر فتح في رومة المدرسةَ المارونية التي خدمت الطائفةَ خدَمات جُلَّى، وأنجبت لها رجالاً عِظاماً (١٥٨٤).

ومنذ ذلك العهد ابتدأت العاداتُ اللاتينية تتسرَّبُ الى الطقس المارونيّ، وقد بالغ البطريركُ يوسفُ الرزّي (١٥٩٦ – ١٦٠٨) في اقتباسها. وقد أظهر ميلَه هذا في المجمع الذي عقدَه سنة ١٥٩٨. وفي سنة ١٦٠٦ أدخل التقويمَ الغريغوريّ، وألغى التقويمَ اليوليّ أي الحسابَ الشرقيّ.

عهدُ البطاركة العِظام في القرن السابعَ عشر

اشتهر في القرن السابع عشر بطاركةٌ عِظام امتازوا بعلمهم وفضيلتهم ونشاطهم، وهم **جرجسُ عُمَيرة** (١٦٣٥ – ١٦٤٤) وكان عالماً قديراً، وساعد الآباء الكرمليّين على الإقامة ببشرّي، وقد حسدَه معاصروه على علمه ومقدرته. وخلفَه **يوسفُ العاقوري** (١٦٤٤ – ١٦٤٨) **ويوحنا الصفراوي** (١٦٤٨ – ١٦٥٦) ثم جرجسُ بسبعل (١٦٥٧ – ١٦٧٠) وقد اشتهر ثلاثتُهم بعلمهم ودرايتهم وفطنتهم السياسية، فرفعوا من شأن البطريركية المارونيّة، وقوّوا مركزهم في جبل لبنان.

وارتقى السدّةَ البطريركية **إسطفانوسُ الدويهي** (١٦٧٠ – ١٧٠٤) ويعتبرُ اسطفانوسُ من أكابر البطاركة المارونيين، فكان عالماً قديراً، ومؤرّخاً دقيقاً، وإدارياً حازماً. وقد ترك لنا مذكراتِه التاريخيةَ الهامّة، وفيها يطلعنا على أهمّ أحداث الطائفة المارونية منذ نشأتها حتى أيامه. وأجرى إصلاحاتٍ واسعةً في الكتب الطقسية.

ولما كان يرغبُ في تأسيس رهبانيّة مارونية على غِرار رهبانيّات الغرب، عرض عليه ثلاثةُ شبان من حلب، هم جبرائيلُ حَوا وعبدالله قَرَأْلي ويوسفُ التبن، مشروعَ تأسيس رهبانية جديدة. ولبسوا الثوبَ الرهباني وتحقق مشروعهم، فتأسَّست الرهبانية سنة ١٦٩٥، ونمت وازدهرت فثبّتها البطريركُ إسطفانوس سنة ١٧٠٠، واتخذت اسم «رهبانية القديس انطونيوس الكبير الحلبية» ثم غيَّرت اسمها فتلقَّبت «برهبانية القديس انطونيوس الكبير اللبنانية» وأضحى عبدُ الله قرَأْلي الرئيسَ العامَّ الأول للرهبانية الجديدة.

وفي سنة ١٧٠٣ ثبَّت البطريركُ قوانينَ رهبانية أُخرى هي رهبانيةُ مار أشعيا المعروفةُ بالأنطونية، والتي أسَّسها المطران جبرائيل بلوزاوي.

وانقسمت الرهبانيةُ اللبنانية سنة ١٧٤٢ الى فرعَين لأسباب إدارية، فرعِ الحلبيّين وفرع اللبنانيين، ووافقت رومةُ على هذا الانقسام سنة ١٧٧٠، فأضحى للطائفة المارونية ثلاثُ رهبانيات قانونية هي: **اللبنانية المارونية، والحلبية المارونية** (المريميّة)، **والأنطونية** (مار أشعيا)

المجمع اللبنانيّ المنعقد سنة ١٧٣٦

وارتقى السدَةَ البطريركية **يوسفُ ضرغام الخازن (١٧٣٣ – ١٧٤٢)**. وفي عهده عقد سنة ١٧٣٦ في دير اللويزة المجمعُ اللبناني الذي وافق البابا بندكتسُ الرابعَ عشر على جميع قراراته سنة ١٧٤١. وقد حضر المجمعَ ستةَ عشرَ أسقفاً وسبعةٌ وأربعون كاهناً وراهباً وتسعةٌ وأربعون رجلاً من وُجهاء الطائفة. وقد دعا الى عقده يوسفُ السمعاني مطرانُ صور وموفدُ الحبرِ الروماني.

وقد رتَّب آباء المجمع موادَّ أعمالهم ترتيباً منطقياً وقَسموها الى أربعة أقسام: الاول في الايمان الكاثوليكي، الثاني في الأسرار الكنسية، الثالث في الخُدام والكهنة والرؤساء، الرابع في الكنائس والمدارس والأديار والترتيبات المجمعية. ومن أهم الإصلاحات التي قام بها المجمعُ، تحديدُ سلطة البطريرك بتقليد الأساقفة سلطةً فعليّة على أبرشياتهم، وكيفيّةُ منح الأسرار، وتعيينُ عدد الأعياد، والاهتمامُ بترجمة الكتاب المقدس، وتحقيقُ بعض إصلاحات طقسية، وواجبُ إلقاء دروس التعليم المسيحي على الناس كل يوم أحد، والعنايةُ بأوضاع الرهبانيّةِ الحلبية والرهبانيةِ اللبنانية.

العلماءُ الموارنة

اشتهر في القرن الثامنَ عشر خمسةُ علماءَ موارنة، منهم أربعةٌ من أُسرة السمعاني، وهم يوسف سمعان وإستفانوس أفوديوس، ويوسف لويس، وسمعان السمعاني؛ وفي حلب المطران جرمانوسُ فرحات.

١ – كان **يوسف سمعان السمعاني** (١٦٨٧ – ١٧٦٨) مطرانَ صور، وكان لُغَوياً قديراً يحسن التكلم بعدة لغات، وقد اهتمَّ بالإرساليات الشرقية، وانتصب وسيطاً بين رومة والموارنة، وترأس المكتبةَ الفاتيكانية، وجمع مئة وخمسين مخطوطاً وأُلوفاً من قطع النقود القديمة، وله تآليفُ كثيرة طبع منها عشرون مؤلّفاً، وأهمّها المكتبة الشرقية، وهو مؤلَّف في أربعة أجزاء (١٧١٩ – ١٧٢٨) يحوي معلوماتٍ كثيرةً وجليلة الفائدة.

٢ – وكان **إستفانوس أفوديوس** (١٧٠٧ – ١٧٨٢) رَحَّالة وعلاَّمة. وقد رتَّب

جداول لعدد وافر من المخطوطات المحفوظة في المكتبة الفلورنتينية، كما نظّم فهارسَ المخطوطات السُريانية في المكتبة الفاتيكانية.

٣ – ودرَّس **يوسف لويس** (١٧١٠ – ١٧٨٢) اللغةَ السُريانية في معهد الحكمة* ونشر كتابه «الاحكام الطقسية للكنيسة الجامعة» وهو كتاب ثمين جزيل الفائدة.

٤ – أما **سمعان السمعاني** (١٧٥٢ – ١٨٢١) فقد كان مرسلاً وأستاذَ اللغات الشرقية، ونشر كتاب «تاريخ العرب قبل الاسلام». وأثارت كتبُ أسرة السمعاني إعجابَ العلماء لما فيها من المعلومات القيّمة والمعارف التاريخية الدقيقة، وقد أطلعت الغربيّين على كنوز المعرفة الشرقية وتاريخِ طوائفها وطقوسها.

٥ – **المطران جرمانوسُ فرحات** (١٦٧٠ – ١٧٣٢) ولد في حلب والتحقَ بالرهبان اللبنانيّين لدى تأسيسهم. وضع كتابَ قواعد اللغة (بحث المطالب) وألّف قاموساً عربياً. ونشر تعليم اللغة العربية بين النصارى، كما ترك ديوان شعر قيّم. وأصبح مطرانَ حلب للموارنة (من ١٧٢٤ حتى ١٧٣٢) إبّان شُغور كرسيّ أبرشية الروم الكاثوليك، فأضحى المرجعَ الوحيد للكاثوليك.

البطاركة في القرن التاسعَ عشر

في سنة ١٧٨٩ تأسَّست مدرسةُ عين ورقة الإكليريكيّة، فأنجبت للطائفة المارونية رجالاً عظاماً وأساقفة أجلاّء وكهنةً أفاضل خدموا الكنيسة خدماتٍ جُلّى.

وارتقى السدّةَ البطريركيةَ في أواخر القرن الثامنَ عشر **يوسفُ تيّان** (١٧٩٦ – ١٨٠٩) واستقال من منصبه، فخلفه **البطريركُ يوحنا الحلو** (١٨٠٩ – ١٨٢٣) فاهتمَّ بإصلاح شؤون طائفته اهتماماً بالغاً. وعقد سنة ١٨١٨ مجمعَ اللويزة الذي عُني بأمر المدارس الإكليريكية والأديار الرهبانية.

وحارب **البطريركُ يوسفُ حبيش** (١٨٢٣ – ١٨٤٥) الدعايةَ البروتستانية، وأعاد تنظيم مدرسة عين ورقة، واعتنى بالخورنيّات الراعوية ونظّمها، وشيَّد مدرستَين

---

* Sapience

إكليريكيتَين لتقوما مقام المدرسة المارونية الّتي أُغلقت سنة ١٨٠٨ إبان احتلال نابوليون لروما، وهما مدرسة مار عبدا، ومدرسة مار سركيس ومار باخوس. وأدخل في الطقس الماروني عاداتٍ جديدة فتغيّر وجهه القديم تغييراً عميقاً. وجعل للبطريركية مقرّين، مقراً صيفيًّا في الديمان بقرب الأرز، ومقراً شتويًّا في بكركي. وقامت الحربُ الأهلية في عهده سنة ١٨٤١ وسنة ١٨٤٥ بين الدروز والموارنة، فملأت قلبَه مرارةً وعجّلت وفاته.

ومنع **البطريركُ يوسف الخازن** (١٨٤٥ – ١٨٥٤) سماعَ الاعترافات في البيوت الخاصّة، وأمر بأن يُمنح سرُّ التوبة في الكنائس.

وشهد **البطريركُ بولس مسعد** (١٨٥٤ – ١٨٩٠) مذابحَ سنة ١٨٦٠ فوقف منها موقفاً نبيلاً، فضحّى بحياته في سبيل تخفيف حالة المنكوبين وإعادة الحقّ والسلام. وفي عهده اشترى الأب يوحنا الحبيب سنة ١٨٦٥ ديرَ الرهبان الكريميّين من الأرمن وأسّس جمعية المرسلين اللبنانيين، وغايتُها إلقاء المواعظ والرياضات الروحية. وقد ثبّت البطريركُ مَسعد قوانينها. وهو الذي أنشأ المكتبة البطريركية وسجلاّتِ الكرسيّ البطريركي.

ويعدّ البطريرك مسعد من أكابر بطاركة الكنيسة المارونية، وله تآليفُ جليلة تجعل له مقاماً مرموقاً بين اللاهوتيّين وكبار مؤرّخي طائفته. وقد عُني جليلَ العنايةِ بالمدارس وأعضاء الإكليروس.

وجدّد **البطريرك يوحنا الحاج** (١٨٩٠ – ١٨٩٩) قصرَ بكركي، وأسهم في إعادة فتح المدرسة المارونية في رومة سنة ١٨٩١، واغتبط كثيراً بالرسالة العامّة التي وجّهها البابا لاون الثالثَ عشر الى الشرقيّين*، ونال البطريرك الحاج اعتبارَ الدولة العثمانية والدولِ الاجنبية، فعبّرت له عن اعتبارها بالأوسمة الرفيعة.

البطاركة في عهد استقلال لبنان

وارتقى السدّة البطريركية بعدَه **البطريركُ العظيم الياسُ الحويّك** (١٨٩٩ – ١٩٣١). هو تلميذ مدرسة اليسوعيّين في غزير، ومدرسة انتشار الايمان في رومة. عاد الى

* Orientalium Dignitas

لبنان سنة ١٨٧٠ فدرَّس اللاهوت ، وأضحى بعد ذلك نائباً بطريركياً ، ثم رئيسَ أساقفة عرقا . وأسَّس سنة ١٨٨٩ في عبرين جمعيةَ راهباتِ العائلة المقدسة المارونيّات . وانتخب بطريركاً في ٦ كانون الثاني ١٨٩٩ ، وثبَّته البابا لاونُ الثالثَ عشر في ١٩ حزيران من السنة نفسِها . بنى قصر جُدَيدة قنّوبين الفخم بقرب الديمان ، واهتمَّ كلّ الاهتمام بأبناء وطنه أيامَ المجاعة التي حدثت في لبنان اثناء الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وناضلَ كثيراً في سبيل حرية لبنان واستقلاله ، ووافته المنيّة سنة ١٩٣١ .



البطريرك الياس الحويّك

وخلفه **البطريركُ أنطوان عريضة** (١٩٣٢ - ١٩٥٥) . وُلد في بشرّي سنة ١٨٦٢ ودرس في باريس الفلسفةَ واللاهوت ، ورسم كاهناً سنة ١٨٩٠ ، وانتخبه الأساقفةُ مطراناً على أبرشية طرابلس سنة ١٩٠٨ ، وبطريركاً سنة ١٩٣٢ ، وتوفي في ١٩ أيار ١٩٥٥

وارتقى السدةَ البطريركية بعده في ٢٧ أيار ١٩٥٥ **البطريركُ بولسُ المعوشيّ** (١٩٥٥ – ١٩٧٥) بتعيين مباشَر من قبل البابا بيوسَ الثاني عشر. وُلد في جزين سنة ١٨٩٤ ورسم كاهناً في ٧ كانون الاول ١٩١٧ ، وأسقفاً على أبرشية صور في ٨ كانون الاول ١٩٣٤ ، فساس أبرشيته بكل غيرة ونشاط . وقد وقف من حوادثِ لبنان سنة ١٩٥٨ موقفاً فطناً ، فقضى على الفتنة الطائفية ، وأعاد الى لبنان هدوءه . أصبح كردينالاً عام ١٩٦٥ ، وتوفي في ١١ ك ٢ ١٩٧٥ .

وفي ٣ شباط ١٩٧٥ تمّ انتخاب **البطريرك أنطونيوس خريش** (١٩٧٥ – ١٩٨٦)

ولد في عين إبل جنوبيَّ لبنان عام ١٩٠٧ . ومنذ عام ١٩٥٠ ساس أبرشية صيدا كأسقف معاون ، ثم كمطران أصيل (١٩٥٧). وفي ١١ نيسان ١٩٧٤ دعي مع المطران صفير لإدارة الشؤون البطريركية أثناء مرض البطريرك معوشي.

رافق أحداث لبنان المؤلمة طيلة عهد بطريركيّته ، وحاول تهدئة الأوضاع ، وشَجَب العنف وزرع الوفاق. في عهده أُعيد تنظيمُ الأبرشيات المارونيّة ؛ وفي سينودس آب ١٩٧٧ أُنشئت أبرشيّة اللاذقية (طرطوس) وأبرشيّة زحلة – بعلبك ؛ وتمّ في ٩ تشرين الأول ١٩٧٧ في رومة تقديسُ الراهب اللبنانيّ شربل مخلوف الذي توفي في عنايا عام ١٨٩٨ ؛ وتم في ١٧ تشرين الثاني ١٩٨٥ تطويب الأخت رفقة الريّس التي توفيت قرب البترون عام ١٩١٤ .

بعد أن قدَّم استقالته رسميًّا إثر تقدّمه في السنّ ، انعقد السينودس الطائفيّ وانتخب خلفاً له في ١٩ نيسان ١٩٨٦ المعاونَ البطريركيّ المطران **نصرالله صفير**.

ولد في ريفون عام ١٩٢٠ ، وأصبح مطراناً معاوناً في الدائرة البطريركية عام ١٩٦١ . أثناء السينودس الذي انتخب فيه ، أعيد تنظيم الأبرشيّات البطريركيّة . وبعد انتخابه بشهرين زار رومة حيث قلّده قداسة البابا يوحنا بولس الثاني وِشاحَ الباليوم.

الأوضاع الحالية

للكنيسة المارونية في الشرق، علاوةً على الأبرشية البطريركيّة ونياباتها الأربع: الجبّة، البترون، جبيل ودمشق[1]، الأبرشياتُ التالية: حلب، اللاذقيّة (طرطوس)، طرابلس، جونية، صربا، قبرص، بيروت، صيدا، صور، زحلة، بعلبك، مصر.

وفي المهجر أبرشيات الولايات المتحدة وكندا والبرازيل وأوستراليا.

ولها ثلاثُ رهبانيّات هي اللبنانية المارونية، المريميّة المارونيّة، والأنطونية، وجمعية واحدة تدعى جمعيةَ المرسلين اللبنانيّين، ويربو عدد الرهبانِ جميعِهم على ٧٠٠ راهب ولهم ١١٦ ديراً.

كما أن لها خمسَ رهبانيّات نسائيّة يقارب عددُ أفرادها الـ ٥٠٠ راهبة، لهنّ ٨٨ ديراً وهُن: راهباتُ عبرين (العائلة المقدسة) والأنطونيات واللبنانيات والتريزات. وراهبات القربان المقدس.

ويقدَّر عدد أبناء الطائفة المارونيّة في البلاد العربية بـ ٧٠٠ ألف نسمة، ويربو عددُهم في المهجر على المليون.

---

(١) أصبحت دمشق أبرشيّة مستقلّة في سينودس عام ١٩٨٩. وفي سينودس عام ١٩٩٠، أصبحت جبيل أيضاً أبرشيّة مستقلّة، بينما أصبحت أبرشيّتا صربا وجونية نيابةً بطريركيّة واحدة. وانشطرت أبرشيّة زحلة - بعلبك الى أبرشيّتين: أبرشية زحلة وأبرشية بعلبك ودير الأحمر.

الفصل التاسع والعشرون

الكَنِيسَةُ الأرمَنـيَّة

بَدءُ الاتحاد

انتشرت فكرة الاتحاد بالكنيسة الرومانية مجدَّداً في القرن السابعَ عشر بين جماعة من الأرمن القاطنين في إشمازين ، قاعدةِ أرمينية الكبرى ، وفي حلب والقسطنطينية ، بفضل المرسلين الغربيّين.

وكان بين بطاركة الأرمن وجثالقتهم في ذلك العهد ، من كانوا يميلون الى الاتّحاد ، ومن كانوا يقاومون فكرة الاتحاد.

وابتدأ اتّحاد الأرمن بالكنيسة الرومانية في جثلقة سيس في كيليكية شماليَّ سورية. وكان جاثليقُها يقطن في أغلب الأحيان مدينةَ حلب ، فاتّصل به الرهبان المرسلون ، وحرَّضوه على الانضمام الى الكنيسة الرومانية.

وأولُ من فكَّر في الاتحاد هو الجاثليقُ خجادور (١٦٥٨ – ١٦٧٣) ، وقد كانت علاقاتهُ بقنصل فرنسة والرهبان المرسلين ودّية. واتّبع طريقته الجاثليق عزارياس الثاني (١٦٨٣ – ١٦٨٩) وغريغوريوسُ بدزاك (١٦٨٩ – ١٦٩١)

غير أن مؤسس البطريركية الأرمنيّة الكاثوليكية الحديثة هو **المطرانُ أبراهام أرزفيان** ، من مواليد عنتاب في سنة ١٦٧٦. انتخب أسقفاً على مدينة حلب سنة ١٧١٠ ، فقاسى

الاضطهاد والنفي بسبب معتقده الكاثوليكيّ. واستقرّ في لبنان قربَ حريصا (جونية) وأسَّس في دير الكريّم رهبانيةَ الأنطونيّين، وكان أفرادها بعض الشبّان الأرمن الحلبيّين. ولما قرَّر الأرمن الكاثوليك في حلب الاستقلالَ عن البطريرك ميخائيل الغريغوريّ، عاد المطرانُ أبراهام الى حلب، ومنحَ الدرجة الاسقفية لثلاثة كهنة، عُيِّن واحدٌ منهم نائباً بطريركيًّا لمدينة حلب، والآخران أسقفين، الواحدُ على عنتاب، والثاني على ماردين. وعقدَ هؤلاءِ الاساقفة مجمعاً، وانتخبوه بطريركاً على الأرمن الكاثوليك.

نشأةُ بطريركية سيس الكاثوليكية (١٧٤٠ – ١٨٦٥)

وكتب البطريركُ أبراهام أرزفيان الى البابا بندكتس الرابعَ عشر رسالة يسأله فيها تثبيتَ انتخابه، ثم سافر الى رومة في تشرين الثاني ١٧٤١، فاستقبله الحبرُ الأعظم أحسن استقبال، وثبَّت انتخابه في ٢٦ تشرين الثاني ١٧٤٢، وأقرَّ سلطته على أقطار سورية ومصر والعراق وكيليكية. بينما خضع الكاثوليكُ في أرمينية الكبرى والقسطنطينية للقاصد الرسولي. واتخذ البطريرك أبراهام اسمَ بطرس الأول.



البطريرك أبراهام أرزفيان

ولما رجع من رومة الى الشرق، سعى جُهدَه لأن يستقرَّ في القسطنطينية أو في الإسكندرية أو في دمشق، فلم يستطع لأن الدولة العثمانية لم تعترف به بطريركاً. فأقام بلبنان في دير الكُرَيم، ودبَّر من هناك شؤون طائفته، ونصَّب على الابرشيات الشاغرة أساقفةً امتازوا بالفضيلة والنشاط. في سنة ١٧٤٩ وهي سنةُ وفاته، ابتدأ ببناء دير بزمّار، وقد أتمَّه خلفاؤه وأقاموا فيه حتى اليوم. (ما عدا الفترة بين ١٨٦٧ و ١٩٢٨)

ولعب الموارنة دوراً هامًّا في نشأة الطائفة الأرمنية. فهم الذين آوَوا البطريركَ أرزفيان أثناء منفاه، ووهبوه ديرَ الكُرَيم، ثم أرضَ دير بزمّار في كسروان؛ وساعده الروم الكاثوليك أيضاً. فإن أول سيامة أسقفية قام بها المطران أبراهام أرزفيان في حلب سنة ١٧٣٩، كانت بمساعدة أسقفَين من الروم الكاثوليك، وهما جراسيموس مطرانُ حلب المستقيل، وأغناطيوسُ الحلبيّ مطرانُ حمص المنفيُّ عن أبرشيته. وكان المطران أبراهام نفسُه قد ساهم في سيامة المطران جبرائيل فينان الملكيِّ الكاثوليكي سنة ١٧٢٤. وكان هذا أحدَ الاساقفة الذين رسموا البطريرك كيرلس طاناس. واشترك المطران أبراهام سنة ١٧٣٦ في أعمال المجمع اللبنانيّ الشهير الخاصّ بالموارنة. وهذا دليل على تضامن الطوائف الكاثوليكية في ذلك الوقت.

الأنبا مختار مؤسس المختاريّين

ولد مختار في سيواس سنة ١٦٧٠، واعتنق الكثلكة رسمياً في حلب بمناسبة إحدى رحلاته إليها. وأخذ يسعى لاتّحاد الارمن بكنيسة رومة. وسافر الى القسطنطينية ليؤسس فيها مدرسة للأرمن. فلما اشتدّ فيها الاضطهاد على الكاثوليك، ترك القسطنطينية ولجأ الى مقاطعة مورة في بلاد اليونان، وكانت في حوزة جمهورية البندقيّة إذ ذاك. وهناك انضمَّ إليه بعض تلاميذه، فأسَّس معهم جمعية رهبانية عرفت **بجمعيّة الرهبان المختاريّين**. واعترف البابا بقوانينهم سنة ١٧١٢. ولما استولى الأتراك سنة ١٧١٥ على مقاطعة المورة اليونانية، لجأ الرهبان الى مدينة البندقية في إيطالية، حيث لا يزالون حتى اليوم. وقد انشقَّ بعضهم سنة ١٧٧٢ عن الرهبانية، وأقاموا في تريستة ثم في فينّة عاصمةِ النمسة. وأصبح المختاريّون جمعيتَين مستقلّتين، تدعى الواحدةُ جمعية البندقية، وتسمى الأخرى

جمعيةَ فيينا. وقد ساهم المختاريّون كثيراً في نهضة الأرمن العلميّة والروحية. أما الرهبانية الأنطونية فقد اندثرت في مطلع القرن العشرين.

تحرير الأرمن وتنظيمُهم في القسطنطينيّة

كان الأرمن الكاثوليك خاضعين من الناحية المدنيّة لسلطة البطريرك الغريغوريّ المقيم في القسطنطينية. فسعت دولتا فرنسة والنمسة لدى الباب العالي في أمر إعتاق الطوائف الكاثوليكيّة من تَبِعة الطوائف الأرثوذكسيّة، فأعتقها جميعَها سنة ١٨٣٠ وجعل لها ممثّلاً واحداً لدى الحكومة العثمانية، وهو كاهن أرمني اتخذ لقب «البطريرك».

ورأى البابا بيوس الثامن أنّ الظروف موآتيةٌ لأن يُعتق الأرمن الكاثوليك من سلطة القاصد الرسولي اللاتينيّ المقيم في القسطنطينية، فنصَّب عليهم أُسقفاً أرمنيًّا مستقرًّا في العاصمة العثمانية، تمتد سلطته الروحية على أرمينية الكبرى وآسية الصغرى والمقاطعات العثمانية في القارّة الأوروبية. وتولّى هذا المنصبَ الجديد **المطرانُ أنطونيوس حسّون** سنة ١٨٤٦، واعترف البابُ العالي سنة ١٨٥٧ بسلطته.

وحقَّق المطران أنطونيوس حسّون مشاريعَ كثيرة. فشيَّد الكنائس والمدارس، وبنى داراً أسقفية ومدرسة إكليريكية، وأسَّس جمعية راهبات الحبل بلا دنس الأرمنيّات. ونال أبناء طائفته بفضله حُظوة كبرى لدى الحكومة العثمانية. فازدهرت في عهده الأبرشيّاتُ الأرمنية، والإرساليات المنتشرة في أرمينية الكبرى، في نواحي أراراط وطوروس وزيتون.

توحيد السلطة العليا

كان عدد الأرمن الضئيل لا يسمح لهم بأن ينتسبوا الى سلطتين مستقلّتين، الواحدة في بزمّار يمثلها بطريرك سيس، والثانية في القسطنطينية مرتبطة رأساً برومة. فلمّا توفي البطريرك ميخائيل أستوزادوريان سنة ١٨٦٥، انتخب أساقفة بطريركية سيس المطرانَ أنطونيوس حسّون على جميع الأرمن باسم بطرس التاسع (١٨٦٦ – ١٨٨١) وثبَّت البابا بيوس التاسع انتخابه، وأقرَّ رئاسته على الأرمن كلهم، واعترف به الباب العالي في السنة

عينها، وحمل لقب «بطريرك كيليكية» وأقام بالقسطنطينية. وبقي خلفاؤه فيها حتى عام ١٩٢٨

اضطرابُ الأحوال والتنظيم الجديد

لما تسلَّم البطريركُ أنطونيوس حسّون في القسطنطينية السلطَتين الروحيةَ والزمنية، كانت الدولةُ العثمانية في عهد «التنظيمات»، وكانت هذه التنظيمات قد أنعشت الروح القومية والوطنية في الطائفة الأرمنية، وأعطت للعلمانيّين مجالاً واسعاً للتدخّل في الشؤون الكنسيّة.

وبعث البابا بيوس التاسع سنة ١٨٦٧ ببراءة تعاكس تماماً هذه النزعة، فمنعت العلمانيّين من التدخّل في الشؤون الكنسيّة، وحصرت انتخاب الأساقفة في يدي البابا وحدَه، وانتخابَ البطريرك في أيدي الأساقفة فقط، واحتفظ البابا لنفسه أمر التثبيت. ورأى بعضهم أن هذا التدبير يغيّر عاداتِ الطائفة الأرمنية، فرفضوا قَبوله والانصياعَ له. وانقسمت الطائفةُ على نفسها، وثار المعارضون ثورةً عنيفة، فأحرقوا البراءة البابوية، وقاوموا البطريركَ حسّون مقاومة شديدة، وعزلوه عن منصبه فنفاه العثمانيون. ودامت القلاقلُ والاضطرابات من سنة ١٨٦٧ حتى سنة ١٨٧٩، أي إلى أن ارتقى البابا لاونُ الثالثَ عشرَ السُدّةَ الرسولية، فأطاعه المعارضون وقدَّموا له خضوعهم. فرقّى البطريركَ أنطونيوسَ حسّونَ الى الرتبة الكردينالية سنة ١٨٨٠ مكافأةَ خضوعِهِ لأوامر الكرسيّ الرسولي. واستقال البطريركُ الكردينال من منصبه البطريركي سنة ١٨٨١، وانزوى في رومة ومات فيها سنة ١٨٨٤

وخلفه **البطريركُ بطرسُ العاشرُ عازاريان** (١٨٨١ – ١٨٩٩) فتنازلت رومةُ بعضَ التنازل عن قراراتها، فأعاد البطريرك الجديد السلامَ، ورمَّم ما تهدَّم من مُنشآت البطريرك حسّون، فأعاد بناء الدار البطريركيّة، ومدرسة راهبات الحبل بلا دنس، ونظّمَ المستشفى الأرمنيّ في القسطنطينية، وبنى معهد القديس غريغوريوس في بيرة، أحدِ أحياء العاصمة العثمانية، وطبع الكتب الطقسية بمساعدة الآباء المختاريّين من فرع البندقية. وكان البطريرك بطرس العاشر رجلَ علم وعمل، فأحسن علاقاته مع الباب

العالي، فاعتبر بعضهم هذه العلاقاتِ الطيبة خيانةً للقضية الوطنية أثناء مذابح سنة ١٨٩٥ - ١٨٩٦، مع أن موقفه الفطن قد أنقذ الأرمنَ الكاثوليك من الموت، وأبعد المذابح سنة ١٨٩٦ عن مدينة الزيتون.

العودةُ الى الاضطراب ونقلُ مقرّ البطريركية

لما مات البطريرك بطرس العاشر عازاريان سنة ١٨٩٩، عاد الشعب الى المطالبة بحق انتخاب البطريرك والاساقفة، على غِرار الأرمن الغريغوريّين. وقويت هذه الحركة بعد إعلان الدستور وخَلعِ السلطان عبد الحميد. فاضطربت البطريركيةُ الأرمنيةُ اضطراباً شديداً في عهد **بطرسَ الحادي عشرَ عمانوئليان** (١٨٩٩ - ١٩٠٤) وعهدِ **بطرسَ الثانيَ عشرَ صباغيان** (١٩٠٤ - ١٩١٠)

وأظهر **البطريركُ بطرس الثالثَ عشرَ ترزيان** (١٩١٠ - ١٩٣١) تعلّقاً شديداً بالسُدّة الرسولية، وعقد عام ١٩١١ في رومة مجمعاً مع أساقفته، لا تزال قراراتُه تسيّر شؤون الكنيسة الأرمنية. وثارت المعارضة ضدّه، فعزلته الحكومة التركية، فالتجأ الى رومة حيث توفيّ سنة ١٩٣١. ودبَّر شؤونَ الطائفة قائمقامٌ بطريركيّ، وتجدَّدت مطاليبُ العلمانيين في إسطنبول عام ١٩٢٧، فنُقل مقرُّ البطريركية من جديد الى دير بزمّار عام ١٩٢٨.

وعُني **البطريرك بطرس الرابعَ عشرَ أرباريان** (١٩٣١ - ١٩٣٧) بتنظيم شؤون كنيسته، بعد أن هاجر معظمُ أبنائها من أرمينية الى سورية ولبنان، بعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، وإثرَ انسحابِ الفرنسيّين من كيليكية سنة ١٩٢١

الأوضاع الحاليّة في البطريركية الأرمنية الكاثوليكيّة

وخلفه **البطريرك بطرسُ الخامسَ عشرَ أغاجانيان** سنة ١٩٣٧. ورقّاه البابا بيوس الثاني عشر سنة ١٩٤٦ الى الرتبة الكردينالية. وفي سنة ١٩٦٠ أصبح رئيساً لمجمع انتشار الايمان، فاستقال من وظيفته البطريركيّة في آب ١٩٦٢.

وخلفه **البطريركُ أغناطيوسُ بطرسُ السادسَ عشرَ بطانيان** في شهر أيلول ١٩٦٢.

كان قبلاً أسقفاً على حلب، وحضر المجمع الفاتيكانيّ الثاني بصفته بطريركاً، وساس شؤون كنيسته بحكمة. ولما بلغ سنَّ الخامسة والسبعين، قدّم استقالته لقداسة البابا بولس السادس، فأعلن البابا قبولها عام ١٩٧٦.

وخلفه **البطريرك هاياك بطرس السابع عشر كديكان** (١٩٧٦ - ١٩٨٢)، وكان متقدّماً في السن، فاستقال في أيّار ١٩٨٢. فانتخب خلفاً له **البطريرك يوحنا بطرس الثامن عشر كسباريان** في ٥ آب ١٩٨٢.

للطائفة الأرمنية في الشرق الأوسط الأبرشيات التالية: الأبرشية البطريركية، وأبرشيات حلب، وبغداد، وإستنبول، وأصفهان، والقامشلي، والقاهرة، ونيابةٌ بطريركية في دمشق وفي القدس، ورهبانيّة المختاريّين، وراهبات الحبل بلا دنس. وللأرمن في فرنسة منذ عام ١٩٦٠ أسقفٌ تحتَ سلطتِه زهاءُ عشرة آلاف أرمنيّ، كما لهم نيابةٌ رسولية في أثينا وأبرشيّة في الأرجنتين، ونيابتان رسوليّتان في كلٍّ من أميركا اللاتينيّة (عدا الأرجنتين) والولايات المتّحدة وكندا. وعدد أبناء الطائفة في البلاد العربية والمهجر يربو على ٢٠٠ ألف نسمة.

أوضاع الأرمن الأرثوذكس

أرمن تركية

كان الأرمن في تركية قبلَ الحرب العالمية الأولى ما بين مليونٍ ومليونيَ نسمة. في عام ١٨٦٣ أصدر السلطانُ عبدُ العزيز نظاماً داخليًّا يخوّل العلمانيّين كثيراً من الحقوق في الأمور الكنسيّة. أما السلطانُ عبد الحميد فقد قسًا قسًا على الأرمن. فلمّا لم ينالوا مطاليبهم بالإصلاحات الدستورية، أسَّسوا أحزاباً سرّية، أهمُّها حزب أنشاك (سنة ١٨٨٨) وحزب طاشناك (١٨٩٠)، وكلاهما يبغي تحرير أرمينية، ولكنّ أوّلها شيوعيّ والثاني اشتراكي غيرُ شيوعيّ.

وأجرى السلطان عبدُ الحميد أُولى المذابح المنظَّمة ما بين ١٨٩٤ و ١٨٩٦ قضت على مئة ألف أرمنيّ. وتجدَّدت المذابح في أدنا سنة ١٩٠٩ فقضت في مدة أسبوعين على ٢٠ ألف أرمني.

وقرَّرت حكومة تركية الفتاة متابعة القضاء على الأرمن رغم مناصرة حزب الطاشناك لها. فهلك مليونُ أرمنيّ في ظروف قاسية جداً. ولم يبقَ في تركية حاليًّا إلا زهاءُ ٧٠ ألفَ أرمنيّ أرثوذكسي، معظمُهم في القسطنطينية، وليس لهم إلا أسقف واحد وهو البطريرك القسطنطينيّ الخاضع لجاثليق إشمازين.

أرمن الاتحاد السوفيانيّ

امتدَّ الحكم الروسيّ الى مناطق جبال أرمينية والقوقاز، وذلك على حساب تركية وإيران. ودخلت إشمازين، مقرُّ الجاثليق الأعظم، في حَوزة الروس سنة ١٨٢٨. وفي أثناء الحرب العالمية الاولى قاسى الارمنُ القاطنون في طَرَفَي الحدود التركية الروسية الكثير من الأهوال. ولما نشِبَت الثورة في روسية سنة ١٩١٧ وقضت على حُكم القياصرة أعلن الأرمن استقلالهم داخل الجمهورية الأرمنية، وتسلَّم زِمامَ الحكم حزبُ الطاشناك. ولما انتصر الشيوعيون في روسية، تعاون الشيوعيون والأتراك، فاحتلَّ الأتراك قسماً كبيراً من

أراضي الجمهورية الأرمنية، وقضوا على سكانها الأرمن، واستولى الروس على القسم الباقي وفرضوا فيه الحكم الشيوعيّ في ١٩٢٠/١٢/٤، ودمَجوه بالاتّحاد السوفياتي.

وقمعَ الشيوعيون الروسُ حريةَ الكنيسة، ولم يعد لجاثليق إشمازين إمكانيةُ الاتصال بسائر الأرمن، إلا أنه بعد نهاية الحرب العالمية الثانية سنة **١٩٤٥** أخذ يبثّ الدعاية بين الأرمن المنتشرين في أنحاء العالم، لإرجاعهم الى الجمهورية الأرمنية. وحاول بسطَ نفوذه وسلطته على جميع الأرمن، ولا سيّما على جثلقة سيس في سورية ولبنان.

يقطن القوقازَ حاليًّا زهاءُ مليونين و ٤٠٠ ألف أرمني، منهم مليون وستمائة ألف في جمهورية أرمينية السوفياتيّة، وثمانمئة ألف في جمهوريتَي جيورجية وأزربيجان المجاورتين. وهناك مئتا ألف أرمني آخرين منتشرين في نواحي الاتحاد السوفياتي. ولا يمكننا معرفة من بقي منهم مؤمناً بدينه وممارساً لأوامره. والأرمن القاطنون في جمهوريات الاتحاد السوفياتيّ، خاضعون كنسيًّا لجاثليق إشمازين قرب يَريفان، عاصمةِ الجمهورية الأرمنيّة. وقد عادت الحرّية الدينية الى أرمينيا عام ١٩٩٠.

أرمنُ سورية ولبنان

إن معظم الأرمن الذين نجوا من المذابح قد لجأوا الى حلب، ومنها توزَّعوا في نواحي سورية ولبنان. ولما احتلَّ الفرنسيّون مقاطعة كيليكية، عاد إليها سكانها الأرمن (١٩٢٠)، إلّا أنهم اضطرّوا إلى أن ينزحوا عنها من جديد، لما جلا عنها الفرنسيون. فلجأ جاثليق سيس الأرثوذكسيّ إلى لبنان، وأقام في بلدة انطلياس، شماليّ بيروت. ويربو عدد أرمن سورية ولبنان على ٢٠٠ ألف نسمة.

ونشِبَت أُزمة دينية سنة ١٩٥٦ إثرَ انتخاب **البطريرك زاره** جاثليق سيس. فقد حاول جاثليق إشمازين أن يتدخَّل في شؤون جَثْلقةِ سيس ويفرضَ عليها سلطته. إلا أن **الجاثليق زاره (١٩٥٦ - ١٩٦٣)** قد تمكّن من المحافظة على استقلال بطريركيته، وإعادة الهدوء والسلام إليها. وقد انضمَّت إليه أبرشيات كثيرة في المهجر، كانت خاضعة لجثلقة إشمازين. وتوفي البطريرك زاره عام ١٩٦٣، وخلفه **البطريرك خورين بارويان.**

زار **الكاثوليكوسُ خورين** قداسةَ البابا بولسَ السادس في رومة عام ١٩٦٧. وظلّ

قائماً على شؤون كنيسته حتى عام ١٩٧٧ ، إذ عَيَّن المطرانَ كاركين سركيسيان معاوناً له ، وهو يتمتّع بكامل الصلاحيّات. ولمّا توفيّ الكاثوليكوس خورين في ٩ شباط ١٩٨٣ أصبح معاونُه الكاثوليكوس الأصيل. وزار **الكاثوليكوس الجديد كاركين سركيسيان** قداسةَ البابا يوحنا بولس الثاني ، عام ١٩٨٣ ، وأُجري له استقبال حافل. والكاثوليكوس كاركين ضليع بالأمور المسكونيّة. وكان قد مثّل كنيسته كمراقب في المجمع الفاتيكانيّ الثاني.

وهذه بعض إحصاءات عن الأرمن في العالم : في اليونان ١٠ آلاف ، في إيران ١٠٠ ألف ، في مصر ٢٥ ألف ، في قبرص ٤ آلاف ، في الأردن والقدس ٣ آلاف ، في العراق ٢٥ ألف ، في فرنسة ٨٦ ألف ، في امريكا الشمالية ٢٠٠ ألف ، في امريكا الجنوبية ١٥٠ ألف ، في الهند ألفان ، في أوروبة الغربية ما عدا فرنسة ٥ آلاف. ومجموع الأرمن في العالم كله ٣ ملايين ونصف.

الفصل الثلاثون

الكَنِيسَةُ السُّرْيَانِيَّة

المقدّمة

مرَّ تاريخ كنيسة السُّريان الكاثوليك بثلاث مراحل :

الاولى ، كان فيها للبطريرك السرياني لقبُ «بطريرك حلب» وقد امتدّت من سنة ١٦٦٢ الى ١٧٠٢

والثانية ، كان فيها الكرسي البطريركي شاغِرًا ، وكان يسوس الطائفةَ النوابُ البطريركيّون ، وقد امتدّت من سنة ١٧٠٢ الى سنة ١٧٨٣

والثالثة ، أُعيدت البطريركيةُ السُّريانية فيها الى الوجود بلقب **البطريركية الأنطاكية**» وقد اتّخذت لها مقرًّا في مدن مختلفة.

بطريركيةُ حلبَ السُريانيّة (١٦٦٢ - ١٧٠٢)

اعتنق سنة ١٦٤٩ المطرانُ السريانيّ الأرثوذكسيّ ديونوسيوسُ قسطنطين، أسقفُ حلب، المذهب الكاثوليكيّ وهو على فراش الموت. وخلفه المطران ديونوسيوسُ توما، وكان يؤيّد الكثلكة، ففتح كنيستَه لوعظ الرهبان المرسلين وتبشيرِهم. وكان القنصل الفرنسيُّ فرنسوا بيكه خيرَ مساعد لهم في مهمتّهم الدينية.

ولما مات المطران توما سنة ١٦٥٦، سعى القنصلُ بيكه لدى البطريرك شمعون في طُور عبدين، ليقيم أندراوس اخيجان أسقفاً على أبرشية حلب السريانية، فنجح في مسعاه. وإليك بعضَ التفاصيل:

أندراوس أخيجان: ولد أخيجان في حلب سنة ١٦٢٢ من أبوين أرثوذكسيّين. ولما شبَّ أضحى شماساً إنجيلياً، ثم اتصل بأحد المرسلين، وهو الأب برونو رئيس الكرمليّين بحلب، فاهتدى الى الكثلكة، ويمَّم لبنانَ وحلَّ في دير قنوبين عند البطريرك الماروني يوسف العاقوري. ثم انتقل الى القاهرة، فقضى فيها مدةً من الزمن. ثم سافر الى رومة ودرس في المدرسة المارونية سنتين، عاد بعدهما الى القاهرة، حيث بقي ثلاثَ سنوات ونصف. ثم ارتدَّ الى لبنان، وأقام عند البطريرك الماروني يوحنا بوّاب الصفراويّ، فمنحه السيامةَ الكهنوتية، وعيَّنه نائباً عنه في قبرص وعكار، فشغل هذه الوظيفةَ مدة خمس سنوات.

واشتدّت أواصر الصداقة بين البطريرك شمعون والقنصل الفرنسيّ بيكه. فلما توفي المطران توما سنة ١٦٥٦ تمكّن بيكه من حمل البطريرك على اختيار كاهن سُرياني كاثوليكي، ليكون مطراناً على أبرشية حلب. ووقع اختيارهما على أخيجان. فقبل الرسامة الأسقفية من البطريرك المارونيّ يوحنا الصفراوي في ٢٩ حزيران ١٦٥٦، ونال في ٧ تشرين الثاني ١٦٥٦ من السلطان محمد الرابع فرماناً يعترف به رئيس أساقفة أبرشية حلب السُريانية. ودخل المدينةَ مع زميله في الدراسة المطران إسطفان الدويهي، وتسلّم زمامَ الأبرشية في ٩ آب ١٦٥٦. وكان البطريركُ شمعون قد غادر حلب قبل مجيْ المطران أندراوس أخيجان بمدة وجيزة.

ولاقى أخيجانُ في حلب مقاومةً عنيفة، فآثر الانسحابَ والهدوء على البقاء والاضطراب، فترك المدينة في ١٥ أيار ١٦٥٧ والتجأ إلى لبنان.

وأقبل إليه بعد مدة وفدٌ من كهنته ليقنعوه بالعودة إليهم فلم يقتنع. وصعد إليه جماعةٌ من المرسلين الكبّوشيّين، وألحّوا عليه في العودة إلى حلب، فغادر لبنان وأتى الى أبرشيته ودخل كنيسته في ١٢ آذار ١٦٥٨

وفي ٢٨ كانون الثاني ١٦٥٩ ثبَّت البابا ألكسندروسُ السابع (١٦٥٥-١٦٦٧) انتخابَه أسقفاً على حلب، فعقد في ربيع سنة ١٦٦٠ اجتماعاً اشترك فيه الروم والأرمن والسريان، واعترفوا بصحة المذهب الكاثوليكي. واستطاع المطران أندراوس أخيجان أن يجلب بغيرته وتضحياته المتواصلة قلوب مقاوميه.

وتوفي البطريرك شمعون، فاجتمع سريان حلب الكاثوليك، وأعلنوا أندراوس بطريركاً على الكنيسة السريانيّة في ١٩نيسان ١٦٦٢، فاعترف به السلطان محمد الرابع بالبراءة، وبأمر همَايوني في ١٣ آب ١٦٦٢، ومنحه ألكسندروس السابع درع التثبيت في ٢٢ تموز ١٦٦٣

وأسَّس سنة ١٦٧٠ في حلب جمعية رهبانية نسائيّة أثارت بفضائل أعضائها إعجابَ الناس كلهم. وتوفي في ٢٨ تموز ١٦٧٧ بعد أن قضى حياة ملؤها التقوى والفضيلة.

اغناطيوس بطرس البطريرك الشهيد: وخلفه البطريرك أغناطيوس بطرس شاهبادين (١٦٧٧-١٧٠٢). كان أغناطيوس رئيسَ أساقفة القدس، وكانت أبرشيته مثقّلة بالديون، فقام وجاء الى العراق ليستجدِيَ حسناتِ المؤمنين. ومرَّ في طريقه بمدينة حلب، واتصل بالبطريرك أندراوس أخيجان. فأُعجب البطريرك بما كان يتحلّى به هذا الحَبْر من الصفات النبيلة والفضائل السامية. فلما توفي أخيجان أجمعَ الكلُّ على انتخابه بطريركاً، ودعوه الى حلب، فأقبل إليها، واشترك في حفلة تنصيبه ثمانية من الأحبار الكاثوليك من مختلف الطوائف. ورسم البطريرك ثلاثة أساقفة لأبرشيات القدس وحلب ونينوى. وكتب رسالة ضمَّنها صورة معتقده وأرسلها الى البابا.

وتحمَّل البطريرك أغناطيوس كثيراً من الاضطهادات، فذاق السجنَ والضرب

والنفي. وكان أثناء نضاله في سبيل الايمان قُدوةً صالحة لأبناء طائفته، ومثالاً حيّاً للشهامة والفضيلة. ومات في المنفى في ٤ آذار ١٧٠٢

البطريركية السريانية الكاثوليكيّة الشاغرة(١٧٠٢ - ١٧٨٣)

وحُرمت الطائفة السُريانية الكاثوليكية بعد وفاة البطريركِ أغناطيوسَ بطرس من راعٍ يدبِّر شؤونَها مدة ثمانين عاماً.

وأقام الحبر الأعظم خلفاً للبطريرك نائباً بطريركياً. وكان النُواب البطريركيّون يقيمون بلبنان، ويأتون الى حلب ودمشق من وقت الى آخر مدة فترات قصيرة، يتفقّدون فيها شؤون طائفتهم، ثم يعودون الى مقرّ إقامتهم. ودامت الأمور على هذه الحال حتى سنة ١٧٨٣، وفيها أُقيم للسُريان بطريركٌ حملَ لقب «بطريرك إنطاكية»، وهو البطريرك ميخائيل جروه.

وقد اهتمَّ بطاركة الروم الكاثوليك بشؤون السُريان الكاثوليك اهتماماً كبيراً. فالبطريرك كيرلس طاناس رسم للطائفة السريانية أربعةَ أساقفة، منهم نائبان بطريركيّان، المطرانُ غريغوريوس نعمة القدسيّ سنة ١٧٣١، وخلفه غريغوريوسُ جبرائيل فيزون سنة ١٧٤٠، وقد أقاما في دير مار إفرام في المتن بلبنان.

البطريرك الإنطاكي ميخائيل جروه (١٧٨٣ - ١٨٠١)

في أواخر القرن الثامن عشر نشِطت فكرة الاتحاد مع رومة بين السريان الأرثوذكس، فاعتنق العديدُ منهم الكثلكة في مدن حلب وماردين والموصل، وبينهم عدةُ أساقفة، وهذا ما أدَّى الى إحياء البطريركية السُريانية الكاثوليكيّة بلقب «البطريركية الأنطاكية».

عقدَ البطريركُ اليعقوبي جرجس الرابع مجمعاً سنة ١٧٨٢ انضم إليه أساقفة الكنيسة السريانيّة الأرثوذكسيّة، وبينهم المطرانُ ميخائيل جروه، رئيسُ أساقفة حلب. وكان ميخائيل ميّالاً الى الكثلكة يؤيّدها ويدافع عنها، فأخذ يزرع في قلوب الأساقفة الملتئمين فكرةَ الاتحاد بالكنيسة الرومانية، وجعل يدعو الناس إليها بحماسة، ونجح لدى أبناء رعيته

نجاحاً باهراً، فاعتنق كل سريان حلب المذهب الكاثوليكي. أمّا في الموصل فلم يَقبل الكثلكةَ إلا كاهنان وبعضُ أفراد الشعب.



البطريرك ميخائيل جروة

ومرض البطريرك جرجس الرابع سنة ١٧٨٢ مرضاً ثقيلاً وأشرفَ على الموت، فعاده بعضُ الاساقفة والكهنة والوجهاء ورجَوه أن يعيّن من يخْلفُه لئلاّ تنقسمَ الطائفة على نفسها بعد وفاته. فعيَّن المطرانَ ميخائيل جروه خلفاً له. فانطلق ميخائيل الى ماردين، وأخذ يبشّر بالمذهب الكاثوليكيّ، فانضمَّ إليه كهنةُ هذه المدينة وكثيرٌ من المؤمنين وخمسةٌ من الأساقفة. ثم انتُخب بطريركاً فأقام بماردين عينها.

ونصَّب معارضو الاتحاد مع رومة بطريركًا آخر عليهم، وهو المطرانُ متى، أسقفُ الموصل، فحصل من السلطان بواسطة بطريرك الأرمن الغريغوريّين على البراءة الشاهانية. فهرب البطريرك ميخائيل جروه من مدينة ماردين، وسافر الى بغداد ومنها إلى لبنان. وأسَّس فيه دير الشرفة تحت حماية سيدة النجاة. ومات سنة ١٨٠١ بعد ان أعاد تنظيم الكنيسة السُريانية الكاثوليكيّة.

كان البطريرك ميخائيل جروه قد اهتمَّ في حياته بالأمور الطقسيّة، فألَّف خدمة عيد الجسد الالهي، وأعاد طبع كتاب الفرض الكنسيّ، وصحَّح الكتب الطقسية الأخرى، وترك بعد موته ذِكرَ الرجل القديس.

وخلفه البطريركُ ميخائيل ضاهر (١٨٠٢–١٨١٠) واستقال من منصبه. ثم البطريركُ سمعان هندي زورا (١٨١٤–١٨١٨) واستقال هو الآخر. فعُهِد أمرُ تدبير الطائفة الى نائب بطريركيّ من سنة ١٨١٨ الى سنة ١٨٢٨

البطريركُ بطرس جروه في حلبَ (١٨٢٨ – ١٨٥١)

في سنة ١٨٢٨ ثبَّت الحَبرُ الأعظم انتخابَ **البطريرك بطرس جروه** (١٨٢٨–١٨٥١) فكانت بطريركيتُه الطويلة مزيجَ أفراح وأحزان متواصلة.

وفي سنة ١٨٣٠ نقل مقرَّ الكرسيِّ البطريركيّ من ديرِ الشرفة إلى حلب، وأقام بها، وفي سنة ١٨٤٥ تحرَّرت الطائفة السُريانية الكاثوليكيّة من تَبِعة البطريرك الأرثوذكسي، فاهتمَّ بجمع شمل أبنائه وتنظيم كنيسته وإعادة الحياة إليها.

وكان جميع سريان حلب قد اعتنقوا المذهبَ الكاثوليكيّ، وانضموا الى طائفته، فكانت الكاتدرائية السُريانية الجميلة تحت تصرّفه، وجدَّد افتتاحَ دير الشرفة، واشترى في حلب خمسَ بنايات. ونقل الى هذه المدينة كلَّ ما في الدير من أَوانٍ مقدسة وملابسَ كهنوتيةٍ ومخطوطاتٍ ثمينة. وانقضَّ الأتراك عليها سنة ١٨٥٠ وأحرقوها، وضربوا البطريرك ضرباً فادحاً، فمات بعد هذه الأحداث الأليمة بمدة وجيزة، وقد امتلأت نفسه كآبةً ومرارة.

كان البطريرك بطرس جروه عالماً كبيراً، وخَطيباً مفوَّهاً، وكاتباً بارعاً، وقد طبع عدة مقالات دينية نقل بعضها عن الايطالية. وأدخل في الطقس الكنسيّ عادةَ التقديس بمُواجهَةِ الشعب يومَ خميسِ الأسرار، واستبدل بالحساب اليوليّ الحساب الغريغوريّ في ٢ حزيران ١٨٣٦

البطريركُ أنطونُ سمحيري في ماردين (١٨٥٤ – ١٨٦٤)

وخلفه **البطريرك أنطونُ سمحيري** (١٨٥٤–١٨٦٤). كان أنطون أسقفًا أرثوذكسيًّا، ثم مفريانًا شديدَ التمسك بمعتقدات كنيسته وتعاليمها. عَثَر يومًا في مكتبة دير الزعفران اليعقوبية على نصوص شهاداتِ الإيمان التي كتبها بعضُ البطاركة السابقين، فقرأها

بإنعامِ نظر، فإذا هي تؤكّد بصراحة صحّة المذهب الكاثوليكيّ. فانطلق فوراً الى ديار بكر، وعرض على البطريرك جرجس الخامس أن ينضمَّ هو وأبناء كنيسته جميعُهم الى الكنيسة الرومانية. فاعترف البطريركُ بصحّة التعليم الكاثوليكيّ، ولكنه رفض الاتحادَ بالكنيسة الرومانية الى أن تتهيأ الفرصُ المؤاتية.

وغادر المطران أنطون مدينةَ دياربكر وسافر الى ماردين، وأخذ يبشّر الناس بالمعتقد الكاثوليكي.

وفي ١٧ نيسان ١٨٢٧ صرَّح في ماردين بايمانه الكاثوليكيّ أمام مطرانِ طائفة الأرمن الكاثوليك يواكيم طازبازيان، واتّحد بالكنيسة الرومانية اتحاداً رسميّاً.

وتعذَّب المطرانُ أنطونُ سمحيري عذاباً شديداً في عهد البطريركين الأرثوذكسيّين جرجس الخامس سيَّار وإيليا الثاني عنكز. ولما أطلَّ عام ١٨٤٧ عاد السلام إلى الطائفة السُريانية الكاثوليكيّة، فشعرَ بشيْ من الهدوء والسكينة. وتوفّي البطريرك بطرس جروه سنة ١٨٥١، فتوجّهت الأبصار كلها إلى المطران أنطون. فعقد الأساقفةُ في دير الشرفة مجمعاً، وانتخبوه بطريركاً في ٣٠ تشرين الثاني ١٨٥٣. فنقل مقرَّ بطريركيته من حلب إلى ماردين، وبنى فيها كنيسةً كاتدرائية. ثم سافر الى أوروبة ليجمع التبرّعات ويرمّم الخراب الذي حدث سنة ١٨٥٠. وقابل في أثناء رحلته بعض ملوكها، وأضحى عرَّاباً للأمير لويس بن نابوليون الثالث. وقد جمع خلال سفره الى أوروبة أموالاً طائلة، وأتى بملابس ثمينة وتوفّي في ١٦ حزيران ١٨٦٤، بعد أن قضى حياة مليئة بالجهاد في سبيل المعتقد المسيحيّ.

تنظيمُ شؤون البطريركية في أيام البطاركة عرقوس وشلحت وبني

وخلفه **البطريركُ فيلبس عرقوس** (١٨٦٤–١٨٧٤)، وقد دافع عن امتيازات الكنيسة الشرقيّة في المجمع الفاتيكانيّ الأول (١٨٦٩–١٨٧٠) وانضمّ إلى الأقليةّ المعارضة لتحديد عصمة البابا.

وانتخب بعده البطريرك الشهير **جرجس شلحت** (١٨٧٤–١٨٩٢) وهو من مواليد حلب، وكان أسقفاً عليها من سنة ١٨٦٤ حتى ١٨٧٤، وهي سنة ارتقائه السُدّةَ

البطريركية. وقد ترك في حلب آثاراً كبيرة من أعماله. وفي عهد بطريركيّته انضمَّ الى طائفته ثلاثةُ أساقفة وثمانية آلاف نسمة. وأسَّس سنة ١٨٨٤ بقرب ماردين جمعيةً رهبانية غايتُها التبشيرُ في القرى الأرثوذكسيّة المجاورة. وقد قام أفرادها بأعمال جليلة، ولكنَّ الجمعية اضمحلّت إثر النكبة التي حلّت بالمسيحيين في تلك المنطقة إبّان الحرب العالميّة الأولى (١٩١٥). واهتمَّ بتنظيم شؤون طائفته اهتماماً عظيماً، فترأس سنة ١٨٨٨ مجمعَ الشرفة، فكان له الفضل الأعظم في ترتيب الأمور الكنسيّة. ولا تزال الكنيسة السُريانية حتى اليوم تتبع ترتيباتِ المجمع المذكور. وبنى معبدَ دير الشرفة، وعهِدَ الى المطران إقليمس داوود ضبطَ كتب الصلوات القانونية في ستة مجلدات. وتوفي في ٨ كانون الاول ١٨٩٢

واشتهر في زمانه المطرانُ إقليمس داوود أسقفُ دمشق (١٨٧٩-١٨٩٠) وهو من أكابر علماء عصره. وقد اشترك في اللّجنة التحضيرية للمجمع الفاتيكانيّ الأول يومَ كان كاهناً. وقد بَرَع في كل فنّ حتى إنّك كنت تجدُ الجواب لديه حاضراً لأية مسألة تسأله إياها، وقد قيل عنه «انه سنَدُ العلومِ الشرقية واللغات السامية والفنون الطقسية كافة.»

وبعد البطريرك جرجس شلحت، نُصّبَ بهنامُ بنيّ بطريركاً على الطائفة السُريانية، في ١٢ تشرين الأول ١٨٩٣. وكان من قبلُ مطرانَ الموصل منذ عام ١٨٦٢. وحضر، وكان لا يزال أسقفاً، المجمعَ الفاتيكانيَّ الاول، وألقى في جلساته عدة خطابات أظهر فيها ميله إلى تحديد عِصمةِ البابا. ولما أصبح بطريركاً لبىّ دعوة البابا لاونَ الثالثَ عشر، فسافر الى رومة سنة ١٨٩٤ وانضمَّ الى سائر بطاركة الطوائف الشرقية الكاثوليكية، واشترك وإياهم في المحادثات الدينية التي أجَروها مع الحبر الأعظم في ما يتعلّق بأوضاع الكنائس الشرقية والامتيازات البطريركيّة. وتُوفّي البطريرك بهنام سنة ١٨٩٧

كان هذا البطريرك الفاضل رجلاً كريماً عالماً صاحبَ ثقافة واسعة وذكاء حادّ ومعارف غزيرة، وقد اهتمّ في حياته بتربية الإكليروس، فعَهِدَ الى الرهبان الانتقاليّين* إدارةَ مدرسةِ ديرِ الشرفة الإكليريكيّة، فخدمت هذه المدرسة الطائفةَ السُريانية الكاثوليكية خدماتٍ جُلّى، وقدّمت لها كهنةً مثاليّين في الغيرة والنشاط والتضحية.

(*) Les Assomptionnistes

البطريركُ أفرام رحماني والكردينالُ جبرانيل تبّوني

وخلفَه **البطريركُ أغناطيوس أفرام رحماني** (١٨٩٨-١٩٢٩). كان أوّلاً نائباً بطريركياً في القسطنطينية، ثم رئيسَ أساقفة بغداد، فرئيسَ أساقفة حلب (١٨٩٣) وانتُخب بطريركاً على طائفة السُريان الكاثوليك في ٩ تشرين الأول سنة ١٨٩٨

كان البطريركُ رحماني صاحبَ فضيلة سامية وعِلمٍ زاخر، فجلبَ بغيرته الرسولية كثيراً من السريان الأرثوذكس الى المذهب الكاثوليكي. ونشر عدةَ مؤلفاتٍ دينية وتاريخية، لها قيمةٌ علميةٌ رفيعة. واهتمَّ هو الآخرُ بتربية المرشَّحين الى الحياة الكهنوتية، فعَهِد سنة ١٩٠٢ الى الرُهبان البندكتيّين تأسيس مدرسة إكليريكية للسُريان الكاثوليك على جبل الزيتون في القدس. وأسَّس جمعيّتين رهبانيّتين نسائيّتين، الاولى في حريصا (لبنان) والثانية في ماردين. فقُتلت راهباتُ ماردين سنة ١٩١٤ إبّان الحرب العالمية الأولى، وانضمَّت راهباتُ حريصا الى راهبات الورديّة التابعات للبطريركية اللاتينية في القدس. وقد جعل البطريركُ أغناطيوسُ مركزَه في بيروت بتفويض من الحبر الأعظم، وتوفّي سنة ١٩٢٩، وخلفه **البطريركُ جبرائيلُ تَبّوني**.

وُلد البطريرك جبرائيلُ تبّوني في الموصل سنة ١٨٧٩، ودخلَ وهو في الثالثةَ عشرةَ من عمره مدرسةَ الآباء الدومينيكان في المدينة نفسِها، وتلقَّن فيها العلومَ الكهنوتية، وأضحى كاهناً سنة ١٩٠٢، وأسقفاً سنة ١٩١٣، فتولّى شؤونَ النيابةِ البطريركية في ماردين. وفي أثناء الحرب العالمية الأولى تجلَّت محبتُه لرعيته بأروعِ مظاهرها، فدافع عنها دفاعَ الأبطال. وفي سنة ١٩١٩ عُيّن نائبًا بطريركيًّا على أبرشية حلب، ثم أسقفًا عليها. وفي ٢٤ حزيران ١٩٢٩ عقدَ أساقفةُ الطائفة السُريانية مجمعًا في دير الشرفة، وانتخبوه بطريركًا. وفي سنة ١٩٣٥ رقّاه الحبرُ الأعظم البابا بيوسُ الحادي عشر الى رتبة كردينال الكنيسة الرومانية.

اشترك البطريرك تبّوني في أعمال المجمع الفاتيكانيّ الثاني، وتوفّي في بيروت في ٢٩ كانون الثاني ١٩٦٨.

وانتُخب خلفاً له مطرانُ حلب **مار ديونوسيوس أنطون حايك**، وهو من مواليد حلب عام ١٩١٠. أصبح أسقفاً على حلب في ١٥ آب عام ١٩٥٩، وبطريكاً في ١٠ آذار ١٩٦٨. وقد جدّد دير الشرفة، وأحيا الرهبنة الأفراميّة النسائيّة. وله عدةُ مؤلفات

تاريخية أهمُّها : تاريخ دير مار أفرام ، وعلاقات كنيسة السُريان اليعاقبة بالكرسيّ الرسوليّ من ١١٤٣-١٦٥٦.

الأوضاع الحاليّة

للكنيسة السُريانية حاليّاً الأبرشيات التالية : الأبرشية البطريركية ، وأبرشياتُ الموصل وحلب ، ودمشق ، وبغداد ، وحمص وحماه ، والجزيرة والفرات ؛ وثلاثُ نياباتٍ بطريركيّة في القدس ولبنان ومصر.

هذا ، وقد انقرض أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) معظمُ نصارى نواحي ماردين واورفا ودياربكر ، فقُتل أبناؤها وأساقفتها وكهنتها.

ولها رُهبانيةٌ نسائيّة تلقَّبُ راهباتها بالإفراميّات.

وتضمّ الطائفةُ السُريانية حوالي ١٠٠ ألفِ نسمة ، يسكنون في العراق وسورية ولبنان ومصر ، وما يقارب ١٥ ألفَ نسمة في المهجر ، ولها أكثرُ من ٥٠ مدرسة ، فيها حوالي ٩ آلاف طالب وطالبة.

أوضاعُ السريانِ الأرثوذكس

تشرَّد عدد كبير من السُّريان القاطنين في شرقيّ تركية إبانَ الحرب العالميّة الأولى. وانتقل المقرُّ البطريركيّ من دير الزعفران قربَ ماردين، الى جهات الموصل، ثم استقرَّ في حمص سنة ١٩٣١ الى أن نقله البطريركُ أغناطيوسُ يعقوب الثالث إلى دمشق عام ١٩٥٩.

واستعادت الكنيسةُ السُّريانية الأرثوذكسيّة حيويّتها بهمّة ثلاثة بطاركة تعاقبوا على رأسها وامتازوا بعلمهم وفضيلتهم:

أغناطيوس أفرام الأول برصوم (١٩٣١–١٩٥٧): إشتهر بأبحاثه العلميّة في تاريخ الأدب السُّريانيّ، وله في ذلك كتابه المعروف في الأوساط العلمية: **اللؤلؤ المنثور**.

أغناطيوس يعقوب الثالث (١٩٥٧–١٩٨٠): عمل على توطيد العلاقات بين الكنائس الأرثوذكسية غير الخلقيدونيّة، وفتح كنيسته على الحركة المسكونيّة إذ اصبحت عام ١٩٦٠ عضواً في مجلس الكنائس العالميّ. وأرسل مراقبين إلى المجمع الفاتيكانيّ الثاني منذ دورته الأولى. وقام بزيارة أولى إلى رومة عام ١٩٧١، في عهد البابا بولس السادس، وأصدر بيانًا مشتركًا يوضح وحدة العقيدتين الكاثوليكية والسُّريانية حول سرّ التجسّد. وقام بزيارة ثانية الى رومة قبل وفاته بقليل، في عهد البابا يوحنا بولس الثاني (أيار ١٩٨٠). وقد توفّي في دمشق في ٢٥ حزيران ١٩٨٠.

أغناطيوس زكا الأوّل عيواص: انتخب في ١٢ تموز ١٩٨٠ وكان مطراناً على الموصل ثم بغداد، وكان قد مثّل كنيسته كمراقب في المجمع الفاتيكانيّ الثاني، وشارك في الحوار المسكونيّ بين الكنائس الأرثوذكسية الخلقيدونية والكنائس غير الخلقيدونيّة. وقد قام بزيارة رسميّة لقداسة البابا يوحنا بولس الثاني، في حزيران ١٩٨٤، فصَدَر عقِبَ هذه الزيارة بيانٌ رسميّ يوضح التقاربَ العقائديّ بين الكنيستين، الكاثوليكيةِ والسُّريانية الأرثوذكسية، ويسمح بالتعاون الرِعائيّ والاشتراك بالأقداس في بعض الظروف المعيّنة.

وللسريان الأرثوذكس في سورية أربعُ أبرشيات، هي دمشق، وحمص وحماه، وحلب، والجزيرة والفرات. ولهم في لبنان أبرشيةُ بيروت وزحلة وأبرشية جبل لبنان. وفي الأردنّ أبرشية القدس. وفي العراق أبرشية بغداد والبصرة وأبرشيةُ دير مار متى شرقيَّ شماليِّ الموصل، ونيابةٌ بطريركيّة في الموصل، وفي تركية أبرشية طور عبدين (ومقرّها مزيات)، ونيابةٌ بطريركية في إسطنبول ومصر. وفي بلاد الاغتراب لهم خمس أبرشيّات: الولايات المتحدة وكندا - البرازيل - الأرجنتين - السويد - أوروبة الوسطى (هولّندا).

وعَدَدُ أبناء الطائفةِ يتراوح بين مئةٍ ومئتَي ألفِ نسمة. أمّا سَريانُ الهندَ، وعددهم مليونان، فقسمٌ منهم يعترف بسلطة بطريرك السريان الإنطاكي (١٦ أبرشية)، والقسمُ الآخر قد أعلن استقلاله ويخضع لكاثوليكوس الهند (٩ أبرشيات).

وإنّ فرعًا من سريان الهند الأرثوذكس أعلن اتّحاده بروما عام ١٩٣٠ فشكّل الكنيسة الملنكاريّة.

الفصل الحادي والثلاثون

الكنيسة القبطيّة

محمد علي والمسيحيون

تسلّم محمد علي شؤون مصر منذ سنة ١٨٠٥ وأسّس مصر الحديثة ، وأظهر عطفاً على المسيحيين وتسامحاً معهم ، فانتعشوا بعد عصور طويلة قضوها في الذل والخمول ، وحصلوا على وظائف عالية وساهموا في رقي البلاد.

وأمَّ مصر في عهد محمد علي وخلفائه عدد كبير من مسيحيّي سورية ولبنان فأصبحوا العنصر القوي في نهضة الصحافة المصرية والادب العربي والاقتصاد القومي. وكذلك استوطن مصر عدد كبير من الأوروبيين من ايطاليين ويونانيين ومالطيين. وقد غادرها القسم الأكبر منهم الآن بعد التطوّرات التي عقبت ثورة يوليو ١٩٥٢ .

الاقباط الارثوذكس

يؤلف الاقباط الأرثوذكس الكنيسة الكبرى في مصر من ناحية العدد. فقد ازداد عددها في القرن الاخير مع ازدياد سكان مصر فبلغت ثلاثة او اربعة ملايين. للكنيسة القبطية ثلاثون اسقفاً ما عدا البطريرك المقيم في القاهرة ، بينهم ٢٦ اسقفاً في مصر ، واثنان في السودان وواحد في القدس وواحد في اثيوبيا.

وعرفت الكنيسة القبطيّة نهضة جديدة مع البطريرك **كيرلس السادس** (١٩٥٩–١٩٧١) عَقِبَ فترة طويلة من الاضطرابات، وانتعشت الحياةُ الرهبانيّة والحياة الكنسيّة في مختلف المجالات. زار البطريرك كيرلس إثيوبيا، وسوّى الخلافات التي كانت قائمةً بين الكنيستين القبطيّة والإثيوبية. وَرأَس عام ١٩٦٥ مؤتمر أديس أبابا الذي جمع لأول مرة رؤساءَ الكنائس الرافضة للمجمع الخلقيدونيّ. وفتح كنيسته على الحركة المسكونيّة، وأوفد مراقبين للمجمع الفاتيكانيّ الثاني في رومة. وفي ٢٥ حزيران ١٩٦٨ دشّن الكاتدرائيّة المرقسيّة الكبرى، بحضور الرئيس جمال عبد الناصر، والإمبراطور الاثيوبي هيلاسيلاسي. وحضر الاحتفالَ وفدٌ رسميٌّ من قبل الكنيسة الكاثوليكية، برئاسة الكردينال دوفال، رئيس أساقفة الجزائر الذي أعاد بهذه المناسبة إلى مصر ذخائرَ القديس مرقسَ الرسول، مؤسسِ كنيسة الإسكندرية. وكان لهذه المبادرة تأثيرٌ كبير على تحسين العلاقات بين الكنيسة الكاثوليكيّة والكنيسة القبطيّة بعد قطيعة طويلة.

توفّي البطريركُ كيرلس السادس في ٩ آذار ١٩٧١، وانتخب خلفه الأنبا شنودا في ٣١ تشرين الأول ١٩٧١. وتابع **البطريركُ شنودا** نهضةَ كنيسته وانفتاحَها. فزار إسطنبول ودمشق، وأفريقيا الاستوائيّة وأميركا، وهو أول بطريرك قبطيّ يخرج هكذا من مصر. وفي عام ١٩٧٣ زار قداسةَ البابا بولس السادس في رومة (٤–١٠ أيار)، فصدر عقِبَ الزيارة بيانٌ مشترك يوضح تقارب الكنيستين، الكاثوليكيّةِ والقبطية من الوجهة العقائديّة، وتمّ تشكيلُ لجنة حوار مشتركة بين الكنيستين. وصادفت هذه الزيارات الاحتفالات بالذكرى المئويّة السادسةَ عشْرةَ لوفاة القديس أثناسيوس الكبير، رئيس أساقفة الإسكندرية (+ ٣٧٣). وبهذه المناسبة أعاد معه البطريركُ من روما ذخائرَ القديس أثناسيوس.

وعلى أثَر الاضطرابات الطائفيّة التي عكّرت أجواءَ مصر عامي ١٩٨٠، ١٩٨١، أصدر الرئيس أنور السادات في ٥ أيلول قراراً يسحب الاعتراف بالبطريرك شنودا كرئيس أعلى للأقباط. فانزوى البطريركُ في أحد أديرة الصحراء. وخفّف الرئيس حسني مبارك من وطأة العزلة المفروضة على البطريرك، الى ان سُمِح له بالعودة الى القاهرة وممارسة مهامّه، وذلك في آخر عام ١٩٨٥.

نموُّ الكثلكة في مصر

جرَت في غُضون القرن السادسَ عشر والسابعَ عشر محادثاتٌ وديّة بين بطاركة الأقباط وكنيسةِ رومة، لم تُسفر عن نتائجَ عمليّة. ولمّا كان عددُ الكاثوليك ضئيلاً في القرن السابعَ عشر، فقد عهِدَ البابا إينوسنت الحادي عشر سنة ١٦٨٧ أمرَ العناية بهم إلى الرهبان الفرنسيسكان في الصعيد، كما أوعز إلى اليسوعيين بأن يقيموا في القاهرة.

وأخذ أبناء كنيسة الروم الكاثوليك يؤُمّون مصر منذ القرن الثامن عشر، فأرسل اليهم البطاركةُ الإنطاكيّون كهنة من طائفتهم ليهتمُّوا بشؤونهم الدينية. ونصَّب البطريركُ مكسيموسُ مظلوم أسقفاً عليهم في القاهرة بصفة نائب بطريركيّ سنة ١٨٣٧، كما أقام اللاتينُ نائباً رسوليّاً سنة ١٨٣٩

وانتشرت في مَطلع القرن الثامنَ عشر بين الأقباط فكرةُ الاتحاد بالكنيسة الرومانية، فانضمَّ إليها عددٌ لا بأس به. وأراد الحَبرُ الأعظم أكليمنضوسُ الثاني عشَر أن يشجع هذه الحركة، ويظهر عطفه عليها، فمنح رهبان مار أنطونيوس سنة ١٧٣١ ديرَ القديس إسطفانوسَ في رومة. وكان البابا لاونُ الكبير قد وضعه في القرن الخامس تحت تصرّف المصريّين المنفيّين الذين لجأوا الى رومة أثناء الاضطرابات التي اجتاحت مصر عقب المجمع الخلقيدوني.

وكتب البابا أكليمنضوسُ الثاني عشر سنة ١٧٣٥ إلى البطريرك يوحنا السابع عشر رسالةً يحرّضه فيها على الاتحاد، ويذكّره بما حدثَ في عهد سلَفه البطريرك جبرائيل الثامن الذي أُوفدَ إلى رومة من قِبَله رسُلاً ليوقعّوا صكّ الاتحاد بالكنيسة الرومانية.

وازداد عددُ الأقباط الكاثوليك في مصر، فوضعهم البابا بندكتس الرابعَ عشرَ تحت سُلطةِ المطرانِ الكاثوليكيِّ أثناسيوس أسقفِ القدس القبطيّ.

وبقي المطران أثناسيوسُ في القدس، ووكل أمرَ الأقباطِ الكاثوليك في مصر الى نائبه العامّ. وخلفه بعد موته يوحنا فرارجي، ثم متى ريغا، وأخذ كلٌّ منهما لقب «النائب الرسوليّ على الأمة القبطية» ولم يقبلا الرسامة الأسقفيّة لعدم وجود أسقف قبطيّ كاثوليكيّ يمنحها هذه الدرجة المقدسة. ولما توفّي متى ريغا سنة ١٨٢٢ سعى باسيليوسُ

بك ، أحدُ وجهاء الطائفة القبطية الكاثوليكية لدى البابا لاون الثاني عشر، في أمر تأسيس بطريركيّة قبطية كاثوليكية. وقد تدخَّل محمد عليّ نفسُه في هذه القضية. وكان المرشّحُ للمنصب البطريركي مكسيموسَ جويّد. ولكن هذا المشروع لم يتحقّق.

وتوفي مكسيموس جويّد سنة ١٨٣١ فخلفه ثاودور أبو كريم الذي توفّي سنة ١٨٥٤. وأقيم على الأقباط أسقفان، وهما أثناسيوس خزام الذي توفي سنة ١٨٦٤، وأغابيوس بيشاي الذي كان رجلاً عالماً، ومات سنة ١٨٨٧

البطريركيةُ القبطيةُ الكاثوليكيّة

كان الرهبان الفرنسيسكان والكهنة الأقباط يهتمون معاً بالطائفة القبطيّة الناشئة، ويصلّون في الكنائس نفسها. فعقد الطرفان اتفاقية سنة ١٨٩٣ مَنحَ الآباءُ الفرنسيسكان بموجبها كهنةَ الأقباط عشرَ كنائس تقوم كلُّها في الصعيد تقريباً، وأسَّس البابا لاونُ الثالثَ عشر سنة ١٨٩٥ للأقباط الكاثوليك ثلاثَ أبرشيات في الإسكندرية وطهطا والمنيا، وأقام المطرانَ كيرلس مقار من تلامذة الرهبان اليسوعيّين في بيروت نائباً بطريركياً في الاسكندرية. وفي سنة ١٨٩٩ رفعه الحبرُ الأعظم الى مقام البطريركية، فكان أولَ بطريركٍ للطائفة القبطيّة الكاثوليكية. ولكنه استقال من منصبه سنة ١٩٠٨ وتوفّي سنة ١٩٢٢.

ودبَّر الطائفةَ بعده المطرانُ يوسف صدفاوي، فخلفه بعد وفاته سنة ١٩٢٥ المطرانُ مرقس خزام، أسقفُ طهطا. وأضحى سنة ١٩٤٧ بطريركاً على الكنيسة القبطية الكاثوليكية، واتخذ اسمَ الأنبا مرقس الثاني. وتوفّي البطريرك خزام سنة ١٩٥٨ فخلفه البطريرك استفانوس سيداروس الذي اشترك بالمجمع الفاتيكانيّ الثاني. وعلى أثر تقدّمه في السّن، عيَّن الكرسيُّ الرسوليّ المطرانَ أندراوس غطّاس مدبراً للكنيسة القبطية. ثم استقال البطريركُ سيدَاروس، فالتأم سينودسُ الكنيسة القبطيّة الكاثوليكيّة في ٩ حزيران ١٩٨٦، وانتَخبَ المدبّر الرسوليَّ بطريركاً أصيلاً على الإسكندرية، فاتخّذ اسم استفانوسَ الثاني غطّاس.

الأوضاع الحالية

للطائفة القبطيّة الكاثوليكية في مصر خمسُ أبرشيات، علاوةً على الإسكندرية، وهي أسيوط والأقصى وسوحاق والمنيا وطنطا. ولها سبعون كنيسة، ومدرسةٌ إكليريكية، ورهبانيةٌ نسائيّة للقلب الأقدس، تأسّست سنة ١٩١١، ورهبانيةٌ جديدة للرجال تأسّست سنة ١٩٦٠. ويبلغ عددُ الأقباط الكاثوليك زهاء مئة ألف.

كنيسة إثيوبيا

كانت كنيسة إثيوبيا مرتبطةً من قديم الزمان ببطريركية الإسكندرية القبطية. ولم يكن لإثيوبيا حتى سنة ١٩٢٩ إلا أسقف واحد، وهو أسقفٌ مصريٌّ يختاره ويرسمه البطريرك القبطيُّ الأرثوذكسي. ولم يكن الإثيوبيّون راضين عن هذا الوضع. ولذلك تجاه طلباتهم الملحّة، رسم لهم البطريركُ القبطيّ الأرثوذكسيّ عام ١٩٢٩ أربعةَ أساقفة إثيوبيّين يرئسُهم الأسقفُ المصري وهو الأسقف الأعلى. وبقيت الأمور على هذه الحال حتى سنة ١٩٥٠ (ما عدا فترة الاحتلال الايطاليّ ١٩٣٦-١٩٤١). وفي مطلع سنة ١٩٥١ انتُخب الأنبا باسيليوس، وهو إثيوبي، رئيساً أعلى للكنيسة الإثيوبيّة، ومُنح عام ١٩٥٩ لقبَ بطريرك جاثليق، بموجبِ اتفاق عقدَه مع البطريرك القبطيّ كيرلس السادس. وهكذا أصبحت الكنيسة الإثيوبيّة شبه مستقلةٍ عن الكنيسة القبطية.

وفي إثيوبيا ٨ ملايين من الأرثوذكس، يشتقّ طقسُهم من الطقس القبطي، ولكن لهم لغتهم القومية وعاداتهم الخاصّة.

أما الكثلكة فقد ازدهرت فترةً من الزمن في بدء القرن السابعَ عشر ثم اندثرت، ولم تظهر مجدَّداً إلاّ في أواسط القرن التاسع عشر. وفي اثيوبيا الآن ١٥٠ ألف كاثوليكيّ، نصفُهم من اللاتين والنصفُ الآخر من أتباع الطقسِ الإثيوبيّ. وللإثيوبيّين رئيسُ أساقفة في أديس أبابا، وأسقفان الواحدُ في أسمرا والآخرُ في أديكرات.

الفصل الثاني والثلاثون

الكَنِيسَة الكلدَانيَّة

عاشت الكنيسة النسطورية في ظلّ الملوك الفرس تارةً في هدوء وسلام، وطوراً في اضطراب واضطهاد، إلى أن استولى العربُ على الدولة الفارسيّة فنما النساطرة في ظل حكمهم نمواً سريعاً، وتكاثرت أبرشياتهم وعَمَرت ديورتُهم وامتدَّت كنيستُهم امتداداً واسعاً، فبلغت في العهد العباسيّ أراضيَ الصين نفسِها.

ولما استولى المغول على بغداد بزعامة هولاكو (١٢٥٨-١٢٦٥)، لم يتعكّر صفاءُ عيشهم، بل نَعِموا بالحرية الدينية وطمأنينة الضمير. ولم يتسرَّب الفتور الى قلب الكنيسة النسطورية إلا في عهد تيمورلنك (١٣٣٦-١٤٠٥)، فتقلّص ظلُّها وقلَّ عددُ ابنائها، وتفرقُّوا في العراق وبلاد العجَم.

وانضمَّ بعضُ النساطرة في القرن الخامسَ عشر إلى الكنيسة الرومانية بمناسبة انعقاد مجمع فلورنسة (١٤٣٩-١٤٤٢) فتلقّبوا «بالكلدان»، كما طلب إليهم ذلك البابا أوجانيوسُ الرابع، وعُرفت كنيستُهم بالكنيسة الكلدانية. ولم يدم هذا الاتحاد إلا فترةً وجيزة، فعادوا الى النسطورية. وقد تكلمنا عن الكنيسة النسطورية في الفصول السابقة. وندرس الآن نشأة الطائفة الكلدانية، وقد تمَّت على مراحلَ متعدّدة.

البطريركُ سولاقا وخلفاؤُه

جرت العادة عند النساطرة أن ابنَ الأخِ يخلِفُ عمَّه البطريرك على السُدّة البطريركية. فلما تُوفي البطريرك شمعون السابع عام ١٥٥١ لَم يجد معظمُ الناس في ابن اخيه شمعونَ الثامن دنحا الصفاتِ التي تؤهّله للبطريركية، فانتخبوا عوضاً عنه الراهبَ سولاقا. وكان سولاقا كاثوليكياً، فأقرّ اتحاد طائفته بكنيسة رومة. فقاومه شمعونُ الثامن مقاومة شديدة، وحرَّض عليه الأتراك فقبضوا عليه وقتلوه. ولم يتمكّن شمعون دنحا من جمع شمل الكنيسة كلها تحت سلطته، فبقي الفرعُ الكاثوليكيّ منفصلاً عنه. وخلفَ سولاقا بطاركةٌ كاثوليك حملوا اسم «شمعون»، ولجأوا الى شمال إيران، ولبثوا متّحدين بكنيسة رومة مدة قرن كامل، أي الى ان انفصل عنها من جديد البطريرك شمعون الثالثَ عشر (١٦٦٢–١٧٠٠) وعاد الى النسطورية، فانتقل آنذاك مع اتباعه الى كوتشانس في كردستان. ولم يزل خلفاؤه حتى اليوم أنصارَ النسطورية.

بطريركية دياربكر

أما بطاركة النساطرة، خلفاءُ شمعونَ الثامن دنحا، فقد حملوا إسم «إيليا» وأقاموا بالموصل. وقامت بينهم وبين رومة في القرن السابعَ عشَر علاقاتٌ متقطعة سطحية لم تُسفِر عن اتّحاد دينيّ.

وكان المطران يوسف، أسقفُ دياربكر النسطوري، ميّالاً إلى الكثلكة. فاعتنق المذهبَ الكاثوليكي سنة ١٦٧٢، فقاومه رئيسُه البطريرك إيليا العاشر. ولكنه استطاع رغم هذه المقاومة أن يحظى من السلطان بفَرمان يقرّه بطريركاً على دياربكر وماردين وتوابِعها، مستقلاً عن سلطة إيليا البطريركِ النسطوريّ، ومنحه البابا سنة ١٦٨٣ لقبَ «بطريرك الكلدان». ولكن المتاعبَ أثّرت فيهِ تأثيراً بليغاً، فاستقال وسافر الى رومة، بعد أن عيَّن خلفاً له بصفة بطريرك، المطرانَ يوسف صليبا. فاتخذ يوسفُ اسمَ يوسفَ الثاني. واعترفت رومة سنة ١٦٩٦ ببطريركيته على الأمّة الكلدانيّة، وتحمَّل كثيراً من المشقّات، ومات بالطاعون سنة ١٧١٣

وخلفه البطريركُ يوسف الثالث، وقاسى هو الآخر متاعبَ كثيرة. وعقد مع البطريرك

النسطوريّ اتفاقاً ثُنائياً ساس البطريركُ النسطوريُّ بموجبه أبرشيتَي الموصلِ وحلب، واحتفظ البطريرك يوسفُ الكاثوليكي بدياربكر وماردين. وأقرَّ الباب العالي هذا الاتفاق. فعانى الكاثوليك الكلدان في مدينتَي الموصل وحلب صعوباتٍ جمّة في ما يتعلّق بممارسة شعائر ديانتهم. وغادر البطريرك يوسف الثالثُ الشرقَ، وسافر الى أوروبة لجمع التبرّعات. وطالت غيبتُه، فتذمَّر أبناء طائفته. ولما عاد عيَّن بطريركاً خلفاً له كاهناً شاباً، دون أن يستشير الإكليروس ووجهاءَ الطائفة. فألغت رومةُ هذا التعيين: وتوفّي البطريركُ سنة ١٧٥٧، ولم يكن للطائفة الكلدانية إلا أسقفٌ واحد، وقد بلغ الخامسةَ والتسعين من عمره. فانتخب المؤمنون خلفاً له لعازرَ هندي، فاتخذ البطريرك الجديد سنة ١٧٥٩ اسمَ يوسفَ الرابع.

ولم تطُل بطريركية يوسفَ الرابع. فقد سافر الى رومة، وطبع كتاب الانجيل والصلوات الطقسية، ثم استقال من منصبه سنة ١٧٨١، وترك أمر تدبير البطريركية إلى ابن أخيه أوغسطينوس هندي، فلم تعترف به رومة.

توحيد وتدعيم بطريركية بابل

لم يعترف البابا بأوغسطينوسَ مدبّراً على الطائفة الكلدانية، لأن البطريركين النسطوريّين في كردستان والعراق، كانا قد أظهرا رغبتهما في الاتحاد بالكنيسة الرومانية. ولم يكن بوسُع الحبرِ الأعظم ان يعترف برئيس ثالث على طائفة ضئيلة العدد.

واكتفى بطريرك كوتشانس في كردستان بإبداء ميوله الكاثوليكيّة دون أن يحقّقها في الواقع. أمّا بطريرك الموصل إيليا الثاني عشر (١٧٢٢-١٧٧٢) فقد أراد أن يتّحد بالكنيسة الرومانيّة، ولكنه لم يتمكن من تحقيق رغبته.

وخلفه إيليا الثالثَ عشر (١٧٧٨-١٨٠٤) وكان نسطوريّاً. وكان ابن عمه يوحنا هرمز قد نال الدرجة الأسقفية وهو صغير السنّ، فاعتنق المذهبَ الكاثوليكي. ولكن رومة لم تعترف به بطريركاً إكراماً للبطريرك إيليا الثالثَ عشر، بل أقرّته ميتروبوليتاً على الموصل. وبقي أوغسطينوس هندي في دِياربَكْر يدير شؤون الكاثوليك. وكان يوحنا هرمز وأوغسطينوس هندي يطمحان كلاهما في الرئاسة العليا على الكلدان الكاثوليك. وتوفي

البطريرك إيليا الثالثَ عشر النسطوريّ عام ١٨٠٤ ، فلم يخلفه أحد إذ كان يوحنا هرمز مقيماً بالموصل. ثم توفي أوغسطينوس هندي سنة ١٨٢٨ ، فعيَّن البابا بيوسُ الثامن في ٥ تموز ١٨٣٠ المطرانَ يوحنا هرمز بطريركاً على الكلدان ومنحه لقبَ «بطريرك بابل» فجعل الموصلَ مقرَّ بطريركيته، ولم يعد له منافس نسطوريّ إلا بطريركُ كوتشانس في الكردستان. وتوفي عام ١٨٣٨ وارتقى بعدَه السُّدّةَ البطريركية المطرانُ نقولا زيّا في ٢٧ نيسان ١٨٤٠ ، وكثرت المشاكلُ في عهده ، فاستقال وسافر الى العجَم وتوفي سنة ١٨٥٥

البطريرك يوسف أودو (١٨٤٧ - ١٨٧٨)

وانتخب الأساقفة يوسف أودو بطريركاً على الكلدان. ودامت بطريركيته من سنة ١٨٤٧ حتى سنة ١٨٧٨ ، وانضمَّ في عهده كثيرٌ من النساطرة الى الكنيسة الكلدانية.



البطريرك يوسف أودو

ونشأت بينه وبين الدوائر الرومانية مشاكلُ كثيرة بسبب سكان الملابار. والملابارُ مقاطعة تقعُ جنوبَ غربيّ الهند. لقد طلب سكانُ الملابار الذين يتبعونَ الطقسَ الكلداني الى رومة أسقفاً من طائفتهم ومِلّتهم. فرأت أن طلبهم شرعيّ ، فعزمت ان تحقّقه لهم. غير

أن الظروف حملت البطريركَ يوسفَ أودو، على أن يبادر ويرسم لهم أسقفاً دون أن يستأذن الحبر الروماني. فنشِب الخلاف بينه وبين الدوائر الرومانية مدة طويلة. وأخيراً كتب البطريرك في ١ آذار سنة ١٨٧٧ الى الحبر الأعظم كتاباً شخصياً، أبدى له فيه خضوعه التامَّ لأوامره ورغباته. فأجابه البابا عليه في ٩ حزيران من السنة نفسِها، بكتاب ملؤه الحنان والمودّة. ومات البطريرك وهو يعبّر عن تعلّقه الشديد بالكنيسة الرومانية. وقد أهدى الى البابا لاونَ الثالثَ عشر أجمل خواتمه البطريركيّة.

البطريركُ إيليا عبو اليونان (١٨٧٨ – ١٨٩٤)

وخلفه البطريرك إيليا عبو اليونان (١٨٧٨–١٨٩٤) وفي عهده ساد السلامُ في الكنيسة الكلدانية بفضل وداعتِه ومحبته. ولولا تدخّلُ البروتستان لكان ضمّ الى الكثلكة البطريركَ النسطوريّ. وفي أيام بطريركيته أنشأ الآباءُ الدومينيكان سنة ١٨٨٢ مدرسةَ القديسِ يوحنا الاكليريكيّة في الموصل للكلدان والسُريان. وقد تخرَّج منها كثيرون امتازوا بعلمهم وفضيلتهم.

البطريركُ عبدُ يشوع خيّاط (١٨٩٤ – ١٩٠٠)

وعلى أثر وفاة البطريرك إيليا عبّو اليونان، اجتمع الأساقفةُ الكلدان في دير السيدة شماليَّ الموصل في شهر تشرين الأول سنة ١٨٩٤، وانتخبوا المطرانَ عبدَ يشوع خيّاط بطريركاً على الطائفة الكلدانية. وثبّت البابا لاونُ الثالثَ عشرَ انتخابه في ٢٨ آذار سنة ١٨٩٥. وُلد عبدُ يشوعَ في الموصل، ودرس في مدرسة انتشار الايمان بروما، ورسم كاهناً سنة ١٨٥٥، ثم أسقفاً على عمادية سنة ١٨٦٠، وكان البطريركُ عبدُ يشوع خيّاط علاّمة وهبه الله ذكاءً حادًّا ومقدرةً فائقة، فمنحه البابا لقبَ «كوكب الشرق». وفي عهده نُشِرت عدّةُ كتبٍ طقسية في مطبعة الآباء الدومينيكان في الموصل.

البطريرك يوسفُ عمانوئيلُ الثاني توما (١٩٠٠ – ١٩٤٧)

وخلفه البطريركُ يوسفُ عمانوئيلُ الثاني توما. ولد في بلدة القُوش من لواء الموصل في

٨ آب ١٨٥٢ ، فأُرسِل في صغره الى مدرسة الآباء اليسوعيّين في غزير قرب بيروت ، ورُسم كاهناً في ١٠ تموز ١٨٧٩ ، وأضحى مديرَ المدرسة الاكليريكيّة البطريركيّة الكلدانية في الموصل. وفي ٢٤ تموز ١٨٩٢ قبل الرسامة الاسقفية على مدينة سعرد ، فبنى فيها كنيسة جميلة. وفي ٢٤ تموز ١٩٠٠ انتخبه الاساقفةُ بطريركاً ، فثبَّته البابا لاونُ الثالثَ عشر في ١٣ كانون الأول سنة ١٩٠٠ ، ودامت بطريركيتُه سبعاً وأربعين سنة ، بنى خلالها عشراتِ الكنائس والمدارس ، وجذب الى الكنيسة الكاثوليكية عدةَ أساقفة وكهنة وخَلْقاً كثيراً من النساطرة. وكان الحبرُ الأعظم قد عيَّنه بإنعام خاصٍّ قاصداً رسوليّاً عليهم.

وكان البطريركُ عمانوئيلُ كثيرَ التعبدِ لمريمَ العذراء. وفي عهده طُبعت عشراتُ الكتب الكلدانية الطقسيّة والعلمية. وتوفي في الموصل في ٢١ تموز سنة ١٩٤٧

البطريرك يوسف السابع غنيمة (١٩٤٧ — ١٩٥٨)

وارتقى السُدةَ البطريركيةَ بعدَه البطريركُ يوسفُ السابعُ غنيمة. وُلد في الموصل سنة ١٨٨١ ودرس في مدرسة الآباء الدومينيكان في المدينة نفسِها ، ثم انتقل الى اكليريكية مار يوحنا الحبيب للآباء أنفسِهم ، فقبل درجةَ الكهنوت في ١٥ أيّار ١٩٠٤. وعيَّنه البطريركُ عمانوئيل الثاني مديراً للمدرسة الاكليريكيّة البطريركية في الموصل ، فبقي فيها حتى سنةِ ١٩١٨ ، ثم رُقّيَ الى وظيفة وكيل عامّ على الأبرشية البطريركية ، ونال في سنة ١٩٢٥ الدرجة الأسقفية. وفي السنة نفسِها عُيّن معاوناً للبطريرك عمانوئيل ، وبقي يمارس هذه المهمةَ حتى سنةِ ١٩٤٧ ، وفيها انتخبه الحَبْرُ الأعظم مدبّراً رسولياً على طائفة الكلدان ، وانتخبه الأساقفةُ في ١٤ أيلول ١٩٤٧ بطريركاً.

واشتهر البطريركُ يوسفُ السابعُ بتقواه المثاليّة وعلمه الفيَّاض وعبادته السامية لمريمَ العذراء. وقد رسمَ عدّةَ أساقفة وعشراتِ الكهنة والشمامسة. وفي عهده شُيِّدت كنائسُ عدّة ومدارس ، وتوفي في ٨ تموز ١٩٥٨

البطريرك بولس شيخو (١٩٥٨–١٩٨٩)

اختار مجمع الأساقفة خلفاً له البطريركَ الحاليَّ بولسَ شيخو. وُلد عام ١٩٠٦ في القوش من لواء الموصل، ودرس في إكليريكية الموصل وفي المعهد الشرقيّ برومة، ولما عاد إلى العراق عُيِّن مديراً للاكليريكية البطريركية، وأصبح عام ١٩٤٧ أولَ أسقفٍ لأبرشية عقرا التي أُعيد تجديدُها، فاكتسب فيها محبةَ الجميع. وانتُخب سنة ١٩٥٧ أسقفاً لمدينة حلب خلفاً للمطرانِ يوسفَ نعمو الذي نُقل الى بيروت إبانَ تقسيمِ أبرشية سورية ولبنان الى قسمين. ثم عُهِدَ إليه المنصبُ البطريركيّ على الطائفة الكلدانية عام ١٩٥٨. وتوفّي في ١٣ نيسان ١٩٨٩.

البطريرك الحاليّ روفائيل بيداويد (١٩٨٩–...)

انتخبه السينودس في أيار ١٩٨٩، وكان أسقفاً على بيروت.

الأوضاع الحالية

للكنيسة الكلدانية ١١ أبرشية، سبعٌ في العراق واثنتان في إيران وواحدةٌ في سورية (حلب) وواحدةٌ في لبنان (بيروت) ونائبٌ بطريركيّ في القدس ومصرَ وإسطنبول. ومقرُّ الكرسيِّ البطريركيّ بغداد. وللطائفة الرهبانية الأنطونية ورهبانيّتان نسائيتان، الحبلُ بلا دنس والكاترينات. ومدرستان إكليريكيّتان، الواحدةُ بإدارة الآباء الدومينيكان، تحت حماية القديس يوحنا الحبيب، والثانيةُ بإدارة البطريركية الكلدانيّة وكلتاهما في الموصل. وفي طهرانَ مدرسةٌ إكليريكيةٌ صغرى. ويربو عددُ أبناءِ الطائفة على ٢٠٠ ألفِ نسمة.

كنيسة الملبار في الهند

في جنوبِ غربيِّ الهند زُهاءُ مليونٍ ونصف نَسمة من الكاثوليك الذين ينتمون الى الطقس الكلدانيّ، بدون أن يرتبطوا بسلطة بطريرك الكلدان في بغداد، ويُدعَون بكنيسة الملبار.

وهذه الكنيسة حيويّةٌ كبيرة، وقد عُقِدت عليها آمالٌ كبيرة لتبشير الهنود. وقد استعملَت في الصلوات الطقسية اللغةَ الهنديةَ بدلاً من السُّريانية.

كنيسة الشرق الأشوريّة

إنّ النساطرة الذين كانوا متمركزين في جبال كردستان شرقيّ تركيا (كوتشانس) منذ القرن السابع عشر (راجع ص٣٥٨) اضطرّوا في نهاية الحرب العالميّة الأولى الى ترك مناطقهم لتورّطهم مع الروس ضدّ الأتراك، فلجأوا آخر الأمر الى العراق ورُحّل قسم منهم الى منطقة الخابور الأعلى في الجزيرة (سوريا).

وكانوا قد تخلّصوا من اسمهم القديم، «النساطرة»، فأطلق عليهم اسم الأشوريّين ليتميّزوا عن الكلدان الكاثوليك. واتّخذوا مؤخّرًا اسمًا رسميًّا لكنيستهم هو «كنيسة الشرق الأشوريّة». وكان البطاركة منذ نهاية القرون الوسطى يتوارثون منصبهم وراثيًّا من عم الى ابن أخ متّخذين اسم شمعون (أو إيليّا).

وآخر بطريرك وراثي هو شمعون الثالث والعشرون، انتخب عام ١٩٢٠ وعمره ١٢ سنة. فذهب الى إنكلترا لإكمال دراسته. ولمّا عاد الى الشرق لم ينسجم مع إكليروسه وشعبه، وأبعدته الحكومة العراقية الملكية عام ١٩٣٣ فلجأ الى قبرص ثمّ استقرّ في سان فرنسيسكو في الولايات المتّحدة عام ١٩٤٠. واشترك بمؤتمر نيودلهي لمجلس الكنائس العالمي عام ١٩٦١. وفي طريق عودته زار بعض مناطق الشرق لتفقّد رعيّته، وأقام أسقفًا في طهران عام ١٩٦٢ إذ كان الكرسيّ شاغرًا منذ الحرب العالميّة الأولى. وعام ١٩٦٤ أصدر مرسومًا أجرى فيه بعض الإصلاحات الطقسيّة وأدخل الحساب الغربيّ في الأعياد الثابتة وفي حساب عيد الفصح. فانشق عن طاعته جزءٌ من شعبه ونصّبوا بطريركًا منافسًا في بغداد. ويرئس هذه الفئة الآن منذ ١٩٧٢ مار أدّاي.

ونشب عن تصرّفات البطريرك شمعون أزمة حادة في كنيسته، فاستقال عام ١٩٧٣، وعاد عن استقالته لمّا أحاله السينودس الى الحالة العلمانية. واغتيل عام ١٩٧٥ في الولايات المتّحدة.

واجتمع سينودس الأساقفة في لندن عام ١٩٧٦ فانتخب مار دنحا، أسقف طهران، ولم يكن ينتمي الى أسرة البطريرك الراحل ولم يأخذ اسم شمعون فسمّي مار دنحا الرابع. ولم يتمكّن من الإقامة في العراق حيث كان منافسه مار أدّاي، فبقي في طهران. وهو يحاول أن يوحّد شعبه المنتشر في العراق وإيران وسوريا وجنوب الهند وبلاد الاغتراب وأن يفتح كنيسته على سائر الكنائس. وقد اشترك في حفلة تنصيب البابا يوحنا بولس الثاني وزار رسميًّا رومة من ٧ الى ١٠ تشرين الثاني ١٩٨٤.

الفصلُ الثالِث وَالثلاثونَ

اللاّتِينُ في الشَّرق

مقدّمة

كانت الجالياتُ الغربية تقيم في الشرق منذُ القرون الأولى لتأسيس الكنيسة ، فكان لها بعضُ المعابد والأديرة ، ولا سيما في مدينتَي القدس والقسطنطينية. انما لم يكن لها أبرشيّات خاصّة ، وكانت تنتمي الى السلطة الشرقية المحليّة.

ولما جاء الصليبيّون أقاموا الأسقفيّاتِ والبطريركيّاتِ اللاتينية في الشرق ، كما رأينا ذلك. إلا أنها اندثرت مع اندثار الحكم الصليبيّ ، ولم يبقَ منها إلا الشيْ القليل. ذلك في الديار التي امتدَّ إليها نفوذُ البندقيّة.

وعاد الرهبانُ الفرنسيسكانُ الى الشرق في أواسط القرن الرابعَ عشر ، فعُهِدت إليهم حراسةُ بعض الأماكن المقدسة وخدمةُ الحجّاج الفرنج ، ثم اهتمّوا بالجاليات التجاريّة والقنصليّات التي أقيمت في الشرق ، بعدما تحسّنت العلاقاتُ السياسية بين المماليك والعثمانيّين من جهة ، والدول الغربيّة من جهة أخرى.

ثم قدِم الى الشرق في مطلع القرن السابعَ عشر المرسلون الكبّوشيّون والكرمليّون واليسوعيّون (وناب مَنابَ هؤلاءِ اللعازريّون في آخر القرن الثامنَ عشر) ولم يكن في نيّتهم إنشاءُ طائفة لاتينية ، بل إعادةُ الوَحدةِ بين الشرق والغرب حسب مقرّرات مجمع

فلورنسة. ولم تتمّ هذه الوحدةُ إلا بشكلٍ جزئيّ، وقد أدّى الى تقسيم الطوائف الشرقيّة إلى أرثذكسية وكاثوليكيّة.

ولما صدرَ عامَ ١٧٢٩ القرارُ المشدَّدُ بعدم اشتراك الكاثوليك مع الأرثذكس في القُدسيّات، لم يكن الإكليروسُ الشرقيّ الكاثوليكي متوفِّراً في كل الأنحاء، بل كان مشرَّداً بسبب الاضطهاد، فأخذ الرهبان الغربيّون يقومون بخدمة الشرقيّين الروحية، ويسمحون لهم بممارسة أعيادهم وأصوامهم اللاتينية. وانتمى هكذا بعض الأفراد الى الطقس اللاتينيّ رغم معارضة البابا بناديكتوسَ الرابعَ عشر. وظلّ عددُهم ضئيلاً جداً حتى أواسط القرن التاسعَ عشر، فتأسَّست إذ ذاك البطريركيةُ اللاتينيّة في القدس، وتدفّق الرهبانُ والراهبات الى الشرق فخدموا البلادَ خدمات جُلىً، ففتحوا المدارسَ والمستشفيات، وجابهوا الخطرَ البروتستانيّ والإلحادَ الغربي. ودخل في الرهبانيّات الغربية عددٌ وافر من الشرقيّين، وانتحلوا الطقس اللاتيني.إلا أنه منذ بضعة أعوام، صدرت الأوامرُ كي يحافظ هؤلاءِ الشرقيّون على طقوسهم ضمن الرهبانيّات الغربيّة، فتهيّأ هذه الرهبانياتُ لتأسيس فروع شرقيّة لها. وأخذت عدّة مؤسَّسات غربية عاملةٍ في الشرق تتبعُ الطقوسَ الشرقيّة، وتنتمي الى سلطة الأساقفة الشرقيّين، وتمكنت هكذا من القيام بخدَماتٍ أعظمَ للبلاد وللطوائف المحليّة.

وسنعطي في هذا المُلحَق نَبذةً عن البطريركية اللاتينية في القدس، وعن أهمّ الرهبانيّات اللاتينيةِ العاملة في الشرق.

البطريركيّةُ اللاتينيّة في القدس

تأسَّست البطريركيّة اللاتينية في القدس سنة ١٨٤٧ ، وقد اختار البابا بيوسُ التاسعُ لهذا المنصِب البطريركَ يوسفَ فالركا (١٨٤٧–١٨٧٢) فجرَت حفلةُ تنصيبِهِ في ١٧ كانون الثاني ١٨٤٨

وتتابع البطاركةُ بعدَه دونَ انقطاع ، وهم منصور براكو (١٨٧٣ – ١٨٨٩) ، ولودوفيك بيافي (١٨٨٩ – ١٩٠٥) ، وفيليب كماساي (١٩٠٥ – ١٩١٩) ، ولويس برلسينا (١٩١٩ – ١٩٤٧) ، وألبرتو غوري (١٩٤٧–١٩٧٠) وهو من الرهبانية الفرنسيسكانية ، ويعقوب بلتريتي (١٩٧٠ – ١٩٨٨) ، وميشال صبّاح (١٩٨٨/١/٦) وهو أوّل بطريرك لاتيني من أصل عربي.

وتمتدّ صلاحية البطريرك الروحية على فلسطين كلِّها والمملكةِ الأردنيةِ الهاشميّة وقبرص ، ويساعده في خدمة الطائفة اللاتينية الاكليروسُ البطريركيّ والرهبانُ الفرنسيسكان وراهباتُ الورديّة.

وليس للبطريركِ اللاتينيّ أساقفةٌ خاضعون لسلطته. أمّا اللاتينُ في سوريةَ ولبنان ومصر والعراق فخاضعون لنوّابٍ رسوليّين متعلّقين رأساً بروما. والنيابةُ الرسولية على حلب تأسست عام ١٧٦٢ وكانت تشمل كلّ سوريا ولبنان

وكانت وظيفة النائب الرسوليّ مرتبطة بوظيفة القاصد الرسوليّ. وبعد استقلال سورية ولبنان وإنشاء العلاقات الدبلوماسيّة بين الفاتيكان وكلٍّ من الدولتين ، تميزت وظيفة السفير البابويّ عن وظيفة النائب الرسولي. واعتباراً من مطلع ١٩٥٤ انقسمت النيابة الرسوليّة فأصبحت نيابة حلب تشمل الأراضي السورية. وأقيمت نيابة خاصّة في بيروت ، حدودها الدولة اللبنانية.

واستُحدثت منذ بضع سنوات نيابةٌ رسوليّة للكويت ، ونيابةٌ أخرى تشمَلُ مِنطقةَ عَدَن وأبو ظبي.

وعقِبَ المجمع الفاتيكانيّ الثاني ، تنظّم اللاتينُ في المشرق العربيّ ، فألّفوا المجلسَ الأسقفي للأساقفة اللاتين في الشرق الأدنى ، برئاسة بطريرك القدس اللاتينيّ. ولا يدخل في هذا التنظيم القُطرُ السودانيّ ، إذ له مجلسُه الخاصّ. وفي السودان عددٌ وافر من الأبرشيات ، ولا سيما في الجنوب ، والأغلبيّة الساحقة من المسيحيّين يتبعون فيه الطقس اللاتيني:

الرهبانيّاتُ اللاتينية في الشرق

أهمُ رهبانيّاتِ الرجال

١ - **الرهبان الفرنسيسكان**: أسَّس رهبانيةَ الفرنسيسكان القديسُ فرنسيس الأسيزي سنة ١٢٠٩، وقد جاء بنفسه الى مصر سنة ١٢٢٩، وانتشر رهبانُه في معظم المدن الشرقية وخاصةً في فلسطين، ودعي رئيسُهم في الشرق منذ سنة ١٢٣٠ «حارسَ الأرض المقدسة».

٢ - **الرهبان الدومينيكان**: أسَّس رهبانيةَ الدومينيكان القديسُ دومينيك (عبدُ الأحد) سنة ١٢١٦. وأقبل الرهبانُ الدومينيكان إلى القسطنطينيّة سنة ١٢٣٠، وتمركزوا في العراق سنة ١٧٥٩، وفي القدس سنة ١٨٨٢، وفي بيروت سنة ١٩٢٧

٣ - **الرهبان الكرمليّون**: تأسَّست رهبانيتُهم في جبلِ الكرمل قربَ حيفا في القرن الثاني عشر، وتثبَّتت سنة ١٢٢٦، ووفدوا الى حلب عام ١٦٢٦، وأسَّسوا سنة ١٨٣٦ إرسالية قبيّات في عكار، وسنة ١٨٨٥ إرسالية بيلان قربَ إسكندرونة. واشتغلوا كثيراً في سبيل جذب الأرمن إلى الكثلكة.

٤ - **الرهبان الكبّوشيّون**: تفرَّعوا عن الفرنسيسكان. وعام ١٦٢٥ جاؤوا الى حلب، وبنوا لأنفسهم ديراً في بغداد سنة ١٦٢٨، وفي ديارِبَكْر سنة ١٦٦٧. وانتشروا بعد ذلك في أهمّ مدنِ سورية ولبنان والعراق.

٥ - **الرهبان اليسوعيّون**: أسَّس رهبانيتَهم القديسُ أغناطيوس دي لويولا سنة ١٥٤٠، وأتوا الى حلب سنة ١٦٢٥، وبقُوا في الشرق حتى سنة ١٧٧٣، وهي السنة التي أُلغيت فيها رُهبانيتهم. وعادوا الى الشرق مرة ثانية سنة ١٨٣١، ولهم اليوم في أكثر مدن الشرق مشاريعُ هامةٌ أشهرُها جامعة القديس يوسف في بيروت.

٦ - **الرهبانُ اللعازريّون**: أسَّس رهبانيتَهم القديسُ منصور دي بول سنة ١٦٢٥، وأقبلوا الى الشرق سنة ١٧٨٤، وقاموا مقامَ الرهبانِ اليسوعيّين، وتابعوا مهمّتهم الروحية.

٧ – **إخوةُ المدارس المسيحيّة**: أسَّس جمعيتَهم القديسُ يوحنا المعمدان دي لاسال سنة ١٦٨٠ ، فأَتوا مصر سنة ١٨٤٧ ، وفتحوا أوّلَ مدرسة لهم في سورية سنة ١٨٧٨

٨ – **الإخوةُ المريميّون**: أسَّس رهبانيتَهم مارسلان شمبانيا سنة ١٨١٧ ، فجاؤوا إلى سورية سنة ١٨٩٩ وفتحوا فيها وفي لبنان مدارسَ عدّة.

٩ – **الرهبانُ السالزيان**: أسَّس رهبانيتَهم القديسُ يوحنا بوسكو سنة ١٨٤١ ، فأتوا الى الشرق سنة ١٨٩١

١٠ – **الآباءُ البيض**: أسَّسهم الكردينالُ لافيجوري سنة ١٨٧٢ ، وجاؤوا الى القدس سنة ١٨٧٨ حيث فتحوا إكليريكية القديسة حنة للروم الكاثوليك.

وتهتمّ هذه الرهبانيّات المختلفة بالمدارس الابتدائية والثانوية والعالية والصناعية ، وتَعكِفُ على إلقاء الوعظ والإرشاد وتدريس التعليم المسيحي ، وتنشُر الكتبَ والمجلاتِ الدينية ، وتساعدُ الإكليروس المحليّ في المشاريع العصرية ، وتقومُ بأعمال البِرّ والإحسان المختلفة كالميامّ والمستشفيات ، ولهم في كل ذلك فضلٌ عظيم.

أهمُّ الرهبانيّات النسائيّة

١ – **راهباتُ المحبة**: تأسَّست رهبانيتُهن سنة ١٦٢٥ ، فجئن إلى استنبول سنة ١٨٣٩ ، والى بيروت سنة ١٨٦٠ بعد الحوادثِ الدامية التي جرت آنذاك في لبنان.

٢ – **راهباتُ القديس شارل بورومه**: تأسَّست رهبانيتُهن سنة ١٦٥٢ فأتين مصر سنة ١٨٨٤ ، ولهن ديورةٌ في مصر وفلسطين وسورية.

٣ – **راهباتُ المحبة الدومينيكانيّات**: تأسَّست رهبانيتُهن سنة ١٦٨٤ فوفَدْن الى بغداد سنة ١٨٨٠

٤ – **راهباتُ المحبة البزنسونيّات**: تأسست رهبانيتُهن سنة ١٧٩٩ ، فدعاهن البطريركُ الملكيّ ديمتريوس قاضي سنة ١٩٢٥ ليؤسّسن فرعاً شرقياً في بلادنا ، فلبّين دعوته.

٥ - **راهبات الراعي الصالح**: تأسسَت رهبانيتُهن سنة ١٨٢٩، ولهنّ ديرٌ في مصر (١٨٦٥) ودير في لبنان (١٨٩٣)، ودير مستحدث في دمشق.

٦ - **راهبات القديس يوسف**: تأسست رهبانيتُهن سنة ١٨٣٢ فأتَين القدسَ سنة ١٨٤٨ وانتشرت بعد ذلك في سورية ولبنان.

٧ - **راهبات القلبين الأقدسين**: أسّس الخوري المارونيّ يوسفُ الجميّل في بكفيا سنة ١٨٥٣ بمساعدة الأب إستيف اليسوعيّ **رهبانيةَ المريمات**. وفي السنة عينها أسّس الأبوان اليسوعيان ريكادونا وسورانيا في المعلقة **رهبانيةَ القلبِ الأقدس**. فاتّحدت الرهبانيتان سنة ١٨٧٤ وألّفتا جمعيةً واحدة، ونالت التثبيت النهائيّ من المجمع الشرقيّ سنة ١٩٣٢ تحت اسم جمعية **راهبات القلبَين الأقدسين**.

٨ - **فرنسيسكانيّات مصر**: تأسّست رهبانيتُهن سنة ١٨٧٦، واتحدت بفرنسيسكانيّات فلورنسة سنة ١٨٩٦

٩ - **الفرنسيسكانيّاتُ المريمات**: تأسّست رهبانيتُهن سنة ١٨٧٧، وبنَيْنَ أولَ دير لهن في بيت لحم سنة ١٩٠٩؛ ثم انتشرت في سورية وفلسطين ومصر.

١٠ - **راهباتُ الورديّة**: أسّسهن سنة ١٨٨٠ الخوري يوسفُ طنّوس، أحدُ كهنة البطريركية اللاتينية في القدس، فشيَّدن لأنفسهن ديورةً في فلسطين ولبنان.

١١ - **راهباتُ الناصرة**: تأسّست رهبانيتُهن سنة ١٨٨٢، فبنَين أولَ دير لهن في بيروت سنة ١٨٦٨. وبعد عام ١٩٥٠ أقَمْنَ مؤسّساتٍ كثيرة في الأردن تابعةً للأساقفة الملكيّين.

١٢ - **راهبات مرسلات المحبة**: أسّسَهنّ الأم تريزا دي كالكوتا للاهتمام بالبؤساء في الشرق الأقصى، وفي العالم كلّه. ولذلك قدمنَ مؤخرًا إلى الشرق.

وتهتمّ هؤلاءِ الراهباتُ بالمدارس الابتدائية والثانوية والمستشفيات والمياتم ودُور العجَزة ودُور اللُقَطاء، ويساعدن الخوارنة في مشاريع الرعية على اختلاف أنواعها.

وهناك رهباتٌ مكرَّسة للحياة النسكيّة والصلاة كالبندكتان والترابيست والكرمليّات والكلاريس.

هذا، وقد ظهرت رهبانيّاتٌ جديدة (منها إخوة وأخوات يسوع الصغار، وأخوات الناصرة الصغيرات، ...) لها أهدافٌ لم تكن معروفةً في السنوات الماضية كالعمل في المعامل، والاهتمام بالأسر الضعيفة المتأخرة، وهي آخذة في الانتشار في الشرق والغرب. ومما لا شكَّ فيه أن للراهبات الغربيّات أو الوطنيّات فضلاً كبيراً على تربية الناشئة النسائيّة في الشرق.

الفصلُ الرّابع والثلاثون

المجمع الفاتيكاني الثاني

مقدّمة

إن المجمع الفاتيكانيّ الثاني وحدَه بين المجامع السابقة لم يُعقَد ليحرُمَ أو يَدين، بل كان للانفتاح والحِوار، حوارٍ مع الفكر المعاصر، حوارٍ مع العالم، حوارٍ مع سائر المسيحيين، حوارٍ مع سائر الديانات، حوارٍ مع كلّ البشر حتى غيرِ المؤمنين. وكان له أبعادٌ لاهوتية ومسكونية ورعائية جزيلة الأهمية، ولم يُعطِ بعدُ جميع نتائجه لأن هناك أوساطاً لم تُنجز تطبيقه، وهناك من أساؤوا فهمَه وانحرفوا عن روحه. وقد أدخلَ في الكنيسة روحاً جديدة، ونمطاً جديداً يتجاوب مع عقلية اليوم وحاجات العصر، بدون أن يقطع مع الماضي ومتطلّبات الانجيل، وكانت غايتُه الأساسية رِعائيّةً حسبمَا ردّد ذلك مراراً البابا يوحنا الثالثُ والعشرون، أي أن يعبِّر عن العقيدة الثابتة والتي لا تتغير، بكلام يتلاءم وروحَ العصر، يفهمه رجلُ اليوم وهو في خِضَمّ تطوّر سريع وتبديل لم يرَه عصر من قبل، وأن يقدّم التوجيهات العملية التي تراعي الظروف الراهنة، بُغيةَ تحقيقِ رسالة الكنيسة في العالم وهي خدمةُ الانسان وتوطيدُ ملكوت الله.

الإعلان عن المجمع

في ختام أسبوع الصلاة لوحدة المسيحيّين، في ٢٥ كانون الثاني ١٩٥٩، فاجأ البابا يوحنا الثالث والعشرون العالمَ بإعلانه عن رغبته في عَقد مجمع مسكونيّ، يلتئم فيه جميعُ أساقفة العالم الكاثوليكيّ للتداول في الأمور التي تهمّ الكنيسةَ ودورَها في العالم. لم يكن ثمّةَ من أزمة خاصّة تستدعي عقدَ مجمع، وكان بعضهم قد ظنّوا أن عهد المجامع قد ولّى في الكنيسة الكاثوليكيّة بعد تحديد عِصمة البابا الفرديّة في المجمع الفاتيكانيّ الأول عام ١٨٧٠.

ولاقى إعلانُ البابا يوحنا ارتياحاً كبيراً في مُعظم الأوساط، ولدى المسيحيّين من المذاهب الأخرى، وفتح آمالاً جديدة لمزيد من الانفتاح والتوازن في حياة الكنيسة. وكان آخرُ عهد البابا بيوسَ الثاني عشر قد اتّسم بشيء من الانغلاق والجمود. فإزاء تباعُد العالم عن الكنيسة وتنشيطِ الحركة المسكونية، كان على الكنيسة الكاثوليكية أن تجدد ذاتها، وتنفتح على سائر الكنائس، بحيث تمهّد لإعادة الوحدة بين جميع المؤمنين بالمسيح.

إن الهدف الذي عيّنه البابا يوحنا للمجمع هو تجديدُ الكنيسة والسعيُ الى الوحدة المسيحيّة. وكان لا بدَّ من توضيح المنهجيّة العامّة ووضع جدول أعمال دقيق، إذ إن البرنامج واسع، ويمكن أن يضيع الوقت في المَتاهات. ويعودُ الفضل للبابا يوحنا الثالث والعشرين الذي أراد المجمع، في إعطائه التوجيهَ الصحيح، وقد توصّل بصبره وحكمته أن يكسُر مقاوماتِ الفئات المحافظة من دون مجابهة صريحة، ويحقّق الانفتاح الذي أراده، وذلك بالاشتراك مع المصفّ الأسقفيّ. وقد تابع البابا بولسُ السادس عمل البابا يوحنا وأنجزه.

تهيئة المجمع

في ١٧ أيار ١٩٥٩ شكّل البابا لجَنةً تمهيدية برئاسة الكردينال تارديني، أمينِ سرّ الفاتيكان، غايتُها الاتصال بأساقفة العالم والجامعات الكاثوليكية، لتستشيرهم عن

المواضيع التي يودّون طرحَها في المجمع. فجاءت الأجوبة غزيرة جدًّا، فقامت اللجنةُ بتبويبها وتنسيقها.

وفي ٥ حزيران ١٩٦٠ شكّل البابا اللّجانَ التحضيرية التي كانت مهمّتها صياغةَ النصوص التي ستُطرح على آباء المجمع للنقاش، ووُزّعت النصوصُ على مختلف اللِجان، وعُهِدَ إلى لَجنة مركزية يَرئسها البابا نفسُه وضعُ البرنامج النهائيّ للأعمال. وكانت كلُّ لجنة مشكلةً من أعضاء، لهم حقُّ التصويتِ، ومن خبراءَ مستشارين وأُمناءِ سرّ. وتمّ تشكيلُ اللجان في أواسط آب ١٩٦٠. وكان رؤساء اللجان عادة رؤساءَ الدوائر الرومانية المناسبة لها، والأعضاءُ مختارين من أساقفة ولاهوتيّي سائر أنحاء العالم ومن مختلف المشارب. وابتدأ العملُ التحضيريّ في مطلع تشرين الثاني ١٩٦٠.

إنعقاد المجمع

لما أُوشكت الأعمالُ التحضيريةُ أن تنتهي، أصدر البابا يوحنا الثالث والعشرون براءةً بتاريخ ٢٥ كانون الأول ١٩٦١، يدعو فيها إلى عقد المجمعِ في كنيسة الفاتيكان في عام ١٩٦٢. وافتتح المجمعَ رسمياً يوم ١١ تشرين الاول ١٩٦٢ في احتفال مَهيب، بحضور ٢٥٤٠ حبراً من أحبار الكنيسة، وجمهور غفير من المدعوّين الرسميّين وجماهير الشعب.

ولأول مرة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية دُعي ممثّلون عن مختلف الكنائس المسيحية، بصفة مراقبين، وكان لحضور هؤلاء الممثّلين أهميةٌ كبرى لتقاربِ وُجهات النظر، وقد أُخذت كثيراً آراؤُهم بعين الاعتبار.

ورسم البابا في خطابه الافتتاحيّ بخطوط واضحة المهامَّ الملقاة على عاتق المجمع، والروحَ التي يجب أن يتحلّى بها، وأبدى تفاؤلاً كبيراً تجاه أوضاع عالم اليوم ضدّ «أنبياء الشؤم»، ودعا الى الانفتاح والى تحديث اللغة اللاهوتيّة وأساليب الرسالة، بدون أن يتصدّى مباشرةً للمحافظين.

وبعد الجَلسة الاحتفاليّة الأولى التي كانت مفتوحة، تتالت الجلساتُ مقتصِرةً على أحبار الكنيسة، وعلى المراقبين غيرِ الكاثوليك المندوبين رسمياً عن كنائسهم.

وأثناء الجَلسات، كانت تُناقشُ تباعاً النصوصُ اللاهوتيّة والإدارية التي وضعتها

اللجانُ التحضيرية، فيقدّمُها رئيسُ اللجنةِ المعنيّة، ويبدي الآباءُ رأيهم الإجماليّ فيها، ثم يناقشونها بَنداً بنداً. ويتحدّث الآباء الذين طلبوا الكلام لدى أمانة السرّ، مُبدين رأيهم في الموضوع، ومقدّمين الاقتراحات والتعديلات. وهناك نصوصٌ رُفضت من أصلها، وطلب إعادةُ صيغتها؛ وهناك نصوصٌ أخرى أُجري فيها تعديلات.

إعادةُ صياغة النصوص، وإجراءُ التعديلات فيها، لم يعودا من اختصاص اللجان التحضيرية التي كان البابا قد عيّنها، والتي كان يهيمن عليها رجالاتُ الدوائر الرومانيّة، بل من اختصاص لِجان منبثقة عن المجمع، وينتخب أعضاءها الآباءُ. ولتشكيل هذه اللجان أهميةٌ كبرى. ولذا كان لمداخلة الكردينال لينار أسقفِ لِيل شماليَّ فرنسا، أهميتُها إذ إنه لما عرض على الآباء أثناء الجلسة العمليّة الأولى الاقتراعَ لانتخاب أعضاء اللجان المجمعية، تجرأ وطلب إرجاء التصويت، ريثما يتعرّفُ الأساقفة بعضُهم إلى بعض.

واستغرق نِقاشُ النصوص والتعديلات التي أُجريت مراراً على البعض منها، أربعَ دورات مجمعيّة:

الدورة الأولى: من ١١ تشرين الأوّل ١٩٦٢ الى ٨ كانون الأول ١٩٦٢

الدورة الثانية: من ٢٩ أيلول ١٩٦٣ الى ٤ كانون الأوّل ١٩٦٣

الدورة الثالثة: من ١٤ أيلول ١٩٦٤ الى ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٤

الدورة الرابعة: من ١٤ أيلول ١٩٦٥ الى ٨ كانون الاول ١٩٦٥

بين دورةٍ ودورة، كان الأساقفةُ يعودون إلى أبرشيّاتهم، واللجانُ المجمعيةُ تجتمع لإعادة النظر في النصوص وَفْقَ الملاحظاتِ التي أبداها الآباءُ أثناء الجلَسات.

تُوفي البابا يوحنا الثالث والعشرون في ٣ حزيران ١٩٦٣، عن عمر يناهز ٨٢ سنة، وفي السنة الخامسة من حبريّته، وخلفَهُ البابا بولس السادس الذي أخذ على عاتقه إنجاز أعمال المجمع، ووجّه الدوراتِ الثلاثَ الأخيرة. وهو الذي أصدر رسمياً القرارات التي صوّت عليها الآباء، وحظيت بشِبه الإجماع.



البابا بولس السادس والبطريرك المسكونيّ أثيناغوراس

وهذه هي قائمةُ النصوصِ النهائية التي انبثقت عن المجمع :

• **الدساتيرُ العقائديةُ والرِعائيّة**

- دستورٌ عَقائدِيّ في الكنيسة، يعلن أنها شعبُ الله و «نورُ الأمم».
- دستورٌ عقائديّ في الوحي الإلهي، ومصدرُه الكتابُ المقدس والتقليد الكنسيّ
- دستورٌ رعِويٌّ في الليتورجيا
- دستورٌ رعَوِيٌّ عن الكنيسة في عالم اليوم، تشاطره فرحَه وآماله

• **القرارات المسلكيّة**

- قرار في وظيفة الأسقف في الكنيسة والجَماعيّة الأسقفيّة
- قرار في حياة الكهنة وخِدمتهم الكنسيّة ورِعايةِ النفوس
- قرار في التَنشِئة الكهنوتيّة (الإكليريكيّات)
- قرار في الحياة الرهبانيّة والمؤسسات الجديدة المماثلة لها
- قرار في رسالة العلمانيّين
- قرار في رسالة الكنيسة بين الأمم والشعوب
- قرار في الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة
- قرار في الحركة المسكونيّة واتحادِ الكنائس
- قرار في وسائل الإعلام

• **تصريحات**

- تصريح في التربية المسيحيّة
- تصريح في علاقات الكنيسة بالديانات غيرِ المسيحيّة
- تصريح في الحريّة الدينيّة.

محورُ هذه النصوص كلّها الدستورُ العقائديّ في الكنيسة، وهي تتّسم بثلاث ميزات:

– تركيزٌ على الجوانب السريّة والروحية في كِيان الكنيسة وحياتها أكثرَ من الجوانب القانونيّة والنظامية التي كانت مُهيمِنةً من قبل

– تركيز على المشاركة بين جميع أعضاء شعب الله، وعلى مختلف المُستويات، بين المؤمنين ورعاتهم، بين الكهنة وأسقفهم، بين الأساقفة والحبر الروماني، بدون التنكُّرِ للميزات القانونية والإيرارخيّة.

– تركيزٌ على الانفتاح والحِوار، حوارٍ مع العالم، مع سائر المسيحيّين، مع مؤمني كلّ الديانات، وخروجٌ من روح العزلة ونبذ الآخرين. دفاع الكنيسة لا يقوم بمقارعتها الآخرين، بل بأن تتجلى بوضوح كنور للأمم، وخادمةً للشعوب.

دورُ الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة في المجمع الفاتيكانيّ الثاني

رأى الشرقيّون الكاثوليكُ في المجمع، ليس فقط فرصةً سانحة لإعادة النظر في وضعهم، ضمنَ الشركةِ الكاثوليكية، بل أيضاً وبشكل أخصّ، مناسبةً مؤاتية لعرض التُراث الشرقيّ العريق، بغيةَ تجديد اللاهوت الكاثوليكيّ وحياة الكنيسة، بعودتها إلى الينابيع، ممّا يمهّد السبيلَ لإعادة الشَركة بين الكثلكة ومُجْملِ الشرقِ المسيحيّ.

إن الدور الذي رسمَه الشرقيّون لأنفسهم إبّانَ المجمعِ كان من ثَـمَّ:

– العملَ على تجديد الكنيسة الكاثوليكيّة من خلال الشَهادة لحياتِهم الكنسيّة والليتورجيّة وعرض لاهوتهم الخاص المرتكز على تعليم الآباء

– السعيَ للتقارب مع الكنائس الشرقيّة الأرثوذكسيّة، مع الحِرص على عدم توسيع الهُوّة التي تفصل بين العالمَينِ المسيحيَّين.

– حثُّ المجمع على الاعتراف بالمكانة الخاصّة التي يحتلّها أبناء الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة ضمنَ الشركةِ الكاثوليكيّة، وبنظامهم المستقلّ كصورة مُسبَّقة لما ستكون علاقاتُ الشرق بكنيسة رومة، إذا ما أعيدت الشركة الكاملة بينهما.

وانبرتِ الكنائس الشرقيّةُ بجدّ لتحقيق مَهامِّها، إنْ إبّانَ المرحلتَين التمهيديّةِ والتحضيريّة، وإن أثناء انعقاد المجمع. وبذلت جهداً جبّاراً يتعدّى إمكانيّاتها الضعيفة.

إن الفرق بين الدور الذي لعبته والتأثير الذي حقّقته الكنائسُ الشرقية الكاثوليكيّة في كلٍّ من المجمعَين الفاتيكانيّ الأوّلِ والثاني، يعودُ إلى حدٍّ بعيد إلى موقف الحبرَين، يوحنّا الثالث والعشرين وبولسَ السادس، المحبِّذِ والمشجّع، كما إلى انفتاح آباء المجمع الذي جعل من أقلّية المجمع الفاتيكانيّ الأوّل أكثريةَ المجمع الفاتيكانيّ الثاني، كما يعود إلى قوة وشجاعة شخصيّاتٍ مثل البطريرك الملكيّ مكسيموسَ الرابع الذي عرفَ ان يحتاط بمعاونين جديرين، ويستقطبَ حوله جميعَ أعضاء سينودسه. وكان الأحبارُ الملكيّون في اتّصال دائم أثناء المجمع مع ألمع اللاهوتيّين، ومجموعات الأساقفة الأكثر تأثيراً وانفتاحاً.

لم يعد الشرقيّون يمثّلون مجرّدَ تقاليدَ شعبيّةٍ غريبة، أو رواسبَ متأخّرةً للماضي: فهم حَمَلةُ رسالةٍ خاصّة، ولهم ما يقولونه للكنيسة جمعاء، رغم ضعفهم ونقائصهم. وإنّ صوتهم بوَجهِ الإجمال كان مسموعاً.

إن مداخلاتهم أثارت الانتباه خصوصاً في مجال الليتورجيّا، حيث دافعوا عن استعمال اللُّغات الحيّة ومشاركة الكهنة في القداس الواحد والمناولة تحت الشكلين، وفي مجال لاهوت الكنيسة أبرزوا طبيعةَ الكنيسة كشركة سرّيّة، وشدّدوا على دور المصفّ الأسقفيّ والطابع السينودسيّ في الكنيسة، وطالبوا بتخفيف المركزية في الكنيسة وإصلاح الدائرة الرومانيّة. وأبرزوا عمل الروح القدس في التدبير الخلاصيّ، ولا سيّما دورِه في سماع كلمة الله وإقامة الليتورجيّا والأسرار وبناء الكنيسة. ومراعاةً للكنائس الشرقيّة، ولا سيّما التي في الشرق العربيّ، نُقِلَ النصُّ الذي يتحدّثُ عن العلاقات بالديانة اليهودية، من القرار المتعلّق بالحركة المسكونيّة الذي يعنى أصلاً بوحدة الكنائس المسيحيّة، إلى مكانه الأنسب، إلى التصريح عن علاقات الكنيسة الكاثوليكية بالديانات غير المسيحيّة.

وفي المجال المسكونيّ عملَ الشرقيّون الكاثوليك كثيراً للانفتاح على الكنيسة الأرثوذكسيّة. وإن تأسيس أمانة السرّ لوحدة المسيحيّين مَدينٌ إلى حدٍّ كبير إلى اقتراحاتهم.

وأناطوا اهتمامهم أيضاً بكلّ المواضيع التي طُرحت في المجمع، بمصادر الوحي، والتربية المسيحية، والإلحاد، وأخلاقيّات الحياة الزوجيّة، والعلاقات بسائر الأديان. وقد

ألقوا خطاباتٍ في هذه المواضيع ، أو اكتفوا بتقديم عرائض خطيّة. وفي هذه المجالات كلّها حاول الكاثوليكُ الشرقيّون إسماعَ صوت تُراث الشرق ، ليرفدوا العقليّة الغربيّة بمزيد من التكامل والتوازن ، ممّا يخلُق في الكنيسة الكاثوليكيّة جوًّا يسهّل للأرثوذكس أن يعيشوا فيه ، فيجعل إعادة الشرِكة المفصومة ممكنةً.

إن الأرثوذكس اليونان رغم نفورهم من الكاثوليك الشرقيّين ، أقروا بالدور الذي لعبته الكنائسُ الشرقية الكاثوليكيّة في المجمع ، ولا سيّما كنيسةِ الروم الكاثوليك ، وهي كنيسةٌ مرتبطة بالتراث البيزنطيّ ، وتنعَمُ وحدَها بين الكنائس البيزنطيّة بالنظام البطريركيّ. ومن الدلائل على تغيير نظرة الأرثوذكس إلى الشرقيّين الكاثوليك ، بسبب مواقف هؤلاء في المجمع الفاتيكانيّ الثاني ، الاستقبالُ الحارّ الذي هيّأه قداسةُ البطريركِ أثيناغوراس للبطريرك مكسيموسَ الرابع في إسطنبول في حزيران ١٩٦٤ ، وقد قال البطريركُ المسكونيّ للبطريرك الملكيّ : «إنك تحدّثت باسمنا».

إن جميع الشؤون المرتبطة بحياة الكنيسة ، أثارت اهتمام الشرقيّين الكاثوليك في المجمع الفاتيكانيّ الثاني ؛ ولكن من البديهيّ أنهم كانوا مَعْنيّين بشكل خاصّ بكل ما سيعلن المجمع ويقرّر في شؤونهم.

القرارُ في الكنائس الشرقيّة الكاثوليكيّة

إن مشروع القرار المتعلّق بالكنائسِ الشرقيّة أعدّته لَجنةٌ كان الشرقيّون ممثّلين فيها بشكل خاصّ. وكان أحدُ أعضائها البارزين سيادةَ المطران ناوفيطوس إدلبي ، وقد أُجري على هذا المشروع ، بناءً على طلب اللجنة المركزية للمجمع ، عدّة تعديلات واختصارات. وعُرِض نصُّ مشروع القرار على آباء المجمع في نهاية الجلسة العامّة المئة والثانية في ١٥ تشرين الأول ١٩٦٤ ، واستغرق النقاشُ ثلاث جلسات عامّة ، وامتدّ حتى بدءِ الجلسة العامّة المئة والخامسة في ٢٠ تشرين الأول ١٩٦٤ فتحدّث فيها ثلاثةُ آباء ، قبل أن يُحالَ المشروعُ على التصويت.

ولم يقتصر النقاشُ على فَحوى القرار ، إذ كان البعض يرفضونه بجملته ، بل لا يرون ملائماً أن يصدر قرار خاصّ بشأن الكنائس الشرقيّة. وقد عارضَ القرارَ من ارتأَوا أنه

يشدّد أكثر ممّا ينبغي على امتيازات الشرق، ومن جهة أخرى مناصرو الحركة المسكونيّة المتحمّسون الذين كانوا يخشَون من امتعاض الكنائس الأرثوذكسيّة، لكون المجمع يشرّع بشؤون الشرق، ويجدّد اعترافه بالكنائس الشرقيّة التي تثير نفورهم. أمّا المدافعون عن القرار فرأوا أنه رغمَ ما فيه من نَقْص، فهو خيرُ ما يمكن حصولُ الإجماع حوله، وله بُعدٌ مسكونيّ هامٌّ، ويشكّل خطوة هامّة لإعطاء الشرق من جديد المكانةَ التي يستحقّها في إطار الكثلكة.

إن القرار في العديد من نقاطه، لم يأتِ بجديد. فهو يكرّر ما كان قد صرّح به باباواتُ العصر الحديث، بشأن كرامة الكنائس الشرقيّة، والمحافظة على طقوسها والضرورة المترتّبة على الغربيّين، ليثقّفوا في أمور الشرق. إلّا أن تأثير هذه النداءات كان ضئيلاً جدًا في مُجْمل الكنيسة الكاثوليكيّة بأغلبيّتها اللاتينيّة. أما في المجمع فمصَفُّ الأساقفة بجملته يتعهّد بجانب الحبر الرومانيّ.

وعلاوةً على ذلك يشكّل القرارُ خطوةً هامّة الى الأمام، على طريق إحياء التُراث الشرقيّ التليد. وهناك نقطتان لها نتائجُ جزيلة الأهميّة:

- المساواة في الحقوق والواجبات ضمنَ الكنيسة الكاثوليكيّة بين الشرقيّين واللاتين
- إحياءُ حقوقِ البطاركة القديمة كما كانت عليه قبل الشِقاق

يقول القرار:

«إن هذه الكنائس الخاصّة الشرقيّة منها والغربيّة... تنعمُ بكرامة متساوية، بحيث لا يجوز أن تتقدّم إحداها على الأخرى بسبب طقسها، إنما تنعَمُ جميعها بالحقوق ذاتِها، وعليها الواجبات ذاتُها، حتى في ما يتعلّق بواجب التبشير بالانجيل في العالم أجمع بقيادة الحبر الرومانيّ» (بند ٣)

«إن بطاركة الكنائس الشرقيّة يرئسون بطريركياتِهم المختصّة كآباء ورؤساء... يؤلّف البطاركةُ مع سينودساتهم المرجعَ الأوّلَ في كل أمور البطريركيّة، ولهم الحقُّ في إنشاء أبرشيّات جديدة، وتعيينِ أساقفة من طائفتهم في حدود الولاية البطريركية، مع الحِفاظِ على حقّ الحبر الرومانيّ الذي لا يتغيّر في التدخّل في بعض القضايا. لأجل هذا يقرّر هذا المجمعُ المقدس أن تُعادَ إليهم حقوقُهم وامتيازاتُهم وَفقاً لتقاليدَ قديمةٍ لكل كنيسة،

ولمقرّراتِ المجامع المسكونيّة. هذه الحقوقُ وهذه الامتيازات هي التي كانت قائمةً زمنَ الوحدة بين الشرق والغرب، ولو اقتضى الأمرُ أن تطابق نوعاً ما الظروف الراهنة» (بند ٩).

وهناك إصلاحاتٌ أقلُّ شأناً أجراها المجمعُ في نظام الأسرار (بند ١٢ – ١٨) والعبادة (١٩ – ٢٣) والعلاقاتِ مع الإخوة المنفصلين (بند ٢٤ – ٢٩) وأبرزُها الاعترافُ بصحّة الزواج المختلط المعقود بحضور خادم الكنيسة الأرثوذكسيّة، وتسهيلُ الاشتراك في القدسيّات مع الأرثوذكس.

ويقرّ المجمع بالدور المسكونيّ الذي تلعبه الكنائسُ الشرقيّة الكاثوليكيّة التي ليست عائقاً في سبيل الوحدة، بل من أقوى العاملين في حقلها، أللهمَّ إن تمسّكت بأمانة بتراثها الشرقيّ الأصيل (بند ٢٤)

وإثر النقاش الذي أُجري في الجمعية العامّة، أُدخل على نصّ القرار بعضُ التعديلات الطفيفة. وكان التصويتُ النهائيّ في ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٤ مؤيّداً للقرار إلى حدّ كبير. كان المؤيّدون ٢١١٠، والمعارضون ٣٩ فقط. وفي اليوم نفسِه أبرمَ القرارَ قداسةُ البابا بولسُ السادس ومجموعةُ الآباء.

بعد عشرين عاماً

عُقدت دورةٌ خارقةُ العادة لسينودس الأساقفة في رومة من ٢٤ تشرين الثاني الى ٨ كانون الأول ١٩٨٥، بمناسبة مرور عشرين عاماً على انتهاء أعمال المجمع الفاتيكانيّ الثاني. وغايتُها الاحتفاءُ بذكرى المجمع، وتقويمُ الثمار التي حقّقها، وإعطاء دفعٍ جديد لتطبيق مقرّراته. وجاء في التقرير العامّ حول نتائجِ المجمع:

١ – النِقاطُ الإيجابيّة:

- هناك شبهُ إجماع في تقبّل الإصلاح الليتورجيّ
- تركيزٌ أكبر على دور الكتاب المقدس
- تفهُّمٌ أعمق للكنيسة ولمشاركة العلمانيّين في الأعمال الكنسيّة

– إدراكٌ أعمق لعلاقة الكنيسة مع العالم... شهادةُ الكنيسة تجاه حقوق الإنسان؛ الحوارُ مع العلم والثقافة العصريّة.

– تحسُّنٌ في علاقات الأساقفة والكهنة، وتفهُّمٌ للحياة الرهبانيّة، وتنشيط التعاون المسكونيّ

– إدراكٌ أعمق لمسؤولية الأساقفة الجماعيّة في الكنيسة، ومفهومُ الكنيسة كشركة

٢ – النقاط السلبيّة:

– في مجال الليتورجيا كان هناك أحيانا تجديدٌ ارتجاليٌّ وسطحيٌّ، فنسيَ بعض الكهنة أنّ الخدمة الليتورجية هي صلاةُ الكنيسة، وليست مجرّدَ تعبير عن عواطف الذات الشخصيّة.

– والكتاب المقدس فُصل أحيانا عن تقليد الكنيسة وتعليمها الرسميّ

– كما حاول بعضهم وضعَ إسفينٍ بين الكنيسة السرّ والكنيسةِ المؤسَّسة، ثائرين على كل الأنظمة، ومستندين إلى مفهوم منحرف للكنيسة شعبِ الله

– وفي مجال علاقة الكنيسة والعالم، كان المجمع قد أعلن عن استقلاليّة أمور هذه الدنيا عن أمور الدين، فراح بعضُهم، ولا سيّما في البلاد المتقدّمة، يشيد بالعَلْمنة الكاملة التي تنفي البُعدَ القُدسيّ للإنسان، وتحولُ دون تأثير الإلهيّات على شؤون البشر.

وكان المجمع قد أعلن ضرورةَ الالتزام بالجهاد في سبيل العدالة والرقيّ، فراح بعضهم ولا سيّما في البلاد النامية، يتبعون في نضالهم الأساليبَ المنافية لروح الإنجيل.

وبعد التقرير العامّ، أوضح الأساقفةُ المشتركون في السينودس، كلٌّ بدوره، وُجهةَ نظر الدوائر المسؤولين عنها، أو البلاد التي يمثّلونها. وركّز رؤساء الكنائس الشرقيّة بشكل خاصّ على ضرورة الإسراع بصياغة الحقّ القانونيّ الشرقيّ، بحيث يراعى ارتباط أبناء الكنيسة الشرقيّة المغتربين بالكنيسة الأمّ؛ كما طالب أساقفة الهند الشرقيّون بأن توسّع صلاحيّاتهم لتشمل كل الهند، أُسوةً بالأساقفة اللاتين.

وفي اليوم الأخير من الاجتماعات، ألقى قداسة البابا يوحنا بولس الثاني خطاباً شاملاً

قوّمَ فيه أعمالَ السينودس، وأبرزُ الاقتراحاتِ الثلاثة التي وردت في تقرير السينودس النهائيّ:

– إنشاءُ كتاب تعليمٍ مسيحيّ رسميّ مستوحى من روح المجمع، ومرتكزٍ على الكتاب المقدس والليتورجيّا، يكون نموذجاً للكتب التعليميّة في مختلف الأقطار والكنائس المحليّة.

– توضيحُ دور المجالس الأسقفيّة وطبيعتها اللاهوتيّة وصلاحيّاتها.

– الإسراع في إنجاز دستور الحقّ القانونيّ للكنائس الشرقيّة، وفقَ تقاليدِ هذه الكنائس ومقرّرات المجمع الفاتيكانيّ الثاني.

الفصل الخامس والثلاثون

الحـــركَة المسْكونيَّة المعُـاصِرَة

مقدّمة

إن الحركة المسكونيّة روح جديدة نَشِطت في الكنيسة، لمعالجة الانقسامات التي تَفصِلُ بين جميع المؤمنين بالمسيح، بُغيةَ الوصولِ الى الوحدة التي أرادها المسيح.

في قسم أوّل سنرسُم لوحة عن مختلف الجماعات المسيحيّة الكائنة اليوم، وعن نظرتها لوحدة الكنيسة.

في قسم ثانٍ سنحاول أن نستجلي ما يميّز الحركة المسكونية عن المحاولات السابقة، للقضاء على انقسامات الكنيسة والمبادىء التي تسيّرها.

وفي قسم ثالث سنستعرض أهمَّ انجازات الحركة المسكونيّة في مجال مجلس الكنائس العالميّ، وفي مجالِ علاقات الكنيسة الكاثوليكيّة مع سائر الكنائس، ولا سيّمَا الشرقيّة.

أوّلاً: لوحةُ المجموعات المسيحيّة

١ – الكنيسة الكاثوليكيّة:

هي أكبر مجموعة مسيحيّة. وعددُ الكاثوليك، حسب الإحصاء الأخير، ٩٠٢ مليونًا. وهم أكثر من باقي المسيحيّين الذين يشكّلون ٨٢٧ مليونًا مجتمعين.

والكنيسة الكاثوليكيّة كُتلةٌ متماسكة منظّمة، تخضع لسلطة مركزيّة واحدة هي كرسيُّ رومة.

وهي تَضُمّ كنائسَ الغرب القديمة التي ظلّت أمينةً للكرسيّ الرومانيّ، والكنائسَ التي تأسست بفضلها في العالم الجديد وفي بلاد الرسالات (وتتبع كلُّها الطقس اللاتيني).

وفروعَ الكنائسِ الشرقيّة التي أقرّت بسلطة الحبر الرومانيّ العليا، وارتبطت بالعالم الكاثوليكيّ مع الاحتفاظ بشيء من الاستقلال الذاتيّ في مَجالِ التنظيم والليتورجيا، وهي موزّعة على عِدّة أُسَرٍ طقسيّة: **الأسرة البيزنطية** (الملكيون، الأوكرانيّون بمختلف فئاتهم، الرومانيّون، الإيطالوألبانيّون، وقلّةٌ في اليونان وبلغاريا)، **والأسرة الأرمنيّة**، **والأسرةِ السريانية**: (الموارنة والسُّريان والكلدان، والملَبار والمَلانكار في جنوبِ الهند)، **والأسرة الإسكندريّة** (الأقباط والأحباش).

٢ – الكنائسُ الأرثوذكسيّة الشرقيّة

أ – الكنائس الشرقيّة القديمة غيرُ الخلقيدونيّة:

– بطريركيّةُ الشرق الأشوريّة النسطوريّة. تقبل المجمع النيقاويّ الأوّل وترفض مجمع أفسس وكلّ ما يليه من المجامع.

– الكنائس التي تُقِرُّ بالمجامع الثلاثة الأولى: الكنيسة السُّريانية وكنيسةُ الهند المرتبطةُ بها. – الكنيسة الأرمنيّة. – الكنيسة القبطيّة والكنيسة الحبشيّة.

ب - **الكنائس البيزنطية التي تُقِرّ بالمجامع المسكونية السبعةِ الأولى**، وهي مجموعة كنائسَ يربطُها إيمانٌ واحد وتشريع واحد وليتورجية واحدة، ولكن ليس لها سلطةٌ مركزيّة واحدة، وإنْ كان للبطريرك القسطنطيني أوّليّةٌ شرَفيّة، وحقُّ المبادرةِ لدعوة السينودسِ الأرثوذكسيّ العام.

وهي تضمُّ البطريركيّاتِ الرسوليةَ الشرقيّةَ الأربعَ القديمة: القسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية وأورشليم؛ والبطريركياتِ المستحدَثَة: الروسيّةَ واليوغوسلافية والرومانية والبلغارية والجيورجية، وكنيستا قبرص واليونان؛ وكنائسَ تنعَمُ بإدارة ذاتيّة بدون استقلال كامل: فنلاندا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا وألبانيا؛ وجالياتٍ تابعةً للكنائس الأم في أميركا وأوربا الغربيّة وأستراليا وأفريقيا.

٣ - المجموعاتُ البروتستانتيّة:

تَضمّ عدّةَ مجموعات مسيحيّة مختلفة في العقيدة والنظام؛ إنما يربطُ بينها مواقفُ دينيةٌ وروحانية مشتركة، منبثقةٌ عن حركة الإصلاح في القرن السادسَ عشر، وهي تركّزُ على الكتاب المقدس كمصدر أوحد للايمان، وعلى عَجْزِ الإنسان المُطلَق تجاهَ الله.

١) **الكنائسُ الرسمية القديمة** التي نشأت مباشرةً عن حركة المُصْلحين:

أ - **المجموعة الأنكليكانيّة**: حافظت على بُنى الكنيسةِ الكاثوليكيّة كالأُسقفيّة والأسرار والليتورجية؛ إنما تأثّرت بعد هانري الثامن بالعقليّة البروتستانتيّة من جَراء كتب الصلاة التي أدخلها إدوارُ السادس. يتمتّع رئيسُ أساقفةِ كانتربري بأوّليّةٍ شرفيّة، وهناك أبرشيّاتٌ حتى خارج إنكلترا مرتبطةٌ به، وكنائسُ في مناطقَ أخرى مستقلّة. وتتقبّلُ الشركةُ الأنكليكانية في داخلها نزعاتٍ ثلاثاً: النزعةَ الكاثوليكيّة (الكنيسة العليا)، النزعةَ البروتستانيّة (الكنيسة السُفلى)، والنزعةَ الليبراليّة أو المتحرّرة.

ب - **المجموعةُ اللوثريّة**: وهي أقرب الكنائس البروتستانتيّة إلى الكثلكة (بعد الأنكليكان الذين لا يُعَدّون بروتستان بالمعنى الحصريّ). حافظ اللوثريّون على لقب الأسقف (وإن لم يعُد يتمتّع بالسلُطات نفسِها كخليفة الرسل) وعلى شكل بناء الكنيسة، إذ ما زال يتوسّطُها المذبح، وعلى عقيدة وجود المسيح الحقيقيّ في القربان المقدس.

واللوثريّون متأصّلون خاصة في ألمانيا والدول الإسكاندينافية.

(٥) إعترفت البطريركية القسطنطينية باستقلاليّة كنيسة جيورجيا وبلقب بطريرك لرئيسها في سينودس ٢٣ كانون الثاني ١٩٩٠

ج – **المجموعةُ الكَلفينيّة**: تتبع مبادىء كَلفَان في إصلاحه. ومن جهة التنظيم تنقسم إلى مَشْيَخيّة (حيث الرعايا ترتبط بسلطةٍ أعلى هي السينودس) وإلى جمهوريّة حيث كلُّ رعية قائمةٌ بذاتها. البروتستان العائشون في سوريا ولبنان من جَراء حركة المرسلين في القرن التاسعَ عشر، ينتمون بأغلبيتهم الساحقة الى هذه المجموعة (العرب مشيَخيّون، والأرمن جُمهوريّون).

٢) عن هذه الجماعات الأساسيّة تفرّعت **عدّةُ مذاهبَ** احتجاجاً على ارتباط هذه الكنائس بالدولة، أو نتيجةَ حركةٍ روحيّة تجدّدية. وتميّزت عن الجماعات الأمّ بالتنظيم أو بأسلوب الصلاة وأحياناً بالعقيدة. ونظراً لعدم وجود سلطةٍ تعليمية مسؤولة، ولحرية الفردِ حسب إلهام الروح في تأويل الكتاب، كان مجالٌ لتعدّد الفروع والمذاهب. (يؤسَّسُ مذهبٌ جديد كما تؤسَّسُ في الكنيسة الكاثوليكية رهبنةٌ أو أخويّة). أهمُّ هذه الجماعات المعمدانيّون والمثوذيّون وهناك أيضاً السبتيّون والعَنْصريّون وشِيَعٌ تفرّعت عنها لا تكاد تستحق لقبَ مسيحيّين كالمُورمُون وشُهود يَهْوه.

بين هذه المجموعات كلّها أين هي الكنيسة الواحدة الجامعة المقدسة الرسولية؟

إنّ البروتستانت بنوع الإجمال يقولون إنّ كنيسةَ المسيح حقيقةٌ غيرُ منظورة، ستتجسّم في آخر الأزمنة، وإنّ الجماعاتِ المسيحيّةَ هي مجرّدُ تجمّعٍ تعمّدَ أفراده في المسيح، كما يجتمع اثنان أو ثلاثةٌ للصلاة باسم المسيح ويكونُ هو في وسْطهم. ولكنّ الكنيسة ليست حقيقةً واقعةً كوسيلةِ خلاص توزّع كلامَ الله والنعمة. وفي نظر الأنكليكان كنيسةُ المسيح قائمةٌ في فروعٍ ثلاثة. وفي نظرة الأرثوذكس التقليديّة أنَّ الكنيسةَ الأرثوذكسية هي دونَ سواها كنيسةُ المسيح الواحدةُ الجامعةُ المقدّسة الرسولية، وأنّ الخلافاتِ التي فصلَت عنها سائرَ المسيحيّين لم تُبدّل من حقيقةِ وضعها. هذه النظرةُ بدأَت تتطوّر إثْرَ تجدّدِ العِلاقات مع الكنيسة الكاثوليكية. فقد جاء في رسالة البطريرك المسكونيّ ديمتريوس المرسَلةِ الى البابا بمناسبة عيد القديس بطرس، عام ١٩٨٤: «إننا ونحن نحتفل معاً بعيدِ كنيسة رومةَ المقدّسة، هذه التي تترأس بالمحبة، نرى أننا أكثرُ وعياً لكوننا رغمَ انقسامِنا الناجمِ عن أحكامٍ نجهلُها نحن وانتم، مبنيّين على أساسِ الرسل والأنبياء. ويسوعُ المسيح هو رأسُ الزاوية».

وفي نظر الكاثوليك أنّ كنيسة المسيح الواحدة تتجسم بملءِ أبعادِها وفعاليّتِها في الكنيسة الكاثوليكيّة. أمّا سائرُ المسيحيّين فنهم من ينْعمون حقيقةً بصفةِ كنائس، إذ حافظوا على الخلافة الرسوليّة وهم يُعطون الأسرار بشكل صحيح، وإن كان ينقصهم بعض ما يؤهّلهم ليكونوا في شركةٍ تامّة مع كنيسة المسيح كما أرادها (الكنائس الأرثوذكسيّة الشرقية)، ومنهم من هم مجرّدُ جماعاتٍ مسيحيّة تنعَمُ بكثيرٍ من الخيرات التي سلّمها المسيحُ لكنيسته (كالمعمودية ووديعةِ الإيمان القديم والكتاب المقدس)، إنما ينقصُها المقوِّماتُ الأساسيةُ لبُنْيةِ الكنيسة.

هذا الوضعُ مُنافٍ لإرادة المسيح الذي أراد أن يكون جميعُ المؤمنين به واحداً، ليس فقط في علاقتهم الحميمة مع الله، ولكن أمامَ الملإِ في شهادتهم المشتركة أمام العالم.

وهو ناجمٌ عن ضعف العقل البشريّ إزاء تفهّم سرِّ المسيح وعجزِ اللسان عن التعبير عن مِلءِ غِناه، كما هو ناجم عن عواملَ حضاريةٍ وسياسيّة، ولا سيّما عن فتور المحبة وعن الخطيئة.

وهو يُضعفُ من فعّاليّةِ الكنيسة في نفوس أبنائها، وفي دعوة الذين في الخارج الى مِلءِ حقيقة المسيح ونعمةِ خلاصه. ولذا لا يمكن أن نقبلَ هذه الانقسامات كواقع لا مَناصَ منه. ويجب السعيُ لتقليصِ الانقسامات وتضييقِ شُقّةِ الخِلاف والعودةِ الى الوحدة التي أرادها المسيح.

ثانياً: الحركةُ المسكونيّة، ميزاتُها ومبادئُها

مُعضِلةُ الوَحدة المسيحية ليست بنتَ اليوم، وقد اتُّبِعَت في الماضي أساليبُ مختلفةٌ لمعالجتها:

- **أسلوبُ القَمع والعُنف** للقضاء على الخارجين عن المعتقَد الرسميّ، أو حرمانُهم من الحقوق المدنيّة والمساواة. هذا الاسلوب عمّق الخلافات، وجعل المواقف تزداد صلابة.

- **أسلوبُ الجدَل والمُهاترة**. هذا الأسلوب ظلّ عقيمًا لأن كل فريق كان يبغي أن يجُرّ الى نِظرته الفريقَ الآخر، بدون أن يتفهّمَ موقفَه وما يبغي حقيقةً التعبيرَ عنه. وكانت البراهينُ المقدّمة غيرَ مُقنعة لأنها تنطلقُ من نِقاط أساسيّةٍ غيرِ متّفقٍ عليها، ولا تُراعي المضمونَ الحقيقيَّ لتعابير الفريق الآخر ومفاهيمه.

- **أسلوبُ الحملات التبشيريّة** بين أفراد الشعب، لحملهم على الاهتداءات الفردية. هذا الاسلوب قد أعطى بعض الثمار الجزئية قبل تصلّبِ المواقف. في القرن السادس توصل البطريركُ الأنطاكيّ غريغوريوس إلى ارجاع الكثيرِ من القبائل العربيّة بالوعظ والإقناع الى الكنيسة الملكيّة، كما توصّل القديس فرانسوا دي سال في منطقة السافوا واليسوعيّون في المجَر من إرجاع الكثير من البروتستان الى حِضن الكنيسة الكاثوليكيّة. هذا الأسلوب قد يقلّص رُقعة الانقسامات في بعض المَناطق، أو بالعكس يزيدها بانتقال أفرادٍ من كنيسةٍ الى أخرى؛ ولكن لا يحُلّ مشكلة الانقسام بل يعمّق الهوّةَ بين الكنائس.

هناك **عقليّةٌ جديدة وروحُ جديدة** تسيِّرُ الكنائس في علاقاتها وسَعيها الى الوحدة، بعيدةٌ عن روح الجدَل العقيم والتداخلات السياسيّة، وقد استُنبِطَت كلمةٌ جديدة للتعبير عن هذه الظاهرة الثقافية والروحيّة الجديدة هي «**الحركةُ المسكونيّة**». ما هي جذورُ هذه الحركة وميزاتها وروحها؟.

هناك عملُ الروح القدس، روحُ العنصرةِ الذي يتغلّب على بلبلة الألسُن والشقاق. والروحُ الذي هو رابطةُ الوحدةِ بين الآب والابن، هو الذي يقودُنا الى الوحدة. إن

وحدةَ الكنيسة سرٌّ من أسرار النعمة ، والحركة المسكونيّة المعاصرة من ثمار أعمال الروح القدس. إلا أنّ عمل الروح هذا يرافق تطوّراً تاريخيًّا وحضاريًّا وثقافيًّا يمهِّدُ له ويؤهّل الإنسان لتقبّله ، إذ إن النعمةَ لا تتجاهل الطبيعة ، فهناك انفصالُ الكنيسة عن الدولة وتحرّرُها من العوامل السياسيّة والقوميّة ، وتقدُّمُ علوم الكتاب المقدس والآباء وتاريخُ الكنيسة ، وهناك الانفتاحُ العالميّ الذي يميّز إنسان القرن العشرين ، وتلاقي الثقافات واحترامُ الشخص الانسانيّ وحريتُه واكتشافُ البُعد النِسْبيّ والتاريخيّ للقيم الإنسانية ، ولا سيّما في أساليب التعبير وفي الممارسات. ومن البديهيّ أنّ الروح المسكونيّة نشِطت أكثر في المناطق التي تأثّرت أكثر بهذه العوامل ، وهي شِبهُ مُعْدَمَة في المناطق التي ظلّت عقليتُها ملتصقةً بالقرون الغابرة.

إن الموقف المسكونيّ يعتمد نِظرةً جديدةً الى الإخوة المنفصلين مَبنيّة على الاعتبار والتفهّم ، وتركّز على ما لديهم من قيم إيجابية تجمعُنا بهم. إنه ينفي التعصّب الذي لا يرى في الغير إلا الأخطاء ، كما ينفي عدمَ المبالاة والنسبيّة العقائدية التي تعتبر أن جميع المذاهب تتساوى. فالروح المسكونيةُ تقتضي الأمانةَ التامّة لمبادىء الكنيسة ، ولا تكتفي بالقاسَمِ المشترك ، بل تبغي الوصول الى ملء الحقيقة. إنما الأمانةُ هي أيضاً انفتاحٌ على الآخرين ؛ فالحقيقةُ والخير ليسا كلاهما من جانب ، والضلالُ والكبرياءُ من الجانب الآخر. يجب أن نُقرّ بما فينا من أخطاء ، وأحياناً من ضعف في إبراز الحقيقة الإنجيلية ، وما قد يظهر بأكثر جلاءٍ عند الآخرين. فالوحدةُ لن تكون مَكسِباً فقط للآخرين ، بل لنا جميعاً ، ولذا فالعملُ المسكونيّ يتفاعل بين جماعة وجماعة ، وهو على مستوى الكنائس لا الأفراد.

فالميزةُ الثانية للحركة المسكونيّة ، علاوةً على إعادة النظر تجاه الآخرين ، هي في نظرها الى معضلة الانقسام بجملتها. إن الاهتداءات الفردية ، إن كانت عفويّة وعن قناعة ، لا تتعارض مع الحركة المسكونية ، وإن كانت ليست من أهدافها ، ولا تسعى إليها بشتّى الطرق. فالمطلوب ليس جرَّ الآخرين الى تغيير مذهبهم ، بل التقاربُ الروحيّ واللاهوتي بين مختلفِ المذاهب ، بُغيةَ الوصول الى مِلْء الوحدة والكمال الإنجيليّ.

هذا التقاربُ يفترض أولاً تهيئةَ الجوّ بإزالة عوامل الانقسام غيرِ اللاهوتيّة ، وكلّ ما تراكم عَبْرَ الأجيال من ريبة وانعزال وحَزازات ومنافسات وعَداوات ، من جراء الأحداث الماضية المؤلمة. ثم يتطلب منّا أن نزيل من الكنيسة ما كان مَدعاةً للشِقاق ،

بتجديد أنظمتها ولاهوتها والتقوى الشعبيّة، فنتمكنَ بعد ذلك من إيجاد تعبير لاهوتيّ مشترك، انطلاقاً من الحقائق التي نتمسّك بها كلُّنا معاً، بُغيةَ السيرِ كلُّنا نحو نموٍّ أكبرَ في الحقائق المشتركة، حتى الوصولِ إلى الاتفاق الكامل.

هذه المهمّةُ المسكونيّة مَنوطةٌ بجميع أبناء الكنيسة، فالمؤمنون العاديّون لهم دَورُهم كما اللاهوتيّون المختصّون والرؤساءُ الكنسيّون المسؤولون. وهي تتجسّم في علاقات الحياة اليوميّة والعمل المشترك في الحقول الاجتماعيّة والرعائيّة، وشهادةِ الحياة المطابقة لمتطلّبات الإنجيل، والمتوازِنة روحيًّا، وتتجسًّم في الصلاة، ولاَ سيّمَا الصلاةِ المشتركة والأبحاثِ العلميّة في المجالات التاريخيّة واللاهوتيّة، والحوارِ اللاهوتيّ بالمعنى الحصريّ على مستوى الخبراء، ثمّ على المستوى الرسميّ بين ممثّلي الكنائس.

إن المجمع الفاتيكانيّ الثاني الذي عُقدَ بغيةَ تجديدِ الكنيسة وتنشيط المساعي الوَحْدَوية، أصدرَ بتاريخ ١٩٦٤/١١/٢١ مرسوماً خاصّاً في الحركة المسكونيّة يوضح المبادىء الكاثوليكيّة للعمل المسكونيّ. وهو إذ يدعو الى التعارف المتبادَل والعمل المشترك والصلاة، يقرُّ بما يترتّب على الكنيسة الكاثوليكية، رغمَ كونها كنيسةَ المسيح الحقيقية، من تجدّد في حياتها الداخلية وفي لاهوتها في سبيل تقارُب الإخوة المنفصلين وإعادة الوحدة.

ثالثاً: أهمُّ إنجازاتِ الحركة المسكونيّةِ المُعاصرة

من ميزات الحركة المسكونيّة المعاصرة أنها لم تقتصر على جماعةٍ مسيحيّةٍ واحدة، بل شملت جميعَ الفئاتِ المسيحية إلا بعضَ الفئاتِ الصغيرة المتطرّفة. وقد نشِطت أولاً خارجَ الكنيسة الكاثوليكيّة بين الجماعاتِ البروتستانتية التي يعودُ لها الفضلُ في تأسيسِ مجلسِ الكنائسِ العالميّ.

أ - مجلسُ الكنائس العالميّ

تكوّن مَجلسُ الكنائس العالميُّ بالتئام ثلاثِ حركات نشأت بشكل مستقلّ بين الجماعات البروتستانية في مَطلع القرن العشرين، وهي المجلسُ الدُوَليّ للرسالات، وحركةُ المسيحيّةِ العمليّة، وحركة الايمانِ والنظام. وكان انطلاقُها مؤتمرَ إدِمْبور (سكوتلاندا) عام ١٩١٠، حيث اجتمع لأول مرة مندوبون عن الجمعيّات الإرساليّة البروتستانتية المختلفة. وتبيّنَت للمؤتمِرين آفةُ الانقسامات على العمل التبشيريّ. فتقرّر إنشاءُ مجلس دائم للرسالات. كما صمّم أحدُ المشتركين، الأسقفُ الأنكليكانيّ برانت (من الولايات المتحدة) الذي وعَى أهميّةَ المسائل العقائدية، إنشاء حركةِ «الإيمان والنظام» للتقارب العقائديّ والتنظيمي بين سائرِ الفئات البروتستانتية.

وفي عام ١٩٢٥ عُقدَ في استكهولم (السُويد) المؤتمرُ الأول لحركة «المسيحية العملية» بهمّة أسقف أوبسالا (السويد)، وبرنامجُ الحركة هو التعاونُ في شتى المجالات العملية الأخلاقيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة. وفي عام ١٩٢٧ عُقد في لوزان (سويسرا) المؤتمرُ الاول لحركة الإيمان والنظام ذاتِ البرنامج العقائديّ؛ وفي عام ١٩٢٨ عُقد في القدس المؤتمرُ الأول لمجلس الرسالات العالميّ (الذي كان قد تأسّس عام ١٩٢١)؛ وفي عام ١٩٣٧ عُقد في أوكسفورد (انكلترا) المؤتمرُ الثاني لحركة المسيحيّة العمليّة؛ وفي إدمبور (سكوتلاندا) المؤتمرُ الثاني لحركة الإيمان والنظام. وكان تزامُنُ اجتماع المؤتمرين مناسبةً لإنشاء لَجنة تمهيدية لدَمْج الحركتين في ما يُسمَّى مجلسَ الكنائس العالمي. كما قرّر مجلسُ الرسالات الدُوَليّ في العام التالي إقامةَ لجنة ارتباط مع مجلس الكنائس الناشىء. ثم كانت

الحربُ العالميّةُ الثانية. وبعد انتهاء الحرب عُقدت عِدّةُ اجتماعات تمهيدية، وكان عامُ ١٩٤٨ المولدَ الرسميّ لمجلس الكنائس العالمي إذ عُقد مؤتمرُه العامّ الأول في أمستردام (هولندا). وكان قد انضمّ الى الكنائس البروتستانتية العديدُ من الكنائس الأرثوذكسيّة.

ليس مجلس الكنائس سلطةً عليا تؤلّفُ بين أعضائها، بل هي حسبَ تحديدِه الرسميّ «رابطة أخويّة لكنائس تعترف بالربّ يسوع إلهاً ومخلّصاً وَفْقَ ما جاء في الكتب، وتسعى للاستجابة معاً لدعوتها المشتركة لمجد الإله الأوحد، الآب والابن والروح القدس». هناك قاعدةٌ إيمانية مشتركة هي الحدّ الأدنى المطلوب من الأعضاء المنتسبين الى المجلس، وهناك برنامجُ عملٍ يتابع مَهامَّ الحركات الثلاث التي نشأ عنها. فهو ينشّطُ التعاون بين الكنائس، ويساعدها على تحقيق رسالتها التبشيريّة والاجتماعية في العالم، كما يساعدها على دراسة الأمور العقائدية معاً، وعلى مناقشة متطلّبات الوحدة المسيحيّة.

إن المؤتمر العامّ لمجلس الكنائس الذي يضمُّ ممثّلي كلّ الكنائس الأعضاء، هو أهمُّ سلطة في المجلس، ويلتئم كلَّ ستة أو سبعة أعوام. وقد عُقد حتى الآنَ سبعة مؤتمرات عامّة:

الأول في أمستردام (هولندا) عام ١٩٤٨ ودار موضوعُه حول «خَلَل الانسان وخُطّة الله».

الثاني في أفانستون (الولايات المتحدة) عام ١٩٥٤، وموضوعُه «المسيح رجاءُ العالم الأوحد».

الثالثُ في نيودلهي (الهند) عام ١٩٦١ وموضوعُه «المسيح يسوع نور العالم».

الرابع في أوبسالا (السويد) عام ١٩٦٨ وموضوعُه «ها إني سأجعل كلّ شيء جديداً».

الخامس في نَيروبي (كينيا) عام ١٩٧٥ وموضوعُه «المسيح يسوع يحرّر ويجمع»

السادس في فانكوفر (كندا) عام ١٩٨٣ وموضوعُه «المسيح حياةُ العالم».

السابع في كانبرا (أوستراليا) عام ١٩٩١ وموضوعه «تعال أيّها الروح القدس وجدّد الخليقة كلّها».

وينتخبُ المؤتمرُ العامّ سبعةَ رؤساء، ولَجنةً مركزيةً مؤلّفة مِن مئة عضو. وتجتمع اللجنةُ المركزية مرةً في السنة، وهي تنتخب من بين أعضائها لجنةً تنفيذية تُشرف على

الأعمال. وللمجلس أَماناتٌ دائمة مركزُها جنيف. وفيها الأمانةُ العامّة، وأقسامُ الدراسات، والتربيةُ والمعوناتُ الاجتماعية والتبشيرُ والعلاقاتُ الدُوَليّة ودوائرُ الماليّة والإعلام.

ويضُمّ المجلس حالياً ٣٠٠ كنيسة موزّعة على ١٠٥ أقطار، أي معظمَ الكنائس البروتستانتية والأرثوذكسية، وهو يمثل زُهاء ٤٠٠ مليون مسيحيّ. الكنيسة الكاثوليكية ليست عضواً في المجلس، إنما يتعاون لاهوتيّوها بشكل رسميّ مع لَجنة الإيمان والنظام، ويشتركون مع اللاهوتيّين البروتستان والأرثوذكس في الأبحاث. وإن ثمرة هذه الجهود كان ما عُرف بوثيقة ليما (البيرو) لعام ١٩٨٢، حول المعمودية والإفخارستيّا والخدمة الرعوية. وقد حاز هذا النصُّ موافقةَ كلّ اللاهوتيّين البروتستانت والأورثوذكس والكاثوليك الأعضاء، وهو يدور حول مواضيعَ شائكةٍ كانت تَقسِم مختلف المسيحيين. ويُعدّ هذا النصّ نصراً للحركة المسكونية، وتتويجاً لجهود بُذلت خِلالَ عشرين عاماً.

وفي ١٢ حزيران من عام ١٩٨٤ زار قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني، أثناءَ رحلته الى سويسرا، مقرَّ مجلس الكنائس العالميّ، ودار حوارٌ صريح بينه وبين الأمين العامّ للمجلس، وقال قداستُه في خطابه: «نحن الآنَ في زمن العنصرة، الروحُ القدس دعا الجميعَ إلى الوحدة. وجودي بينكم دلالةٌ على رغبة الوحدة. الكنيسةُ الكاثوليكية ملتزمة بالعمل الوحدويّ، وهي تشعر أنها تحملُ رسالةَ الشهادة للإيمان غيرِ المتزعزع، وهي تتزعّم الكنيسة التي خضّبها دمُ الرسولَين بطرسَ وبولس. الشرِكةُ مع كنيسة رومة ضرورية، هذه قناعتُنا، وأنا أعلم أن هذا يشكّل صعوبة لأغلبيّتكم. يجب أن نتباحثَ في ذلك بصراحة وبمودّة. وإذا كانت الحركةُ المسكونية يقودُها الروح، فستوصّل الى ذلك. بين الكنيسةِ الكاثوليكية والكنائسِ أعضاءِ المجلس، تاريخٌ طويل تَشوبُه أحداثٌ مؤلمة ومنازعاتٌ صدّعت الوحدة. والآن أخذنا نكتشف من جديد ما لا يزال يجمعنا: المعمودية – كلام الله – تفهّم دور الروح القدس. هذا الاكتشاف يجعلنا نتحسّس أبعاداً جديدة من حياتنا الكنسيّة. الروح ينبوع حرية يُتيحُ التجدّد في الأمانة، لما تسلّمنا من الأجيال السالفة، ويبتكر سُبلاً جديدة في سيرنا نحو الوحدة، ضمن الأمانة للحقيقة، واحترامِ غِنى التنوّعِ في القيَمِ المسيحية الحقيقية المتأصّلة في التُراث المشترك».

ب – نشاطُ الكنيسة الكاثوليكيّة المسكونيّ

بعد الحرب العالمية الأولى نشأت بين الكاثوليك عدةُ مبادراتٍ فرديّة في سبيل تلاقي الإخوة المسيحيّين. فكانت محادثاتُ ملين (بلجيكا) بين الأنكليكان والكردينال مرسيه، ونشاطُ الأب كوتوريه في ليون الذي نظّمَ أسبوع الصلاة لوحدة المسيحيّين على أُسس جديدة، ومراكزُ شوفوتون (بلجيكا) وأستينا (باريس) وغيرُها في النمسا وسويسرا وألمانيا التي دأبت في دراسةِ روحانيّةِ الكنيسة الشرقية ولاهوتها.

وسمح البابا بيوس الثاني عشر عام ١٩٤٩ بالمحادثات اللاهوتية بين الكاثوليكِ وغيرِ الكاثوليك بشيء من التحفّظ.

إن انفتاح الكنيسة الكاثوليكية الرسميّ على الحركة المسكونية نشِطَ خصوصاً مع المثلّث الرحمات البابا يوحنا الثالث والعشرين. فالكنيسة لم تعُد تكتفي بدعوة الإخوة المنفصلين الى الرجوع اليها، بل سعت إليهم بروح جديدة من التفاهم والحوار. والمجمع المسكوني الذي نادى به البابا يوحنا في ختام أسبوع الصلاة لوحدة المسيحيّين في مطلع حبريّته (١٩٥٩/١/٢٥) كان هدفُه الرئيسي السعيَ لتجدّد الكنيسة الكاثوليكية بُغيةَ التقاربِ مع سائر المسيحيّين. وقد أُنشِئت أمانةٌ خاصّة لاتحاد المسيحيين، كانت في بادىء الأمر لجنةً من لجان المجمع التحضيرية، ثم أصبحت جهازاً دائماً في الفاتيكان مسؤولاً عن العلاقات مع المسيحيين غيرِ الكاثوليك، وعن تنشيط الحوار المسكونيّ. ودُعيت مختلفُ الكنائس غيرِ الكاثوليكية لإرسال مراقبين الى المجمع الفاتيكانيّ الثاني. ولبّت معظمُها الدعوة. وأُحيط المراقبون بكثيرٍ من الاهتمام والتكريم. وكان لحضورهم تأثير كبير، إذ أَطلعوا كنائسهم على مواقفِ الكاثوليك الحقيقيّة فأزالوا الكثير من الالتباسات، كما أنهم ساعدوا آباءَ المجمع على اتخاذ مواقفَ أكثرَ توازناً وأكثرَ انسجاماً مع سائر المسيحيّين.

وبدأ التعاونُ الحقيقيُّ بُعَيدَ المجمع مع مجلس الكنائس العالميّ في المجالات العقائدية والاجتماعية، كما بدأ الحوارُ اللاهوتيّ مع عدة كنائس بروتستانية، وأخذ يعطي نتائجَ ملموسة. ونتوقّف بشكل خاصّ حول علاقاتِ الكنيسة الكاثوليكيّة المتجدّدة بالكنائس الأرثوذكسيّة.

بدأ ما دُعي بحوار المحبّة بالمراسلات الوُدّية بين البابا يوحنا الثالث والعشرين

والبطريرك المسكونيّ أثيناغوراس. وتابعه البابا بولسُ السادس. وكان لقاؤه التاريخيّ مع أثيناغوراس عند قبر المسيح في مطلع عام ١٩٦٤. ثم تمَّ في ٧ كانون الأول ١٩٦٥ ليلةَ ارفضاض المجمع الفاتيكانيّ، رفعُ الحُرم المتبادَل عام ١٠٥٤ بين الكنيستين الرومانيةِ والقسطنطينيّة، وجرت الحفلة في آن واحد في كنيسة القديس بطرس في رومة وفي الفنار في إسطنبول. وفي عام ١٩٦٧ توجَّه البابا بولسُ السادس لزيارة البطريرك أثيناغوراس في مقرِّه في إسطنبول (٢٥ - ٢٦ تموز). وفي العام نفسِه ردّ له البطريركُ أثيناغوراس الزيارةَ في الفاتيكان (٢٦ - ٢٨ تشرين الاول). وجُمعت المراسلاتُ والخطبُ التي تُبودِلت بهذه المناسبات في كتاب سُمّي «كتاب المحبة». وتبعَ تحسينَ العلاقات على مستوى القِمّة تقاربٌ ملموس بين الكاثوليك والأرثوذكس على مختلف المستوَيات وفي كلّ المناطق. ومن بوادر تحسين العلاقات وإعادة الاعتبار والثقة للكنائس الشرقيّة إرجاعُ عدّةِ ذخائرَ ثمينةٍ من رومة وإيطاليا الى البلاد الشرقية، حيث كانت أصلاً (رُفاة القديس مرقس الرسول، رأس القديس أندراوس، رفاة القديس تيطس الرسول والقديس سابا المتقدس). ولم تقتصر العلاقات على الكنائس البيزنطية، فالكنائس الشرقيّة القديمة هي أيضاً كانت موضوعَ اهتمام. وقد زار كاثوليكوسُ أنطلياس الأرمنيّ خورين قداسةَ البابا بولس السادس عام ١٩٦٧، وتبعه كاثوليكوسُ الأرمن الأعلى فاسكين عام ١٩٧٠، ثم كانت زيارةُ البطريرك السُرياني مار أغناطيوس يعقوب الثالث عام ١٩٧١، والبطريرك شنودا القبطيّ عام ١٩٧٣، وكان هذا أوّل تلاقٍ رسميّ منذ قرون.

وفي عام ١٩٧٩ توجّه قداسةُ البابا يوحنا بولس الثاني إلى إسطنبول لزيارة البطريركِ ديمتريوسَ الأول، خليفةِ أثيناغوراس، ليشترك بأعياد القديس أندراوس شفيعِ الكنيسة القسطنطينيّة. وتقرّر أثناء هذه الزيارة بدءُ الحوار اللاهوتيّ الرسميّ بين الكنيسة الكاثوليكيّة والكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية، فعيَّنت كلٌّ من الكنيستين ثلاثين مندوباً للقيام بهذا الحوار. عَقدت اللَجنةُ المشتركة اجتماعها الأوّل التمهيديّ في جزيرتَي بطمسَ ورودس عام ١٩٨٠، ووضعت أُسُسَ عملها ومناهجها وبرنامج أبحاثها. كما أُنشئت عدّة لجان تحضيريّة. وعقَدت اللجنة المشتركة اجتماعها الثاني في ميونخ (المانيا) ١٩٨٢، فأصدرت أوّلَ نصّ لاهوتيّ مشترك حول «سر الكنيسة والإفخارستيا على ضوء سرّ

الثالوث الاقدس». وفي عام ١٩٨٤ عقَدت اللجنة المشتركة اجتماعَها الثالث في جزيرة كريت، ولم تتمكّن من إنهاء برنامج عملها حول أسرار الكنيسة.

وفي عام ١٩٨٦ عقدت لجنةُ الحوار المشتركةُ اجتماعها الرابع في مدينة باري في إيطاليا، وتغيّب عن الاجتماع وفودُ بعض الكنائس الأرثوذكسيّة. تُوبع خلال هذا اللقاء العملُ الذي بوشرَ في كريت عام ١٩٨٤، حول موضوع الإيمان والأسرار ووحدة الكنيسة. وعلاوةً على ذلك، ناقشت اللجنةُ طويلاً موضوعَ سرِّ الكهنوت في نظام الكنيسة الأسراريّ.

توبعت أعمال الاجتماع الرابع في باري (حزيران ١٩٨٧). وصدر في نهاية الأعمال النص الثاني المشترك بعنوان «**الإيمان والأسرار ووحدة الكنيسة**». وعُقد الاجتماع الخامس في فنلندا (حزيران ١٩٨٨). ونُشر في نهاية الأعمال النصّ المشترك الثالث، وعنوانه «**سرّ الكهنوت في نظام الكنيسة الأسراريّ**»، ولا سيَّمَا أهمية الخلافة الرسوليّة في تقديس شعب الله ووحدته.

وقال قداسة البابا يوحنا بولس الثاني أمام وفد كنيسة القسطنطينية الرسميّ الذي اشترك في احتفالات أعياد القديسين بطرسَ وبولس في رومة عام ١٩٨٦: «إن الحوار اللاّهوتيّ يقتضي دوماً تضحياتٍ حقيقية. التحاورُ يَعني أن نأخذ بعين الاعتبار الآخر بوضعه المتشابك، اللاهوتيّ، الرعائيّ، التاريخيّ الثقافيّ والسيكولوجيّ. وهذا يعني أنَّ هناك احتمالاً واقعيًّا للعثور على صعوبات تعرقل أحيانا مسيرة نريدها أكثر سرعةً وحرية. إلّا أننا نريد أن نسير حتى النهاية إلى مذبح المشاركة... ان شفاء الجرح الذي سبّبه انفصال الشرق والغرب للجماعة المسيحيّة سيعود بالفائدة، ليس فقط على الكاثوليك والأرثوذكس، ولكن على جماعة المسيحيّين بأسرها، وسيساهم مساهمةً كبرى في إعلان إنجيل المسيح للعالم. الوحدةُ خيرٌ للجميع، ولا تحمل أيّ تهديد لأحد. الوَحدةُ ليست امتصاص جماعة لأخرى، بل شركةٌ كاملة في الإيمان ضمنَ احترامِ تنوّع التقاليد، بمقدار ما هي تعبيرٌ عن الإيمان الواحد وتجسّدِ الانجيل الواحد ضمنَ مختلف الثقافات».

المـــراجــع

الأب أغناطيوس ديك : الشرق المسيحي

الأب أغناطيوس ديك : الروم الملكيون، الهوية والرسالة (ترجمة المطران حبيب باشا)

أسد رستم : كنيسة أنطاكية العظمى (٣ مجلدات)

المطران يوسف الدبس : تاريخ سوريا (٨ مجلدات)

الفيكونت فيليب دي طرازي : السلاسل التاريخية في أساقفة الأبرشيات السريانية

المطران افرام نقاشه : عناية الرحمان في هداية السريان

عثمان الترك : صفحات من تاريخ الأمة الأرمنية

الخوري قسطنطين باشا المخلصي : تاريخ طائفة الروم الملكية والرهبانية المخلصية (جزءان)

الأب يوسف شماس المخلصي : خلاصة تاريخ الكنيسة الملكية (٣ اجزاء)

مجلّة «المسرّة» : الذكرى المئوية الأولى لوفاة السعيد الذكر مكسيموس الثالث مظلوم

مجلّة «المسرّة» : الذكرى المئوية الثانية عشرة لوفاة القديس يوحنا الدمشقي

حبيب زيات : الروم الملكيون في الاسلام

الاب فرديناند توتل : وثائق تاريخية عن حلب

«المشرق» و «المسرة»

Fliche et Martin : Histoire de l'Eglise

Henri Musset : Histoire de christianisme spécialement en Orient (3 vol.)

A. Rabbat : Documents inédits pour servir à l'histoire du christianisme en Orient.

C. Karalevsky : Histoire des patriarcats melkites

R. Devreesse : Le patriarcat d'Antioche depuis la paix de l'Eglise jusqu'à la conquête arabe.

J. Hajjar : Les Chrétiens uniates du Proche-Orient

J. Hajjar : Le patriarche Maximos III Mazloum

J. Hajjar : L'apostolat des missionnaires latins dans le Proche-Orient selon les directives romaines.

Y. Congar : Neuf cents après, notes sur le «schisme» oriental.

Janin : Les Eglises orientales et les rites orientaux

Duchesne : Histoire ancienne de l'Eglise

J. Quasten : Initiation aux Pères de l'Eglise

Héfélè Leclercq : Histoire des conciles

Mgr. P. Dib : Histoire de l'Eglise Maronite

M. Terzian : Le patriarcat de Cilicie et les Arméniens Catholiques

R. Aubert : Le Saint-Siège et l'union des Eglises

L. Bréhier : Les croisades

N. Edelby et I. Dick: Les Eglises Orientales Catholiques

L'Eglise Grecque Melkite au Concile

Dictionnaire de Théologie Catholique

Dictionnaire d'histoire et de géographie ecclésiastiques

Encyclopédie de l'Islam

Echos d'Orient, Revue de l'Orient chrétien, Proche-Orient chrétien...

الفهـــرس

العصر الثاني

العصر الثالث

العصر الرابع

الكنيسة منذ غزو الفرنجة (الحملات الصليبية) حتى الفتح العثماني من آخر القرن الحادي عشر حتى مطلع القرن السادس عشر ١١٠٠-١٥١٦ ٢٠٧

العصر الخامس

الكنيسة منذ الفتح العثماني والاصلاح حتى أيامنا هذه ١٥١٦-١٩٩١ ٢٥٣

المطبعة البولسية
جونيه - لبنان